

الثورة .. والحرية

نضال شعب مصر

١٧٩٨- ١٩٥٦

تأليف: محمد عبد الرحمن حسين

نضال شعب مصـــر

١٧٩٨ ـ ١٩٥٦



الثورة .. والحرية (١٣)

نضال شعب مصر

١٧٩٨ - ١٩٥٦

المستشار

محمد عبد الرحمن حسين



الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

أ. د. محمد صابر عرب

حسين، محمد عبدالرحمن.

نضال شعب مصر: ١٧٩٨ - ١٩٥٩/ تأليف محمد عبدالرحمن حسين. - القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2011-

٤٢٣ ص؛ 20 سم. - (الثورة والحرية)

تدمك 9 - 0816 - 18 - 977 - 978

١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث.

أ - العنوان.

٩٦٢

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٠٠٣/٢٠١١

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 0816 - 9



الثورة .. والحرية
سلسلة غير دورية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وبعد فهذه صفحات تحمل الأسى والمجد معا .

وهي دراسة جديدة تبرز كفاح الشعب المصري في تاريخه الحديث والمعاصر، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . والشعب المصري دائما أبدا شعب مكافح مناضل ، يأبى الظلم والضيم ، ويتطلع الى حياة التحرر والحرية ، ولذا أصبحت مصر دائما مقبرة الغزاة .

أدى موقع مصر الاستراتيجي الممتاز عند التقاء ثلاث قارات كبرى، وبحرين عالميين ، البحر المتوسط والبحر الأحمر ، الى أن أصبحت مصر هدفا لأطماع المستعمرين خلال القرن التاسع عشر ، وتنافست الدول الأوروبية على مد نفوذها الى الأراضي المصرية ، وتكاتفت عوامل ترتبط بالسياسة العالمية على أن مصر أصبحت تعاني أحيانا من الاحتلال والاستعمار . ولكن الشعب المصري شعب أبي ، لم يستسلم في أي عصر من العصور ، فكان يهب دائما معلنا ثورته على الاستعمار والاستغلال ، مناضلا من أجل حريته واستقلاله ،وانتصر دائما على كل مستعمر وطامع، بفضل ايمانه العميق بحقه في الحياة الحرة الكريمة ، وبفضل روحه الثورية وكفاحه ونضاله ، مما كان يضطر المستعمرين والغزاة الى القاء سلاحهم والاعتراف بهزيمتهم والجلاء عن أرض الكنانة.

ولم يقتصر كفاح الشعب المصري على مقاومة الاستعمار ، بل حطم كل قيد قد يحد من حركته أو حريته ، أو يمنعه من المضي في طريق الحرية والرخاء والحضارة ، والمشاركة في الموكب الانساني الكبير . ولذا قاوم المصريون

الفرنسيين والانجليز ، كما كافحوا استبداد أسرة محمد علي وأذنابها من الاقطاعيين والرجعيين .

وتوج الشعب المصرى كفاحه بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، تلك الثورة المباركة التى كانت الحلقة الرئيسية الكبرى فى سلسلة النضال والكفاح ، وجنى المصريون ثمار كفاحهم وجهودهم ، فكانت ثمارا يانعة عوضتهم عما بذلوه من دماء وعرق خلال عصور الكفاح .

انقشع ظلام الاستعمار والاستبداد والاقطاع فى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأشرقت فى صباح هذا اليوم الخالد شمس جديدة ساطعة أنارت أرجاء مصر ، وأقطار الوطن العربى ، والعالم الاسلامى ، وأفريقية ، والعالم أجمع ، وأصبحت هذه الثورة الخالدة ثورة رائدة ، وقدوة تحتذى حذوها جميع الشعوب التقدمية المناضلة التى تسعى الى التحرر والانطلاق الثورى .

اعتمدنا فى هذه الدراسة على المصادر التاريخية والحديثة ، وعلى كثير من السجلات والتقارير كما أسعدتنى الظروف أن أكون شاهدا عيانا لكثير من الأحداث المعاصرة ، وشاركت فى بعض عمليات الكفاح والنضال ، وكنت قريبا من كثير من الأبطال والفدائيين ، مما ساعدنى على أن أقدم للقارىء صورا حقيقية تنبض بالحياة ، وعاوننى على الوفاء بالبحث والدراسة .

وهذه الدراسة تربط الماضى التليد بالحاضر المجيد ، وتجعلنا نثق فى مستقبل مشرق سعيد ، فاننا نعيش فى عصر حرية واشتراكية ووحدة ، وفى مجتمع الكفاية والعدل ، وفى مصر جمال عبد الناصر ، الزعيم الوطنى المكافح المناضل ، وقائد كفاحنا الشعبى ، ورمز الحرية والسلام . والى سيادته أتشرف باهداء كتابى هذا (كفاح شعب) .

والله ولى التوفيق ، والمجد للعرب ، والعزة والنصر لكل شعب مكافح .

المؤلف

الباب الاول

كفاح الشعب المصرى للاطماع الفرنسية والانجليزية فى مطلع القرن ١٩

١ ــ الكفاح الشعبى للحملة الفرنسية.

٢ ــ الشعب المصرى يكافح استبداد محمد على.

٣ ــ الكفاح الشعبى للانجليز فى رشيد.

١ ـــ الكفاح الشعبي للحملة الفرنسية :

يقظة مصرية قبل قدوم الحملة الفرنسية :

فتح العثمانيون مصر فى سنة ١٥١٧ ، إذ دخل السلطان سليم الأول القاهرة وقضى على دولة المماليك التى قامت فى مصر والشام .وبدأ الحكم العثمانى منذ الحين، واستمر الى مطلع القرن العشرين . وان كان الحكم العثمانى حكما اسلاميا الا أنه يختلف كثيرا عما سبقه من حكم العرب والمسلمين فى القرون الماضية . فقد حكم العثمانيون مصر لصالحهم ، واعتبروها ضيعة خصبة تدر عليهم دخلا ثابتا وفيرا. وأهمل العثمانيون تماما كل اصلاح اقتصادى أو ثقافى أو اجتماعى ، ونقلوا كثيرا من الصناع المصريين المهرة الى القسطنطينية ، فحرموا مصر من الأيدى العاملة الفنية ، كما استولوا على كثير من الأموال والخامات العربية التى لايستغنى عنها فى النهضة الصناعية ، وأهمل العثمانيون تطهير الترع حتى جفت ، وترميم الجسور حتى انهارت، وأهملوا المرافق الصحية فانتشرت الأمراض والأوبئة .وأغلق العثمانيون المدارس ،واقتصر التعليم على الأزهر والكتاتيب . وأوقع نظام الالتزام أعباء كثيرة على الفلاحين فساءت أحوالهم الاجتماعية .

وأدت هذه السياسة العثمانية الى توقف التقدم والاصلاح ، مما أدى الى ركود وجمود . فى وقت كانت دول أوروبا تمضى فى طريق الحضارة فى خطوات سريعة. وخشيت الدولة العثمانية أن تمتد الأطماع الأوروبية الى العالم العربى،فنصبت ستارا كثيفا يحجبه عن أوروبا ، مما منع أى اتصال اقتصادى أو ثقافى وأراد السلطان العثمانى أن يضمن ولاء العرب والمسلمين له ، فأعلن أن الدولة العثمانية هى دولة الخلافة ، وأن السلطان هو الخليفة الذى يدين له كل المسلمين فى الأرض بالطاعة والولاء . ورفض الشعب المصرى الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخلافة ، وأبى أن يكون الدين وسيلة للاستعمار والاستبداد، فالاسلام أسمى من أن يسخره السلطان من أجل تدعيم نفوذه السياسى الاستعمارى .

ونجد فى كتب المستشرقين أحاديثا كثيرة ، وكلها تدور حول أثر الحملة الفرنسية على مصر فى يقظة الشعب المصرى ، ويحاول هؤلاء المستشرقين أن يقنعوا قراءهم بأن هذا الشعب الآبى كان فى سبات ، ثم قدمت الحملة الفرنسية فأيقظته وأثارت مشاعره الوطنية . ولكن هذه الأقوال هى فى الحقيقة مغالطات واضحة تهدمها الحقائق التاريخية الثابتة . وهؤلاء المستشرقين كعهدنا بهم يحاولون تبرير الأطماع الأوروبية ، ويضمون حيثيات لكل احتلال واستعمار أوروبى .

والشعب المصرى شعب مكافح مناضل ، شهدنا كفاحه وجهاده على مر العصور التاريخية ، وهو يأبى الضيم والظلم ،والاحتلال والاستغلال ، ويدافع دائما عن وطنه وحريته ومصالحه . وهو ليس فى حاجة الى مؤثر خارجى يذكره بوطنيته وقوميته .

والحقيقة التاريخية الثابتة أنه قد ظهرت بوادر اليقظة المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، قبل قدوم الحملة الفرنسية الى مصر والشام . فقد بدأ المصريون يعملون على الخلاص من الحكم العثمانى الغاشم الذى حرم المصريين وسائر العرب من حقوقهم السياسية . هذا ، والحملة الفرنسية لم تمكث فى مصر الا نحو ثلاثة أعوام ، وهى فترة قصيرة لاتؤدى الى نتائج حيوية أو آثار عميقة فى الثقافة والحضارة . وهذه الأعوام القليلة تعجز عن بناء شعور وطنى وتنمية روح كفاح ونضال . بل كان هذا الشعور وهذه الروح قائمين وظاهرين ومتعمقين فى كل أرجاء مصر . بل كافح المصريون هذا الاستعمار الفرنسى كما كافحوا بالأمس الاستعمار العثمانى . وان كانت قد ظهرت معالم نهضة حضارية أو ثقافية بعد جلاء الفرنسيين، فان هذه النهضة ليست نتيجة لقدوم الحملة الفرنسية ، بل هى من آثار اليقظة المصرية التى ظهرت بوادرها قبل قدوم الفرنسيين .

وتبدو هذه الحقائق واضحة ناصعة فى الميثاق الخالد حين يقول : « ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية فى ذلك الوقت - كما يقول بعض المؤرخين - فان الحملة الفرنسية حين جاءت الى

مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه الى الحياة فى مصر كلها ، كما وجدت أن الشعب المصرى يرفض الاستعباد العثمانى المقنع باسم الخلافة، والذى كان يفرض عليه دون مامبرر حقيقى تصادما بين الايمان الدينى الأصيل فى هذا الشعب وبين ارادة الحياة التى ترفض الاستبداد . ولقد وجدت هذه الحملة مقاومة عنيفة لسيطرة المماليك وتمردا مستمرا على محاولاتهم لفرض الظلم على الشعب المصرى » .

وهكذا كان الأزهر منبعا للشعور الوطنى المصرى ، وقد رفض علماؤه مساندة السلطان العثمانى الذى أراد أن يسخر الدين فى استمرار الحكم العثمانى لمصر . وفى كل قرية فى مصر كانت تضطرم الثورة فى نفوس المصريين ، ووقف الفلاحون فى وجه نظام الالتزام الظالم الذى فرضه العثمانيون .

تنظيم شعبى وزعامة شعبية :

اقتصر التعليم فى العهد العثمانى على الأزهر الشريف وبعض الكتاتيب الصغيرة المنتشرة فى مدن وقرى مصر . ولذا أصبح الأزهر هو المنار الوحيد للعلم والثقافة، ومهبا أساس كل كفاح وطنى ، ولذا حفل الأزهر بتيارات الوطنية ، وتعدت هذه التيارات جدران الأزهر الى سائر عناصر الشعب المصرى . وبدأ المصريون يعملون من أجل التحرر من الاحتلال العثمانى ، ومظالم المماليك ، ويأملون فى قيام حكومة مصريه وطنية ، تحكم مصر من أجل صالح المصريين .

وفى الوقت الذى تهيأ فيه المصريون للخلاص من الحكم العثمانى ، قدمت الحملة الفرنسية الى مصر . وزعم الفرنسيون للسلطان أنهم إنما قدموا لتأديب المماليك الذين اعتدوا على التجار الفرنسيين فى مصر ، ووعدوا السلطان بأنهم سيعملون على اعادة سيطرته على مصر . وزعم الفرنسيون للمصريين أنهم قد قدموا لتحريرهم من الاحتلال العثمانى الغاشم ، ومن استبداد المماليك ، وأنهم مبعوثو العناية الالهية للأخذ بيد المصريين لينهضوا ويتحرروا ويرتقوا .

والفرنسيون فى كل هذه المزاعم يكذبون ويضللون ، فالحقيقة التاريخية التى اعترف بها جميع المؤرخين الاوروبيين أن الحملة الفرنسية على مصر والشام مشروع استعمارى فرنسى ، نتيجة التنافس الاستعمارى بين انجلترا وفرنسا ، وقد بدأ هذا التنافس فى المستعمرات الأمريكية والهند ، ثم امتد الى الشرق العربى . فقد رأى ساسة فرنسا أن خير طريقة للتغلب على انجلترا هو هزيمتها فى مستعمراتها الشرقية والقضاء على تجارتها بتحويل التجارة الشرقية الى خليج السويس والبحر المتوسط بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الذى تسيطر عليه انجلترا ، ولا يكون ذلك الا بتكوين امبراطورية شرقية تكون مصر قاعدتها ، تعوض على فرنسا بعض مافقدته من المستعمرات .

لم ينصت الشعب المصرى الى مزاعم الفرنسيين ، ولم يصدق منشوراتهم وما حوتها من وعود براقة ، ولم يتأثروا بكتابة هذه المنشورات باللغة العربية لأول مرة ، ولم ينخدع المصريون بهؤلاء العلماء الذين صحبوا جيش الاحتلال الفرنسى ، فالعلم لايأتى بالسيف ، والوطنية قبل كل نفع دنيوى .

وأعلن المصريون عداءهم للفرنسيين منذ نزولهم على الأراضى المصرية فى الاسكندرية ، وبدأت عناصر الشعب المصرى تتجمع وتتكتل، لتنظيم جهودها من أجل الكفاح الشعبى . وبحث المصريون عن زعيم وطنى يلتفون حوله ويسيرون خلفه فى كفاحهم ، فلم يختاروه من العثمانيون ، أو من بين المماليك ، ولكنهم اختاروا مصريا من بين أبناء الشعب ، وهو عمر مكرم .

وسيرة عمر مكرم صورة مشرقة لزعمائنا المصريين ، فقد ولد فى مدينة أسيوط ، تخرج من الأزهر الشريف ، وظهر نبوغه وتفوقه على أقرانه ، واشتهر بين الناس بكرم النفس ودماثة الخلق وعلو الهمة وهدوء الطبع ، كما كان دائما عف اللسان نزيه اليد ، مما أهله لتولى رئاسة نقابة الأشراف . وكانت روح الثورة الوطنية تضطرم فى نفس عمر مكرم ، حتى إذا قدم الفرنسيون ، نزل الى الشعب ودعاه الى الجهاد ، والتف حوله آلاف من المصريين ، وتزودوا بما وجدوه من

أسلحة خفيفه ، بل بالعصى والمراوات والخناجر ، فقد كان شعورهم الوطنى الجارف يعوضهم هذا النقص فى السلاح والعتاد .

وهكذا نجح عمر مكرم فى ايجاد تنظيم شعبي تأهب للدفاع عن الوطن ضد الفرنسيين . وفى نفس الوقت استعد المماليك بقيادة ابراهيم بك ومراد بك لقتال الجيش الفرنسى . ورأى التنظيم الشعبي المصرى أن يتعاون مؤقتا مع المماليك ضد العدو المشترك ، فقد كان المماليك هم الطبقة الحاكمة ويملكون من الموارد المالية والأسلحة والمؤن مايمكنهم من القتال . وان كان المصريون يطمحون فى الخلاص أيضا من حكم المماليك ، الا أنهم رأوا أن يتفرغوا فى هذه الظروف لقتال هؤلاء المستعمرين القادمين من أوربا .

كفاح الشعب المصرى فى الصعيد والدلتا :

صمم الشعب المصرى على كفاح الجيش الفرنسى وارغامه على الجلاء عن الوطن ، فقد اعتبر المصريون الحملة الفرنسية حلقة فى سلسلة الأطماع الأوروبية الاستعمارية التى شهدتها مصر والعالم العربى والاسلامى خلال الحروب الصليبية . فهى حروب استعمارية استترت وراء الدين .

جاء فى الميثاق : « وقبل أن ينزل ظلام الغزو العثمانى على المنطقة بأسرها ، فان شعب مصر قد تحمل ببسالة منقطعة النظير مسئوليات حاسمة لصالح المنطقة كلها . كان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية فى صد أول موجات الاستعمار الأوروبى التى جاءت متسترة وراء صليب المسيح ، وهى أبعد ماتكون عن دعوة هذا المعلم العظيم » .

بدأ كفاح الشعب منذ اللحظة الأولى لنزول الفرنسيين على أرض مصر ، وواجه الجيش الفرنسى جيش المماليك توازره القوات الشعبية ، ولم تكن الحرب متكافئة ، فالفرنسيون يحاربون بأسلحة حديثة ، فهى حرب بين نتاج الحضارة الأوروبية الحديثة ، وبين بقايا الحضارة العثمانية الغاربة البائدة ، فقد عمل العثمانيون على أبعاد

المصريين عن الجيش ،وحرموم من التزود بالسلاح الذى يدافعون به عن وطنهم، وكانت أسلحة المماليك عتيقة تمثل تراث القرون الوسطى .ولذا شق نابليون طريقه الى القاهرة ، ولكن سالت دماء فرنسية كثيرة ارتوت بها أرض الدلتا .

ولم يكن استيلاء نابليون على القاهرة يعنى سيطرته على القطر المصرى ، لأن مدن وقرى الوجهين البحرى والقبلى كانت تضطرم بالثورة . كما كان علماء الأزهر يعبئون قوى الشعب المصرى ليبدأوا الجولة الثانية من الكفاح . وأدرك نابليون الحقيقه ، فهو يحكم عاصمة ثائرة ، ولايحكم صعيد مصر ودلتاها . ولذا رأى أن يحاول اخضاع الثورة الشعبية فى الوجهين القبلى والبحرى . ورأى أن يعهد الى قائده (ديزيه) باخضاع الصعيد ليتفرغ هو لاخماد الثورات التى قامت بالوجه البحرى والقاهرة .

ولم تكن مهمة (ديزيه) سهلة يسيرة كما ظن ، ولم تنجح أسلحته الحديثة فى أخماد الروح الثورية المضطرمة فى نفوس المصريين . فقد لاقى مقاومة شعبية جارفة ، تجلت فى أول مدينة واجهته أثناء زحفه وهى مدينة الفيوم ، فقد خرج أهلها يقاومون مدافع الفرنسيين بما يحملون من بنادق قديمة وعصى ،وجعلوا من أجسادهم سدودا تمنع زحف الفرنسيين ، ونجح (ديزيه) فى دخول الفيوم ، وظن أنه قد فاز بانتصار حاسم ، ولكن خاب ظنه ، فقد قام أهالى مدينة الفيوم بالثورة فى الثامن من نوفمبر سنة ١٧٩٨ . وكانت ثورة ملتّهبة ، جعلت ديزيه يبعث برسله الى نابليون ، يطلب فى الحاح مده بالسلاح والعتاد ، حتى يواجه عمليات المقاومة الشعبية . ونجح أهالى الفيوم فى ابادة عدد كبير من الجند الفرنسيين .

واستمر (ديزيه) فى رحلة الموت ، يتنقل بين مدن الصعيد ويتناقص عدد جنده يوما بعد يوم ، ويواجه المقاومة الشعبية فى كل قرية مصرية . ولم تنجح حلة ديزيه النجاح المأمول ، وعاد الجنود الفرنسيون من الصعيد يقصون على نابليون مالاقوه من الأهالى طوال زحفهم الشاق .

وهذه هى شهادة شاهد منهم ، فقد كتب الجنرال الفرنسى (بليار) : « أثناء زحفنا وقفنا نستريح بجوار بلدة الفشن ، ووضع الجنود بنادقهم على مقربة منهم ، وفوجئوا بصبى لايتجاوز اثنى عشر عاما يخطف البنادق ويهرب بها ، وقد تمكن أحد الجنود من اللحاق به بعد أن اصابه بسيفه اصابة أعجزته ، ثم قاده والدم ينزف منه الى الجنرال ديزيه الذى سأله عما ألجأه الى خطف البنادق فأجاب الصبى فى شجاعة قائلا : لكى يستعملها أهلى فى محاربتكم ! فعاد ديزيه وسأله عن المحرضين له على هذا العمل ، فنظر الصبى الى السماء وقال : أن الله الذى خلقنا والقادر على كل شىء هو الذى أمرنا بذلك . فتعجب ديزيه ومن معه ، وارتج عليهم ، وبدا عليهم أنهم قاتلوه ، ولكن الصبى تقدم من ديزيه وصاح فيه بشجاعة نادرة : أيها القائد فيم انتظارك ؟ ! هذا رأسى أفصله عن جسدى بضربة من سيفك فانى لا أبالى فقد وهبتها لوطنى !! . وأعجب الحاضرون بشجاعة الصبى وسرعة بديهته، وعدل ديزيه عن اعدامه ؟» .

ولاقى الفرنسيون فى الوجه البحرى مالاقوه فى الوجه القبلى من مقاومة وكفاح شعبى ، وسالت دماء الفرنسيين أنهارا ، ولم ير الفرنسيون وسيلة لاشفاء غليلهم واخفاء عجزهم سوى التنكيل بالمصريين ، وحرق القرى ، وايذاء المدنيين الآمنين ، فقد كتب القائد الفرنسى (مينو) الى نابليون فى الثالث عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : « قمت اليوم بحملة لمعاقبة السالميه بمركز فوه ، حيث قتل بعض الفرنسيين ، فأحرقت القرية ، وقتلت تسعة من الأهالى لمعاقبتهم وردعهم » .

الكفاح الشعبى فى القاهرة :

شهدت مصر قبل قدوم الحملة الفرنسية يقظة وطنية ، وبدأ الشعب المصرى يعبىء جهوده وينظم صفوفه . وأدرك نابليون هذه الحقيقة الواضحة ، ورأى أنه من الضرورى لاستقرار الحكم الفرنسى من أن ينال ثقة الشعب المصرى ورضاه . ولكن الشعب يكره النفوذ الأجنبى فى كل صورة وأصبح من الوعى والادراك بحيث يفطن الى أساليب الطامعين والمستعمرين . وبذل نابليون جهودا

كثيرة فى سبيل استمالة علماء الأزهر ، وزعماء الشعب المصرى ، وبذل العهود والوعود ، ولجأ أحيانا الى الوعيد والتهديد،ولكن هذه المحاولات كلها كان نصيبها الاخفاق التام ، فقد أصر الشعب المصرى على المضى فى طريق الحرية والاستقلال، وأصبح لايقبل حلا وسطا .

ظن نابليون أنه إذا ولى المصريين المناصب الحكومية فانه يكسب رضاهم ويقنعهم بقبول حكم الفرنسيين ، فقال فى منشور له : « ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لاييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء منهم سيدبرون الأمور ، وبذلك تصلح حال الأمة كلها » . وتنفيذاً لهذه السياسة أنشأ ديوان القاهرة من العلماء ، وجعل لهم حق مناقشة المسائل العامة . وأراد نابليون أن يرضى أهالى أقاليم الوجهين البحرى والقبلى ، حيث ثارت مقاومة شعبية عنيفة ، فاتبع نفس النظام فى دواوين الأقاليم ،ولكن الشعب المصرى رأى أنه انما استرد حقا شرعيا له كان مغتصبا ، وأن الحكم ليس منحة من المستعمر الأجنبي ، وأن المناصب لن تلهيهم عن طلب الحرية والاستقلال .

وتظاهر نابليون باحترام الاسلام والتقاليد العربية ،وتقرب الى علماء الأزهر، وأخفقت كل هذه الأساليب . وقامت ثورة القاهرة الأولى فى ٢١ من اكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وكانت ثورة شعبية منظمة ، اشتركت فيها جميع عناصر الشعب ، على اختلاف أديانهم وأصولهم وحرفهم ، وتألفت لجان المقاومة الشعبية من أجل تنظيم المتطوعين ، وتزعم الشعب عمر مكرم والشيخ السادات ، واتخذت الثورة الأزهر مركزا لها ، وحشد الفرنسيون قواتهم وأسلحتهم الحديثة للقضاء على هذه الثورة الشعبية الجارفة ،وسقط أكثر من مائتى ضابط وجندى فرنسى قتيلا ، ومن بينهم قائد القوات الفرنسية فى القاهرة ، وسلط نابليون مدافعه على المدينة عامة وعلى مواقع الثوار خاصة ، وان كانت قد نجحت فى قتل أرواح وطنية بريئة الا أنها لم تقض على الشعور الوطنى الملتهب فى أعماق القلوب ، وحاول نابليون أن

يستميل اليه عمر مكرم الزعيم الشعبي المصرى ، ولكن عمر مكرم كان قد باع عرض الدنيا الزائل من أجل وطنه ومواطنيه.

وشعر نابليون باليأس ، وأدرك أن مهمته فى مصر لم تكن كما توقع سهلة ميسورة ، وأنه لن ينجح فى تحقيق أطماع فرنسا فى تكوين مستعمرة فرنسية فى مصر ، ولن ينجح هو فى تحقيق أطماعه الشخصية فى السلطة والمجد . ورأى نابليون أن يسارع بالرحيل عن مصر إلى فرنسا ، حتى لا تلحق به هزيمة أخرى تقضى على انتصاراته الرائعة التى شهدتها أوروبا . وعاد نابليون إلى وطنه ، تاركاً مصير الحملة الفرنسية فى يد كليبر ، أو فى يد القدر .

وقامت القاهرة بثورتها الثانية فى أواخر مارس سنة ١٨٠٠ ، وكان مركز هذه الثورة هو حى بولاق ، الحى الشعبي الأصيل ، وقاد هذه الثورة زعماء مخلصون منهم عمر مكرم ، والسيد أحمد المحروقى ، والحاج مصطفى البشتيلى ، وكان البشتيلى من كبار تجار بولاق ، وأنفق كل أمواله التى جمعها طوال حياته من التجارة على الثورة ، ثم استشهد أثناء كفاحه . وأقام المصريون المتاريس فى الشوارع والحارات وأنشأوا معملا للبارود فى حى الخرنفش ، وصنعوا آلات الحرب بأيديهم وأقاموا مصنعاً حربياً فى حى بيت القاضى .

وعند ما انتصر كليبر على الجيش التركى الذى كان يريد الاستيلاء على مصر ، عاد إلى القاهرة لإخماد الثورة التى كانت قد بدأت منذ أسبوعين ، ولم يكن يعتقد أنها إلى هذا الحد من الخطورة . ولكنه سرعان ما تغيرت نظرته إليها ، بعد أن عجم عودها فوجدها صلبة لا تلين ، شبانها يسابقهم الأطفال ، ونساؤهم فى الصف مع الرجال .

عاد كليبر إلى القاهرة ، فوجدها فى أيدى الثوار المصريين ، ولم ير بدأ من حصار القاهرة ، وصب عليها سيلا لا ينقطع من القنابل ليطفىء جذوة الكفاح ، ويخمد الثورة الشعبية . وكما بذل المصريون الأموال فى سبيل الاستعداد للثورة ،

فقد بذلوا الدماء ليوفروا لها أسباب النجاح . ولم تخمد قنابل الفرنسيين روح الوطنية ، ولجأ كليبر إلى سلاح الغدر ، فقد رأى أن يقتل المصريين جوعاً ، وقد عجز عن قتلهم بمدافعه ، فمنع الأقوات عن القاهرة ، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار . وصبر المصريون على الجوع ، فالوطنية زادهم الأول ، بل أثار هذا الجوع مشاعر المصريين وألهب حماستهم ، فأقبلوا يهاجمون الفرنسيين المحتشدين على أطراف المدينة ، بينما عكف عمر مكرم والزعماء الآخرون على تنظيم عمليات التموين ، وحشد القوات ، وتنظيم المقاومة .

ولم ينجح كليبر فى استرداد القاهرة إلا بعد أن اتبع أساليب الغدر والخيانة ، وضرب أمثلة للوحشية والهمجية ، فأقام المذابح فى الميادين ، وفرض الأتاوات والضرائب الباهظة على كل حى ، ولم تزد هذه الأساليب المصريين إلا حماسة وإصراراً على المقاومة . وقد أكدت الإحصاءات الرسمية الفرنسية أن الفرنسيين خسروا من الجند فى شوارع القاهرة وباقى مدن القطر المصرى ما يفوق كل خسائرهم فى حروبهم ضد المماليك والأتراك مجتمعين .

قام الأزهر الشريف بدور رئيسى فى إذكاء روح الثورة ، وفى قيادة المقاومة الشعبية . ومن بين جدران الأزهر العتيد ، ولدت فكرة الانتقام من كليبر لقاء ما قام به من فظائع ، تبناها خمسة من الطلبة . ونفذها واحد منهم هو (سليمان الحلبى) الذى وفد من حلب وظل يدرس فى الأزهر أكثر من ثلاث سنوات متصلة ، أفزعه وراعه خلالها ما اقترف كليبر والفرنسيون من جرائم فى حق إخوته فى العروبة والإسلام ، فرأى أن يثأر لهؤلاء الإخوة ، وفى الرابع عشر من شهر يوليو سنة ١٨٠٠ تمكن سليمان من الدخول إلى حديقة قصر الأزبكية حيث كان يقيم كليبر ، وقتله بخنجره ، بعد أن اقتفى أثره ساعات طوالا . وعند ما قبض عليه ، رفض الاعتراف على باقى شركائه فى الحادث ، ولكن الفرنسيين عذبوه ، فانطلق لسانه مرغماً وباح بأسماء باقى شركائه ، فقبضوا عليهم ، وأعدموهم جميعاً . وافتخر سليمان بأنه وطنى عربى (ابن عرب) ، لم يدفعه إلى قتل كليبر إلا عروبته

وقوميته دون أى دافع أجنبي ، سواء أكان بريطانياً أو عثمانياً ، وكان الفرنسيون يظنون أنه قد حرضه البريطانيون أو العثمانيون .

وفى متحف باريس الجنائى يرى المشاهد رأس الشهيد سليمان الحلبي وهى محنطة ، فوق لافتة مكتوب عليها (رأس قاتل) ، وإنى أقترح أن ننشىء بالقاهرة معرضاً نضع فيه نماذج لرءوس كل من أجرم فى حق وطننا ، مثل كليبر ، وتوفيق، وسيمور ، وكتشنر ، واللنبي ، وفاروق ، ومايلز لامبسون ، وغيرهم من الخونة ، مع بيان موجز بما اقترفه كل خائن منهم ، حتى تذكر الأجيال القادمة خيانتهم وانتصار الشعب المصرى عليهم .

وقد روى لنا الجبرتى فيما روى واقعة مقتل كليبر فقال : « فى ذلك اليوم وقعت واقعة عجيبة ، وهى أن سارى عسكر كليبر كان مع كبير المهندسين يسيران داخل البستان الذى بداره فى الأزبكية ، فدخل عليه شخص حلبي قصده — فأشار كليبر إليه وقال له : (مافيش) وكررها فلم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر فى قضائها فلما دنا منه مد إليه يده اليسرى كأنه يريد تقبيل يده ، فمد كليبر يده فقبض سليمان عليها وضربه بخنجر كان أعده فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه ، وسقط إلى الأرض صارخاً فصاح زميله المهندس — فذهب إليه سليمان وضربه أيضاً ضربات ، وهرب — وسمع العسكر الذين خارج الباب صرخة المهندس فدخلوا مسرعين فوجدوا كليبر مطروحاً وبه بعض الرمق — ولم يجدوا القاتل ، فانزعجوا وضربوا طبلهم وخرجوا مسرعين وجروا من كل ناحية يفتشون على القاتل ، واجتمع رؤساؤهم وأرسلوا العساكر إلى الحصون والقلاع ، فأحاطوا بالبلدة وعمروا المدافع وقالوا لا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم . ووقعت هوجة عظيمة وكرشة وشدة انزعاج وأكثر الناس لا يدرى حقيقة الحال، ولم يزالوا يفتشون عن القاتل ، حتى وجدوه منزوياً فى البستان المجاور لبيت سارى عسكر المعروف بغيط مصباح بجوار حائط متهدم فقبضوا عليه » .

وحاول خلف كليبر ، وهو الجنرال مينو أن يفوز برضاء المصريين ، ولكن

دون جدوى ، فهو يوما يتظاهر باعتناق الإسلام ، ويوما يتزوج من مصرية مسلمة ، ولكن الشعب المصرى فطن إلى هذه الأساليب الخادعة ، ومضى فى طريق الكفاح والنضال .

وشجعت المقاومة الشعبية فى مصر الإنجليز والعثمانيين على التدخل ، ولم يكونوا يجرؤا على التدخل لو كان الشعب المصرى قد هدأ وقبل الحكم الفرنسى . واضطر الفرنسيون إلى الجلاء النهائى عن مصر ، والسبب الأول فى هذا الجلاء هو كفاح الشعب المصرى ، وليس جهود الإنجليز أو العثمانيين ولو ركن المصريون إلى الهدوء والسلام فى الداخل ، لتفرغ الفرنسيون لقتال أعدائهم الخارجين ، وربما نجحوا فى صدهم ، ولكن الفرنسيين كانوا يعانون من المقاومة الشعبية التى أقلقت مضاجعهم ، وأثارت المتاعب والقلاقل دائما أمامهم ، ولذا كان عمر الحملة الفرنسية فى مصر قصيراً ومات المشروع الاستعمارى الفرنسى وهو فى المهد ، وكان انسحاب الفرنسيين تتويجا لجهود المصريين وكفاحهم الشعبى .

٢ ـــ الشعب المصرى يكافح استبداد محمد على

مرحلة جديدة من الكفاح الشعبى :

اضطر الفرنسيون إلى الجلاء التام النهائى عن مصر ، بعد أن عجزوا تماماً عن إخماد روح الثورة الشعبية المصرية ، وبعد أن ذاقوا الأمرين من كفاح المصريين ونضالهم . وبدأ كفاح الشعب المصرى يدخل فى دور جديد متميز .

شهد المصريون تنافس القوى الأجنبية حول السيادة على وطنهم ، فقد حاول كل من العثمانيين والفرنسيين والإنجليز والمماليك بسط نفوذهم على مصر . ولكن الشعب المصرى عقد العزم على ألا يسمح لأى جماعة من هـــذه الجماعات أن تطأ أرضه أو تحتل شبراً منه ، وأصر على أن يكون تقرير مصيره بيده ، فتصبح مصر للمصريين ، وأن يقطف هو ثمار جهوده وكفاحه الباسل . وأخذ العـامل القوى فى الظهور واضحاً جلياً على مسرح السياسة فى مصر بعد جلاء الفرنسيين ، ورأى المصريون أن يتحرروا تماماً من الحكم العثمانى ، وأن يضعوا نهاية لاستبداد المماليك بشئون مصر ، وبدأ الشعب المصرى بزعامة عمر مكرم يعمل على تنفيذ هذه السياسة الوطنية .

واتخذت هذه السياسة الشعبية المصرية الجديدة صوراً إيجابية عديدة ، فأعلن المصريون عدم رضاهم عن بقاء الجيوش البريطانية فى الأراضى المصرية ، وكانت هذه الجيوش قد تلكأت فى الانسحاب بعد جلاء الفرنسيين . وعندما أعلن الجند الألبانيون بزعامة طاهر باشا تمردهم على الوالى التركى خسرو باشا واضطروه إلى الفرار إلى دمياط ، اجتمع شيوخ الأزهر والعلماء فى ٦ مايو سنة ١٨٠٣ فى بيت القاضى لبحث الأمر ، وأقروا طاهر باشا قائمقاما إلى أن يوافق السلطان على ولايته أو يعين واليا آخراً . وأعلنوا طاهر باشا بذلك ، وطلبوا منه رفع المظالم التى وقعت بالشعب المصرى . وبذلك أصبحت مقاليد الحكم فى يد الشعب .

واستمر الشعب المصرى صاحب السلطة الحقيقية . فعنـــدما وقع اختيار

الانكشارية بعد مقتل طاهر باشا على أحمد باشا والى المدينة ، وكان موجوداً حينئذ بالقاهرة ، تقرب أحمد باشا من العلماء والزعماء المصريين ، ولكنهم رأوا أن أحمد باشا غير جـــدير بحكم مصر ، بل رأوا ضرورة خروجه هو والجند الانكشارية من مصر ، وساعدوا محمد على فى طردهم جميعا من مصر فى مايو سنة ١٨٠٣ .

وتحالف محمد على مع المماليك وتولوا الحكم قرابة عام ، حفل بالمظالم ، وعانى الشعب المصرى من الضرائب الباهظة وارتفاع الأسعار واعتداء المماليك على ممتلكات المصريين . وامتنع المصريون عن دفع هذه الضرائب ، واحتشدوا فى شوارع القاهرة ، واحتجوا على حكم المماليك ، واتجهوا إلى الأزهر حيث التقوا بشيوخهم وطلبوا منهم الاحتجاج لدى المماليك . وأدرك محمد على قوة الشعب المصرى ، فانقلب على حلفائه المماليك ، وانضم إلى صفوف العلماء وشيوخ الأزهر ، وتعهد لهم بالعمل على إلغاء هذه الضرائب ، وأنزل جنوده إلى شوارع القاهرة ، وأوصاهم بمعاملة الشعب معاملة طيبة . وحاول المماليك مقاومة الشعب وفرض إرادتهم وحكمهم عليه ، ولكن الشعب تحالف مع الجند الألبانيين واضطر المماليك إلى الفرار إلى الصعيد .

الشعب المصرى يولى محمد على :

أدرك محمد على أنه لن يستطيع تحقيق أطماعه وآماله إلا إذا اعتمد على نيله ثقة الشعب المصرى به ، وقد حاول كما رأينا الاعتماد على المماليك ، فلم تفلح المحاولة ، فقد أصبح الشعب المصرى قوة عظيمة تقبض بيديها على أزمة الأمور ، وتمسك بدفة الحكم والسياسة . فأخذ محمد على يتقرب إلى العلماء والزعماء ، ويتظاهر أمامهم بأنه رجل يحب العدل ، ويكره الظلم ، ويؤثر مصلحة الشعب المصرى .

أصبحت قوة الشعب المصرى حقيقة واقعة ، وقد لمسها خورشيد باشا حينما عينه السلطان العثمانى واليا على مصر ، ورأى خورشيد أن يتخلص من محمد على صديق

المصريين ، وهو لا يستطيع بطبيعة الحال الخلاص من الشعب المصرى . فاستصدر خورشيد من الآستانة فرماناً بعودة الألبانيين ورؤسائهم من مصر . وتظاهر محمد على لخورشيد بقبول الأوامر ، ولكنه لجأ إلى العلماء وزعماء الشعب ، واستنجد بهم ، طالباً معاونتهم له على البقاء فى مصر ، واضطربت القاهرة ، وأقفلت الأسواق احتجاجا على ذلك . واضطر السلطان وخورشيد على النزول على رأى الشعب المصرى .

ولكن خورشيد أدرك أنه لن يستطيع ممارسة سلطاته كاملة طالما هذا المنافس ، أى محمد على مقيما فى مصر ، يسانده الشعب المصرى ، فلجأ إلى وسيلة أخرى ، فطلب من الحكومة العثمانية أن تمده بقوات جديدة بدلا من القوات الألبانية التى تدين بالطاعة لمحمد على ، فأرسلت له جيشا من الولاة وعاث هؤلاء الجند فى مصر فساداً ، وارتفعت أصوات الشعب بالاحتجاج ، وعجلت هذه الأحداث بقيام ثورة الشعب ضد هذا الوالى ونظام الحكم القائم .

وانتشر لهيب ثورة الشعب المصرى فى كل أرجاء القاهرة ، احتجاجا على تمسك خورشيد بهؤلاء الجنود وتأييدهم لمظالمهم وحمايته لهم . ورفض العلماء والزعماء ، وعلى رأسهم عمر مكرم ، أن يتدخلوا لإيقاف الثورة ، وحددوا موعداً يجلى فيه خورشيد هؤلاء الجنود عن القاهرة ، وتظاهر محمد على بأنه مع هؤلاء الزعماء فى موقفهم من خورشيد ـ حتى إذا انتهى الأجل المحدد ، اجتمع زعماء الشعب ، واتجهوا إلى دار المحكمة الكبرى يحيط بهم جموع الشعب المصرى ، يرددون الهتافات المعادية للوالى والعثمانيين .

اجتمع زعماء الشعب فى ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ بدار المحكمة وحرر الزعماء مطالبهم ، فطالبوا بألا تفرض ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وأعيان الشعب ، وأن تجلو الجنود عن القاهرة ، وتنتقل حامية القاهرة إلى الجيزة . ورفض خورشيد مطالب الشعب . فاجتمع الزعماء فى اليوم التالى بدار المحكمة ، واحتشدت جماهير الشعب خارجها ، وقرروا عزل خورشيد وتولية محمد على . واتجه زعماء

الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم إلى دار محمد على ليبلغوه بقراراتهم . وألبسه عمر مكرم والشيخ الشرقاوى خلعة الولاية .

وهكذا قام زعماء الشعب المصرى بتوليه محمد على الحكم ، واشترطوا عليه سيره بالعدل ، وإقامة الأحكام والشرائع ، والكف عن المظالم ، وألا يفعل شيئاً إلا بمشورة العلماء ، وأنه متى حاد عن هذه الشروط عزلوه عن الحكم . وأصبح يوم ١٣ من مايو سنة ١٨٠٥ عيداً من أعياد مصر القومية ، فقد أصبح الشعب المصرى من القوة بحيث يختار من يراه للحكم ، فيوليه على شروط يشرطها عليه ، وعلى قواعد يرسمها له ، ولم يعد السلطان العثمانى هو الذى يعين الولاة ، ولذا يمكن اعتبار هذا اليوم ، هو اليوم الذى أعلن فيه المصريون استقلالهم عن الحكم العثمانى البغيض وانتصر المصريون بما يحملونه من عصى وهراوات ، على جيوش السلطان التى تحمل البنادق والمدافع ، فقد أحالت الروح الوطنية هذه العصى والهراوات إلى أسلحة جبارة ساحقة .

الشعب يكافح استبداد محمد على :

لم يصل محمد على إلى الحكم إلا على أكتاف الشعب المصرى ، وقد تظاهر بالخضوع والخنوع ، وتقرب إلى العلماء والزعماء ، بما جعلهم يولونه حكم البلاد . ولم يبخل زعماء الشعب على محمد على بتأييدهم ، فكانوا يقدمون له الأموال والهبات تباعا ، وأعانوه على أعدائه حتى ثبت أقدامه فى حكم البلاد . وكان محمد على طوال صراعه مع أعدائه يحرص على استمالة زعماء الشعب ويشيد بفضلهم عليه ، ويعمل بمشورتهم ، وينفذ الشروط التى شرطها على نفسه .

ولكن محمد على كان (يتمسكن) حتى (يتمكن) ، فلما كاد يتخلص من أعدائه ومنافسيه حتى ظهر على حقيقته العارية ، فقد كانت نفسه المنطوية على الاستبداد تنفر فى قرارتها من هذه السلطة الشعبية ، وتنتظر اليوم الذى تثبت فيه أقدامه فيعمل على التخلص من زعماء الشعب ، وشجع محمد على على الإقدام على هذه الخطوة

الجريئة ما لمسه من تنافس بعض العلماء وتفرق كلمتهم ، وقد صور المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى هؤلاء النفر من العلماء فقال عنهم أنهم «صار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية ، وذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتكالب على سفاسف الأمور » . أما عمر مكرم ونفر آخر من الزعماء المخلصين ، فقد ظلوا عنواناً للكفاح الشعبي والإخلاص لمصالح الشعب المصرى .

وبدأ محمد على ينفذ سياسته فى الخلاص من الزعامة الشعبية عند ما حاول الإنجليز غزو مصر فى سنة ١٨٠٧ ، فقد طلب عمر مكرم تجنيد الشعب المصرى لصد الإنجليز ، ورفض محمد على هذا الاقتراح ، فهو يرمى إلى تكوين جيش مصرى يهدد سلطانه، ويمكن أن يكون بعد جلاء الإنجليز سلاحا يشهره الشعب المصرى فى وجهه . وقال محمد على أنه يكفى الشعب أن يدفع الضرائب ، على أن يتولى هو المسائل العسكرية ! !

واستمر محمد على فى هذه السياسة المعادية للمصالح الشعبية ، وواتته فرصة أخرى فى سنة ١٨٠٩ حينما احتاج إلى مزيد من الأموال ، فلجأ إلى فرض الضرائب الباهظة التى أثقلت كواهل الشعب المصرى ، فارتفعت أصوات الاحتجاج ، ولجأ المصريون كعادتهم إلى الأزهر ، فاجتمع المشايخ والعلماء ، وتعاهدوا ، وأقسموا على الاتحاد ونبذ الفرقة والخلاف ، وكتبوا إلى محمد على يطالبونه برفع المظالم والاستجابة لرغبات الشعب .

ورأى محمد على أن يلجأ إلى سياسة (فرق تسد) ، فطلب الاجتماع بزعماء الشعب ليفاوضهم فى الأمر . ورفض عمر مكرم مبدأ المفاوضة ، واشترط قبل التفاوض أن يصدر محمد على بيانا رسميا ، يعد فيه الشعب بأن يشركه فى حكم بلاده ، وأن يحكم محمد على بمشورة هذا الشعب ، وألا يفرض ضرائب جديدة إلا بعد الرجوع إليه باعتباره مصدر السلطات .

ونجح محمد على بأساليب الترغيب والترهيب أن يستميل إليه بعض العلماء ،

ولكن عمر مكرم تمسك بمبادئه وإخلاصه للشعب ، وحاول محمد على أن يستميله إليه ، ولكن دون جدوى ، وطلب أن يلتقى به ، فأجاب عمر مكرم بأن الوالى إذا أراد لقاءه فليكن ذلك فى بيت السادات . حتى إذا اطمأن محمد على أنه استمال إليه معظم العلماء والمشايخ ، نفى عمر مكرم إلى دمياط ، ووزع وظائفه على هؤلاء المشايخ ومنها نقابة الأشراف ونظارة أوقاف الإمام الشافعى . وظن محمد على أنه قد حطم الزعامة الشعبية ، لينفرد بالحكم ، فيحكم حكما مطلقا مستبداً ، ولكن الفناء يلحق بالطغاة ، والشعوب خالدة باقية عبر الأجيال .

صوّر الميثاق هذه الأحداث تصويراً رائعاً ، فقد أوضح كيف كانت اليقظة الشعبية هى التى دفعت بمحمد على إلى الحكم ، وبين كيف كان موقف محمد على من الحركة الشعبية سبباً لنكسة شعبية أضرت بالمصالح المصرية ، وعقد الميثاق مقارنة رائعة بين أحوال كل من مصر واليابان فى تلك الفترة فقال :

« ولقد كانت هذه اليقظة الشعبية هى القوة الدافعة وراء عهد محمد على . وإذا كان هنا شبه إجماع على أن محمد على هو مؤسس الدولة الحديثة فى مصر ، فإن المأساة فى هذا العهد هى أن محمد على لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له حكم مصر إلا بوصفها نقطة وثوب إلى مطامعه . ولقد ساق مصر وراءه إلى مغامرات عقيمة استهدفت مصالح الفرد متجاهلة مصالح الشعب » .

« إن اليابان الحديثة بدأت تقدمها فى نفس هذا الوقت الذى بدأت فيه حركة اليقظة المصرية وبينما استطاع التقدم اليابانى أن يمضى ثابت الخطى ، فإن المغامرات الفردية عرقلت حركة اليقظة المصرية وأصابتها بنكسة ألحقت بها أفدح الأضرار » .

٣ ـ الكفاح الشعبى للانجليز فى رشيد

حكم محمد على نكسة للكفاح الشعبى :

شهدنا كفاح الشعب المصرى الحملة الفرنسية ، مما جعل عمر هذه الحملةقصيراً محدوداً ، وكان هذا الكفاح هو العامل الأول والأخير لإخفاق هذه الحملة وما وراءها من أطماع وأحلام استعمارية . وجنى الشعب المصرى ثمار كفاحه ، إذ أصبح صاحب السيادة الحقيقية فى مصر بعد جلاء الفرنسيين ، ورأينا الشعب يولى محمد على الحكم ، ولكن هذا الحاكم المستبد تنكر للزعامة الشعبية وحاول الخلاص منها ، وأصبح حكم محمد على يمثل نكسة للكفاح الشعبى . وأدت هذه النكسة إلى عودة الأطماع الأجنبية من جديد ، وكان الإنجليز هم الطامعين فى هذه المرة ، وظهرت أطماعهم واضحة فى حملة فريزر .

صوّر الميثاق هذه النكسة وما جرته على مصر من تدخل أجنبى فقال : « إن هذه النكسة فتحت الباب للتدخل الأجنبى فى مصر على مصراعيه ، بينما كان الشعب قبلها قد رد بنفسه ونجاح محاولات غزو متوالية كانت أقربها فى ذلك الوقت حملة فريزر ضد رشيد . ومن سوء الحظ أن النكسة وقعت فى مرحلة هامة من مراحل تطور الاستعمار . فإن الاستعمار كان قد تطور فى ذلك الوقت من مجرد احتلال المستعمرات ، واستنزاف مواردها إلى مرحلة الاحتكارات المالية لاستثمار رءوس الأموال المنهوبة من المستعمرات » .

لفتت الحملة الفرنسية أنظار الإنجليز إلى مصر ، وإلى موقعها الإستراتيجى الممتاز ، وطمعت انجلترا بعد جلاء الفرنسيين فى تثبيت أقدامها فى مصر استكمالا لسيادتها فى البحار ، وضماناً لسيطرتها على الطرق المؤدية إلى الهند . ولذا تلكأت فى الجلاء عن مصر مدعية أنها لن تترك البلاد إلا بعد استتباب الأمن فى القطر المصرى . وعملت انجلترا فى الوقت نفسه على التحالف مع المماليك فى مصر ، ليكونوا عملاء سياسيين لهم يعملون على تنفيذ سياستها وأطماعها ، إذا عجزت عن

الاحتفاظ بجيوشها فى مصر ، ورحب المماليك بهذا التحالف مع الإنجليز ، فقد كان ظهور الزعامة المصرية يهدد سلطان المماليك بالأخطار .

تعهدت انجلترا لفرنسا فى صلح أميان فى مارس سنة ١٨٠٢ بالجلاء عن مصر، ولكنها ماطلت فى تنفيذ هذا التعهد ، مما اضطر نابليون وتركيا إلى إخراج القوات الإنجليزية سنة ١٨٠٣ ، وصحب الجيش الإنجليزى فى دعوته محمد بك الألفى أحد زعماء المماليك للتفاوض فى تحالف الإنجليز والمماليك . ولم ينجح هذا التحالف ، فقد عاد الألفى ، فوجد الشعب المصرى مسيطراً على السلطة ، وقد تأهب لتولية محمد على .

ولم يبد الإنجليز ارتياحاً لتولية محمد على الذى كان فى نظرهم يمثل السيادة المصرية ، وطلبوا من السلطان العثمانى عزله ، وتولية وال آخر يتيح الفرصة لحلفائهم المماليك بممارسة سلطتهم القديمة وأخفق الإنجليز فى سياستهم سنة ١٨٠٦ ، وما لبثت أن توترت العلاقات بين انجلترا وتركيا ، ورأت انجلترا أن تنتهز هـذه الفرصة للاستيلاء على مصر ، فأرسلت إليها حملة فريزر ، فنزلت الإسكندرية فى ٢١ مارس سنة ١٨٠٧ ، وسلم المحافظ التركى أمين أغا المدينة للانجليز . وكانت الحملة تتألف من حوالى ستة آلاف مقاتل ، فقد اكتفت انجلترا بهذا العدد القليل ، إذ اعتمدت على قوات المماليك بزعامة الألفى ، ولكن خابت آمالهم ، إذ مات الألفى قبيـــل وصول الحملة الإنجليزية إلى مصر .

الشعب يواجه الانجليز فى رشيد :

كان محمد على يحاول القضاء على المماليك فى الصعيد قبل التفرغ لمحاربة الإنجليز الذين توصلوا إلى رشوة حاكم الإسكندرية التركى أمين أغا ليسلمهم المدينة نظير مبلغ كبير من المال ونزل الإنجليز بساحل العجمى ، واستولوا على ميناء أبى قير، وما لبثوا أن دخلوا الإسكندرية واحتلوها واستقبلت البلاد هذه الأنباء بالغضب والجزع . ولكن المصريين قرروا أن يقفوا صفاً واحداً وتعاهدوا على القضاء على

الإنجليز ، الذين رأوا بعد احتلالهم للإسكندرية أن يتخذوا من بلدة رشيد قاعدة لهم فى زحفهم الطويل داخل البلاد ولذلك قرروا احتلالها . وفى ٢٩ من مارس سنة ١٨٠٧ تقدم الجنرال ويكوب بأمر من الجنرال فريزر[1] إلى بلدة رشيد ومعه ألفا من الجنود للاستيلاء عليها ، وكان يتولى شئون رشيد رجل وطنى هو على بك السلانكلى ولم يكن معه سوى ستمائة جندى فلم يجد بدأ من اللجوء إلى شعب رشيد يطلب منه العون .

وكان الشعب عند حسن ظنه ، بل أنه كان قد وطد نفسه على لقاء الإنجليز وعزم على عدم تسليم مدينة رشيد كما سلمت الإسكندرية ، إلا بعد أن تصبح أنقاضاً وعلى جثث أهلها . ولما اطمأن محافظ المدينة إلى حسن إدراك الأهالى ووعيهم الوطنى أمر بإبعاد القوارب والمراكب من الشاطىء الغربى إلى الشاطىء الشرقى ليؤكد لرجاله بأن لا سبيل إلى التقهقر ، وأنه لم يبق عليهم إلا مقاتلة الإنجليز وجهاً لوجه ومحاربتهم . ووضعت خطة المقاومة على أساس أن يتحصن الأهالى مع الجنود الستمائة بأسلحتهم فى المنازل على أن يكونوا على أهبة الاستعداد القتال عند أول إشارة تصدر إليهم . وبذلك خلت الحامية من الجند وخيم السكون على رشيد وبدت المدينة وكأن أهلها قد هاجروا منها . وعند ما تقدم الجنرال ويكوب على رأس جيشه وشاهد هذا السكون خيل إليه أن المصريين ولوا فارين خوفاً من لقائه ، وأن المدينة قد سقطت بين يديه ، ودخل الإنجليز رشيد مطمئنين ، وانتشروا فى الشوارع والطرقات وبدأوا يبحثون عن مأوى يلوذون به ليستريحوا من عناء السفر ، وألقوا رحالهم مطمئنين ليقضوا ليلتهم .. وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى صدرت إشارة البدء فى الكفاح ، فاستيقظت المدينة النائمة وفتحت النوافذ والأبواب المغلقة وانهار الرصاص على الإنجليز كالمطر . وتساقط الجنود الغزاة الذين أذهلتهم المفاجأة وولى من بقى منهم على قيد الحياة فراراً من هول الرعب الذى جثم عليهم وفروا طالبين النجاة من هذا الجحيم الذى فتح فاه على حين

---

(١) فاتد الحملة .

فجأة . وعلى الرغم من هروب الكثير من الإنجليز فقد قتل الوطنيون ما يزيد على ١٧٠ قتيلا كما جرح ٢٥٠ وأسروا ١٢٠ أسيراً وكان الجنرال ويكوب قائد الحملة على رأس من قتلوا .

وهكذا انتصرت المقاومة الشعبية التي نظمها أهالى رشيد ضد جنود بريطانيا المسلحين المدربين على الحروب النظامية . وكان لهذا الانتصار أثر بالغ فى جميع أنحاء البلاد ، ورنة فرح تجاوبت أرجاء مصر ، فلبست الإسكندرية لباس الفرح وسعد أبناؤها لهذا الانتصار الذى عوضهم عن بعض ما هم فيه من ذل الاحتلال . وأما دمنهور فقد عادت إليها ثقتها بنفسها ورجع جنود حاميتها الذين هربوا منها عندما علموا باحتلال الإنجليز للإسكندرية واستعدوا للقائهم إذا ما سولت لهم أنفسهم التوغل فى البلاد ، أليسوا أكثر عدداً وعدة من حامية رشيد ؟ كما أن عدد أهاليها يجاوز ضعف عدد أهالى رشيد أما صدى الانتصار فى مصر فقد فاق كل حد فالبشر على كل ثغر ، والغبطة تملأ كل قلب ، ورفع انتصار شعب رشيد من الروح المعنوية الأهالى وحبب إليهم الكفاح . فى سبيل الوطن ، وثبت إيمانهم بالجهاد لنصرة الحق . حتى أن الأهالى خرجوا من منازلهم يطالبون بالتطوع لمحاربة الإنجليز بنفس راضيـــة وحماس بالغ عارضين أرواحهم وأموالهم فداء الوطن .

وقد بلغ تحمس أهالى القاهرة مداه عندما شاهدوا أسرى بريطانيا وقتلى المعركة فى الموكب الكبير الذى سار فى شوارع القاهرة ويقول الجبرتى فى ذلك :

« فلما كان يوم الأحد السادس والعشرين من محرم ١٢٢٢ هجرية شاع وصول رؤوس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق فهرع الناس إلى الذهاب للفرجة، ووصل الكثيرون منهم ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومنهم طوائفهم — وتطلعوا إلى البر وصحبتهم جماعة العسكر المعسكرين معهم وأتوا بهم من خارج مصر ، ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم وسط المدينة ومنهم قبيال ضابط كبير

السن ، وهو راكب حماراً والبقية مشاة فى وسط العسكر ، ورؤوس القتلى معهم على نبابيت وعدتها أربعة عشر رأساً والأحياء خمسة وعشرون ، ولا يزالون سائرين بهم إلى بركة الأزبكية ، وضربوا عند وصولهم مدافع وطافوا بالأحياء وهم فى سبيلهم إلى القلعة .

وفى يوم الإثنين وصل أيضا حملة من الرؤوس والأسرى إلى بولاق فطافوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأساً وثلاثة عشر أسيراً ومنهم جرحى ، هكذا أعطت رشيد درسـاً لجميع البلدان فى الوطنية والكفاح . وكانت الصدمة شديدة الوقع على قادة الجيش البريطانى . ولما تواترت الأنباء بهزيمة بعثة فريزر على رشيد وقتل قائدها ويكوب ومن معه من الضباط والجنود وفرار باقى الجيش ، حزن فريزر حزناً شديداً وقال لمن حوله من كبار الضباط « إنها معركة غير متوقعة وكارثة فادحة حلت بقواتنا » .

وكان انتصار الوطنيين فى رشيد بمثابة الشرارة التى أشعلت الشعور الوطنى فى كل بلد وفى كل بيت ، وشعر الوطنيون بمزيد من الثقة ، وعمر قلوبهم إيمان عميق ورغبة جياشة إلى لقاء فاصل مع الإنجليز وهو اللقاء المرتقب ، ذلك لأن بريطانيا وقد آلمتها الهزيمة أرادت أن ـــ تمحوها بنصر يثبت أقدامها وينتقم لجنودها ولكنها كانت بذلك كالنعامة التى ذهبت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين !

حملة الانتقام أو الدرس الثانى لرشيد

كانت مصر تعلم عن يقين أن بريطانيا لن تسكت على هذه الهزيمة النكراء التى حاقت بها على يد الوطنيين فى رشيد ، ولذلك فقد أخذ الشعب يستعد ، وهب العلماء والشيوخ فى القاهرة بزعامة السيد عمر مكرم يدعو طوائف الشعب للتطوع لكفاح الإنجليز ومؤازرة شعب رشيد وبدأوا فى تحصين مدينة القاهرة ، فحفروا الخنادق وأقاموا المتاريس ووزعوا السلاح على القادرين من الاهالى ، لا فرق بين مسلم ومسيحى ولا قبطى فالجميع فى حالة جهاد للدفاع عن وطن واحد .

يقول الجبرتى : « وفى يوم الأربعاء ٢٩ من المحرم ركب السيد عمر النقيب والقاضى والأعيان (الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وكتخدا بك وحسن باشا والدفتردار وفى صحبتهم قنصل الفرنساوية وفى صحبتهم أيضا الجم الكثير من الناس والأتباع والكل بالأسلحة وشرعوا فى حفر الخنادق على مياسير الناس ، وكذلك أهل بولاق والنصارى والأروام والشوام والأقباط واشتروا المقاطف والقفف والفؤوس وآلات الحفر ، وشرعوا فى بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية » .

ولما انتهى المصريون من تحصين القاهرة شرعوا فى إرسال المتطوعين إلى رشيد لمؤازرة أهلها .

وكان الإنجليز فى ذلك الوقت قد أعدوا حملة الانتقام بقيادة الجنرال ستيوارت على رأس جيش قوامه ٤٠٠٠ جندى مسلحين بأحدث الأسلحة وخرجت الحملة من الإسكندرية فى الثالث من أبريل سنة ١٨٠٧ ، ولما وصلت إلى مشارق رشيد احتلت كتيبة منها بلدة الحماد التى تقع بين أدكو وبين النيل وجنوب رشيد سعياً وراء تطويق رشيد لمنع وصول الإمدادات إليها من الجنوب . كما احتلت كتيبة أخرى هضبة أبى مندور وأقاموا عليها المدافع وأما باقى الجيش فانتشر حول رشيد من الغرب والجنوب ، ولما أتموا حصارها بدءوا فى ٧ أبريل فى ضربها بقنابل

مدافعهم ، وكان الانجليز يعتقدون أن رشيد ستستسلم لهم وأنها لن تصمد لوابل قنابلهم ، خاصة وانها أصبحت مكشوفة أمامهم بعد أن طوقوها من كل جانب ولكن رشيد صمدت ولم تستسلم وصبرت رغم تهدم الكثير من المنازل وسقوط العديد من الضحايا بين قتلى وجرحى . وقد انزعج الانجليز أمام هذه المقاومة الرائعة . وتحيروا فى سر استبسال الوطنيين الذين أصبحوا فى عزلة تامة عن باقى المدن ولم يعد أمامهم سوى الاستشهاد تحت الجدران التى كانت تتهاوى من أثر قصف المبانى بالمدافع ، وقد بدت دهشة الانجليز واضحة فى الكتاب الذى أرسله الجنرال ستيوارت قائد الحملة الى فريزر فى الاسكندرية يقول فيه « تبين لنا أن الأعداء لا يكترثون بالمصائب التى تنزل بهم . وأن قواتهم لاتزيد على مابلغنا عن ٣٠٠ من الفرسان و ٨٠٠ من الارناؤط وألف من الأهالى المسلحين ، ولكنه نظرا لسعة خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهم أرى من الحكمة أن أتعجل باقتحام المدينة وأن نجاحنا متعلق على نجدة المماليك فاذا جاءوا الينا أمكننا أن نرسل الى البر الشرقى من النيل قوة تشترك معنا فى القتال أما الآن فيستحيل علينا ذلك لأن العدو متفوق علينا فى قوة فرسانه وليس لدينا مثل هذه القوة التى لها عمل كبير فى الجهات المنبسطة كالدلتا ، وفى انتظار تلك النجدة تبين لنا أهمية موقفنا فى الحماد فاننا نتوقع أن يهاجمنا الأعداء فيها وسنبذل كل جهودنا لاستبقائها فى يدنا » .

وكان أهل رشيد فى صمودهم العجيب لقوات الغزو تنتظر النجدة من مصر هى الأخرى وأرسل السيد نقيب الأشراف برشيد رسالة الى السيد عمر مكرم يستحثه فيها على ارسال الرجال والعتاد استعدادا للمعركة الفاصلة . ولم يكن السيد عمر مكرم فى حاجة الى رسالة نقيب الأشراف برشيد لأنه منذ أن تحركت حملة ستيوارت وهو دائم الحركة لايهدأ له قرار فتراه يخطب فى الجماهير يحضهم على التطوع لمحاربة العدو ثم يعقد الاجتماعات لأعيان البلاد ليحثهم على التبرع بالمال . وأخيرا تجده بين العمال والأهالى الذين يحفرون الخنادق ويقيمون الاستحكامات وقد لبى نداء السيد عمر مكرم كثير من الأهالى والوطنيين الذين سافروا على الفور الى رشيد ، وفى ذلك الوقت عاد محمد على من الصعيد وكان يطارد المماليك هناك

لمواجهة الموقف فى مصر . ورأى أن لايترك الشعب فى رشيد يكافح بمفرده — قوات الغزو واجتمع مع العلماء وقادة الشعب وقرروا ارسال جزء من الجيش لمؤازرة الوطنيين هناك .وكانت الحملة ينقصها المال وعلى الفور تبرع أهالى القاهرة بتسمائة كيس من النقود لتغطية نفقات الحملة وانضم الجيش الى رجال المقاومة فى رشيد الذين ظلوا يقاومون الانجليز وحدهم مايقرب من أسبوعين وبوصول النجدات ارتفعت معنوية الشعب وزادت حماسه وقويت شكيمته وأسرع للقاء الانجليزوكانأول لقاء بينهما فى قرية أبى حماد التى كان يحتلها الانجليز لأهميتها الحربية، اذ كانت تقع فى برزخ بين النيل وبحيرة أدكو . وفى ٢٠ أبريل سنة ١٨٠٧ دارت المعركة للاستيلاء على هذه القرية ذات الموقع الهام وطرد الانجليز — الذين أرسلوا فى ٢١ أبريل قوة كبيرة لتعزيز حامية قرية أبى حماد ولكن المصريين المتعطشين للانتقام باغتوها وأحاطوا بها من كل جهة ، وحمى وطيس المعركة ورجحت كفة المصريين،وسقط الانجليز وتهاوت الرؤوس الحمراء تحت الأقدام، واستسلم بعضهم وهرب البعض الآخر . وتعقب المصريون فلول حملة فريزر فى السهول والوديان حتى كتب لهم النصر بعد أن قتلوا من الانجليز مايزيد على ٤٥٠ قتيلا ، وأسروا أكثر من ٤٠٠ جندى وضابط من جنود الامبراطورية ولما علم الجنرال ستيوارت بنتيجة المعركة وما أصاب جيشه من هزيمة قرر الانسحاب من رشيد ، فأتلفت مدافعه ومعداته وقفل راجعا الى الاسكندرية يجر أذيال الخيبة والخذلان . وعلى الرغم من تكتم الانجليز لأمر انسحابهم فان المصريين عرفوا به وتعقبوهم أثناء انسحابهم وظلوا يطلقون عليهم النار طوال طريق انسحابهم الذليل وانتقلت أنباء انتصار الوطنيين فى رشيد الى جميع الأرجاء . واحتفلت مصر رسميا بهذا اليوم فما كادت شمس يوم ١٣ أبريل تبزغ حتى دوت طلقات المدافع فى الأفق تعلن فرحتها بهذا الانتصار الكبير ويقول — الجبرتى فى هذا : « فى يوم الخميس حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الانجليز وهزيمتهم ، وذلك أنه قد اجتمع الجم الكبير من أهالى البحيرة وغيرها وأهالى رشيد ومن معهم من المتطوعين والعساكر وأهل دمنهور وصادف وصول كتخدا بك واسماعيل كاشف

الطوبجى الى تلك الناحية ، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة وأسروا من الانجليز طائفة ، وقتلوا منهم عدة رؤوس فخلع الباشا محمد على على الساعيين جوختين ،وفى أثر ذلك وصل أيضا شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر وبالغا فى الاخبار وأن الانجليز انجلو عن متاريس رشيد الى منذور والحماد — ولم يزل المقاتلون من أهالى القرى خلفهم الى أن توسطوا البرية وغنموا ضماناتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين ».

وفى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ وقعت معاهدة الصلح بين انجلترا ومصر على جلاء القوات البريطانية من الاسكندرية فى مدى عشرة أيام على أن يسلم محمد على الى القوات البريطانية الأسرى والرهائن الانجليز .

وبهذا النضال الرائع ، سجل الأهالى فى رشيد أروع صفحة من صفحات الكفاح التى قام بها الوطنيون المصريون فى كفاحهم الطويل ضد المستعمرين والغزاة .

الباب الثاني

الشعب والجيش
في الثورة العرابية

١ – أسس الثورة .

٢ – الجيش أمل الشعب .

٣ – الشعب والجيش يواجهان الاحتلال .

١ ــ أسس الثورة

اعراض النكسة :

وصف الميثاق حكم محمد على بأنه (نكسة) ، عرقلت اليقظة المصرية ، وألحقت بها أفدح الأضرار . وقد استمرت هذه النكسة طوال حكم أسرة محمد على ، حتى ثار الشعب والجيش بزعامة أحمد عرابى .

وكانت الاحتكارات المالية الدولية أبرز أعراض هذه النكسة ، وقد أمدنا الميثاق بصورة تاريخية رائعة فقال : « وبدأت الاحتكارات المالية الدولية دورها الخطير فى مصر ،وركزت نشاطها فى اتجاهين واضحين ، هما حفر قناة السويس ، وتحويل أرض مصر الى حقل كبير لزراعة القطن ، لتعويض الصناعة البريطانية عن أقطان أمريكا التى قل ورودها الى بريطانيا بسبب انتهاء سيطرتها على أمريكا. ثم انقطاع وصولها تماما بسبب ظروف الحرب الأهلية الأمريكية » .

ومن اعراض هذه النكسة أيضا استنزاف القوى الأجنبية كل امكانيات الثروة الوطنية فى مصر ، وأبرز الميثاق هذه الحقيقة فقال : « ولقد عاشت مصر فى هذه الفترة تجربة مروعة استنزفت فيها كل امكانيات الثروة الوطنية لصالح القوى الأجنبية ، ومصلحة عدد من المغامرين الأجانب الذين تمكنوا من السيطرة على أمراء أسرة محمد على ، وساعدهم على ذلك فداحة النكسة التى أصيبت بها حركة اليقظة المصرية » .

وقد استترت هذه القوى الأجنبية فى هذه السياسة الغادرة وراء الامتيازات الأجنبية أولا ، ثم عن طريق الأزمة المالية ثانيا . وأدى هذا كله الى التدخل فى شئون مصر الداخلية،مما أثار مشاعر الشعب المصرى ، فقامت الثورة العرابية.

كان الأصل فى الامتيازات الأجنبية تسهيلات وضمانات منحتها الدولة العثمانية

للأجانب المقيمين فى أراضيها ، ومنها مصر ، وذلك تشجيعا لهم على الاقامة والتجارة واستغلال أموالهم فى المجال الاقتصادى . ولكن هذه الامتيازات اتخذت صورة خطيرة بعد انحلال الدولة العثمانية وضعفها ، فقد أصبحت هذه الامتيازات جسرا عبره الأوروبيون للتدخل فى شئون مصر وسائر الولايات العثمانية. وتدفق الأجانب على مصر فى القرن التاسع عشر بشكل لم يسبق له مثيل ، وبلغت اقامتهم حد الاستيطان الدائم. ومما أدى الى زيادة خطر الامتيازات ضعف الحكومة المصرية فى عهدى سعيد واسماعيل واتباع هذين الحاكمين سياسة مكنت الأجانب فى مصر ، وشجعتهم على التدفق الى البلاد حتى بلغ عددهم أكثر من سبعين ألفا سنة ١٨٧٨ مقابل ثلاثة آلاف سنة ١٨٣٦ ، واستسلم سعيد لقناصل الدول الأجنبية ومنحهم حقوقا واسعة لم تكن لهم . كما استفاد هؤلاء الأجانب من تبذير اسماعيل وسفهه وفازوا بالمزيد من الامتيازات . وأصبح الأجانب لايحاكمون الا أمام المحاكم القنصلية مما أنقص من سيادة الدولة المصرية . ومالبث اسماعيل أن أنشأ المحاكم المختلطة وجعل معظم قضاتها من الأوروبيين الذين تحيزوا للأجانب ضد المصريين.

أما الأزمة المالية فقد ظهرت بوادرها فى عهد سعيد ، فقد منح امتياز قناة السويس للأجانب ، وأسرف فى الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية لينفق على ملذاته ورفاهيته . وكان سعيد يستدين من المرابين ديونا سائرة بواسطة سندات يحررها على الخزانة بالقيمة المقترضة . ومات سعيد تاركا وراءه دينا يزيد أصله على عشرة ملايين من الجنيهات. وسار اسماعيل على نفس السياسة ، فاقترض من البنوك مبالغ كبيرة بفوائد عالية ورهن عليها موارد البلاد لسداد أقساطها ، وتراكمت الديون على مصر حتى بلغت سنة ١٨٦٩ أى بعد ست سنوات من توليته الحكم مبلغ ٣٥٠٦١٥٠٠ جنيها . وأنفق اسماعيل حوالى ٣ مليون جنيه على الهدايا والرشاوى التى بذلها وحاشيته للحصول على فرمان سنة ١٨٦٦ الذى جعل وراثة العرش فى أكبر أبنائه ، كما أنفق حوالى ٢ مليون جنيه للحصول على لقب (خديو) سنة ١٨٦٧ . كما أنفق مليونا ونصف مليون جنيه فى حفلات افتتاح

قناة السويس سنة ١٨٦٩ . ورهن اسماعيل أطيانه الخاصة ، ثم رهن ايرادات السكك الحديدية والضرائب الشخصية والضرائب غير المقررة وعوائد الملح ، ثم لجأ الى عقد قروض داخلية من أهالي البلاد سنة ١٨٧١ اتخذت صورة اجبارية.

وفي سنة ١٨٧٥ وصلت الأزمة المالية الى ذروتها ، وتضخمت الديون وفوائدها الباهظة ، وعجزت الحكومة عن سداد الأقساط ،وكادت تعلن أفلاسها ، وكانت جميع موارد الدولة مرهونة للديون ، فأقدم اسماعيل على بيع أسهم مصر في قناة السويس وهي ١٧٦٦٠٢ سهما أي مايقرب من نصف رأس مال شركة قناة السويس ، اشترتها انجلترا بثمن بخس قدره ٣٩٦٧٥٨٣ جنيه ، فأصبح لانجلترا نفوذ قوي في شئون القناة ، ومهدت هذه الصفقة للاحتلال البريطاني فيما بعد .

وأدت الأزمة المالية الى التدخل الأجنبي ،وعرضت انجلترا على اسماعيل ارسال (بعثة كيف) سنة ١٨٧٥ لحل المشكلة المالية ، فوافق اسماعيل ، فكان هذا اعترافا منه بالتدخل الأجنبي.ومالبثت فرنسا أيضا أن أرسلت أحد موظفيها ، واشتد التنافس بين الدولتين حول التدخل في شئون مصر . ثم تكون (صندوق الدين) سنة ١٨٧٦ من مندوبين عن الدول الدائنة ، وأصبح هذا الصندوق أول هيئة رسمية أوروبية أنشئت لغرض التدخل الأجنبي في شئون مصر . ثم قدمت بعثة (جرشن — جوبير) الانجليزية الفرنسية ، ثم قام نظام المراقبة الثنائية ، فقد تولى مراقبان، أحدهما انجليزي والآخر فرنسي ، للاشراف على مالية مصر.

ازدادت أحوال مصر المالية سوءا ، فانتشرت المجاعة في البلاد ، وساءت حال الموظفين بسبب عدم دفع مرتباتهم ، واضطر الفلاحون الى بيع محصولهم قبل الحصاد بنصف الثمن أو أقل ليحصلوا على أقواتهم الضرورية ؛ وانتشرت الأوبئة ، وتناقص عدد السكان . وفرضت انجلترا وفرنسا تأليف وزارة مختلطة يدخلها وزيران أوروبيان ، أحدهما انجليزي لوزارة المالية ، والثاني فرنسي لوزارة الأشغال ، وأوعزت الدولتان الى الخديو باختيار نوبار باشا لرئاسة هذه الوزارة ، وهو معروف بولائه للدولتين وتحيز نوبار للأجانب ،وأبعد الموظفين

المصريين بحجة الاقتصاد فى النفقات ،واشتد فى جمع الضرائب ، مما ألهب مشاعر المصريين ، وبدأ الكفاح الشعبي يظهر على مسرح الأحداث فى مصر .

روح الشعب لم تستسلم :

اقتبسنا هذا العنوان من الميثاق ، فالشعب المصرى يتميز دائما بالحيوية المتدفقة ، التى تجعله مستعدا للكفاح والنضال فى كل حين ، وكانت هذه الكوارث هى الوقود الذى ألهب نيران الثورة الشعبية ، وكانت هذه المحن هى التى أطلقت طاقات الشعب المصرى .

قال الميثاق : « على أن روح هذا الشعب لم تستسلم ، وانما استطاعت تحت المحن العصيبة فى هذه الفترة أن تختزن طاقات تحفزت لاطلاقها فى اللحظة المناسبة » .

وكان (العلم) هو مصدر هذه الطاقة ، وكان شباب مصر المتعلم هم أساس اليقظة المصرية التى بددت النكسة التى أصابت الكفاح الشعبي بعد حكم محمد على .

فقال الميثاق : « وكانت هذه الطاقة هى العلم الذى حصل عليه آلاف من شباب مصر الرواد ممن أرسلوا أيام الصحوة التى سبقت النكسة من حكم محمد على ، الى اوروبا ، ليتمكنوا من العلم الحديث .فانهؤلاء استطاعوا بعدعودتهم الى الوطن أن يجلبوا معهم بذور صالحة مالبثت التربة المصرية الخصبة لمصر أن احتضنتها لتخرج منها بشائر نبت ثقافى جديد راح ينشر ألوانارائعة من الأزهارعلىضفاف النيل الخالد » .

وأصبح هؤلاء الشباب المصرى منبرا للفكر العربى ، ومشعلا للكفاح الشعبي، فقال الميثاق : « وليس صدفة أن هذه الزهور المتفتحة على ضفاف وادى النيل كانت بمثابة الومضات اللامعة التى لفتتأنظار العناصر المتطلعة الى التقدمفى المنطقة كلها نحو مصر ، وجعلت منها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر منبرا للفكر العربى كله ، ومسرحا لفنونه ، وملتقى لكل الثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة والموهومة » .

المصريين بحجة الاقتصاد فى النفقات ،واشتد فى جمع الضرائب ، مما ألهب مشاعر المصريين ، وبدأ الكفاح الشعبى يظهر على مسرح الأحداث فى مصر .

روح الشعب لم تستسلم :

انتبينا هذا العنوان من الميثاق ، فالشعب المصرى يتميز دائما بالحيوية المتدفقة ، التى تجعله مستعدا للكفاح والنضال فى كل حين ، وكانت هذه الكوارث هى الوقود الذى ألهب نيران الثورة الشعبية ، وكانت هذه المحن هى التى أطلقت طاقات الشعب المصرى .

قال الميثاق : « على أن روح هذا الشعب لم تستسلم ، وانما استطاعت تحت المحن العصيبة فى هذه الفترة أن تختزن طاقات تحفزت لانطلاقها فى اللحظة المناسبة » .

وكان (العلم) هو مصدر هذه الطاقة ، وكان شباب مصر المتعلم هم أساس اليقظة المصرية التى بددت النكسة التى أصابت الكفاح الشعبى بعد حكم محمد على . فقال الميثاق : « وكانت هذه الطاقة هى العلم الذى حصل عليه آلاف من شباب مصر الرواد ممن أرسلوا أيام الصحوة التى سبقت النكسة من حكم محمد على ، الى اوروبا ، ليتمكنوا من العلم الحديث .فانهؤلاء استطاعوا بعدعودتهم الى الوطن أن يجلبوا معهم بذور صالحة مالبثت التربة المصرية الخصبة لمصر أن احتضنتها لتخرج منها بشائر نبت ثقافى جديد راح ينشر ألوانارائعة من الأزهارعلىضفاف النيل الخالد » .

وأصبح هؤلاء الشباب المصرى منبرا للفكر العربى ، ومشعلا للكفاح الشعبى، فقال الميثاق : « وليس صدفة أن هذه الزهور المتفتحة على ضفاف وادى النيل كانت بمثابة الومضات اللامعة التى لفتتأنظار العناصر المتطلعة الى التقدمفى المنطقة كلها نحو مصر ، وجعلت منها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر منبرا للفكر العربى كله ، ومسرحا لفنونه ، وملتقى لكل الثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة والموهومة » .

خاصة ، وفى العالم العربى عامة الفيلسوف جمال الدين الأفغانى ، وكان يدعو الى الحرية والمساواة ويطالب بحقوق الانسان والشعب ، ومن أجل هذا أنشأ صحيفتى مصر بالقاهرة والتجارة بالاسكندرية كما خطط لجريدة ثالثة اسمها «أبو نضارة» رأس تحريرها الأستاذ يعقوب صنوع ، وكان ينتقد سياسة اسماعيل ويهاجمها ، وكان يلقى تعاليمه على مريديه وطلبته فى منزله بخان الخليلى أو بقهوة البوسطة «بالعتبة الخضراء» وهم كثيرون نذكر منهم :الشيخ محمد عبده ، وابراهيم اللقانى ، ومحمود سامى البارودى ،وعبد السلام المولحى ، وسعد زغلول ، وسرت تعاليم جمال الدين بين الناس سريان النار فى الهشيم . فخشى الخديوى توفيق على نفسه من هذه الآراء الحرة فاستدعى الأفغانى وقال له: « انى أحب كل خير للمصريين ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح — ولكن مع الأسف أكثر الشعب جاهل لايصلح أن يلقى عليه ماتلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة » .

ورد جمال الدين قائلا : « ليسمح لى أمير البلاد أن أقول بحرية واخلاص أن الشعب المصرى كسائر الشعوب لايخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل — فالنظر الذى — تنظرون به الى الشعب المصرى ينظر به اليكم وان قبلتم نصح المخلص وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد وعن طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وارادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم ، وقد أخذ جمال الدين الأفغانى يدرب الشباب على الكتابة ، ويوحى اليهم بالمعانى الجديدة التى يكتبونها ، ويشجعهم على اصدار الصحف التى تتصدى للكتابة فى الموضوعات التى تمس حياة الأمة فى صميمها . فشجع أديب اسحق على أن ينشىء جريدة « مصر » التى كان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها ويكتب بنفسه مقالاتها باسم مستعار . كما شجعه على اصدار صحيفة « التجارة » ، وأخذت هاتان الجريدتان تنشران مايوضح مبادىء الوطنية ، ويعرف الناس بأصول

المبادىء الحرة ، وأصدر ميخائيل عبد السيد — بإيحاء من جمال الدين — جريدة « الوطن » ذات الصبغة السياسية الأدبية التى انضمت الى شقيقاتها قبل الاحتلال وبعده فى تعضيد الحركة الوطنية . وشجع يعقوب صنوع على انشاء مجلة هزلية اسمها « أبو نضارة » التى كانت أولى الجرائد العربية التى تكتب بأسلوب عامى فكه ساخر ، وانتقدت التدخل الأجنبى والامتيازات التى تمتع بها الاجانب ، بل نقدت اسماعيل نفسه فصادر المجلة .

ومن وراء هذه الصحافة الناشئة كان نشاط جمال الدين فى الهيئات الماسونية الأجنبية التى كانت تضم فئات مصرية مختلفة : من أدباء وضباط وعلماء وباشوات وطلبة الأزهر وخريجيه، وبعض أعضاء مجلس شورى النواب الذى أنشأه اسماعيل فى عام ١٨٦٦ ولم ترق هذه الآراء ولا ذلك النشاط بطبيعة الحال للخديوى توفيق فقبض عليه ونفاه الى خارج مصر فى ١٨٧٩/٨/٢٤ .

ومن خطباء الثورة العربية عبد الله النديم الذى اعتنق مبادىء — جمال الدين — فأنشأ مدرسة خيرية اسلامية بالاسكندرية من التبرعات التى جمعها من الأعيان وأدخل فيها لأول مرة تعليم البرامج الوطنية والقومية ثم أنشأ صحيفة أسماها « التنكيت والتبكيت » وعندما قامت الثورة العرابية انتقل الى مصر وتعرف على زعمائها وانضم الى الثورة ثم أصبح خطيبها والمتحدث بلسانها .

ومن العلماء الذين كان لهم أثر بالغ فى اليقظة الفكرية وقتذاك الشيخ محمد عبده — تلميذ جمال الدين والحافظ لتعاليمه ، وقد دعا هو أيضا الى الحرية وسعى الى نشر الوعى الوطنى والقومى بين أفراد الشعب — وعندما قامت الثورة العرابية انضم اليها ودعا لها . وبعد فشل الثورة نفى الى الخارج مع زميله عبد الله النديم وغيره من زعماء الثورة .

هؤلاء كانوا بعض العلماء والمفكرين الذين كان لهم أثر فى نشر الوعى الوطنى بين الشعب — ومالبثو أن تأثروا بالثورة العرابية وتفاعلوا معها .

٢ ــ الجيش أمل الشعب

غضبة الجيش :

لم يكن ثمة عدل ولا قانون ولا قضاء ينصف المظلوم ويعطى كل ذى حق حقه ولا حرية ولا مساواة ، ولا ضمانات قانونية ، تنقل للناس حقوقهم وحياتهم وكان الضرب بالكرباج شائعا يتخذه الحكام وسيلة لتحصيل الأموال وأداة للقسوة والتعذيب .

ومما زاد الطين بلة أن النفوذ التركى والشركسى كانا يسيطران على المجتمع المصرى ، وزاد الحالة سوءا وجود عثمان رفقى وهو شركسى متعصب ــ وزيرا للحربية فى وزارة رياض باشا،وكان يؤثر الضباط الأتراك على زملائهم المصريين ويفرق بينهم فى المعاملة وكان من نتيجة ذلك أن احتل الضباط الأتراك المراكز الهامة فى الجيش ، فى حين تخلف المصريون وظلوا فى رتبهم مددا طويلة دون ترقية بل أنه كان يعين الضباط الأتراك فى المدن الرئيسية والوظائف المرموقة ، ويترك ماعدا ذلك للضباط المصريين دون أى اعتبار لكفاءة أو شجاعة .

وكان من أثر هذه التفرقة الناشئة أن شعر الضباط المصريون بوطأة الظلم عليهم فبدأوا يتجمعون ــ ويتشاورون لرد طغيان الضباط الشراكسة ووقف حملة الظلم التى شنها رئيسهم عثمان رفقى .ووجدوا فى أحمد عرابى [1] وكان ضابطا برتبة أميرالاى بالجيش بغيتهم ، وكان يمتاز بدماثة الخلق والجرأه فضلا عما يتمتع به من شخصية جذابة فالتفوا حوله وعقدوا عليه الآمال، وصاروا يجتمعون به فى بيته بين الحين والحين ، وفى ذلك الوقت صدر قانون القرعة العسكرية الذى كان من شأنه الحيلولة دون ترقى الضباط من تحت السلاح وفتح باب الترقى الأتراك وحدهم مع ما كان معروفا عنهم من جهل وغباء ينافسهم فيها وزيرهم عثمان رفقى الذى وردت

---

(١) ولد أحمد عرابى فى ٣١ من مارس سنة ١٨٤١ بقرية هرية بجوار مدينة الزقازيق شرقية من أسرة عربية صميمة .

أنباء جهله بين ما ورد عن ثورة عرابى من أنباء وزادت الحالة سوءا عندما أصدر عثمان رفقى أمره بنقل الأميرالاى عبد العال حلمى قائد آلاى طره الى ديوان الجهادية برتبة معاون بها تنزيلا لدرجته ، وتعيين خورشيد الشركسى مكانه ، كما فصل مصريا آخر هو أحمد عبد الغفار من الجيش وعين مكانه ضابطا تركيا هو شاكر بك طمازة .

فاستشاط عرابى غضبا لهذه الأنباء ، وكان مدعوا بمنزل نجم الدين باشا ، وقال لمن معه « ان هذه لقمة كبيرة لايقوى على هضمها » ، وتوجه الى منزله وكان به بعض الضباط الذين تعودوا الاجتماع به من أمثال الأميرالاى عبد العال حلمى قائد آلاى طره المنقول ، والبكباشى خضر ، والأميرالاى على فهمى قائد الآلاى الاول وهو آلاى حرس الخديوى ، والبكباشى ألفى يوسف وأحمد عبد الغفار ، واجتمع بهم وفى هذا الاجتماع انتخبوا عرابى رئيسا لهم ، ويقول عرابى فى مذكراته أنه رفض هذه الانابة ولكنهم صمموا عليها وقال لهم : « أنظروا الى غيرى وأنا أسمع وأطيع وأنصح لجهدى فقالوا انا لانبغى غيرك ولا نثق الا بك فأثبت لهم أن الأمر عصيب ولا يسع الحكومة الا قتل من يتصدى لها ، فقالوا نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا فقلت لهم : أقسموا على ذلك فأقسموا على السيف ، والمصحف » وأرسل عرابى على الفور رسالة الى رئيس الوزراء رياض باشا أوضح فيها مايقع فى الجيش من الظلم بالتفرقة التى يقوم بها عثمان رفقى بين الضباط والأتراك وزملائهم المصريين ، وطالب بارجاع من عزلهم من وزير الحربية . ووقع على هذه العريضة عدا عرابى كل من على فهمى وعبد العال حلمى .

وفى يوم ١٧ من يناير سنة ١٨٨١ — أى غداة يوم الاجتماع — قدموها الى رئيس الوزارة رياض باشا الذى حاول تهديدهم قائلا : « ان تقديم مثل هذه العريضة يؤدى الى الهلاك » ، ولكن عرابى وصحبه لم يرهبهم تهديد رياض وأجابوه بأن مطالبهم تستند الى العدالة والحق والقانون ، ولولا — اقتناعهم لما كتبوها ولا حضروا . وأخيرا قال لهم رياض أنه سينظر فى طلباتهم واجتمع بمجلس الوزراء

بعد ذلك فى سراى عابدين بحضور الخديوى توفيق وقرروا القبض على الزعماء الثلاثة ومحاكمتهم عسكريا ، وكان صاحب هذا الرأى عثمان باشا رفقى ، وأيده الخديوى ، وكان يعارضه رئيس الوزراء وبعض الوزراء ، ولكنهم لم يلبثوا أن وافقوا على رأى وزير الحربية والخديوى . وتألف المجلس العسكرى برياسة الجنرال ستون رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، ثم تحايل عثمان رفقى لكى يقبض على عرابى وصاحبيه بأن وجه لهم بطاقات دعوة لحضور الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديوى ، وشعر عرابى وصحبه بما يدبر لهم ، فاتفقوا مع باقى وحدات الجيش لمراقبة الحالة ، وذهبوا الى ديوان الوزارة بقصر النيل، التى أصبحت ثكنات الجيش الانجليزى بعد ذلك وبمجرد حضورهم جردهم الضباط الشراكسة الموالون للحكومة من أسلحتهم وقرأ الجنرال ستون عليهم الأمر القاضى باعتقالهم ومحاكمتهم . وسار المعتقلون الثلاثة بين صفين من الضباط الشراكسة الذين كانوا يشهرون فى وجه عرابى وصاحبيه سيوفهم ويوجهون اليهم أقذع الألفاظ حتى أودعوا السجن بقصر النيل . وعين عثمان رفقى على الفور ضابطا بالجيش مكان عرابى — وصاحبيه . ولما علم الجيش ما وقع لعرابى ورفيقيه ثار الضباط وقام — البكباشى محمد عبيد فأمر الجند بالتوجه لانقاذ المعتقلين ولما حاول القائمقام خورشيد بسمى الذى عينه عثمان رفقى مكان على فهمى الاعتراض ، أمر عبيد باعتقاله . واتجه الجيش بكامل أسلحته بقيادة محمد عبيد الى قصر النيل ، فلما علم الخديوى بتحرك الجيش أرسل لهم ياوره الخاص الفريق راشد باشا لتهدئة الحالة ، ولكنهم لم يعبأوا به ، فعاد الخديوى وطلب مقابلة الضباط فرفضوا ولم يستمعوا له وضربوا حصارا حول قصر النيل وهاجموه شاكى السلاح ودخلوا الى القصر مهللين منتصرين ، فهرب الضباط الشراكسة منه وعلى رأسهم عثمان رفقى ، ولم يجدوا بالقصر سوى أفلاطون باشا وكيل وزارة الحربية ، وأستون باشا رئيس المحكمة العسكرية التى كانت ستحاكم قادة الثورة،وبعض الأجانب فاعتقلوهم وأنقذوا الضباط الثلاثة أحمد عرابى وعبد العال حلمى — وعلى فهمى — وكان أول شخص اقتحم الحجرة التى اعتقلوا بها البكباشى الشجاع محمد عبيد — وقد استشهد بعد ذلك أثناء مقاومة الانجليز فى معركة التل الكبير .

كان الآلاى الأول بقيادة البطل محمد عبيد هو أول من خف لإنقاذ الضباط المعتقلين وتبعه آلاى طره الذى كان يرأسه عبد العال حلمى قبل أن يفصله عثمان رفقى — وقد عين مكانه الأميرالاى خورشيد نعمان — وعند ما سمع هذا بأنباء الإضرابات حضر ليتسلم الآلاى وكان معه خورشيد باشا طاهر وأحمد بك حمدى ياور الخديوى ولكن البكباشى خضر أفندى حضر واعتقلهم كما اعتقل من كان معهم من الضباط ثم قاد فرقته بعد أن سلحها إلى قصر النيل وقد أرسل الخديوى للبكباشى خضر ياوره ليقنعه بالعودة لأن عرابى ورفيقه كان قد فك اعتقالهم محمد عبيد فلم يستمع له واعتقد أن الخديوى يغرر به . وعند ما وصل آلاى طره إلى ميدان عابدين التقى بالآلاى الأول بعد أن فك أسر الضباط الثلاثة ، وكان لقاء حاراً وما لبث أن عزفت الموسيقى وتعالت هتافات الناس معربين عن فرحتهم بهذا الانتصار ، وتوافدت جماعات من الشعب لتحية الجيش معربة بذلك عن سرورها لهذه الظفرة — الجديدة التى كانوا ينتظرونها منذ أمد طويل . وكانت لهذه المظاهرة العسكرية دوى كبير فاضطر الخديوى للإذعان لطلبات الجيش .

فعزل عثمان رفقى وعين مكانه محمود سامى البارودى الذى كان يعطف على حركة الضباط . واستمر عرابى يوالى طلباته ويجتمع سراً بمنزله مع زملائه حتى استجابت الحكومة لمطالبه العادلة الأخرى وتحسنت حالة الجيش عن ذى قبل ، وارتفعت مرتبات الجند والضباط ولكن الخديوى والضباط — الشراكسة لم يعجبهم انتصار الوطنيين ، فبدؤا فى إثارة الفتن وحوك الدسائس من ذلك ما ثبت من مؤامرة يوسف باشا ناظر الخاصة الخديوية ، وتحريض الخديوى لبعض الضباط السودانيين كفرح الزينى وغيرهم . وفى أثناء ذلك أقال الخديوى سامى البارودى من وزارة الحربية على أثر ما أبداه من ملاحظات على قسوة الحكم الذى أصدره الخديوى على بعض الجنود لقاء احتجاجهم على مقتل زميل لهم[1] . فغضب الجيش وتوجس

(١) أصاب أجنبى أثناء قيادته عربته أحد الجنود المصريين فقتله — فحمله زملاؤه إلى قصر رأس التين بالاسكندرية وكان الخديوى توفيق يصطاف بها عارضين عليه شكواهم فاعتبر الخديوى هذا العمل إهانة لمقامه وأصدر حكماً عسكرياً عليهم وكانوا ثمانية جنود بالأشغال الشاقة المؤبدة .

خيفة ، وأراد عرابى أن يستعين بنصيحة إسماعيل باشا راغب الذى عرف عنه بعد النظر وسداد الرأى ، فأشار على عرابى بضرورة قتل الخديوى وتولى الجيش السلطة ، وقد رفض عرابى هذه النصيحة وذكر ذلك فى مذكراته بقوله :

« فعلمنا مبلغ حكمه ، واستعذنا بالله من شر رأيه لأننا لم نر إلا الإصلاح بالتى هى أحسن ولأن ذلك العمل الفظيع كان ضد مبادئنا على خط مستقيم » ولو أن عرابى استمع لهذه النصيحة ، واستولى الجيش على الحكم واكتفى بنفى الخديوى بدل قتله لوضع الإنجليز خاصة والدول عامة أمام الأمر الواقع ، ولا استتب الأمر لحكم الشعب . ولما وجد الإنجليز الوسيلة التى تذرعوا بها بعد ذلك للاستيلاء على مصر وهى حماية الخديوى ولكن إحجامه على اتخاذ هذه الخطوة أعطى الإنجليز والخديوى وأعوانهم من الأتراك — والإقطاعيين فرصـــة لرسم الخطط ثم للانقضاض . ولقد مرت نفس هذه الظروف تقريباً على مصر سنة ١٩٥٢ فلم يتوان الجيش ولم يقع فى الخطأ الذى وقع فيه عرابى وقام البكباشى جمال عبد الناصر فقاد الجيش والأمة وطرد الملك فاروق وأذنابه وحرر البلاد من الإنجليز وأعوانهم... ومع ذلك فلم تسفك قطرة دم واحدة .

ولا يهمنا فى هذه العجالة أن نؤرخ للثورة العرابية أو نبين أسبابها وبواعثها ولا التسلسل التاريخى لها بقدر إبراز ما اقترفه الخديوى من الخيانة بتعاونه مع الإنجليز والأتراك والأجانب ضد البلاد فى الوقت الذى تفاعل فيه الشعب والجيش مع قادتهما من أبناء البلاد الحقيقيين .

فنقول أنه كان يحج إلى دار عرابى فى ذلك الوقت العصيب كثير من العلماء والأعيان يؤيدونه ويبايعونه مما شجعه على المضى فى طريقه ، وقد أوضح ذلك فى مذكراته بقوله :

(ثم أخذت فى نشر أفكارى بين العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخها وقد وفدت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر وسلمتنا عرائض النيابة عنها وفوضت

إلينا العمل لما فيه سعادة البلاد وخلاصها من براثن رجال الاستبداد ومعلنة تضامنها معنا فى كل ما نقوم به من أعمال الإصلاح وما ينتج عنها من النتائج) .

ولكن الخديوى ظل سادراً فى غيه ، فبعد أن أقال محمود سامى البارودى عين صهره داود باشا يكن وزيراً للحربية ليبدأ فى تشتيت فرق الجيش الموالية لعرابى ونفيها لجهات متفرقة مع تقريب الموالين للخديوى فى القاهرة لمؤازرته عند اللزوم ووجد عرابى أن الحالة تتفاقم سوءاً يوماً بعد يوم وأن الخديوى لا ينى فى تدبير مكائده ، ورأى أن الوقت قد حان ليقوم بالثورة ليحقق مطالب البلاد .

الجيش يتحرك :

عند ما سادت الحالة إلى هذا الحد اجتمع قادة الشعب وتشاوروا فيما بينهم عما يفعلوه لوقف تيار الطغيان — ورأوا أن يواجهوا الخديوى بطلباتهم وأن يتوجهوا إليه فى مظاهرة رسمية ، وعلى أثر ذلك أمر عرابى زملاءه فى الجهاد بأن يكونوا بفرقهم وبكامل سلاحهم بميدان عابدين فى تمام الرابعة من مساء يوم الجمعة الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وأخطر الخديوى بهذا الميعاد الذى حاول تهدئة الحالة والسيطرة على الموقف دون جدوى ، ولقد بلغ به الأمر أن ذهب بنفسه ومعه رئيس الوزارة رياض باشا إلى رجال الجيش وحاول استمالة الضباط والجنود ، ومر على جميع الفرق فى قشلاق عابدين والعباسية والقلعة وراح يستعطفهم ويتودد إليهم ويقول لهم : « ألست خديوكم — ألست ولى أمركم — هل تأخر لأحد منكم راتب أو — نقصت له مؤونة ؟ » .

ولكن الجنود والضباط كانوا قد أصموا آذانهم ولم يستمعوا — لاستعطاف — الخديوى ولا لتوسلاته — وعند ما اقتربت الساعة من الرابعة عاد الخديوى إلى عابدين وقد نمى إليه أن عرابى فى طريقه على رأس الجيش متجهاً إلى الميدان الكبير . ويصف أستاذنا الكبير عبد الرحمن الرافعى هذا اليوم المجيد فى تاريخه المحقق فيقول :

« احتشد الجيش فى الموعد المضروب فى ميدان عابدين — وكان أول من حضر إلى الميدان آلاى الفرسان (السوارى) بقيادة أحمد عبد الغفار ، ولعله بادر بالحضور لأنه كان أول الناقمين على النظام القديم ، إذ فصله عثمان رفقى وزير الحربية الشركسى لغير ما سبب ، ثم جاء عرابى ممتطياً جواده شاهراً سيفه يقود آلاى العباسية وبصحبته آلاى المدفعية يقوده إسماعيل بك صبرى ومعه المدافع بذخيرتها ، وكانت المدافع تتخلل أورطة المشاة أثناء المسير ولما وصل عرابى تفقد على بك فهمى فلم يجده — وأخبره بعض الضباط أنه وزع آلاى الحرس داخل السراى ومعه كمية وافرة من الذخيرة ، وأنه على استعداد للدفاع عنها إذا دعت الحاجة . فبعث إليه من فوره بالملازم محمد أفندى على ليستدعيه فحضر فسأله عرابى عن سبب جعله العساكر على أبواب السراى ، ومنافذها من الداخل ولم يكن هذا اتفاقهم من قبل ، فطمأنه على فهمى وقال له أن السياسة خداع وأنه باق على عهده ، فطلب إليه عرابى أن يسحب آلايه من السراى ويأخذ مكانه فى الميدان ففعل وأمر بخروج الآلاى من السراى . فخرج منها الجند جميعاً واصطفوا إلى جانب إخوانهم ، ثم تم ترتيب آلاى المدفعيـة والفرسان والمشاة على شكل مربع ، وجاء بعد ذلك الآلاى الثانى من قصر النيل يقوده بعض ضباطه ، ثم جاء الآلاى الثالث قادماً من القلعة بقيادة البكباشى فودة أفندى حسن ، والآلاى السودانى قادماً من طره بقيادة عبد العال حلمى ثم أورطة المستحفظين يقودها القائمقام إبراهيم بك فوزى ، وبذلك اكتمل الجيش فى ميدان عابدين .

وخرج عليهم الخديوى توفيق وكان معه المستر كوكسن قنصل انجلترا فى الإسكندرية والمستر أوكلين كولفن المراقب المالى الإنجليزى وبعض حرسه وظل سائراً حتى وصل إلى مكان وقوف الجيش فى الميدان ، وكان يتقدمه عرابى ومعه بعض ضباطه ، فترجل عرابى ونزل من فوق جواده . وهنا سمع عرابى مستر كوكسن ينصح الخديوى بقتله ، فقال الخديوى .

أأقتله أمام كل هؤلاء الجنود الذين يحيطون بنا ؟ ولم يستمـع لنصيحة

كوكسن . والتفت لعرابى وقال له ما هو سبب حضورك ومعك الجيش إلى هنا ؟ فأجاب عرابى . « جئنا يا مولاى لنعرض عليك مطالب الجيش والأمة وجميعها طلبات عادلة » وهنا سأله الخديوى عن هذه الطلبات . فقال عرابى : طلباتنا هى عزل رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وإبلاغ عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندى » .

فاستشاط الخديوى غضباً وقال : « كل هذه الطلبات لا حق لكم نهائياً فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا : ولكن عرابى لم يهتز لهذه الغضبة بل أجابه بهذه الإجابة القوية التى ظلت خالدة على مرّ الزمن :

« لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فو الله الذى لا إله إلا هو أننا سوف لا نورث بعد اليوم » .

وعند ذلك أشار مستر كوكسن على الخديوى بالرجوع إلى القصر فامتثل وبدأت المناقشة بين عرابى وكوكسن كالآتى قال كوكسن لعرابى : « إن عزل رياض من اختصاص الخديوى وحده ، ولكن طلب الجيش تشكيل مجلس النواب ليس من اختصاصه وفى زيادة الجيش إرهاق لمالية الحكومة ولا داعى لها » .

فرد عرابى قائلا : « طلباتى يا حضرة القنصل متعلقة بالأهالى ولم أطلبها إلا لأنهم انتخبونى نائباً عنهم فى تنفيـــذها عن طريق هؤلاء الجنود الذين هم بمثابة إخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التى يعتمد عليها الوطن وإذا نظرت إلى هؤلاء المحتشدين خلف الجنود لوجدتهم أهالى البلاد الذين أنابونى عنهم المطالبة بحقوقهم ولتعلم بيقين أننى لن أتنازل عن طلبات الأمة ، ولن نبرح مكاننا هذا حتى نجاب لها » .

فقال كوكسن : « أعلم من حديثك أنك ستنفذ طلباتك بالقوة ، وهذا معناه ضياع مصر ومحوها » .

فقال عرابى : « بأى حق تقول ذلك ، ومن الذى يحاول أن — يتعرض لنا فى أحوالنا وأمورنا الداخلية ؟ ولتعلم يا حضرة القنصل بأننا سنقاوم من يقف فى طريقنا مقاومة شديدة حتى آخر جندى » فقال كوكسن : « وأين لكم بالقوة التى ستدافع بها » فقال عرابى :

إذا لزم الأمر فمن الممكن تجنيد ما يزيد على المليون جندى للدفاع عن الوطن ، وسيكون الجميع تحت قيادتى ينفذون ما آمر به » وعندئذ سأل كوكسن عما يفعله عرابى إذا رفضت طلباته ؟ فقال عرابى — وكان مع كوكسن مستر أوكلين كولفن — أقول كلمة أخيرة ، فقال كوكسن وما هى قال : لن أقولها إلا عند اليأس والقنوط .

ورجع كوكسن وكلفن إلى الخديوى ورأوا جميعاً الموافقة على طلبات الجيش فاستقال رياض وألف شريف باشا الوزارة وبدأ فى الإصلاحات ، فقام بتنفيذ مطالب الجيش والشعب وأنشىء فى عهده مجلس الأمة فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ الذى نظرت إليه فرنسا وانجلترا بعين المستريب ودفعهما ذلك إلى تقديم مذكرة فى يناير سنة ١٨٨٢ يتدخلان بمقتضاها فى الشئون الداخلية لمصر .

وسقطت وزارة شريف باشا على إثر ذلك ، وتولى الوزارة محمود سامى البارودى باشا صديق العرابيين ، وأسند وزارة الحربية لأحمد عرابى . وبذلك انتصرت الثورة مرة أخرى ، وكانت الفرصة سانحة لخلع الخديوى وطرد أعوانه ، لينفرد الشعب ويحكم نفسه بنفسه بعيداً عن مؤامرات الإنجليز والضباط الأتراك ولكن الثورة ، أخطأت مرة أخرى فتركته ولم تتعرض له مما أعطى الفرصة لانجلترا وفرنسا لمعاودة التدخل وخاصة بعد أن أعلنت وزارة البارودى الدستور . كما بدأ الضباط الشراكسة بالجيش المصرى فى إثارة الفتن ، ومن ذلك تدبيرهم مؤامرة لقتل عرابى وقد انكشف أمرهم وحوكموا وكان من بين الضباط المؤتمرين عثمان رفقى وزير الحربية الشركسى السابق والعدو الأول لعرابى وأصحابه خاصة والمصريين عامة .

وقد كانت محاكمة هؤلاء الضباط والحكم عليهم مثار خلاف كبير بين الحكومة والخديوى الذى استعان بقناصل الدول الأجنبية يسترشد بآرائهم ، لأنه كان يرغب فى تخفيف الحكم على الضباط الشراكسة ، وقد عدل الحكم فعلا بعد ذلك وأصبحت المسألة منتهية ، ولكن الإنجليز المتربصين ، وجدوا من هذا الحادث مبرراً لتدخلهم بعد أن طال انتظارهم وكان سفير انجلترا فى مصر المسيو إدوارد مالت لاينفك مثيراً للدسائس بين الوزارة والخديوى ، وكان يرسل الشائعات المغرضة لبلاده وللبلاد الأوروبية الأخرى يصورلها الحالةفىمصر بصورة قاتمة تنذر بأوخم العواقب ، ويعلن بأن الوزارة الوطنية ستستولى على الحكم وتطرد الخديوى وتهدرحقوق الأجانب . وعلىالرغم من أن الوزارة قد وعدت السفراء — والقناصل الأجانب بضمان استتباب الأمن واستقرار الحالة فإن السير مالت أبرق للخارج يقول : (إن ما أعطاه النظار من ضمان المحافظة على حياة الخديوى والأوروبيين لا يعتد به) . وكان لهذه البرقية الأثر الذى أراده السفير ، فثار الرأى العام فى فرنسا وانجلترا وطلب السفير الإنجليزى من وزارته ضماناً لاستقرار الحالةفىمصر أن ترسل الأسطول الإنجليزى لحماية المصالح الأوروبية المهددة بالانهيار ، ورأت انجلترا أن تستعين بفرنسا وأقنع اللورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا مسيو تيسو سفير فرنسا فى لندن بضرورة تعاون الدولتين فى إرسال أسطولهما إلى المياه المصرية للقيام بمظاهرة بحرية لتهديد الحكومة المصرية ومنعها من الاعتداء على المصالح الأوروبية .

وكانت انجلترا غير صادقة فى ذلك ، لأن الموقف فى مصر كان قد استتب وإنما هى وسيلة رأتها انجلترا سانحة لكى تتدخل توطئة لاحتلال مصر .

فبعد أن وصل الأسطولان إلى مياه الإسكندرية تقدم القنصلان الإنجليزى والفرنسى ببلاغ إلى الحكومة المصرية فى ١٨٨٢/٥/٢٥ يطلبان منها استقالة الوزارة وإخراج أحمد عرابى من البلاد وإبعاد عبد العال حلمى وعلى فهمى إلى الريف المصرى .

وقد كشفت انجلترا وفرنسا بهذا البلاغ عن غرضهما ، وأصبح واضحاً من بلاغهما سوء ما انتويا القيام به إذا ما رفضت الوزارة طلباتهما خاصة وأن الخديوى الذى كان يعمل مع الإنجليز فى السر وافق على الفور على مطالب الدولتين الاستعماريتين ، فاستقالت الوزارة واستشاط الوطنيون والأهالى غضباً .

وقرر عرابى وصحبه خلع الخديوى توفيق والتوجه بالجيش لمحاصرة قصر الإسماعيلية وإجباره على ذلك ، ولكن الأعيان وبعض النواب طلبوا التريث قليلا ، وقاموا بالوساطة لارجاع أحمد عرابى وزيراً الحربية ، فوافق الخديوى على هذا التعيين ، ولكن الحالة كانت قد ساءت لدرجة كبيرة ، وخاصة وأن انجلترا قد أفصحت عن نواياها عند ما جلبت العديد من بوارجها ومدمراتها إلى المياه الإقليمية المصرية دون سبب ظاهر سوى احتلال البلاد تنفيذاً لمطامعها فيها.

وكان الأمر يحتاج إلى سبب يبرر الاحتلال ، وكان لا بد من خطة ، ووجدها الإنجليز بعد موافقة الخديوى ومعاونته .

٣ ـــ الشعب والجيش يواجهان الاحتلال

مذبحة الاسكندرية :

وكانت الخطة ترتكز على إثارة الشعب على أن يقسر بأنه اعتداء على الأجانب فتسنح الفرصة بذلك الأسطولين الإنجليزى والفرنسى الراسيين بميناء الإسكندرية للتدخل بحجة حماية الأجانب تمهيداً لاحتلال مصر .

وقد وقع الاختيار على مدينة الإسكندرية لتكون مسرحاً لتمثيل هذه المسرحية الدنيئة لبعدها عن نفوذ الشعب الحساس الثائر فى القاهرة وعن قادته المخلصين وتمت المؤامرة كما أرادها الإنجليز .

فى صبيحة يوم الأحد الموافق : ١٨٨٢/٦/١١ قتل أحد المالطيين من رعايا انجلترا حماراً لأنه تجرأ وطالب بأجر ركوب الحمار وهرب ولما تجمهر الأهالى انهال الأجانب عليهم بالرصاص من المنازل فقتلوا كثيراً من الأهالى الذين ردوا الاعتداء بالمثل ، ولكن بالعصى ، فقتل فى هذه المذبحة ١٦٣ ـــ مصرياً و ٥ من الأجانب ، وشبت الحرائق فى كثير من المبانى ، وعمت المدينة الفوضى وبذلك تحققت المكيدة التى رسمها الخديوى بمعاونة الاستعمار . وقد يظن أو يتبادر إلى الذهن أننا نغالى إذا قلنا أن الخديوى هو المنظم الأول لهذه المجزرة ، فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه حاك خيوطها مع محافظ الإسكندرية الذى يطمع فى وزارة الحربية مكافأة له على نجاح هذه المؤامرة .

فقد أرسل له الخديوى برقية فى ١٨٨٢/٦/٣ ـــ أى قبل المذبحة بأسبوع يقول له فيها : « إن عرابياً قد تعهد بالمحافظة على الأمن العام ونشر ذلك فى الصحف وجعل نفسه مسئولا أمام القناصل ، فإذا بر بعهده ، وثقت به الدولة وسقطت هيبتنا ، ثم أن الأسطولين راسيان فى مياه الإسكندرية وخواطر الناس هائجة والخصام بين الاوروبيين وغيرهم ليس ببعيد ، فاختر لنفسك فإما أن تخدم عرابيا وتؤيده وإما أن تخدمنا » .

ولم يكتف الخديوى بهذه البرقية بل أرسل ابن عمه حيدر باشا إلى المحافظ — ليشرف على تنظيم وتنفيذ خطة المؤامرة — التى تتلخص فى وقوع الاحتكاك على أن يظل البوليس بعيداً يشاهد ولا يتعرض المعتدين — وساعد الأجانب من ملطيين وأروام ويونانيين وإنجليز وفرنسيين فى نجاح خطة الخديوى ، فصاروا يتسلحون علنا بالمسدسات والبنادق التى كانوا يشترونها من محال الأسلحة ، حتى أنها نفذت من هذه المحال فى ساعات قليلة ، كما أمد الأسطولان الراسيان فى مياه الإسكندرية بالجاليات الأجنبية بأسلحة كثيرة . وذلك بإرشاد القنصل البريطانى بالإسكندرية ، وقد بلغ من تحريضه على الفتنة أن قال لرعايا بريطانيا عند ما سألوه عن سر حضور الأسطولين — البريطانى والفرنسى « عليكم أن تتسلحوا لتحموا أنفسكم من الشعب » .

وقصارى القول أن مذبحة الإسكندرية دبرت تدبيراً محكما ، ووضع خطتها الخديوى مع عمر لطفى المحافظ الذى لم يحرك ساكنا أثناء المذبحة ، لا هو ولا مأمور ضبطية الثغر الذى ادعى المرض ، وأسهم فيها الإنجليز بتوزيع الأسلحة وعملوا على إثارة أعصاب الأجانب ، وسخروا المالطى ليمثل هذه التمثيلية المؤسفة ، وقد ثبت فيما بعد ، أن هذا المالطى أخ لخادم القنصل البريطانى فى الإسكندرية .

وبهذا يتضح بجلاء أن هذه المذبحة كان وراءها الخديوى والإنجليز لتكون ذريعة للاحتلال بحجة حماية الخديوى والأجانب من نفوذ عرابى الذى كان يتزايد يوما بعد يوم .

وقد تكررت المأساة بعد ٦٨ عاما وكان بطلها الملك السابق فاروق حفيد الخديوى توفيق عند ما أحرق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ لما رأى حركة الوطنيين قد قويت واشتدت ، فاتحد الشعب بعد فرقة ليحارب الإنجليز والفساد ، ولم يرض فاروق بطبيعة الحال على هذه الطفرة التى كانت تهدد عرشه فأقدم على جريمته ليتخذ من حريق القاهرة سببا لوأد حركة — الوطنيين ، وبذلك أعطت الأسرة الحاكمة لمصر أسطع الأمثلة على الخيانة والغدر والإجرام .

غدر واحتلال :

وكان الإنجليز عقب مذبحة الإسكندرية يبحثون عن وسيلة للاحتلال وقد وجدوها أخيراً كما يجد الذئب الوسيلة لافتراس الحمل ، فقد وجد الأميرال سيمور قائد الأسطول البريطانى من الترميات التى كانت تقوم بها القوات المصرية فى حصون الإسكندرية وسيلة لتحقيق غرضه فأرسل فى ١٨٨٢/٦/٦ بلاغا إلى قومندان موقع الاسكندرية هذا نصه (البارجة أنفيل فى ١٨٨٢/٦/٦ صاحب السعادة أتشرف بإخباركم أنى قد علمت عن طريق رسمى أنه قد صار البارحة تركيب مدفعين جديدين أو أكثر فى خطوط الدفاع القائمة على البحر وأن بعض الاستعدادات الحربية قد عملت فى واجهة الاسكندرية الشمالية تهديداً الأسطول الذى تحت قيادتى فيجب على والحالة هذه أن أنبّه عليكم بوقف هذه الأعمال ، فإن لم تقف يكون واجبا علىّ تدمير المعدات الجارى العمل فيها) وعلى الرغم من أن مجلس الوزراء أبلغ قائد الأسطول أنه وإن كان يرفض طلباته ولكن حقناً للدماء وإظهاراً لحسن النية فإنه سيبادر فى إنزال ثلاث مدافع ، ولكن انجلترا قد بيتت النية على الغدر لم يكن فى وسعها أن تتراجع فرفضت عرض الحكومة ، وطالب قائد الأسطول بإنزال جميع المدافع الساحلية ، وخشى أن تقبل الوزارة — عرضه . فتفوت بذلك فرصة الاحتلال. فأضاف إلى طلباته السابقة طلباً جديداً ، وهو الاحتلال بعينه ، وهو تسليم حصون المكس والعجمى وباب العرب وما وراء طابية المكس من الأراضى لاتخاذها معسكرا لجنود الانجليز وإلا باشر ضرب المدينة عند الفجر .

وقد رفضت مصر هذا الإنذار بطبيعة الحال فما كادت شمس يوم ١٨٨٢/٧/١١ تبزغ حتى قصفت البوارج الانجليزية المدينة وهدمت معظم حصونها وكثيرا من المبانى وقتل من جراء ذلك العديد من الأهالى الآمنين بلغوا ٢٠٠٠ قتيل .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى ما قام به الأهالى من تضحية وجهاد ، فكانوا يساعدون الجنود بمدهم بالمؤن والذخيرة ، وينصبون المتاريس فى الشوارع والأزقة

وهم ينشدون الأناشيد الحماسية غير مكترثين بالقنابل التي كانت تتساقط فوق رؤوسهم ، ولم يرعبهم كثرة الشهداء الذين كانوا يسقطون أمام أعينهم . . وتجلى في هذا اليوم التعاون الوثيق بين الجيش والشعب وتآزرهما ضد الانجليز ولم ينس عرابي الدور الذي قام به الشعب فقال : « وفي أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين — ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم المال وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات » .

كما أوضح الشيخ محمد عبده في كتابه عن الثورة مدى تعاون الشعب مع الجيش أثناء ضرب المدينة ويقول في مذكراته « فكان الرجال والنساء تحت — مطر الكلل ونيران المدافع ، ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا بها وكانوا يغنون بلعن الأميرال سيمور ومن أرسله » وبينما كان الجيش والشعب يكافحان قوة تفوقهم بكثير نرى الخديوي يدبر أمرا في الخفاء لأنه كان في قرارة — نفسه يحقد على عرابي ومن معه ويضمر لهم الشر . فما كاد الانجليز يحتلون سراى رأس التين وشبه الجزيرة المتاخمة للسراى حتى أبدى — الخديوى لمن بقى معه من الأتراك والشراكسة رغبته في الاتصال بالأميرال سيمور ، والانضمام إليه ضد جنوده وشعبه ، وقد أبدى هذه الملاحظة عندما قال لأتباعه :

(إن أهم الأمور في نظرى الآن أن ألفت نظر سيمور وأجعله على علم بأمرنا وحقيقة نوايانا من جهته إن أمكن ذلك) . وكان يقصد بطبيعة الحال نواياه الحسنة تجاه الانجليز نظير حمايتهم له وبقاءه حاكما على البلاد فأرسل من يدعى زهران بك إلى قائد الأسطول يبلغه رغبة الخديوى في الحضور إليه والاحتماء عنده من عرابي والشعب . مبديا استعداده لكل معاونة تطلب منه وبعد ظهر يوم ٣١ يوليو سنة ١٨٨٢ سلم الخديوى نفسه إلى سيمور الذى استقبله هاشا باشا مرحباً ، في الوقت الذى كانت فيه مدينة الاسكندرية تحترق . ولقد كان لخيانة الخديوى للثورة صدى أليماً في نفوس الشعب ، كما كان موقفه هذا من أسباب هزيمة مصر .

وجدير بالذكر أن فرنسا لم توافق انجلترا على موقفها الغادر . فأمرت أسطولها الراسي في ميناء الاسكندرية بالانسحاب وعدم الاشتراك في ضرب المدينة فانسحب الأسطول الفرنسي في يوم ٥/٧/١٨٨٢ بناء على ما ورد لرئيس وزراء فرنسا من أن قائد الأسطول الفرنسي لم يشاهد أي ترميمات في الحصون المصرية أو أي أعمال عدوانية ، كما أرادت انجلترا أن تصور الموقف في ذلك الوقت ، بل أن رئيس وزراء فرنسا المسيو دي فريسينيه صرح « بأن المعلومات التي لدينا لم تكن بالخطورة التي تبدو من رسالة الأميرال سيمور ، بحيث أن ضرب الاسكندرية في الظروف التي وقع فيها إنما كان عملا هجومياً لا دفاعياً » وبذلك أطلقت فرنسا لانجلترا الحرية في احتلال مصر . وعقب احتلال الانجليز لمدينة — الاسكندرية أخذ الأهالي في الهجرة منها ، ووقعت في ذلك الحين فجائع ومآسي تحدث عنها المؤرخين . ولم يتعاون مع المستعمر سوى الخديوي الذي أرسل إلى عرابي تلغرافه المشهور في ١٧/٧/١٨٨٢ الذي — يدافع فيه عن نيات الانجليز ويأمره بالحضور فوراً . وقد رفض عرابي أوامر الخديوي ، وبدأ يستعد لمواجهة الانجليز . وكان هذا القرار بناء على إجماع الشعب والجيش الذي أصدر في ١٧/٧/١٨٨٢ البيان الوطني المشهور بوجوب الاستمرار في الاستعدادات لمواجهة الانجليز .

وما كاد الخديوي يعلم بهذا البيان حتى عزل عرابياً .. ولكن ماذا يعني ذلك العزل ممن لا يملكه وممن عرف بالخيانة ، حتى قبل أن يلجأ إلى — الانجليز .. إن الشعب هو الذي ولى عرابياً وقد وفى كل منهما لصاحبه فكيف يعزله الخونة ؟ .

تتابعت الحوادث بعد ذلك في سرعة مذهلة ، تحوي بين طياتها ما جبل عليه الانجليز من خيانة وغدر . فقد ظن عرابي أن الانجليز سيحترمون حياد قناة السويس ويحافظون على المواثيق الدولية وخاصـــة أن — دليسبس خدعه عندما طمأنه بقوله : « إن الانجليز مستحيل أن — يدخلوا القناة مستحيل » وعلى هذا الأساس لم يوافق محمود باشا فهمي رئيس أركان حرب الجيش على ردم القناة وأقام معسكراً في بلدة التل الكبير ، أما الانجليز فقد احتلوا بور سعيد

فى ۲۰/۸/۱۸۸۲ وبذلك انحصر الجيش المصرى ، ولم يكن لهذا الحصار أثر كبير فى الهزيمة التى منيت بها مصر لولا عوامل الخيانة ومؤامرات الخديوى والانجليز فقد كانت البلاغات التى يصدرها الإنجليز تصدر باسم الخـديوى ، ولم يكتف الخديوى بذلك ، بل عين الضباط الموالين له لمساعدة الانجليز فعين محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب نائباً عنه لمرافقة قائد الجيش الانجليزى الجنرال ولسون فى زحفه على العاصمة وقد اتبع من الوسائل الدنيئة ما يندى له الجبين ، فاتصل بالعرب القاطنين فى مديرية الشرقية وحضهم بالوعد مرة ثم بالوعيـد حيث لا ينفع الوعد ، ووزع من الأموال ما يكفى لشراء الذمم الخربة، فأرشدوا العدو على الطرق والمسالك التى يجهلها . وبذلك تضافرت عوامل الغدر والخيانة والرشوة على الهزيمة ، وما كانت معركة ۱۳ سبتمبر سنة ۱۸۸۲ المعروفة بمعركة التل الكبير التى هزم فيها الجيش المصرى إلا نتيجة حتمية لسلسلة الخيانات التى قام بها الخديوى وأعوانه الذين قبضوا ثمن خيانتهم وأسلموا بلادهم إلى العدو لقمة سائغة وقد فتحت معركة التل الكبير الأبواب إلى القاهرة فاحتلها الانجليز فى ١٤/٩/١٨٨٢ وقبض على عرابى وصحبه ورجع الخديوى الخائن إلى العاصمة يحكم بمعاونة أسياده الانجليز الذين ظلوا جاثمين على قلب مصر زهاء سبعين عاماً حتى أخرجهم وطنى آخر جاء من الشعب وقاد الجيش وهزم الاستعمار فى كل معركة وتجنب الأخطاء التى وقع فيها من سبقه فغسل العار الذى لحق بنا فترة طويلة مريرة تعتبر من أحلك الفترات التى مرت على مصر .

الباب الثالث

الشعب المصرى يكافح الاحتلال البريطانى

١ ــ الاحتلال لم يطفىء شعلة الثورة .

٢ ــ صور من الكفاح الشعبى للاحتلال .

٣ ــ ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ .

١ ـ الاحتلال لم يطفىء شعلة الثورة

ارادة الحياة لاتموت :

اقتبسنا عنوان هـذا الفصل ، وعنوان هذه الفقرات ، من الميثاق أيضا . وفى الميثاق دراسة رائعة لتاريخ مصر ، ولـكفاحها الشعبي . فتحدث الميثاق عن الاحتلال البريطانى كنتيجة لظهور الاحتكارات الاستعمارية الطامعـة فى منطقـة الشرق الأوسط ، فقال الميثاق : « ولقد أحست الاحتكارات الاستعمارية الطامعة فى المنطقة بالأمل الجديد يستجمع قواه ويتحفز . وكانت بريطانيا بالذات لاتحول أنظارها عن مصر بحـكم اهتمامها بالطريق الى الهند . ومن ثم ألقت بثقلها كله فى المعركة الثورية التى لاحت مقدماتها بين القوى الشعبية وبين أسرة محمد على الدخيلة المغامرة » .

وأشاد الميثاق بثورة عرابى التى اشترك فيها جميع المصريون ، شعبا وجيشا ، ووصف الميثاق هذه الثورة الوطنية فقال عنها : « وكانت ثورة عرابى هى قمة رد الفعل الثورى ضد النكسة » .

احتل الانجليز مصر ، ليضمنوا استمرار الامتيازات الأجنبية وماتؤدى اليه من احتكارات ، الى الأبد . وليضمنوا بقاء الخديوى صديقهم ، وعدو الشعب . فقال الميثاق : «وكان الاحتلال البريطانى العسكرى لمصر سنة ١٨٨٢ ضمانا لمصالح الاحتكارات المالية الأجنبية وتأييداً لسلطة الخديوى ضد الشعب . هو التعبير عن ارادة الاستعمار فى استمرار بقاء النكسة ومواصلة القهر والاستغلال ضد شعب مصر » .

حقا ، نجح الانجليز فى احتلال مصر ، وضمنوا امتيازاتهم ، وساندوا صديقهم الخديوى ، وأيدوا مصالح الاحتكاريين والاقطاعيين ، ولكن هذا كله لايطفىء شعلة الثورة فى مصر ، فهى تستطيع الصمود أمام هـذه الرياح والعواصف . فيقول

الميثاق : « ان قوة الاحتلال البريطانى العسكرية ، ومؤامرات المصالح الاحتكارية والاقطاع الذى أقامته أسرة محمد على باحتكارها الأرض أو اقتسام جزء منها بين أصدقائها أو أصدقاء المستغلين الأجانب ، ذلك كله لم يستطع أن يطفىء شعلة الثورة على الأرض المصرية » .

لم تكن هذه المصائب الا عوامل جديدة لاذكاء نيران الكفاح الشعبى فى مصر ، وفى وادى النيل ، فارتفعت أصوات الشعب الثورية تعارض الاحتلال الأجنبى وارهاب أمراء أسرة محمد على . ان ارادة الحياة عن الشعب المصرى لاتموت ، بل كانت أصوات المدافع فى الاسكندرية من دوافع ازدياد اليقظة الوطنية . فقال الميثاق : « ان وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية فى مواجهة هذا الارهاب المتحكم الذى تستنده قوى الاحتلال الأجنبى والمصالح الدولية الاستعمارية. أن اصداء المدافع التى ضربت الاسكندرية ، واصداء القتال الباسل الذى طعن من الخلف فى التل الكبير لم تكد تخفت حتى انطلقت أصوات جديدة تعبر عن ارادة الحياة التى لاتموت لهذا الشعب الباسل ، وعن حركة اليقظة التى لم تقهرها المصائب والمصاعب » .

مابعد الثورة العرابية :

عملت انجلترا على تصفية الثورة العرابية والتمهيد لسياستها الاستعمارية . وعقدت انجلترا محاكمات صورية لزعماء الثورة وعلى رأسهم عرابى . وسرح جيش الثورة ، وشتت من اشتركوا فيها ، وثبت الخديوى على عرشه ، وحكم على زعماء الثورة — وعلى رأسهم عرابى والبارودى — بالنفى المؤبد الى جزيرة سيلان ، وهناك أمضوا ردحا من الزمن حتى صدر الحكم بالافراج عنهم فى أوائل القرن العشرين .

وفى المنفى كتب البارودى روائعه الشعرية التى تصور أحاسيسه عن الثورة وتعبر عن أشواقه الى الوطن . وخط عرابى مذكراته التى نشر بعضها بعنوان (كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية) ،

ومنعت أسرة محمد على نشر مابقى من هذه المذكرات الى أن نشرتها (دار الهلال) كاملة سنة ١٩٥٣ فى عهد الثورة المباركة .

وأصدر المهندس محمود فهمى ، الذى اشترك فى الثورة ، سجلا حافلا بعنوان « البحر الزاخر فى تاريخ الأوائل والأواخر » .

ولم يكن نزول الجيش البريطانى أرض مصر ، وانتصاره فى موقعة التل الكبير ودخوله القاهرة بمجرد انتصار على عرابى ورجاله وحرمان البلاد من استقلالها ، وانما كان ذلك انتصارا على الحركة الدستورية التى كانت قد تمت فى أواخر عهد اسماعيل ، إذ عادت البلاد سيرتها الأولى من الاستبداد . فألغى الاحتلال النظام الدستورى الذى نالته البلاد من قبل ممثلا فى قيام مجلس النواب وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية ، وأنشأ الانجليز بدلا منها نظاما صوريا قوامه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، وكانت هيئتين استشاريتين اجتماعاتهما غير علنية ولا سلطة ولا نفوذ لهما .

سيطر الانجليز على مرافق البلاد وادارتها ، وأصبح المعتمد البريطانى هو حاكم مصر الحقيقى ، يستمد الخديوى والوزراء منه السلطة ـ وينفذون أوامره ويسبحون بحمده ، واستأثر الانجليز بالمناصب السياسية والادارية الكبرى ، فزاد عدد الانجليز فى الوزارات والمصالح الحكومية ، وتقاضوا مرتبات كبيرة . كما كان لسائر الأجانب نصيب كبير فى مناصب الدولة ، وأبعد الانجليز المصريين عن الوظائف ومنعوهم عن الاضطلاع بمسئوليات الحكم .

واتبع الانجليز سياسة الارهاب ، ففرضوا القوانين التى تقيد الحريات ، وامتلأت السجون بالوطنيين ، وألغيت حرية الصحافة ، ونجح الانجليز فى السيطرة على معظم الصحف المصرية ، مثل الوطن والأهرام والمؤيد . ولم تقو على مهاجمة الاحتلال فى جرأة وشجاعة ، سوى جريدة العروة الوثقى التى كان يصدرها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده من باريس . وقامت هذه الصحيفة بدور

كبير فى مقاومة الاحتلال البريطانى ، وبث الآمال والتفاؤل فى نفوس الشعب المصرى ، ولذا عملت انجلترا على منع دخول هذه الصحيفة الى مصر ، وفرضت غرامة مالية كبرى على من يحتفظ بنسخة منها .

تجلت مساوىء الاحتلال البريطانى فى جوانب كثيرة : عسكرية ، واقتصادية واجتماعية وحضارية . فقد عمل الانجليز على القضاء على نهضة الجيش التى ظهرت واضحة خلال الثورة العرابية ،وأرادت انجلترا أن تضعف الروح العسكرية فى مصر ، زاعمة أنها الكفيلة بالدفاع عن مصر ، ولذا عينت ضابطا انجليزيا كقائد أعلى للجيش المصرى ، كما عينت كثيرا من الضباط الانجليز الذين سيطروا على الجيش ، وأصبح (الجنرال بيكر) مفتشا عاما للشرطة ، يساعده كثير من الضباط والجنود الانجليز .

وتجلت مساوىء الاحتلال البريطانى واضحة فى الميدان الاقتصادى ، فعين الانجليز مستشارا ماليا بريطانيا سيطر على مالية البلاد ، ولم يهتم الا بتسديد استحقاقات الأجانب وديونهم ، واستنفذت هذه الديون نصف الميزانية ، فتوقفت الاصلاحات والمشروعات . وعانى الفلاح المصرى من الضرائب الباهظة والمظالم ، وعملت انجلترا على التوسع فى زراعة القطن لتمد المصانع البريطانية بحاجتها ، وكان هذا التوسع على حساب المحصولات الأخرى التى يعتمد عليها المصريون فى أقواتهم ، كما كان اعتماد مصر على محصول واحد يؤدى الى أفدح الكوارث اذا انخفض ماء النيل أو انتشرت دودة القطن ، وحدث هذا فعلا فى سنوات ١٩٠٤ و ١٩٠٦ و ١٩٠٨ .

واجتهد الانجليز فى أن يذيعوا أن مصر بلد زراعى ، حتى يروجون للمصنوعات الانجليزية فى مصر ،وفرض اللورد كرومر رسما قدره ٨ ٪ على جميع المصنوعات المصرية تشجيعا لاستيراد المنسوجات القطنية الانجليزية حتى كادت تتوقف صناعة الغزل والنسج فى مصر .وأقبل الأجانب على انشاء المصانع برؤوس أموال أجنبية للقضاء على الصناعات المصرية ، وسيطر الأجانب على جميع الموارد الاقتصادية فى مصر .

أما مساوىء الاحتلال الاجتماعية . فقدظهرت واضحةفى اهمال الانجليز لكل اصلاح اجتماعى ، ونقل الانجليز الى مصر مساوىء حياتهم الاجتماعيةالأوروبية، وما تتصف به مادية وعدم اكتراث بالأخلاق والقيم الروحية ، والعبث بالآداب العامة .

وامتدت هذه المساوىء الى جوانب الحضارة المختلفة . فقد أهمل الانجليز التعليم والثقافة فى مصر ، وأصبح التعليم بمصروفات باهظة ، ووضع الانجليز سياسة تعليمية تقضى بتخريج موظفين للدولة. ونفذ هذهالسياسة المستشار الانجليزى (دنلوب) الذى عمل على نشر السلبية وروح الاستسلام ، وامتلأت المدارس المصرية بالمدرسين الانجليز ، وأصبحت اللغة الانجليزية لغة التعليم ، وأصبحت الأمية بعد أربعين عاما من الاحتلال البريطانى تمثل ٩٢ ٪ من البنين و ٩٧ ٪ من البنات .

انبعاث الكفاح الشعبي من جديد :

حاول الانجليز عبثا أن يخمدوا الروح الوطنية،وأن يكموا الأفواه،ولكن روح الكفاح لم تخمد ، وأصبح الخلاص من الاحتلال البريطاني مسألة حياة أو موت لكل مصري . فقد كان تيار الوطنية من القوة بحيث يجرف أمامه كل عقبة قد يحاول الانجليز أن يضعوها فى طريقه . كانت كل عوامل الثورة والكفاح موجودة وكامنة ، لاينقصها الاظهور زعامة وطنية رشيدة تقود الكفاح ، وكان مصطفى كامل هو ذلك الزعيم المنشود المرتقب .

شهد مصطفى كامل احتلال البريطانيين لبلاده ، وكان حينئذ فى الثامنة من عمره، وسافر بعد ذلك الى فرنسا لدراسة القانون ، وعاد سنة ١٩٨٤ ليشهد مساوىء الاحتلال التى عددنا جوانبه، ورأى أن مصر فى حاجة الى أبنائها المخلصين المثقفين، وأدرك أنه لابد من مرحلة جديدة من الكفاح الشعبي حتى يتحقق أمل الشعب فى الجلاء والدستور .

وعمل مصطفى كامل على بلورة هذه الأفكار الوطنية ، واتخذ الى تحقيق ذلك سبيلين ، أولهما الخطابة ، فقد كان يتمتع بمواهب خطابية واضحة ، وثانيهما الصحافة ، فبدأ بنشر مقالات تفيض وطنية فى صحيفتى الأهرام والمؤيد ، ثم رأى مصطفى كامل أن ينشىء جريدة خاصة تكون منبرا لأفكاره الوطنية التحريرية فأصدر فى سنة ١٩٠٠ جريدة (اللواء) التى أقبل الشعب المصرى على قراءتها فى حماس وشوق ، ودعا مصطفى كامل فيها الى نشر التعليم القومى ، وانشاء المدارس الأهلية التى تصطبغ بصبغة وطنية تميزها عن المدارس الحكومية التى سيطر عليها الانجليز ، كما دعا الى انشاء جامعةمصرية،اذ أن العلم الحر هو السبيل الى الاستقلال الحر . واستجابت عناصر الشعب الى دعوات مصطفى كامل . فقامت مدارس أهلية مصرية حملت احداها اسمه ، وأقبل الناس على التبرع بأموالهم من أجل انشاء الجامعة المصرية ، وتألفت لجنة تأسيسية للجامعة سنة ١٩٠٧ ، وحارب

الانجليز هذه المشروعات ، ولـكن روح الشعب القوية حققت لها النجاح . وامتد نشاط مصطفى كامل الى الميدان الاقتصادى ، فدعا الى الاهتمام بالصناعات المصرية الى جانب الاهتمام بالزراعـة ، ودعا الى أن مصر بلد زراعى وصناعى فى وقت واحد .

وامتد نشاط مصطفى كامل الوطنى الى خارج مصر ، فنشر مقـالات وطنيـة حماسية فى الصحف الفرنسية ، كشف فيها عن مساوىء الاحتلال البريطانى ، وقام بجولات ناضجة فى العواصم الأوروبية،فزار باريس وبرلين وفينا ولندن، وناشد الشعوب الأوروبية أن تعاضد الشعب المصرى فى مطالبه العادلة، وفى تمتعه بحقوقه فى الاستقلال والحرية . وبذلك نجح مصطفى كامل فى أن تصطبغ المسألة المصرية بالصبغة الدولية .

ووقف مصطفى كامل من اتفاقية السـودان سنة ١٨٩٩ موقفا وطنيا حازما ، فقد عارض هذه الاتفاقية وقال عنها أنها « جاءت برهانا جديدا على عدم مراعاة انجلترا للعهـود والمؤتمرات . . لأنها تخالف نصوص الفرمانات الصادرة الى خديوى مصر » .

٢ – صور من الكفاح الشعبي للاحتلال

جهود مصطفى كامل :

بعد هزيمة عرابى ونفيه مع زملائه خارج البلاد ومصادرة أملاكهم احتل الانجليز مصر (١) ولم يخرجوا منها كما كانوا يتشدقون بأنهم ماجاءوا الا لحماية الخديوى والرعايا الأجانب ولكى يتخلصوا من العرابيين فلما تحقق لهم كل ذلك ظلوا يحتلون البلاد ويستنزفون مواردها ولم يف الانجليز على مر السنين بأى وعد قطعوه بالجلاء ، ولكن المصريين لم يخضعوا ولم تهن عزيمتهم وهبوا يقاومون الاحتلال كما قاوموه فى جميع العهود والعصور بايمان وعزم ، لايرهبهم الحديد ولا النار ، فتألفت الجمعيات السرية وقام الزعماء المخلصون يقاومون الاستعمار باخلاص وعلى رأسهم الزعيم مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى الذى هب يقاوم الانجليز بايمان ثابت وعقيدة راسخة ، وكرس حياته لمحاربتهم وفضح أساليبهم أمام العالم ، وكان جهاده هو الشعلة الأولى التى أيقظت الشعور الوطنى وأشعلت الحماس فى قلوب الوطنيين عقب الاحتلال ، وأنارت الطريق أمام المجاهدين لمقاومة الغاصب وكان مصطفى كامل أول من ندد بالاستعمار وفضح أساليبه . وفى سبيل تحقيق ذلك سافر الى الخارج وترددت صيحاته فى القارة الأوربية فوجه نداءه المشهور الى مجلس نواب فرنسا فى يونيو سنة ١٨٩٥ وكان له دوى كبير فى جميع أنحاء العالم ، ثم خطب فى مدينة تولوز فى يوليو سنة ١٨٩٥ منددا بالاستعمار الانجليزى وكتب فى صحف فرنسا والنمسا مدافعا عن القضية المصرية . وفى سبتمبر سنة ١٨٩٥ تعرف بمدام جوليت آدم ذات النفوذ والشهرة العظيمين بفرنسا فقدرت جهاده وعاونته معاونة صادقة فى كفاحه ضد الانجليز وحصل من جلاديستون زعيم الأحرار بانجلترا على وثيقة يقر فيها بضرورة جلاء الانجليز

---

(١) أعادت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ للعرابيين أموالهم كما اقامت تمثالا لعرابى بمدينة الزقازيق .

عن مصر ، وذلك فى يناير سنة ١٨٩٦ وأصدر جريدة اللواء باللغات الثلاث ، الانجليزية ، والفرنسية والعربية ، للدعاية للقضية المصرية . ثم أنشأ الحزب الوطنى فكانت هـذه الجهود الحماسة هى : الوقود الذى أذكى جـذوة الوطنية فى نفوس المصريين وأعاد اليهم ثقتهم بأنفسهم ، فالتفوا حوله وذكرهم ذلك بالبطل عرابى حينما انضم الشعب اليه .ولما وقعت حادثة دنشواى فى ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ هزت مصر هزا عنيفا كما حركت الضمير العالمى . وانقلبت صفحة سوداء أضيفت الى الصفحات السود لتاريخ انجلترا ،وكان الفضل فى اثارة فظائع هذه الحادثة لمصطفى كامل ، وكان رحمه الله فى اوروبا عنـدما نفـذت انجلترا حكم المحكمة الانجليزية فقـام يندد بالاستعمار ويصور حادثة دنشواى على حقيقتها وبين العالم جرائم الانجليز الوحشية . وقد قضى الحكم بالشنق والأشغال الشاقة والجلد على الـكثير من الأهالى وتم تنفيذ الحـكم بطريقة بدائية وحشية لم يرو التاريخ لها مثيلا .

ماساة دنشواى :

وخلاصة هـذا الحادث الأليم أن بعض الضباط الانجليز أرادوا أن يذهبوا الى احدى القرى فى نزهة لصيد الحمام فدلهم بعض الناس على قرية تسمى دنشواى يـكثر فيها الحمام فتوجهوا اليها،وكانوا خمسة من الضباط هم الميجور كوفن والكابتن بول والملازمان بورتر وسميث وطبيب بيطرى يدعى بوستك ، وكان يرافقهم عسكرى مصرى أوفده ضابط نقطة الشهداء ليسر لهم عملية الصيد،وليمنع احتكاكهم بالأهالى وعند وصولهم لقرية دنشواى توجه العسكرى لاحضار العمدة ولـكنه لم يجده لتغيبه عنها فى عمل خارج القرية فلم ينتظروا وباشروا الصيد ، وتوجه بعضهم الى داخل القرية حيث يعيش أهلها ـــ وكان الوقت منتصف شهر يونيو سنة ١٩٠٦ والأجران ممتلئة بأعواد القمح وكانت تقف على أحد هـذه الأجران بعض الحمام وصوب أحد الضباط الانجليز بندقيته نحوها فتصدى له صاحب هذا الجرن وهو شيخ يبلغ من السن ٧٥ ، ورجاه ألا يطلق النـار حتى لايحترق الجرن ، ولـكن الانجليزى لم يعبأ باعتراضه وأطلق النار فأصاب فلاحة هى زوجة صاحب الجرن، وشبت النار فى الجرن وتجمع الأهالى لمساعدة مواطنهم ضد الانجليز الغرباء الذين

اقتحموا بلدتهم الآمنة لأول مرة فى حياتهم ، كما حضر شيخ الخفراء والخفراء للقيام بواجبهم نحو حفظ النظام والأمن ومنع الاعتداء من أى طرف حتى يحضر أولو الأمر . فما كان من الانجليز الخمسة الا أن أطلقوا نيران بنادقهم على الأهالى، فأصابوا ثلاثة من الخفراء من بينهم شيخ الخفراء وتمكن الأهالى وباقى الخفراء من القبض على ثلاثة من الضباط الانجليز واحتجزوهم حتى جاء ضابط نقطة الشهداء الذى أوصلهم الى معسكرهم سالمين ، وقد هرب أثناء ذلك الكابتن بول والطبيب البيطرى بوستك وكان الأول قد أصيب فى رأسه أثناء الهرج الذى ساد خلال اطلاق النار نتيجة القاء بعض الطوب والحجارة عليه وظل الضابطان الهاربان يجريان من الخوف والهلع ثمانية كيلو مترات تحت أشعة الشمس المحرقة حتى سقط بول صريع ضربة الشمس ببلدة سرسنا فتركه زميله الطبيب البيطرى ولم يقدم له يد المساعدة ولم يحاول علاجه بل ظل يعدو هاربا حتى وصل الى بلدة كمشوش حيث كانت تعسكر كتيبتهم ، وقد مات بول متأثرا من ضربة الشمس كما ثبت من تقرير الطبيب الشرعى وهو انجليزى الجنسية ولم يكن لأحد بعينه يد فى قتله اللهم إلا زميله الذى تركه لمصيره . ومع ذلك فقد حكمت انجلترا بالقتل على أربعة من الأهالى وعلى تسعة بالأشغال الشاقة وعلى ثمانية بالحبس والجلد أمام ذويهم وأهليهم فور صدور الحكم الذى تم فى القرية الآمنة المناضلة .

ويصف الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن مصطفى كامل طريقة تنفيذ الحكم فيقول : « فكان التنفيذ فى اليوم التالى لصدور الحكم فى المكان الذى مات فيه الكابتن بول . وفى مثل الساعة التى وقعت فيها الحادثة وفى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل سيق المحكوم عليهم بالاعدام والمحكوم عليهم بالجلد الى نقطة الشهداء على مسافة عشرين كيلو مترا من شبين الكوم وأربعة كيلو مترا من قرية دنشواى ،وأنزلوا بها بحراسة الجنود الانجليز والمصريين حتى اذا اقتربت الساعة الاولى بعد الظهر جىء بهم الى دنشواى وهناك نصبت المشنقة وآلة الجلد ، ونفذ الحكم فى المشنوق الأول علنا على مرأى ومسمع من أهله وذويه وبين صياح

النساء ونواحيهم وبقى معلقا بينما نفذ حكم الجلد فى اثنين ثم شنق الثانى بهذه الطريقة. يليه جلد اثنين آخرين وهكذا حتى تمت المجزرة فى منتصف الساعة الثالثة مساء ».

فلما بلغت مصطفى كامل أخبار هذه المجزرة وطريقة تنفيذها هب على الفور يستصرخ الضمير العالمى رغم مرضه وكتب مقاله التاريخى (الى الأمة الانجليزية والعالم المتدين) وكان له أثر كبير فى شرح القضية المصرية ، وكان من نتيجته اقالة كرومر واشتداد الحركة الوطنية ، ثم تحققت الدعوة التى طالما كان ينادى بها مصطفى كامل مطالبا بانشاء جامعة فى مصر فتأسست الجامعة المصرية سنة ١٩٠٦ .

وظل مصطفى كامل يطالب بالعفو على من سجن فى حادثة دنشواى واتصل بالنواب الأحرار فى البرلمان الانجليزى وتحت هذا الضغط أفرجت انجلترا عن مسجونى هذا الحادث المشئوم فى ٨ يناير سنة ١٩٠٧ .

ووافاه الأجل من أثر الجهد الذى قام به فى سبيل مصر فى ١٠/٢ سنة ١٩٠٧ عن أربعة وثلاثين عاما قضاها فى الكفاح والنضال ومحاربة المستعمرين حتى هزم هزا عنيفا ، وأوضح للعالم الصورة المشينة التى كانوا يتسمون بها وأسلم قيادة الحركة الوطنية الى زميله المجاهد محمد فريد فتسلم الأمانة وحمل الرسالة وسار فى نفس الطريق الذى رسمه مصطفى كامل بشرف وأمانة فسافر الى الخارج متأسيا خطى مصطفى كامل ليدعو للقضية المصرية وعقد المؤتمرات فى جميع أنحاء العالم منها المؤتمر الذى عقد بجنيف سنة ١٩٠٩ ، واستوكلهم سنة ١٩١٠ وبروكسل سنة ١٩١٠ وبرلين وغيرها مما ضايق الانجليز فسجنوه بتهمة صحفية مختلقة ابتغاء الحد من وطنيته ، ولكنه خرج من السجن أقوى وأثبت على النضال من ذى قبل . وقال كلمته المشهورة لمن حاولوا معه من السفر الى أوروبا خوفا على صحته :

(اننا نعرف كيف نصبر على المكاره ، ولكننا لا نعرف التسليم فى حقوقنا ولا التنازل عن مطالبنا) .

مغزى مصرع بطرس غالى :

وقد وقع فى أوائل هذا العام حادث خطير هو اغتيال بطرس باشا غالى رئيس مجلس النظار فى ذلك الوقت، وكان لاغتياله دوى كبير فى جميع الأوساط الداخلية والخارجية . وبطرس غالى يعتبر من أسوأ من تولوا الوزارة المصرية ولا يذكر له المصريون حسنة من الحسنات ، فقد كان رئيسا للمحكمة المخصوصة التى حكمت على ضحايا دنشواى سنة ١٩٠٦ — وهو الذى ساهم وساوم الانجليز على مد اتفاقية قناة السويس — وفى عهده خنقت الحريات وأعيد العمل بقانون المطبوعات كما كانت له اليد الطولى فى اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ الخاصة بالسودان والتى بمقتضاها تركنا السودان لقمة سائغة للانجليز ، وقد كتبت عن هذه الاتفاقية جريدة الجرنال أجبشيان فى عددها الصادر فى ١٨٩٩/١/٢٠ : «لقد وقع أمس أفظع اغتصاب فى هذا الجيل وهو عقد الاتفاق الذى أبرم بين الناصب القاهر والمغصوب العاجز ، فقد وقع مجلس النظار المصرى العقد المشئوم لا تخليا عن السودان مؤقتا فحسب ، وانما تنازلا منه عن ملكية أراضيه الفسيحة لانجلترا — وهكذا دخلت انجلترا السودان وتحصنت فيه وبعد ما كان بالأمس أرضا مصرية أصبح فى أيدى الانجليز ومدافعهم الى الشمال » .

هذا هو بطرس غالى باشا رئيس مجلس النظار الذى قتل بعد تاريخ حافل بالخيانة والغدر ، وكأنه أجنبى جاء ليحكم البلاد .

فمن هو القاتل وكيف وقع الحادث

قام بالأمر فى هذه الواقعة ابراهيم الوردانى من أعضاء الحزب الوطنى، وكان شابا لم يتعد سنه واحدا وعشرين عاما ، تلقى علومه فى سويسرا وانجلترا وكان يؤمن بمبادىء الحزب الوطنى ويتأجج وطنية وحماسة وغيرة على وطنه . وكانت تأتيه أخبار مصر المحزنة وهو يتلقى علومه فى الخارج فكان يحزن لها ويتألم وقد تأثر بحادث دنشواى وأوغر صدره وزاد حنقه عندما علم أن رئيس المحكمة أصبح ناظراً للنظار فصمم على اغتياله .

وفى صباح يوم ٢٠ من فبراير سنة ١٩١٠ عندما هم بطرس غالى بركوب عربته سمع من يناديه من الخلف بأن له شكوى فالتفت الى مصدر الصوت فعاجله ابراهيم الوردانى بثلاث رصاصات خر بعدها بطرس باشا مضرجا بدمائه ، وكان معه فى ذلك الوقت فتحى زغلول . وعندما قبض على ابراهيم الوردانى وسأله رئيس النيابة عن سبب القتل قال : لانه خائن للوطن والخائن جزاؤه البتر . وكان ابراهيم الوردانى فى جميع مراحل التحقيق رابط الجأش ثابت الجنان ، لم يرهبه وعد أو يخيفه وعيد ، ولم يعترف على غيره رغم مالاقى من تعذيب . وان كانت الحكومة قد قبضت على بعض رجال الحزب الوطنى وزجت بهم فى السجون . وقد مثل النيابة النائب العام عبد الخالق ثروت الذى تولى الوزارة بعد ذلك وطالب رئيس المحكمة ، وكان يدعى مستر وليوجلو ، بعدم الخوض فى السياسة واسماعيل أبو النصر ،واسماعيل الشيمى، وكانت المحكمة تمنع المحامين من التحدث فى السياسة،ولكن ابراهيم الهلباوى أجاب عندما طلب منه رئيس المحكمة ، وكان يدعى مستر وليوجلو،بعدم الخوض فى السياسة، كيف تطلب منى ذلك . أتريدون رأس المتهم دون أن أفتح فمى . كيف لا أتحدث فى السياسة والجريمة سياسية ووطنية مشرفة دفعت المتهم الى ارتكابها دوافع سامية شريفة ، وقد قضت المحكمة باعدام المتهم .

وفى صباح يوم ٢٨ من يونيو سنة ١٩١٠ تقدم ابراهيم الوردانى بخطوات ثابتة نحو المشنقة وهو يهتف « الله أ كبر الذى يمنح الحرية والاستقلال » .

ومات الشاب ابراهيم الوردانى ضحية رأيه وعزمه ومات رئيس نظار مصر بطرس غالى ولم يذكره سوى الخديوى ومن يلوذ به من الخونة والمستعمرين .

جهود محمد فريد :

عندما شبت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ كان محمد فريد محامى مصر الأول لدى دول العالم .

فوجه دعوته ونداءاته الى هذه الدول مطالبا بحق مصر فى الاستقلال والحرية،

وكان شعاره ، مصر للمصريين ، منددا بالاستعمار وأعوانه مطالبا بالجلاء الناجز عن مصر ، ودعا الى انشاء مجلس النواب وايجاد حكومة وطنية وكان له بجانب نشاطه السياسى نشاط آخر اجتماعى فأنشأ مدرسة ليلية فى بولاق لتعليم الفقراء والعمال بالمجان وأشرف على ادارتها والتدريس بها أعضاء من الحزب الوطنى بدون أجر .

وطالب محمد فريد بمجانية التعليم . على أن يكون الزاميا للجميع فى الدور الابتدائى . كما كان يعطف على الفلاحين والعمال وأنشأ أول نقابة عمالية فى مصر ببولاق ١٩٠٩ — ونادى بتخفيف عبء الضرائب على الفلاحين وبفضل حملة محمد فريد لم تتمكن وزارة بطرس غالى من تنفيذ المؤامرة التى دبرها الانجليز معها لمد امتياز قناة السويس . وكانت هذه الاتفاقية تدور فى كتمان شديد — ولكن محمد فريد حصل على نسخة من هذه الاتفاقيةونشر فحواها فى جريدة اللواء وكشف بذلك الخيانة التى كانت تدبر بليل — مما أساء الى مركز الحكومة وأحرجها أيما احراج فاضطرت الى الاقلاع عن تنفيذ الاتفاقية . وظل يحمل الرسالة حتى ضعفت صحته ووافاه الأجل غريبا وحيدا ببرلين فى نوفمبر سنة ١٩١٩ بعد أن شبت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ نتيجة لكفاح الشعب المستمر وأثر من آثار الجهاد الذى قام به أبناؤه المخلصون منذ أن وطأ الاستعمار أرض الوطن فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وقد كان ذلك من دواعى السرور وتبلج الآمال فى قلب فريد الكبير فختم حياته الحافلة وهو يكتب عنها فى مذكراته بأنه « رأى فجر الآمال يرسم على الأفق خطا من النور اللامع يأمل أن يكون طليعة حريتنا المنشودة واستقلالنا المرجو » .

وكانت هذه المذكرات آخر ما كتبه محمد فريد من منفاه ، حيث مات فى ١٥ سبتمبر ١٩١٩ فخسرت مصر وطنيا كبيرا وابنا بارا .

٣ ـ ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩

مصر قبل الحرب العالمية الأولى :

فى مطلع القرن العشرين ظهرت تيارات عربية كثيرة ، شاركت مصر فيها ، وأثرت فيها وتأثرت بها . فقد قام بعض العرب يلفت النظر الى الفساد المنتشر فى الدولة العثمانية ، وطالبوا باصلاح أحوال البلاد العربية ، وبدأوا يقارنون بين الولايات العربية وسائر الولايات العثمانية ، وخرجوا بنتيجة هى أن حقوق العرب مهضومة وظهرت تيارات عربية فى العالم العربى ، قبل الانقلاب الذى حدث فى تركيا سنة ١٩٠٨ ، عملت على القضاء على فكرة الجامعة الاسلامية ، وعلى احياء القومية العربية .

وكان لوقوع مصر خارج نطاق حكم السلطان العثمانى المستبد عبد الحميد ، مما جعل القاهرة مركزا من مراكز مقاومة استبداده ، وكانت باريس المركز الثانى. وفى هاتين العاصمتين أخذت جماعة من اللاجئين السياسيين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « تركيا الفتاة » تدبير انقلاب فى تركيا ونجحت مؤامرتهم فى ٢٤ يوليو ١٩٠٨ .

كانت نهاية حكم السلطان عبد الحميد ايذانا بغروب شمس الجامعة الاسلامية ، وشروق شمس القومية العربية ، فقد ساعد استبداد وظلم عبد الحميد على نمو الشعور القومى الكامن المتأصل عند العرب . وكانت الفترة التى انقضت بين سقوط عبد الحميد فى سنة ١٩٠٨ وقيام الحرب العالمية سنة ١٩١٤ فترة حافلة بالنشاط القومى المركز ضد السيادة التركية التى أدت الى الأطماع الأوروبية فى العالم العربى.

وكان أمل العرب فى الدستور الذى أعلنه الأتراك سنة ١٩٠٨ عظيما ، فقد أملوا أن يسوى الدستور بين الترك والعرب ، ولكن سرعان ما خاب أملهم . فقد قام على أساس (الدولة الطورانية) التى تحيى مجد جنكيزخان وتيمور لنك ، ولم

يعبأ واضعوه بالروابط التى تربط تركيا بالعروبة والاسلام . فوقف العرب فى العراق واليمن وسوريا ولبنـان ومصر من تركيا وجها لوجـه معلنين عروبتهم وقوميتهم .

استولت « جمعية الاتحاد والترقى » على الحكم فى استانبول سنة ١٩٠٩ ، وبدأت الصحف التركية بالاشادة بأمجاد الطورانيين وسب العرب ، وتدعو الى تطهير اللسان التركى من الألفاظ العربية ، ورفع أسماء الخلفاء الراشدين من المساجد . وأصبح واضحا أن بقاء العرب تحت سيطرة الترك معناه افناء القومية العربية ولغة العرب ، ولذا بدأ العرب يدعون الى استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية.

اعلان الحماية البريطانية على مصر سنة ١٩١٤ :

لم يسكت المصريون عن المطالبة بالاستقلال وانهاء الاحتلال البريطانى ، منذ قدوم الانجليز سنة ١٨٨٢ ، وقد رأينا جهود الشعب المصرى ، وجهود زعمائه المخلصين أمثـال مصطفى كامل ومحمـد فريد وغيرهما . ورغم وفاتهما ، فقد استمر الكفاح ، واستمرت المطالبة بجلاء الانجليز . ولـكن قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ خلق ظروفا دولية أضرت بالحركة الوطنية فى مصر . فقد قامت حرب دولية كبرى ، وانقسم العالم الى كتلتين متصارعتين ، كتلة تتزعمها ألمانيا والنمسا وكتلة أخرى تترأسها انجلترا وفرنسا . ولوجود الجيوش البريطانية فى مصر وسيطرة الانجليز على المرافق المصرية ، أصبح محتما أن تجر انجلترا بمصر الى ويلات هـذه الحرب العظمى ، سواء شاء المصريون ذلك أو أبوا . فقـد أرغم الانجليز الحكومة المصرية على الامتناع عن التعامل مع ألمانيا وحلفائها ، وعلى تخويل القوات البريطانية البرية والبحرية على استعمال جميع الأراضى والموانى المصرية ، وأن تعلن الأحكام العرفية ، وتفرض الرقابة على الصحف ، وبدأ حكم ارهابى شديد الوطأة .

وانضمت تركيا إلى جانب ألمانيا فى الحرب فى نوفمبر ١٩١٤ ، ووجد الانجليز

فى ذلك فرصة ليتنزعوا مصر تماماً من تركيا ، وكانت مصر حتى ذلك الوقت تابعة من الناحية الاسمية لتركيا . وأدركت انجلترا أن مصر ستكون قاعدة حربية كبرى ، ومركز تجمع لقواتها الحربية القادمة من الهند واستراليا وجنوب أفريقية، ولذا رأت انجلترا أنه من الضرورى تغيير وضع مصر السياسى الذى حددته معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والفرمانات التى صدرت فى عهد إسماعيل ، وهو الوضع الذى يعترف بالسيادة التركية .

أصدر القائد العام البريطانى فى مصر بياناً أعلن فيه انضمام تركيا إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، ثم ختم بيانه بهذه العبارات : « ولعلم بريطانيا العظمى بما للسلطان بصفته الدينية من الاحترام والاعتبار عند مسلمى القطر المصرى ، فقد أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطالب من الشعب المصرى أية مساعدة ، ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الأهالى وتطالب إليهم الامتناع عن أى عمل من شأنه عرقلة حركات جيوشها أو أى مساعدة لأعدائها » .

وأعلنت انجلترا حمايتها على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وانتهاء السيادة التركية ، وعزلت الخديوى عباس الثانى ، وكان حينئذ فى زيارة لتركيا ، كما كان معروفاً بميوله التركية ، وولت بدله الأمير حسين كامل ومنحته لقب (سلطان) ، وبدأت انجلترا تخطط لضم مصر إلى إمبراطوريتها والقضاء التام على استقلال مصر وأصبح المعتمد البريطانى هو الحاكم الحقيقى لمصر ، وأخطرت انجلترا السلطان الجديد أن المعتمد البريطانى سيتولى كل شئون مصر الخارجية ، وهذا معناه إلغاء وزارة الخارجية المصرية .

أثارت هذه القرارات الظالمة مشاعر المصريين ، وما لبثت الأراضى المصرية أن شهدت آلافاً من الجنود من مختلف العناصر والأجناس ، وقد حشدتهم انجلترا فى مصر ، وقاسى المصريون من وجودهم الكثير ، وارتفعت أصوات المصريين بالاحتجاج ، ولكن انجلترا اتبعت سياسة القمع والارهاب وملأت السجون بالوطنيين المصريين ، كما نفت كثيراً منهم خارج القطر ، ثم عطلت الجمعية التشريعية

التي كانت حينئذ رمزاً متواضعاً لاشتراك المصريين فى حكم بلادهم .

وأصبحت الحرب العالمية الأولى كارثة بالنسبة للمصريين ، فقد أصبح الفلاحون المصريون مرغمين على أن يقدموا محصولاتهم إلى هذه الآلاف من الجنود البريطانيين ، واستولى الانجليز على دواب وحيوانات هؤلاء الفلاحين . وسخر الانجليز المصريين فى حفر الآبار ومد أنابيب المياه وتمهيد الطرق ، وهلكت أرواح كثيرة فى هذا السبيل ، كما حملت الميزانية المصرية أعباء هذه الأعمال .

مصر والثورة العربية سنة ١٩١٦ :

كانت ثورة العرب على الحكم العثمانى عند إعلان الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ تدل على اقترابهم من فكرة الجامعة العربية وتحقيق قوميتهم فى صورة عملية إيجابية. فقد انضمت تركيا إلى ألمانيا ، وبدأ الأتراك يقتلون رجالات العرب ، وينفون الأسر العربية الكريمة إلى الأناضول تنفيذاً لسياستهم العربية القاضية بتتريك العناصر غير التركية بالقوة . وكان العرب فى الدولة العثمانية لهم أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما :

أولا : الإغضاء عن فظائع الأتراك والسكوت عن مذابحهم ، على أن تسوى شئون العرب معهم بعد انتهاء الحرب .

ثانياً : الثورة على الأتراك ، ومحاربتهم فى جانب الحلفاء .

وكان اتباع الخطة الأولى معناه القضاء المبرم على العرب وقوميتهم ولغتهم، لأنه كان من المستحيل زحزحة الأتراك الاتحاديين عن سياستهم التركية والطورانية ، كما كان هؤلاء لا يعترفون باللغة العربية فى الحكومة والمدارس وكان الأتراك لا يعترفون بكيان سياسى أو قومى للشعب العربى . وكان الاتحاديون يرون أن يصبغوا العرب بالصبغة التركية أو يفنوهم . ومن المعروف أن ألمانيا كانت تطمع فى العراق وفى قسم من الأناضول ، وأن خط بغداد الحديدى كان الأداة الكبرى

لتطبيق سياسة ألمانيا الاستعمارية ، وكان هناك كثير من العرب ممن يخافون على قوميتهم العربية من أطماع ألمانيا .

وإن كان العرب يبغضون الكتلتين المقاتلتين على السواء لما يعرفونه من أطماعهم السياسية الاستعمارية ، إلا أن العرب كانوا مرغمين بحكم ظروفهم السياسية أن يحددوا موقفهم من الأطراف المتصارعة . ورأى العرب أنه إذا انتصرت ألمانيا وتركيا ، فمصير الشام والعراق يكون إلى التتريك ، وإلى التعرض للنفوذ الاستعماري الألماني . ورأى بعض العرب تأييدهم للغرب ربما يكون أهون شراً وأخف وطأة ، وربما يعترف الحلفاء بفضل العرب إذا أيدوهم في محنتهم ، فيمنحوا الأقطار العربية ما يطمحون فيه من حرية واستقلال .

بدأت الثورة العربية الكبرى في الحجاز في سنة ١٩١٦ ، ومن أسباب هذه الثورة الفظائع والجرائم الوحشية التي اقترفتها الحكومة التركية في بلاد الشام خلال الحرب العظمى الأولى ، وجمعات القائد جمال باشا منظما ومنفذاً لها . وهذه المذابح تبين ما كان الأتراك الاتحاديون يبيتونه للعرب ، تلك السياسة التي أساسها (القومية التركية) وتتريك العرب بالقوة . فقد بدأ جمال باشا سنة ١٩١٥ بتشتيت شمل الضباط العرب ، فوجههم إلى جبهات القتال في الدردنيل وجبال القوقاز ، ثم اعتقل خيرة شباب العرب ودفع بهم إلى محكمة عسكرية ، فحكمت عليهم بالقتل ، ونفى مئات من الأسر العربية الكبيرة إلى الأناضول بغية تتريكهم فيها ، واتخذ سياسة تجويع عرب الشام ومات مئات الألوف من العرب جوعاً .

كانت الخطة الحربية التي وضعتها القيادة العثمانية ــ بالاتفاق مع الألمان ــ تعود بأشد الضرر على الأقطار العربية ومنها مصر . فقد أرسل العثمانيون الجنود العراقيين إلى قافقاسيا في شمال شرق الأناضول ، فمات معظمهم نتيجة البرد القارس. كما أن هذه الخطة أدت إلى أن تركت العراق محروماً من حامية قوية . ولذلك عند ما أرسل الإنجليز من الهند جيشاً لامتلاك البصرة استطاع الإنجليز احتلال جنوب العراق بسهولة ، ثم تقدموا نحو الشمال رويداً رويداً . واستلزمت خطة

القيادة حشد الجيوش وتعبئتها فى سوريا وفلسطين ، وكانت تتطلب اجتياز صحراء النقب مع شبه جزيرة سيناء ، وكانت تهدف إلى فتح مصر وطرد الإنجليز منها . أخذت القيادة العامة العثمانية تحشد الجيوش فى سوريا لهذا الغرض ، وعهدت بقيادة هذه الجبهة إلى وزير البحرية جمال باشا ، وأعطته سلطة مطلقة فى جميع الشئون العسكرية والإدارية والمالية . وكان جمال باشا هذا أحد الثلاثة الذين يسيطرون على شئون الدولة والحرب سيطرة تامة ، وكان معروفاً بميوله الطورانية ، فقد كان يدعو إلى القومية التركية ، ولا شك أن هذا باعد كثيراً بينه وبين العرب .

هذا الإرهاب أزال الثقة من نفوس العرب بوعود الأتراك ، ورأى العرب أنه لا سبيل إلى تفاهم جدى . وبدأ العرب يقولون : لا بد أن تنتهى الحرب بانتصار أحد الطرفين . وإذا انتصرت دول الحلفاء استولت جيوشها على البلاد العربية ، وسينسحب الأتراك منها ، وستبقى تحت رحمة هؤلاء الحلفاء ، أما إذا انتصر الأتراك ، فسيفعلون بنا أضعاف ما كانوا يفعلونه قبلا ، وسيسترسلون فى سياسة التتريك فيحرموننا من حقوقنا القومية ، ويسعون للقضاء على قوميتنا . ولذا قام العرب بثورتهم سنة ١٩١٦ .

غدر الحلفاء بالعرب :

اشترك فى الثورة رجال من مختلف البلاد العربية ، كما كان بينهم المسلم والمسيحى . ولكن الحلفاء طعنوا العرب من الخلف ، فقد بدأت مفاوضات سياسية بين الدول المؤتلفة الثلاث ، انجلترا وفرنسا وروسيا ، على اقتسام ميراث الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب ، منذ أواسط سنة ١٩١٥ وانتهت هذه المفاوضات باتفاقيتين سريتين : عقدت الأولى منهما بين الدول الثلاث فى شهر مارس سنة ١٩١٦ ، والثانية بين فرنسا وانجلترا ، إتمـاماً للاتفاقية الأولى فى شهر مايو من نفس السنة ، وهى اتفاقية سايكس بيكو .

حددت روسيا حصتها بالاتفاقية الأولى بالمضايق والقسطنطينية والولايات

الشرقية ، وتُركت أمر التصرف فى شئون الولايات العربية إلى فرنسا وانجلترا على أن تتأسس حكومة إسلامية مستقلة فى الجزيرة العربية ، وأن توضع القدس والأماكن المقدسة المجاورة لها تحت إدارة دولية ، وفق الشروط التى تتقرر فيما بين الدول الثلاث .

قامت الثورة العربية من أجل ضمان استقلال الولايات العربية بأجمعها ، وبأمل تكوين دولة عربية مستقلة تجمع تلك الولايات تحت راية واحدة . وساعد العرب الدول المتحالفة بكل الوسائل الممكنة . ثم انتهت الحرب بانتصار الجانب الذى ناصره العرب ، وذهب مندوبوهم إلى مؤتمر فرساى بباريس ليطالبوا بتنفيذ الوعود التى ارتبط بها الحلفاء على لسان مكماهون وغيره ، ولكن مع الأسف لم تتحقق الآمال ولم تنفذ الوعود .

ومن أبرز مظاهر غدر انجلترا ونكثها لعهودها مع العرب ، ما تعهدت به الحكومة البريطانية لليهود مما يناقض التزاماتها للعرب ، وعرف هذا الالتزام بوعد (بلفور) وهو وزير خارجية انجلترا الذى أصدره .

جاء فى وعد بلفور : « إن حكومة جلالة ملك انجلترا لتنظر بعين الارتياح إلى إنشاء وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى ، وستبذل أطيب مساعيها لتسهيل بلوغ هذه الغاية ، وليكن معلوماً بجلاء أنه لن يعمل شىء من شأنه أن يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف الأخرى غير اليهودية الموجودة بفلسطين أو بالحقوق التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخر والمركز السياسى الذى حصلوا عليه فيه » .

ويرجع إصدار هذا الوعد إلى عاملين : أولهما سياسى ، فقد أرادت انجلترا استمالة العناصر الصهيونية فى ألمانيا والنمسا وأمريكا ، وكانت هذه العناصر ذات نفوذ كبير فى السياسة والصحافة والاقتصاد .

والعامل الثانى يحمى المصالح البريطانية ، ففى مقابل هذا الوعد يؤيد اليهود

احتلال الإنجليز لفلسطين ، وبذلك تكون حصناً تحمى مركز بريطانيا فى مصر وقناة السويس ، ويؤمن الاتصال البرى مع الشرق ، وتستطيع انجلترا بذلك إفساد النص الذى ورد فى اتفاق (سايكس — بيكو) بشأن جعل فلسطين منطقة دولية فتصبح بذلك منطقة نفوذ إنجليزى .

تقدم بعض زعماء العرب المقيمين فى مصر فى سنة ١٩١٨ بمذكرة إلى انجلترا طلبوا فيها إليها تحديد سياستها المتعلقة بمستقبل البلاد العربية فى بيان واضح شامل ، فأصدرت وزارة الخارجية البريطانية بياناً أكدت فيه تعهدات بريطانيا السابقة للعرب بصراحة وعزمها على الاعتراف للعرب بالسيادة والاستقلال التام ، وأن يكون الحكم فى البلاد العربية فى المستقبل متفقاً مع رغبات المحكومين . ونظر العرب إلى هذا التعهد على أنه نتيجة طبيعية لمبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها الذى أعرب عنه الرئيس الأمريكى قبل ذلك بعدة شهور .

كما أصدرت بريطانيا وفرنسا فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، أى قبل انتهاء الحرب بأيام ، تصريحاً مشتركاً أكدتا فيه أن هدفها تحرير الشعوب التى كانت تخضع للحكم التركى ، ومنها إنشاء حكومات وطنية يختارها العرب . ولكن هذا التصريح لم يكن إلا ستاراً يخفى الأطماع الاستعمارية لكل من الدولتين ، وقد ظهرت هذه الأطماع واضحة فى صورة عملية بعد انتهاء الحرب مباشرة .

مقدمات ثورة ۱۹۱۹

ترقب المصريون انتهاء الحرب العالمية الأولى حتى يطالبوا انجلترا بتنفيذ وعودها . وفى ۱۱ نوفمبر سنة ۱۹۱۸ انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، وبدأزعماء مصر المخلصون يستعدون للمطالبة بالاستقلال ، وظن المصريون أن انجلترا ستعترف بالجميل وتقدر موقفهم منها وقت محنتها ، وما قدموه من مساعدات جليلة وحيوية. وانتعشت الآمال عند ما أعلن الرئيس (ولسن) مبادىء الأربعة عشر التى يتضمن أحدها حق كل شعب فى تقرير مصيره ، وخاصة أن الرئيس ولسن دعا الدول الاستعمارية إلى أن (تترك لكل شعب الحق وحده فى تقرير سياسته ، ورسم طريقه الذى يراه مؤدياً إلى التقدم بدون إحراج أو تهديد أو إرهاب) . وتولى زعامة المصريين فى هذه الفترة سعد زغلول .

تحدث الميثاق عن الموجه الثورية الجديدة فقال عنها أنها : « ما لبثت أن تفجرت سنة ۱۹۱۹ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وبعد خيبة الأمل فى الوعود البراقة التى قطعها الحلفاء على أنفسهم خلال الحرب ، وفى مقدمتها وعود ويلسون التى ما لبث هو أن تنكر لها واعترف بالحماية البريطانية على مصر . وركب سعد زغلول قمة الموجة الثورية الجديدة يقود النضال الشعبي العنيد الذى وجهت إليه الضربات المتلاحقة أكثر من مائة عام متواصلة دون أن يستسلم أو ينهزم » .

تلكأت انجلترا فى الوفاء بوعودها ، وأنكرت جميل المصريين ، فقد كانت مساعداتهم العظيمة من عوامل انتصارها . ورأى المصريون أن يعودوا ثانية إلى الكفاح والنضال والجهاد . ورأوا أن يبدأوه بالوسائل السلمية ، ووجدوا فى مؤتمر الصلح الذى عزمت الدول على عقده فى باريس مجالا ليرفعوا أصواتهم بالمطالبة بالحرية والاستقلال .

رأى زعماء مصر الوطنيون أن يخاطبوا الضمير العالمى ، ويطالبوا الدول الأوروبية بتحقيق وعودهم . وفى يوم ۱۱ من نوفمبر سنة ۱۹۱۸ ، وهو يوافق

يوم عقد الهدنة بين الحلفاء وألمانيا ، اتفق سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية ، وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى العضوان بها على مقابلة للمسيو ريجنلد ونجت المندوب السامى البريطانى لإبلاغه رغبة المصريين — وقد حدد لهم المندوب السامى يوم ١٣ نوفمبر ميعاد للمقابلة — وجدير بالذكر أن حسين رشدى رئيس الوزراء هو الذى أوحى إليهم بذلك — كما أنه هو الذى مهد للمقابلة ..

وفى الاجتماع واجهوا المندوب السامى برغبتهم فى السفر إلى الخارج لتمثيل مصر فى مؤتمر الصلح ليطالبوا بالاستقلال ودارت بين الطرفين مناقشة هامة أوجز منها ما يلى :

سعد زغلول :

الهدنة قد أعلنت والمصريون لهم الحق فى أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ما هو الخير الذى تريده انجلترا لهم — كما أن لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات .

ونجت :

يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين فى سلوككم فإن المصريين فى الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة .

سعد زغلول :

إن هذه العبارة مبهمة المعنى ولا أفهم المراد منها .

ونجت :

أريد أن أقول أن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر .

سعد زغلول :

لا أستطيع الموافقة على ذلك فإنى إن وافقت أنكرت صفتى — فإننى منتخب

فى الجمعية التشريعية ، وكان انتخابى بمحض إرادة الرأى العام مع معارضة الحكومة والورد كتشنر فى انتخابى — وكذلك الأمر مع زميلى على شعراوى ، وعبد العزيز فهمى .

ونجت :

إن قبل الحرب كثيراً ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطنى وكان ذلك بلا تعقل ولا روية .

على شعراوى :

إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر .

ونجت :

إذن أنتم تطلبون الاستقلال .

سعد زغلول :

ونحن أهل له ... وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقى الأمم المستقلة .

ونجت :

ولكن الطفل إذا أعطى من الغذاء أزيد مما يلزم تخم .

عبد العزيز فهمى :

نحن نطلب الاستقلال التام ، وقد ذكرتم أن الحزب الوطنى أتى من الحركات والكتابات بما أضر — وأقول لجنابكم أن الحزب الوطنى كان يطلب الاستقلال ، وكل البلد تطلب الاستقلال . أما من وجهة تشبيهنا بالطفل يتخم إذا غذى بأزيد من اللازم فاسمحوا لى أن أقول أن حالنا ليست مما ينطبق عليها هذا الشبه — بل الواقع أننا كالمريض مهما آتيت له من نطس الأطباء استحال عليهم أن يعرفوا من أنفسهم موقع دائه بل هو نفسه الذى يحس بألم الداء ويرشد إليه — فالمصرى

وحده الذى يشعر بما ينقصه — والاستقلال التام ضرورى لرقينا — وإذا كانت بلاد العرب وهى دون مصر بمراحل أخذت استقلالها فمصر أجدر بذلك .

ونجت :

قد كانت مصر عبداً لتركيا — أفتكون أحط منها لو كانت عبداً لانجلترا ؟

شعراوى :

قد أكون عبداً لرجل من الجمليين ، وقد أكون عبداً للمستر ونجت الذى لا مناسبة بينه وبين الرجل الجملى ، ومع ذلك لا تسرنى كلتا الحالتين لأن العبودية لا أرضاها ولا تحب نفسى أن تبقى تحت ذلها ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لانجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد .

وقد أبدى ونجت لرشدى باشا بعد ذلك تعجبه من أن ثلاثة من المصريين جاءوا له يتحدثون باسم مصر ، دون أن يكون لهم صفة أو وكالة عن الأمة تخول لهم ذلك وأخطر رشدى سعد بملاحظة ونجت فاتفقت الكلمة بعد ذلك على تشكيل هيئة تسبغ عليهم الصفة التى أشار إليها ونجت ، فتكونت هيئة الوفد المصرى وشكلت من سعد زغلول رئيساً — وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى — ومحمد محمود — وأحمد لطفى السيد — وعبد اللطيف المكباتى — ومحمد على علوبة أعضاء — وحرروا صيغة توكيل ليوقعه الشعب ممثلا فى هيئاته وطوائفه . . ؟ ليسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر تطبيقاً لمبادىء الحرية والعدل التى تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى وحلفاؤها ويؤيدون بموجبها تحرير الشعوب » . وقد أغضب صيغة التوكيل رجال الحزب الوطنى لعدم النص على الاستقلال التام ولقصر المطالبة بالاستقلال على مبادىء العدل التى تنشر رايتها بريطانيا العظمى — مع أن أصل البلاء هو السياسية التى اتبعتها بريطانيا نحو مصر ومن ثم فقد توجه الأساتذة عبد المقصود متولى ، ومصطفى الشوربجى ، ومحمد زكى على ، ومحمد عبد المجيد السعيد من أعضاء الحزب

الوطنى إلى بيت سعد زغلول وتناقشوا معه فى صيغة التوكيل وبينوا له وجهة نظرهم واحتدوا عليه فغضب سعد وقال لهم : كيف تهينوننى فى منزلى ؟ فرد عليه محمد زكى قائلا : إننا نعتبر أنفسنا فى بيت الأمة لا فى بيت سعد الخاص — ومن هذا اليوم سمى بيت الأمة — وعلى أثر هذه المقابلة عدل الوفد صيغة التوكيل وأصبحت : نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات ... فى أن يسعوا بالطرق السلمية حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاماً ، وحذفوا النبذة الخاصة ببريطانيا العظمى — وطبع التوكيل وأرسل لجميع الأفراد والهيئات للتوقيع عليه — ولم تتعرض له وزارة رشدى — بل أصدرت أمرها للبوليس ولرجال الإدارة بتيسير التوقيع على هذه التوكيلات — ولكن تصدت لهذه التوكيلات السلطة العسكرية — ثم رفضت السماح للوفد المصرى بالسفر إلى مؤتمر الصلح مما حدا للوفد إلى عرض مطالب مصر على معتمــدى الدول الأجنبية ثم توالت اجتماعاتهم وندواتهم وخطبهم وما لبثوا أن أرســلوا احتجاجاتهم إلى الوزارة والسلطان وإلى سفراء الدول الأجنبية على منع الوفد من السفر إلى الخارج وقالوا فى إحدى هذه الاحتجاجات ، ها نحن أولاء محكوم علينا بالبكم نعلك فيه شكيمة الغيظ — وبالحزن المبرح نلبس ثيابه حداداً على حريتنا المسلوبة . إن الدولة تسومنا الخسف ، ما لبثت أن قررت نهائياً قطع الطريق علينا إلى المؤتمر ساخرة بوعودها كأنها لم تكن تقصد بهذه الوعود سوى أن تفوت على الأمة فرصة نفيسة وأن تمى همم بنيها ، ورأت السلطات العسكرية البريطانية أن نشاط الوفد يشكل خطراً جدياً عليها فاستدعى الجنرال وطسن قائد القوات البريطانية رئيس الوفد وأعضائه لمقابلته يوم ٦ من مارس سنة ١٩١٩ وألقى عليهم الإنذار التالى باللغة الإنجليزية ، علمت أنكم تضعون مسألة وجود الحماية موضع المناقشة وأنكم تقيمون العقبات فى سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعى فى منع تشكيل وزارة جديدة وحيث أن البلاد لا تزال تحت الأحكام العسكرية لذلك يلزمنى أن أنذركم أن أى عمل منكم يرمى إلى عرقلة سير الإدارة يجعلكم عرضة للمعاملة الشديدة بموجب الأحكام العرفية ، وعند ما هم أحد الأعضاء بالكلام قاطعه وطسن قائلا :

« لا مناقشة » ثم تركهم وانصرف . وبعد يومين أى فى يوم ٨ مارس ألقت السلطة العسكرية القبض على سعد زغلول ، ومحمد محمود ، وإسماعيل صدقى ، وحمد الباسل ونفتهم إلى جزيرة مالطة — ولم يضعف هذا الإجراء التعسفى عزم رجال الوفد المصرى فعقدوا النية على المضى فى الكفاح . وبادروا بإرسال احتجاج إلى السلطان قالوا فيه : « قبلتم استقالة الوزيرين رشدى وعدلى فلما فهمنا أن هذا ربما كان الحل الوحيد لمسألة سفر الوفد المكلف بالدفاع عن قضية بلدكم الأسيفة— وأنه لا يسمح لرجل مصرى ذو كرامة ووطنية أن يقبل تأليف الوزارة ما دام الوزيران المستقيلان علقا سحب استقالتهما على أمر سفر الوفد — عرضنا لسيادتكم العلية — متضرعين أن تتعرفوا على رأى الأمة قبل البت نهائياً فى هذا الأمر وأن تعيدوا النظر فى الخطة التى اختطها مستشاروكم وأن تبدو للأمة من آيات ما جبلتم عليه من حبها فتكونوا فى صفها مدافعين عنها لتنال غرضها » ثم ذكروا فى البيان تعرض السلطة البريطانية لهم ومنعهم من السفر ثم القبض على زملائهم ونفيهم « ثم ساقوهم إلى بور سعيد إلى حيث لا نعلم » وطلب الوفد فى ختام البيان من السلطان أن يقف فى صف المدافعين عن قضية العدالة ، ويتعين علينا أن نشيد بالموقف الوطنى الجليل الذى وقفه حسين رشدى رئيس الوزراء فى تلك الأيام فهو الذى أوعز لسعد وزميليه بمقابلة ونجت — وهو الذى أمر رجال الإدارة بعدم التعرض للتوكيلات وظل يؤازره ويعضده حتى رأى أن من واجبه كرئيس للوزارة أن يسافر إلى مؤتمر الصلح ليعرض مطالب مصر وأمانيها ولكن الإنجليز منعوه أيضاً — فتقدم باستقالته من الوزارة هو وزميله عدلى يكن وصمما عليها وقال حسين رشدى فى كتاب استقالته للسلطان « عند ما أخذت على عاتقى أمام ضميرى وأمام وطنى وأمام التاريخ مسئولية منصبى فى عهد النظام الجديد قد عاهدت نفسى عهداً أساسياً أن أطلب من الحكومة الإنجليزية عند الشروع فى مفاوضات الصلح أكثر ما يمكن من الحرية لمصر . والآن وقد أوشكت هذه المفاوضات أن تبتدىء طلبت من الحكومة الإنجليزية بعد تصديق عظمتكم أن تسمع أقوالى فكان جوابها بمثابة التسويف إلى ما بعد الصلح — فلهذه الأسباب

أتشرف بتقديم استعفائى بين يدى عظمتكم وأن زميلى عدلى يكن باشا الذى عينتموه لمرافقتى فى مهمتى يتمسك بمشاركتى هذا الأمر فهو يقدم شخصياً استعفاءه من وزارة المعارف العمومية » — ولم يوافق السلطان على قبول استقالة الوزيرين إلا بعد إلحاح شديد منهما . ولم يكد يعلم الشعب بنبأ القبض على سعد وزملائه حتى قامت الثورة التى كانت تنتظر إشارة البدء بها — كالبركان الملىء بالحمم يتلمس الطريق للفوران .

موجة ثورية جديدة :

وقد يعتقد البعض أن سبب الثورة هو اعتقال سعد وصحبه ونفيهم إلى مالطة ولكن أسباب الثورة الحقيقية هى أن الحركة الوطنية كانت قد بدأت تقوى نتيجة لتعبئة الشعور القومى والوطنى بفضـــل جهود أبنائها المكافحين وعلى رأسهم مصطفى كامل ، ومحمد فريد ونداآتهما التى ظلت تتجاوب أصداؤها أرجاء الوادى أكثر من ثلاثين عاماً ، وكان لها أثر كبير وعمق بالغ فى نفوس المواطنين ثم أن المصريين لم ينظروا للاحتلال فى أى فترة من فترات تاريخهم إلا على أنه اعتداء مستمر على حرياتهم وأنهم كانوا يتربصون به ويتحينون الفرصة للانقضاض عليه والتخلص منه — خاصة وأن الاحتلال الذى نكبت به البلاد منذ سنة ١٨٨٢ اتسم بالظلم ، والاضطهاد وكبت الحريات وتكميم الأفواه وكان الإنجليز يستأثرون بالوظائف الهامة فى الدولة حتى أنهم عينوا مستشارين عنهم فى كل مصلحة ووزارة — وكان سلطان المستشار الإنجليزى يفوق سلطان الوزير المصرى — بل ويتوقف بقاء هذا الأخير فى الحكم على موافقة المستشار ورضائه — ورأى الإنجليز أن فى بقاء الجيش المصرى ما يهدد كيانهم فسرحوه - وبقيت مصر بدون جيش يحميها - وألغوا مجلس النواب وسعوا لفصل السودان عن مصر وانفردوا بحكمه — وعقب إعلان الحرب فى سنة ١٩١٤ رأوا أن الفرصة سانحة فأعلنوا الحماية على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤ وفرضوا الرقابة على الصحف والمطبوعات — ولم يكتف الإنجليز بكل هذا بل جندوا ما يزيد على مليون مصرى وأرسلوهم إلى سيناء والشام لمحاربة أعدائهم الألمان والأتراك ، وكانوا يؤخذون كرهاً باسم المتطوعين وما هم بمتطوعين

ويعاملون معاملة المعتقلين وما هم بمذنبين — يربطون بالحبال ويساقون كالأنعام ويتنقلون بالقطارات فى مركبات الحيوانات ويعاملون أسوأ معاملة[1] ».

وكما جند الانجليز المصريين بالقوة — استولوا كذلك على اقتصاديات البلاد — ومقدراتها قسراً . وكانت السلطة الانجليزية تصادر الحاصلات الزراعية والمواشى وتستولى عليها وتحرم أصحابها منها بطرق غاية فى القسوة والوحشية — حتى إن إحدى الكاتبات الانجليزيات وتدعى مس درهام كتبت مقالا فى ٢ أبريل سنة ١٩١٩ فى جريدة الديلى نيوز قالت فيه « بلغ من جهل الجنود الانجليز أن كانوا يظنون أن مصر بلاداً إنجليزية وأن المصريين قوماً دخلاء. ويعجبون كيف سمح لهؤلاء العبيد أن يأتوا لهذه الديار وقد سمعت غير واحد من الاستراليين يقول لو كان الأمر بيدى لما أبقيت على واحد من المصريين فى هذه البلاد » وتستطرد الكاتبة بعد أن بينت بعض مخازى الانجليز وفضائحهم فى مصر فتقول : « وأقسم لو كنت مصرية لما ترددت فى بذل النفس والنفيس لطرد الانجليز من مصر وأنى والحق يقال كنت أخجل أشد الخجل لانتسابى لبلادى » كما نشرت جريدة رائد العمال البريطانية فى ٣ أبريل سنة ١٩١٩ بعض هذه الفظائع فتقول :

« وضع نظام للتطوع ظهر عدم كفايته فصدرت الأوامر بأخذ العمال من الحقول بإكراه وطريقته أن يدخل رجال الحكومة القرية وينتظرون رجوع الفلاحين إلى منازلهم عند الغروب فيحدقون بهم كالأنعام وينتقون خيرهم للخدمة فإذا رفض أحدهم هذا التطوع الاجبارى جلد حتى يقر بالقبول وعلى هذا النحو ساقوا أطفالا من سن ١٤ سنة وشيوخاً فى سن السبعين وكانت تساق هذه الجموع المريضة من هؤلاء المساكين لتأدية الأعمال الحربية والكرباج كفيل بتسخيرهم وأصبح الجلد من الأعمال اليومية العادية ثم أن سوء الغذاء ورداءة الكساء وقلة الغطاء فضلا عن عدم وجود الخيام حيث يلتحف هؤلاء المساكين السماء ويفترشون

---

(١) ثورة ١٩١٩ للأستاذ عبدالرحمن الرافعى .

الغبراء جعل هؤلاء الآدميين فريسة الأمراض الوبائية كالتيفوس وغيره عدا الجوع والبرد فكانوا يموتون كالذباب فى الصحراء ، وبجانب مصادرتنا لهؤلاء الناس أعددنا مصادرة جمالهم وحميرهم ودوابهم فأصبحت الأعمال الزراعية متعذرة ، وارتفع ثمن الحاصلات والحاجات — فعم الغلاء وأصبح العيش متعسراً وساءت حالة الفقراء والعمال بدرجة عظيمة . فهل بعد هـذا يستغرب إذا بلغ الكره لنا والحقد علينا مبلغهما فى قلوب المصريين » .. هذه هى بعض الأعمال التى كان يقوم بها الإنجليز فى مصر باعترافهم — ولم يكن أمام الشعب الذى كان يتطلع إلى الحرية والاستقلال منذ اليوم الأول للاحتلال إلا أن يثور عليه وعلى الظلم والاستبداد وأن يضج من الوسائل الوحشية التى اتبعها الإنجليز معه وكان آخرها القبض على سعد وزملائه .

اوج الثورة :

وبدأت الثورة يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩ بإضراب طلبة مدرسة الحقوق ثم أعقبهم طلبة الأزهر وباقى المدارس — وانتشرت روح التذمر فى جميع الجهات . فتعطلت المواصلات وأضرب الموظفون الأمر الذى دفع السلطة الانجليزية بتهديدهم بالفصل إن لم يعودوا إلى أعمالهم وفى ١١ مارس أضرب المحامون فى جميع أنحاء البلاد وقرروا نقـل أسمائهم من جدول المشتغلين إلى جدول غير المشتغلين — وأثبتوا ذلك فى محاضر الجلسات وأمام القضاء الذين أيدوا المحامين فى قرارهم ووافقوا على إثبات الاضراب فى محاضر الجلسات وتنازلهم عن التوكيلات المعطاة من الموكلين — ولم ينفذ القضاة منشور وزارة الحقانية القاضى بضرورة شطب القضايا إذا صمم المحامون على الاضراب ، والعجيب أن الموكلين أيدوا محاميهم فى ذلك الاجراء — كما أضرب عمال العنابر وكان يزيد عددهم على أربعة آلاف عامل فتعطلت القطارات ـ ووسائل النقل بأكلها ـ حتى عربات الأجرة والأوتوبيسات وتفاقمت الحالة يوماً بعد يوم فتعطلت جميع المواصلات بلا استثناء . وأقفرت مكاتب الوزارات من موظفيها وأغلق التجار محالهم وسقط العديد من الشهداء

برصاص الانجليز الغادر ، وأنشئت المحاكم العسكرية لمحاكمة الوطنيين، وعم الاضراب وشمل كل الطوائف والهيئات وفى جميع أنحاء البلاد حتى النساء فقد سرن فى مظاهرات رهيبة وقدمن احتجاجات كثيرة إلى معتمدى الدول الأجنبية جاء فى إحداها « يرفع هذا لجنابكم السيدات المصريات أمهات وأخوات وزوجات من ذهبوا ضحيـــة المطامع البريطانية يحتججن على الأعمال الوحشية التى قوبلت بها الأمة المصرية الهادئة » وهال الانجليز عنف الثورة وكانوا يظنون بادىء ذى بدء أنها مظاهرة بسيطة سوف تخمد بعد حين ولكنهم رأوا أن يقاوموها بالقوة والبطش فأنذروا الشعب بالقتل وحرق القرى التى تخرب بجوارها السكك الحديدية وأصدر القائد العام للقوات البريطانية فى ١٩١٩/٣/٢٠ البلاغ التالى : « كل حادث جديد من حوادث تدمير عطات السكك الحديدية أو المهمات الحديدية يعاقب عليه بإحراق القرية التى هى أقرب من غيرها إلى مكان التدمير وهو آخر إنذار » وفى هذا الانذار ما يدل على أن الانجليز قد فقدوا رباطة جأشهم وبلغ بهم الهوس درجة أنهم كانوا يقتلون الأبرياء سواء أكانت هناك مظاهرة أم لم تكن . مثال ذلك أنهم نزلوا بقرية ميت القرشى فى صبيحة ٢/٢٣ وأطلقوا النار على الآمنين بها فقتلوا ما يزيد على مائة شخص دون ذنب أو جريرة . وفى هذا الحادث الوحشى وغيره من الحوادث ما يقطع بأن الانجليز دعاة المدنية هم ووحوش الغاب سواء .

ومع ذلك فلم ترهب الثورة همجيـــة الانجليز ـــ فمضت فى طريقها تطالب باستقلال البلاد ـــ وزادت اشـــتعالا . وردت بلدة دير مواس على مجزرة ميت القرشى فهاجمت قطاراً محملا بالجنود البريطانيين وقتلت منهم ثمانية ضباط وذلك فى ١٩١٩/٣/١٨ . وشكلت محكمة عسكرية صورية وحكمت بالاعدام على ٥١ شخصاً دون تحقيق أو مرافعة ، وكانت المحاكم أشبه بالمجزرة بل هى مجزرة كبيرة بالفعل وليست محكمة لأننا نظلم كلمة محكمة فى هذا المجال . فقد ألفت من ضباط إنجليز قساة القلوب أعـــدوا حكم الاعدام من قبل ، حتى أن المحاكمة لم تستغرق سوى يومين ، فبدت يوم : ١٩١٩/٥/١٧ وصـــدر الحكم الجائر فى ١٩١٩/٥/٢٩ .

المدنية الغربية تحكم

وحاول الانجليز ارهاب المصريين بهذه المحاكمات التي قامت في كل مدينة وقرية وسارت جميعا على نمط محاكمة دير مواس، قتل مبيت للمدنيين الأبرياء، فكانت هناك قضية مأمور بندر أسيوط وقضية الواسطى وصنبو وملوى والمنيا وفاقوس ورشيد وقليوب واسكندرية — مجازر في كل البلاد على صورة محاكمات. ومع ذلك فقد مضت الثورة في طريقها ولم تنجح المشانق التي نصبت في طول البلاد وعرضها في صدر تيارها. مما حدا بالوزارة الانجليزية الى ارسال لجنة لبحث أسباب الثورة سميت فيما بعد بلجنة ملنر ولكن الشعب بجميع طوائفه قاطعها وتجاهلها، لأن سبب الثورة كان — واضحا في غير حاجة الى لجان. وزادت الثورة عنفا — وزاد الانجليز هوسا فاقتحموا الجامع الأزهر الشريف بجحافلهم وجنودهم وخيولهم واعتدوا على من كان في داخله من مصلين وظهرت في ذلك الوقت الجمعيات السرية كمظهر من مظاهر الكفاح للانتقام من الانجليز ومن يعاونهم من المصريين فألقيت قنبلتان على يوسف وهبه باشا رئيس الوزارة في ديسمبر سنة ١٩١٩ ونجا منهما. كما ألقيت قنبلة على اسماعيل سرى باشا في يناير سنة ١٩٢٠. وأخرى على محمد شفيق باشا في فبراير سنة ١٩٢٠ ورابعة على حسين درويش وكانوا جميعهم أعضاء في وزارة يوسف وهبه الذى قبل الوزارة أثر صدور بلاغ انجلترا بالحماية على مصر مما أثار السخط العام عليها. ودفع الوطنيين الى الاعتداء على أعضائها. وظلت حركة المقاومة حتى بعد استقالة وزارة وهبه باشا. فوقع اعتداء على نسيم باشا رئيس الوزارة الجديدة في يونيو سنة ١٩٢٠ لأن الشعب كان يعتبر قبول أى مصرى للوزارة في ذلك الوقت تحديا لرغبته فاستقالت كسابقتها مكروهة ملعونة. ولم ير الانجليز بدا ازاء اصرار الشعب من الاستماع اليه والرضوخ الى طلباته وهم الذين كانوا يرفضون حتى المناقشة في موضوع الاستقلال. وكان الكبر والزهو والغرور يملأ نفوسهم حتى أن قائد

القوات البريطانية الجنرال وطسون عندما دعا أعضاء الوفد المصرى فى ١٩١٩/٣/٦ وألقى عليهم الانذار بالكف عن الجهاد وأراد بعض الأعضاء الكلام فرفع يده قائلا : « لا مناقشة » .

ولكنهم ازاء الثورة وما وضعتهم فيه من موقف لايحمدون عليه طأطؤا من هاماتهم ورأوا أنفسهم مرغمين الى تحقيق بعض مطالب الشعب فتألفت الوزارة التى رضى عنها لا التى كانت تستمد العون من الانجليز أو السراى . وكانت وزارة عدلى باشا . وعاد سعد زغلول من أوروبا بين مظاهر الفرح . وألغى الانجليز الحماية واعترفوا بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وذلك عندما أصدروا تصريحهم المشهور فى ١٩٢٢/٢/٢٨ ثم أعلن الدستور فى ١٩٢٣ وكانت كل هذه الانتصارات من آثار جهاد أبناء مصر وتضحيات شهدائنا الذين كانوا وقودا لثورة ١٩١٩ .

الباب الرابع

الشعب يكافح الانجليز وأسرة محمد على

١ ـ استقلال زائف .

٢ ـ موقف الشعب من معاهدة ١٩٣٦ .

٣ ـ أسود الجيش ونسور الطيران .

٤ ـ الكفاح الشعبي أثناء الحرب العالمية الثانية .

١ ـ استقلال زائف

عوامل اخفاق ثورة ١٩١٩ كما جاءت فى الميثاق :

درس الميثاق أسباب ونتائج ثورة ١٩١٩ دراسة رائعة ، اذ أن العوامل التى أدت الى اخفاق ثورة ١٩١٩ هى نفس عوامل قيام ثورة ١٩٥٢ المباركة . فقال الميثاق : « إن ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ تستحق الدراسة ، فان الأسباب التى أدت الى فشلها هى نفس الأسباب التى حركت حوافز الثورة سنة ١٩٥٢ » .

وركز الميثاق عوامل اخفاق ثورة ١٩١٩ فى ثلاث عوامل ، أولها اهمال هذه الثورة التغيير الاجتماعى ، وثانيها عجز الثورة عن تحديد الشخصية المصرية ، وثالثها أن القيادات الثورية سنة ١٩١٩ لم تلائم بين أساليب نضالها والأساليب الاستعمارية فى مواجهة الثورات الشعبية . فجاء فى الميثاق :

« اذن هناك ثلاثة أسباب واضحة أدت الى فشل هذه الثورة . ولابد من تقييمها فى هذه المرحلة تقييما أمينا ومنصفا :

أولا : ان القيادات الثورية أغفلت اغفالا يكاد يكون تاما مطالب التغيير الاجتماعى ، على أن تبرير ذلك واضح فى طبيعة المرحلة التاريخية التى جعلت من طبقة ملاك الأراضى أساساً الأحزاب السياسية التى تصدت لقيادة الثورة .

ومع أن اندفاع الشعب الى الثورة كان واضحا فى مفهومه الاجتماعى الا أن قيادات الثورة لم تتنبه لذلك بوعى حق لقد ساد تحليل خاطىء فى هذا الظرف ردده بعض المؤرخين ، مؤداه أن الشعب المصرى ينفرد عن بقية شعوب العالم بأنه لايثور الا فى حالة الرضاء . ولقد استدلوا على ذلك بأن الثورة وقعت فى ظروف الرخاء الذى صاحب ارتفاع أسعار القطن فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وذلك استدلال سطحى فان الرخاء كان محصورا فى طبقة ملاك الأراضى وطبقة التجار والمصدرين الأجانب الذين استفادوا من ارتفاع الأسعار . وبذلك زاد التناقض

بينهم وبين الكادحين من الفلاحين الذين كانوا يروون حقول القطن بعرقهم ودمائهم دون أن تتغير أحوالهم بارتفاع أسعاره وكان هذا الحرمان فى القاعدة بتناقضه مع الرخاء فى القمة من أسباب الاحتكاك الذى أشعل شرارة الثورة .

ان المحرومين كانوا هم وقود الثورة وضحاياها ، لكن القيادات التى تصدت فى مقدمة الموجة الثورية سنة ١٩١٩ باغفالها للجوانب الاجتماعية من محركات الانفجار الثورى لم تستطيع أن تتبين بوضوح أن الثورة لاتحقق غاياتها بالنسبة للشعب الا اذا مدت اندفاعها الى مابعد المواجهة السياسية الظاهرة من طلب الاستقلال . ووصلت الى أعماق المشكلة الاقتصادية والاجتماعية .

ولقد كانت الدعوة الى تمصير بعض أوجه النشاط المالى هى قمارى الجهدفى ذلك الوقت . فى حين أن الدعوة الى اعادة توزيع الثروة الوطنية أصلا وأساسا كانت هى المطلب الحيوى الذى يتحتم البدء فيه من غير تأخير أو ابطاء .

ثانيا : ان القيادات الثورية فى ذلك الوقت لم تستطع أن تمدبصرها عبر سيناء وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية . ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك صدام على الاطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية .

لقد فشلت هذه القيادات فى أن تتعلم من التاريخ ، وفشلت أيضا فى أن تتعلم من عدوها الذى تحاربه ، والذى كان يعامل الأمة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقا لمخطط واحد .

ومن هنا فان قيادات الثورة لم تتنبه الى خطورة وعد بلفور الذى أنشأ اسرائيل لتكون فاصلا يمزق امتداد الأرض العربية وقاعدة لتهديدها .

وبهذا الفشل ، فان النضال العربى فى ساعة من أخطر ساعات الأزمة حرم من الطاقة الثورية المصرية ، وتمكنت القوى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمة عربية ممزقة الأوصال مفتتة الجهد . واختصت ادارة الهند البريطانية بالتعامل مع شبه الجزيرة العربية ومع العراق ، وانفردت فرنسا بسوريا ولبنان .

بل وصل الهوان بالأمة العربية فى ذلك الوقت الى حد أن جواسيس الاستعمار تصدروا قيادة حركات ثورية عربية . وكانت بأمرهم ومشورتهم تقسام العروش للذين خانوا النضال العربى وانحرفوا عن أهدافه .

كل هذا ، والثورة الوطنية فى مصر تتصور أن هذه الأحداث لاتعنيها ،وأنها لا ترتبط مصيريا بكل هذه التطورات الخطيرة .

ثالثا : ان القيادات الثورية لم تستطع أن تلائم بين أساليب نضالها وبين الأساليب التى واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب فى ذلك الوقت ان الاستعمار اكتشف أن القوة العسكرية تزيد ثورات الشعوب اشتعالا ومن ثم انتقل من السيف الى الخديعة ، وقدم تنازلات شكلية لم تلبث القيادات الثورية أن خلطت بينها وبين الجوهر الحقيق . وكان منطق الأوضاع الطبقية يزين لها هذا الخلط » .

استقلال لا مضمون له :

اقتبسنا هذا العنوان من الميثاق أيضا ، فقد منح الانجليز المصريين استقلالها اسميا ، لامضمون له ، بل ان الحكم الذاتى الذى منحه الاستعمار أدى الى صراع حزبى أحرق الطاقة الثورية ومزق صفوف الوطنيين المصريين ، فجاء فى الميثاق : « ان الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه وسلب مضمونه ، ومنح من الحرية شعارها واغتصب حقيقتها . وهكذا انتهت الثورة باعلان استقلال لامضمون له ،وبحرية جريحة تحت حراب الاحتلال . وزادت المضاعفات خطورة بسبب الحكم الذاتى الذى منحه الاستعمار والذى أوقع الوطن باسم الدستور فى محنة الخلاف على الغنائم دون ثمر . وكانت النتيجة أن أصبح الصراع الحزبى فى مصر ملهاة تشغل الناس وتحرق الطاقة الثورية فى هباء لا نتيجة له » .

وكانت بريطانيا قد رأت أن تخمد روح الثورة المصرية، وظنت أنها تستطيع أن تصل الى تفاهم مع من كانت تسميهم بالمعتدلين لاقرار الحماية بصورة ترضيهم، فأعلنت بريطانيا فى ١٤ نوفبر سنة ١٩١٩ بيانا جاء فيه أن بريطانيا تريد المحافظة

على وضع مصر تحت الحماية البريطانية وتأسيس نظام يمكن عظمة السلطان ووزراءه ومندوبى الأمة في دوائرهم الخاصة من الاشتراك فى ادارة الأمور المصرية » .

وتحقيقا لهذه السياسة ، أرسلت انجلترا لجنة برئاسة (اللورد ملنر) وزير المستعمرات البريطانية ، وقاطعها جميع المصريين ، وقامت المظاهرات احتجاجا على قدومها ، فلا يمكن المفاوضة حول الاستقلال وجنود الحماية البريطانية في مصر. وأخفقت لجنة ملنر فى مهمتها بسبب مقاطعة الشعب المصرى لها ،واصدرت انجلترا الى استدعاء وفد مصر فى باريس برئاسة سعد زغلول للسفر الى لندن للمفاوضة .

ودارت مفاوضات طويلة انتهت الى مشروع معاهدة قرر الوفد عرضه على الشعب وقد عارضته جميع فئات الشعب فهو يمنح استقلالا لامضمون له وهوستار يخفى الحماية البريطانية .

ورأت انجلترا أن تفاوض الحكومة المصرية وكان يرأسها عدلى يكن ، فسافر الى انجلترا على رأس وفد رسمى ، وأخفقت المفاوضات ، واستقال عدلى يكن فى ديسمبر سنة ١٩٢١ . وعادت الثورة من جديد ، ونفت انجلترا سعد زغلول مع خمسة من أعضاء الوفد الى جزيرة سيشل ، وامتنع الزعماء عن قبول تأليف الوزارة .

وأخيرا اضطرت الحكومة البريطانية الى اصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد ، أعلنت فيه انجلترا الغاء الحماية البريطانية على مصر ، ومنح مصر دستوراً ، مع تحفظات أربعة هى :

١ — تأمين المواصلات البريطانية فى مصر .

٢ — الدفاع عن مصر ضد أى اعتداء أو تدخل أجنبى مباشر أو غير مباشر .

٣ — حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

٤ ــ السودان .

ورفض المصريون جميعا هذا التصريح بما حواه من تحفظات، ولكن الحكومة المصرية عملت على تنفيذه ، وشكلت (لجنة الثلاثين) لوضع الدستور ، واحتفلت الوزارة فى ١٥ مارس سنة١٩٢٢ بالاستقلال الاسمى الذى أقره تصريح ٢٨ فبراير، وتسمى فؤاد بلقب (ملك) بدلا من (سلطان) .

ثم أفرجت انجلترا عن الزعماء المنفيين لتهدئة مشاعر الشعب ، وعمل الانجليز على بث الفرقة والانقسام فى صفوف زعماء الشعب المصرى ، وتألف حزب الأحرار الدستوريين ، وبدأت مرحلة من الصراع الحزبى أصاب الكفاح الشعبى بنكسة ، فتنافس زعماء الأحزاب على الحكم ، أو بمعنى آخر على الأسلاب والغنائم، وعمل الانجليز والقصر على اشعال نيران هذا الخلاف الحزبى .

صدر الدستور فى ابريل سنة ١٩٢٣ ، فلم ينجح فى تقييد سلطة الملك ، ولافى ابراز سلطة نواب الشعب ، ولذلك طغت السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية ، فكان معظم رؤساء الوزارات يحلون مجلس النواب ، كما كانت هذه الوزارات تحكم على أسنة حراب الانجليز وبتأييد الملك .

وسقطت وزارة سعد زغلول ، وهى أول وزارة دستورية ، بعد تسعة شهور من تأليفها عندما وقع حادث الإعتداء على سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام (السير لى ستاك)، فقد قامت انجلترا بمظاهرة عسكرية وطلبت من الحكومة سحب الجيش المصرى من السودان ، وأن تدفع مصر غرامة مالية كبيرة ، فاستقالت الوزارة وتعطلت الحياة النيابية ، حتى تولى الوزارة اسماعيل صدقى فألغى دستور ١٩٢٣ واستبدله بدستور جعل السلطة التنفيذية تطغى على السلطة التشريعية سنة ١٩٣٠ وتوالت الوزارات ، وكثرت المفاوضات ، دون أن تتحقق مطالب الشعب . وازداد الصراع الحزبى ، ولذا كفر الشعب المصرى بالأحزاب وبالزعماء السياسيين ورأى أن يعتمد على كفاحه ونضاله كما سنرى .

الجمعيات السرية :

لم يكن اعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بالغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر الا الخطوة الأولى فى الاستقلال الحقيقى للبلاد ، مادام هناك جندى انجليزى واحد فى مصر . وكان لابد أن يستمر الجهاد بأى وجه من الوجوه حتى يجلو الانجليز عن البلاد . وقد كانت مصر تحكم فى واقع الامر من قصر الدوبارة . وظل الانجليز على الرغم من تصريح ٢٨ فبراير يسخرون من يتعاون معهم لتحقيق مطالبهم من وراء ستار . يولون الوزارة من يرضون عنه ويقصون عنها من يعارضهم ولاح أن الاستقلال المزعوم ماهو الا أكذوبة كبيرة فتكونت الجمعيات الوطنية وتفرعت منها الجمعيات السرية ، التى وقفت للاستعمار وأعوانه بالمرصاد .

ويهمنا أن نبين كيف تكونت الجمعيات السرية التى تصدت للانجليز ومن سار فى فلكهم من المصريين مدة طويلة ، وممن كانت تتكون . ومن أية هيئة سياسية انبثقت .

رأى شباب الحزب الوطنى سنة ١٩٠٦ أن مصطفى كامل كان يكافح فى الخارج منددا بالأساليب الاستعمارية التى كانت تتبعها انجلترا فى مصر ورأوا أن عليهم واجبا آخر هو الكفاح المسلح فى الداخل ضد الانجليز فتكونت لهذا الغرض فى هذه السنة أول جمعية سرية وكان من أعضائها ابراهيم ناصف الورادنى ومحمود عنايت الأخ الأكبر لعبد الحميد وعبد الفتاح اللذان اتهما بمقتل السردار فيما بعد .وخليل مدكور وكان سكرتيرا لمحمد فريد .

وفى هذه الحقبة اغتال الواردنى بطرس باشا كما ذكرنا وأعدم وسجن محمود عنايت ثم نفى الى جزيرة مالطة مع آخرين من الوطنيين . ولم يفت ذلك فى عضد الجمعية ولم يزلزل من بنيانها وان كانت قد انكمشت بعض الوقت . . ولكنها نشطت مرة أخرى وحاولت اغتيال الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٩١٤ وهو يزور الاستانة لمحالفته للانجليز ولكنه نجا من يد محمود مظهر طالب الطب الذى نيطت به هذه العملية ثم وقع اختيار الجمعية على السلطان حسين فاعتدوا عليه

مرتين فى القاهرة بميدان عابدين ومرة أخرى فى الاسكندرية ونجا هو الآخر .

وركدت الجمعية بعد ذلك طوال سنوات الحرب وسنة شبوب الثورة لتنشط مرة أخرى بعد أن طعمت بدماء جديدة فتكونت من جديد من الأخوين عبد الحيد وعبد الفتاح شقيق محمود عنايت ومن شفيق منصور المحامى والعاملين محمود فهمى وابراهيم موسى ثم انضم اليهم محمود راشد وراغب حسن . وقامت هذه الجمعية بكثير من الأعمال وعديد من الاغتيالات بشجاعة نادرة وفدائية لامثيل لها حتى أن بعضهم كان يبكى إذا لم يقع الاختيار عليه للقيام بالعملية المدبرة .

وظلت هذه الجماعة تعمل فى تكتم وحذر زهاء ثلاث سنوات حتى أقلقت الانجليز وأعوانهم من المصريين وأشاعت الخوف والرعب فى قلوبهم وحرمتهم من الخروج ليلا ولكن الأعضاء قرروا القيام بأعمالهم فى وضح النهار واشتد خوف الانجليز وأصبحت حياة الشخص منهم معلقة فى يد القدر فكان الانجليزى يخرج من بيته الى عمله وهو لايدرى ان كان سيعود اليه أم يختطفه الموت . ونتيجة لذلك استقال بعض كبار الموظفين الانجليز من وظائفهم وعادوا الى بلادهم بعد أن هددتهم الجمعية ،فكانوا أبعد نظرا من غيرهم . أما باقى الموظفين الانجليز الذين آثروا البقاء فى مصر فقد دعوا أنفسهم الى اجتماع فى فندق الكونتنتال حضره جميع كبير منهم حتى أن الجاليات الانجليزية القاطنة بالسويس والاسماعيلية وبور سعيد والاسكندرية لم تتخلف عنه ، ودار فى هذا الاجتماع بحث الوسائل التى يحمون بها أنفسهم أمام موجة الاغتيالات التى يواجهونها . ومطالبة الحكومة بضرورة اتخاذ الاجراءات الحاسمة لوقف هذه الاعتداءات والقبض على مرتكبيها .

أما الحوادث التى قامت بها هذه الجمعية الوطنية فهى باختصار مقتل المستر براون المراقب العام لوزارة المعارف ، وكان الحاكم بأمره فى هذه الوزارة فضلا عما كان يتصف به من صلف وكبرياء وتعمده احتقار مرءوسيه ورؤساؤه على السواء من المصريين ، ومقتل المستر كييف وكيل حكمدار القاهرة وقتئذ ، وكان شديد القسوة يعامل المصريين بغلظة وغطرسة ، وقد سمعنا الكثير من جرائمه أثناء

ثورة ١٩١٩ وماتلاها حتى أنه كان يجبر المعتقلين على أكل روث الخيول . ثم يربطهم بعد ذلك من شعورهم فى ذيولها التى تنطلق بهم بسرعة فائقة بين صفوف المتظاهرين المصريين لارهابهم . واغتالت الجماعة كذلك المستر بيجوت مدير مالية الجيش الانجليزى ، واغتالوا بعد ذلك المستر براون مدير قسم البساتين الطاغية ، والمستر بسون الانجليزى المتعصب وكان يلقى دروسه بمدرسة الحقوق فاستاء الطلبة لغطرسته وكراهيته الشديدةللمصريين وقرروا اغتياله،هذا عدا اغتيال العديد من الجنود الانجليز والضباط وكان من أهم هذه الحوادث حادثة القاء القنابل على خيام الانجليز بروض الفرج عندما ضربوا حصاراً عليه عقب حوادث الاغتيالات التى وقعت به .

وقدظلت هذه الحوادث يكتنفها الغموض وأصبحت لغزا حير رجال الأمن ، وروع الانجليز فترة طويلة وأما المصريون فكانوا يتلقون أخبار الاغتيالات بارتياح وسرور ويتناقلون حوادثها ويروون أخبارها فيما بينهم كمثل من أمثلة القصص البطولية النادرة ، وظلت أعمال هذدالجمية سرا من الأسرار طوال ثلاث سنوات حتى وقعت حادثة السردار وكان من الجائز أن لايقبض على مديرى هذا الحادث حتى أن الانجليز تخبطوا كثيرا واتجهوا فى تحقيقاتهم الى نواح مختلفة .

وكاد يفلت أعضاء الجهاز السرى لولا أحد الخونة ويدعى نجيب الهلباوى وكان صديقا لأولاد عنايت وطمع فى المكافأة المالية الكبيرة التى رصدها الانجليز لمن يرشد عن مرتكبي الحادث وقيمتها عشرة آلاف من الجنيهات ، وقد أرشد عليهم بالفعل حتى قبض عليهم ، وكانوا هم أنفسهم الأشخاص الذين ارتكبوا جميع الحوادث السابقة والتى حيرت الانجليز فترة طويلة وأشاعت الخوف والفرق فى قلوبهم .

ولكن كيف وقع حادث اغتيال السردار . وكيف توصل الخائن الهلباوى الى معرفة مرتكبي الحادث .

حادثة السردار :

حدث أن وقع فى ذلك الوقت حوادث بالغة الخطورة فى السودان فكان من أثر اشتداد الوطنية بمصر أن تأثر السودانيين بها وبدءوا يتفاءلون معها ، فعقدوا الاجتماعات ، وتكونت الجمعيات والهيئات الوطنية ، وبدأوا فى التعبير عن شعورهم بالمظاهرات . حتى أن ضباط المدرسة الحربية بالخرطوم أضربوا تأييدا منهم لوحدة مصر والسودان ، وقد استعمل الانجليز من وسائل العنف والاضطهاد ضد السودانيين والمصريين الموجودين فى السودان لوقف المظاهرات ماتقشعر له الأبدان ، فزج بالمئات منهم فى السجون دون تحقيق .

وعوملوا أسوأ معاملة وبلغ بهم الأمر أن ضربوا الكلية الحربية بالمدافع وهدموها على من فيها وقبضوا على الضابط على عبد اللطيف وحكموا عليه بالسجن عشر سنوات ، كما قبضوا على كثير من ضباط الجيش المصرى وبعض الموظفين المصريين .

وكان لهذه الاعتداءات أسوأ الأثر فى الدوائر الوطنية بالقاهرة مما دفع الوطنيين الى أن يردوا على هذه الاعتداءات . ورأوا أن ينتقموا من الانجليز فى شخص كبير منهم ووقع اختيارهم على السكرتير الانجليزى وكان يقيم بميدان توفيق فى العمارة التى أقيم مكانها عمارة شل حاليا ،ووضعت الترتيبات الأولى بأحكام وحان وقت التنفيذ ، وفى تلك الآونة جاء السردار الانجليزى السير لى استاك سردار الجيش المصرى وحاكم للسودان الى القاهرة ، وكان مقدمه سببا فى تغيير خطة الوطنيين من أساسها ، اذ أنهم رأوا فى السردار صيدا أثمن من السكرتير الادارى وفى الاعتداء عليه رد أعتبار لاعتداء الانجليز على الجيش المصرى والموظفين بالسودان ، وبدأ الوطنيون فى مراقبته ودراسة الطريق التى كان يسلكها يوميا من منزله بالزمالك الى مكتبه بوزارة الحربية ، وعندما اطمأنوا الى نجاح خطتهم حددوا لتنفيذها يوم الأربعاء الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ وكانوا ستة أشخاص ثلاثة لاطلاق النار واثنين للمراقبة وواحد لقيادة سيارة تكون مهمته التقاط

زملائه والهروب بهم . وكان من عادة السير لى ستاك أن يبرح الوزارة فى الساعة الثانية من كل يوم ويتجه بسيارته الى الزمالك مارا بشارع اسماعيل باشا أباظة ، وكان اسمه وقتئذ شارع الطرقة الغربى ، وقد رأت الجماعة أن هذا الشارع هو أنسب مكان للتنفيذ ، وفى تمام الساعة الثانية مساء شاهد الرقيب الأول سيارة السير لى ستاك مقبلة وأعطى الاشارة المتفق عليها لزملائه ، وكانت مهمة الرقيب الآخر هو التأكد من خلو الطريق الذى ستتجه فيه السيارة . وما كادت سيارة السردار تمر من أمامهم حتى انهمر الرصاص عليها من كل جانب . وقتل السردار وأصيب ياوره كامبل والسائق ، ثم هرع الوطنيون الى سيارتهم وهربوا بها .

وكانت الجماعة تتكون من عبد الفتاح عنايت الذى كان طالبا بمدرسة الحقوق وأخيه عبد الحميد عنايت الطالب بمدرسة المعلمين العليا وابراهيم موسى وراغب حسين الموظف بوزارة الأوقاف ومحمود راشد مهندس التنظيم وعقب حادث قتل السردار تفرق الوطنيون كل الى عمله وتجنب كل شخص منهم مقابلة زميله . وقد اتجهت أنظار الانجليز والبوليس السياسى أول الأمر الى جماعة تدعى جماعة اللواء الأبيض بالسودان ، كان لها فرع بالقاهرة ، كما كان لها نشاط كبير بالسودان وقتئذ . فقبض الانجليز على كثير من أعضائها وظلوا يستجوبونهم فترة طويلة دون جدوى ولكن الانجليز عادوا فاتجهوا الى الوطنيين المصريين ورصدوا مكافأة مالية كبيرة قدرها عشرة آلاف جنيه مصرى لمن يدلى بمعلومات تفضى الى القبض على المتهمين ، وقد أغرت المكافأة شخصا غير ذى ضمير هو الهلباوى وكان صديقا حميما لعبد الفتاح عنايت وشقيقه عبد الحميد فأوهمهما بأنه موفد من قبل (الأمير السابق) عمر طوسون ليزجى لهما النصح بالهرب وأنه أعطاه من المال مايعينهم على ذلك ، ومن الملابس العربية مايستطيعون به التخفى عن العيون فانطلت الحيلة عليهما خصوصا بعد أن ارتدى معهما ثياب الأعراب ثم استقلوا القطار الى الحدود الغربية ، وفى أثناء الطريق وقف القطار فجأة وأحاط البوليس به من كل ناحية ثم قبضوا على الوطنيين عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت بعد أن وضحت خيانة

الطباوى لها ولكن بعد فوات الأوان . وسرعان ماقبضوا على باقى الأبطال الذين سبق ذكرهم .

وعذب الوطنيون تعذيبا شديدا — ولاقوا بين جدران السجن أشد أنواع التنكيل ثم قدموا للمحاكمة — بعد أخذ الانجليز الاعترافات منهم قسرا .

وقد قضت المحكمة فى ١٩٢٥/٦/٧ — وكانت مؤلفة من أحمد عرفان باشا والمستر كروسو ومحمد مظهر — على عبد الحميد عنايت وابراهيم موسى ومحمود راشد وعلى ابراهيم وراغب حسين وشفيق منصور بالاعدام شنقا ، وأما عبد الفتاح عنايت (١) فقد استبدل حكم الاعدام بالنسبة له الى الأشغال الشاقة المؤبدة .

وقد ثارت انجلترا لمقتل السردار وانتهزت وقوع الحادث لكى تطالب ببعض المغانم ، ولكى تسترد بعض ماخسرته من مواقع ، فتوجه اللورد اللنبى المندوب السامى ، فى صبيحة يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ فى مظاهرة عسكرية ضخمة الى رياسة مجلس الوزارة ووجه الى رئيس الوزارة سعد باشا زغلول انذارين باللغة الانجليزية تلاهما المندوب السامى وهو واقف ثم عاد الى مكتبه دون أن ينتظر أى رد وطالب فى هذين الانذارين :

أولا : اعتذار الحكومة المصرية عن الجناية . ثانيا : أن تبحث عن الجناة وتنزل بهم أشد العقاب . ثالثا : أن تمنع من الآن وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية . رابعا : أن تدفع للحكومة البريطانية غرامة قدرها نصف مليون جنيه . خامسا : سحب الجيش المصرى من السودان . سادسا : اطلاق يد حكومة السودان فى زيادة مساحة أطيان الجزيرة من ٣٠٠ ألف فدان الى مقدار غير محدود . سابعا : أن تعدل الحكومة المصرية عن كل معارضة لرغبات انجلترا فيما يتعلق بحماية مصالح

(١) وقد شاهدته فى سنة ١٩٤٢ عندما احضروه من السجن ليؤدى الامتحان منها بكلية الحقوق وكان مكبلا بالحديد وتحت حراسة البوليس وقد أجاز امتحان الليسانس وأفرج عنه سنة ١٩٤٣ بعد أن مضى ثلاثة أرباع المدة ومارس مهنة المحاماة .

الأجانب فى مصر . وانتهى الانذاران بتهديد الحكومة بأنها اذا لم تلب هذه المطالب فى الحال فان انجلترا ستتخذ على الفور التدابير اللازمة المناسبة لصيانة مصالحها فى مصر والسودان. وقد رفضت الحكومة هذين الانذارين الا فيما يختص بالتعويض والقبض على الجناة. وقد ترتب على هذا الرفض احتلال الانجليز لجرك الاسكندرية فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ مما أدى الى استقالة الوزارة فى نفس اليوم .

وقد حاولت الوزارة التى تلت وزارة سعد — وهى وزارة زيور — أن تنسب الاغتيالات التى وقعت فى مصر الى الوفد ،فقبضت على أحمد ماهر والنقراشى وعبد الحليم البيلى وحسن الشيشينى وغيرهم ، ولكنهم برئوا جميعا مما نسب اليهم وسميت هذه القضية بقضية الاغتيالات السياسية .

الاستقلال الزائف :

لم يحقق تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وما تلاه من صدور الدستور فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ أمل مصر فى الاستقلال والحرية ، وظل الانجليز فى مصر يحتلونها ويديرون شئونها كسابق عهدهم دون أدنى تغير أو تبديل ووضح الغرض الحقيق من وراء صدورهما وهو اخماد ثورة ١٩١٩ ووضع حد للاغتيالات التى قامت بها الجمعيات الوطنية ضد جنود وضباط بريطانيا فى مصر . ثم سعت انجلترا بعد ذلك سعيا حثيثا لتربط مصر بعجلة السياسة البريطانية الى الأبد ، وفى سبيل ذلك تقدمت بمشروعات عديدة لاحصر لها لكى تصل الى ماتهدف اليه . ومن ذلك مشروع « تشرمبرلن » فى سنة ١٩٢٧ الذى رفضته وزارة الوفد وأدى الى اقالتها فى يونيو سنة ١٩١٨ ، وتعطيل الدستور، ثم جاء الانجليز بمحمد محمود ليحكم البلاد حكما جائرا فكبت الحريات وكم الأفواه ، ولما لم تفد هذه السياسة لجأ الانجليز الى حكومة الوفد فى سنة ١٩٣٠ وتقدموا لها مرة أخرى بمشروع معاهدة ظاهرها براق خداع وباطنها سم زعاف وفشلت المفاوضات التى دارت بين النحاس وهندرسن تمهيدا لعقد هذه المعاهدة ، فسقطت وزارة الوفد وجاء اسماعيل صدقى الى الحكم فعطل الحياة النيابية ، وألغى الدستور ، وأصدر دستورا آخر سمى

بدستور سنة ١٩٣٠ ، ولم يكتف بذلك بل أخذ يكبت الحريات ، وعطل الصحف وصادرها مما أثار حفيظة الشعب فثارت طوائفه ، وعمت الاضطرابات جميع البلاد ، ونشطت الجمعيات السرية ودبرت المؤامرات والخطط لاغتيال رجال الحكم ، وعلى رأسهم الملك فؤاد ، وإسماعيل صدقى رئيس الوزراء ومحمد توفيق رفعت رئيس مجلس النواب . وألقى الوطنيون القنابل على القيادة العامة للجيش البريطانى بميدان الخازندار ووزارة الحقانية والمحكمة المختلطة (دار القضاء العالى حالياً) وكثرت حوادث الاغتيالات السياسية وعمت البلاد موجة من الفوضى وعدم الاستقرار ، ورأى الإنجليز أن الحالة تزداد سوءاً يوماً بعد يوم فنقلت سير برسى لورين مندوبها السامى من مصر ثم أشارت بتغيير الوزارة فاستقال صــــدقى فى سنة ١٩٣٣ بعد أن فشل فى المحادثات التى دارت بينه وبين جون سيمون بشأن عقد معاهدة اشترط الإنجليز لقيامها ما سبق أن أبدوه من ضرورة بقاء قوات الاحتلال فى مصر والسودان . وذهب حكم إسماعيل صدقى بصفحته السوداء وتنفس الشعب الصعداء بعد أن أزاح عن كاهله هذا الكابوس الذى ظل رابضاً على صدره ثلاث سنوات ، واستبشر خيراً عند ما صدر أمر الملك فؤاد بإبطال العمل بدستور سنة ١٩٣٠ وذلك فى نوفمبر سنة ١٩٣٤ ، ولكنه لم يعن بإعادة الحياة النيابية إلى البلاد أو يأمر بإرجاع دستور سنة ١٩٢٣ وظلت مصر أكثر من عام تحيا بلا دستور ، وعند ما رأى الإنجليز أن الوطنيين فى مصر يطالبون بإحياء دستور سنة ١٩٢٣ وأن مبدأ الجلاء أصبح على كل لسان قام وزير خارجية بريطانيا صموئيل هور وأعلن فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٣٥ بأن الحكومة البريطانية لا توافق على إعادة دستور ١٩٢٣ . وكان لهذا التصريح أسوأ الأثر على الشعب الذى هب معلناً غضبه وثار الوطنيون والطلبة وقامت المظاهرات الصاخبة فى كل مكان .

شهداء تصريح هور :

لم يكد صموئيل هور يعلن تصريحه الجائر فى ٩ نوفمبر حتى ثارت جموع الشباب وغلى مرجل جامعة (فؤاد) (القاهرة حالياً) وقرر الطلبة الخروج يوم

١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ فى مظاهرة صامتة يعلنون فيها غضبهم واستياءهم من هذا التصريح ويطالبون المسئولين بالعمل على إعادة دستور سنة ١٩٢٣ والسعى لإخراج الإنجليز من البلاد . واختار الطلبة يوم ١٣ نوفمبر لأنه يوافق يوم الجهاد . وكان الطلبة يحتفلون به كل عام وبدأت جموعهم تتوافد على ساحة الجامعة حتى بلغ عددهم عشرة آلاف طالب وأقاموا منبراً للخطابة عند مدخل كلية الحقوق وتناوب الطلبة الكلام وتعاهدوا على أن يكون الشباب أول من يضحى بنفسه فى سبيل مصر ، وفى حوالى الساعة العاشرة بدأ زحفهم نحو القاهرة وعبروا كوبرى الجلاء واتجهوا نحو كوبرى الخديوى إسماعيل ، وعند ميدان الإسماعيلية تعرضت لهم قوة من البوليس برياسة بعض الضباط الإنجليز وعندما عجزوا عن تفريق المظاهرة أطلقوا عليها الرصاص كما أمر ضابط إنجليزى سائق السيارة « البوكسفورد » التى كان يستقلها مع بعض الجنود بأن تندفع بأقصى سرعتها وسط المتظاهرين فأصابت الكثير من الذين سقطوا تحت عجلاتها وقد بلغ عدد الجرحى تسعين جريحاً من بينهم الضابط الإنجليزى ستيوارت الذى كان من بين حملة تفريق المتظاهرين .

واشترك فى مظاهرات يوم ١٣ نوفمبر جميع طلبة الجامعات والمدارس وطلبة الأزهر ، كما قامت المظاهرات فى باقى مدن القطر وكان أشدها مظاهرات مدينة طنطا وتسبب عنها استشهاد طالبين هما : محمد عبد المقصود شبكة ، ومحمد محمود النقيب وإصابة ٧٨ جريحاً وفى اليوم التالى أى يوم ١٤ نوفمبر بكر الطلبة بالحضور إلى ساحة الجامعة وقد عقدوا العزم على الخروج فى مظاهرة جديدة ليعبروا فيها عن سخطهم من تصريح صمويل هور ولما لاقوه على يد رجال البوليس وخاصة الإنجليز من عسف وتنكيل وعند مرورهم أمام مدرسة السعيدية انضم إليهم طلبتها كما خرج معهم جميع طلبة الكليات والمدارس الأخرى بمنطقة الجيزة ، وكان البوليس يسير بجوارهم ليحافظ على النظام وليمنع تسرب الغوغاء إليهم وظلت المظاهرة السلمية ماضية فى طريقها حتى وصلت إلى منتصف كوبرى عباس وهى آخر حدود منطقة بوليس الجيزة وما كاد الطلبة يعبرون الكوبرى حتى شاهدوا قوة من

الكونستبلات الإنجليز تواجههم وبأيديهم المدافع الرشاشة ، وفوجئ الطلبة بالرصاص ينطلق عليهم دون سبب فيصيب منهم قتلى وجرحى ، وكان فى مقدمة الشهداء الشهيد عبد المجيد مرسى الطالب بكلية الزراعة الذى أطلق عليه الضابط الإنجليزى ليز أربع رصاصات خر بعدها والدم ينبثق من صدره وعنقه وما كاد يسقط على الأرض حتى أخرج منديلا من جيبه وبلله بدمه ثم سامه إلى أحد زملائه وهو يقول تذكروا هذه الدماء وأسلم روحه فحمله زملاؤه على عربة كارو واتجهوا به إلى مستشفى القصر العينى .

وعند ذلك تقدم زميله محمد عبد الحكم الجراحى الطالب بكلية الآداب وواجه الضابط الإنجليزى ليز وخاطبه بشجاعة وثبات قائلا له : « أمن الشجاعة أن تضرب بالرصاص شاباً أعزل فتقتله .. وهو فى الوقت نفســه أقوى منك وأنت معك سلاحك ، فتعجب ليز وقال له مهدداً : أتود أن تلحق به . فما كان من عبد الحكم إلا أن تقدم منه قائلا : أتريد أن تضربنى أنا أيضاً . هل هذه هى شجاعتكم التى تتشدقون بها ، هاك صدرى إننا لسنا جبناء مثلكم . فما كان من الوغد الإنجليزى إلا أن أطلق عليه الرصاص ، فسقط عبد الحكم على بعد خطوات من المكان الذى سقط فيه زميله عبد المجيد منذ دقائق خلت . وفى مستشفى القصر العينى عجز الطب عن إنقاذ حياة عبد الحكم فمات شهيــداً يوم ١٩٣٥/١١/١٩ وهو يهتف بحياة مصر .

وقبل أن يلفظ عبد الحكم آخر أنفاسه أرسل لرئيس وزراء بريطانيا الخطاب التالى :

« إلى رئيس وزراء انجلترا روح الشر .

سيدى ـــ أحد رجالكم الأغبياء أصابنى برصاصة وأنا أموت الآن شيئاً فشيئاً ، ولكنى سعيد للغاية أن ضحيت بنفسى ، إن الموت أمر صغير وآلام الموت عذبة المذاق من أجل مصيرنا ، فلتحيا مصر .. ليسقط الاستعمار ولتسقط انجلترا ،

وسيتولى الله عقابكم قريباً أنتم وانجلترا روح الشر فلتحيا التضحية .

أحد الشهداء المصريين

(محمد عبد الحكم)

حتى فى أحرج الأوقات لم ينس الوطنيون حق بلادهم عليهم فاستهانوا بالموت وازدروه ليهبوا الحياة والخلود لوطنهم .

ومن المشاهد المؤسفة التى حدثت وقتذاك أنه عند ما نقل محمد عبد المجيد مرسى إلى مستشفى القصر العينى التف حول جثته الأطباء والممرضات لفحصها ، وعند ما كشفوا عنها الغطاء صرخت إحدى الممرضات وسقطت مغشياً عليها ، واتضح أنها شقيقة الشهيد عبد المجيد مرسى وهى الآنسة إحسان عبد المجيد مرسى .

وكان من شهداء الجامعة كذلك على طه عفيفى الطالب بدار العلوم الذى توفى يوم ١٧/١١/١٩٣٥ وعند ما علم الطلبة باستشهاده توجهوا إلى المشرحة وفتحوها عنوة ونقلوا جثمانه إلى مكان بجوار أنقاض عمارة متهدمة ليخفوها عن أعين البوليس ، حتى يتمكنوا من تشييع جنازته بعد أن فشلوا فى تشييع جثمان الفقيدين الأولين عبد المجيد وعبد الحكم ، وقد عجز رجال البوليس عن العثور على جثة على طه عفيفى رغم المساعى التى بذلها ، ونجح الطلبة فى تشييع الجنازة رغم أنف البوليس والحكومة وتقول الأهرام تصف الجنازة :(واشترك فى تشييع الجنازة جميع الطلبة والمصابون الذين كانوا يرقدون فى المستشفى وظهر بعضهم وقد عصبت رؤوسهم والبعض الآخر وقد علقت أيديهم فوق رقابهم كما اشتركت الممرضات والمرضى والأهالى فى المظاهرة بين العويل والبكاء وكان النبأ قد ذاع فى الأوساط والدوائر السياسية فحضر إلى المستشفى جمهور كبير من الناس وكبار الساسة . وفى الساعة السادسة مساء حمل الطلبة النعش ورفعوا علمهم وسارت الجنازة يتقدمها الطلاب الذين يحملون العلم فنعش الفقيد يتبعه عميد كلية الطب والأطباء وأساتذة الجامعة ومكرم عبيد وأحمد ماهر والنقراشى وغيرهم .

وسارت الجنازه صامتة فى شارع القصر العينى ، وكانت الجماهير تحييها من نوافذ البيوت ووقف الناس على جانبي الطريق خاضعين وبلغت جماهير المشيعين عدداً لا يحده بصر . وعند ما بلغ المشيعون دار العلوم ... وهى مدرسة الفقيد وقف النعش قليلا وحيت المدرسة فقيدها فأضاءت الأنوار له) .

هؤلاء كانوا بعض ضحايا الجامعة الذين استشهدوا سنة ١٩٣٥ وبذلوا أرواحهم رخيصة من أجل الحرية والاستقلال وسطروا بدمائهم صفحة أخرى من صفحات الكفاح والنضال والمجد .

وكما اعتدى رجال البوليس والإنجليز على طلبة الجامعة هاجموا كذلك الاجتماعات التى عقدها رؤساء الأحزاب يوم ١٣ نوفمبر وأصابوا كثيراً من الوطنيين . وألمح هنا لواقعة حدثت فى اجتماع الوفد لما لها من دلالة كبيرة ، فعقب انتهاء الحفل هاجم البوليس السرادق الذى أقامه الوفد وأعمل عصيه وهراواته فى المجتمعين ثم أطلق النار عليهم مما تسبب عنه إصابة الكثيرين ، وكان من بينهم جمال عبد الناصر الطالب بمدرسة النهضة المصرية . وتسجل جريدة الجهاد الصادرة فى ١٩٣٥/١١/١٤ ذلك فتقول : « ورأى الذين لم يكونوا قد انصرفوا من السرادق بعد أن يبقوا فى أماكنهم حتى تهدأ الحالة ، وكان قد لجأ إلى السرادق بعض الذين كانوا فى الشارع ، فدخل الجنود إلى السرادق وعملوا على تفريق الموجودين ، فكان أن امتد حادث التصادم إلى السرادق . ولجأ بعض الجرحى إلى دار الجهاد ورقدوا فى غرفة مكتب صاحب « الجهاد » وكانت دماؤهم تسيل فتلوث أثاث الغرفة وحضر رجال الإسعاف إلى الدار وأسعفوا هؤلاء المصابين وبينهم جمال عبد الناصر الطالب بمدرسة النهضة المصرية . وقد أصيب فى مقدمة رأسه ، وعبد الحميد عزت الطالب بمدرسة الإسماعيلية الثانوية ، وقد أصيب فى جبهته والشيخ خير الطالب بكلية الشريعة ، وقد أصيب فى رأسه بإصابتين خطيرتين ، ومحمد على خليل السفرجى وقد أصيب فى يده وقد اخترقت ثيابه نار الطلقات[1] » .

---

(١) المصور عدد ١٢ مارس سنة ١٩٦٥ .

هذا هو وصف جريدة الجهاد ليوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ويلفت نظرنا فيه فضلا عن كفاح الشعب . تصميم جمال عبد الناصر على النضـال عند ما كان طالباً صغيراً فى مدرسة النهضة المصرية ، وما انطوت عليه نفسه من حب للوطن وتصميم على التضحية والفداء منذ أن كان شاباً يافعاً واختار لنفسه سبيل النضال والجهاد بينما سلك غيره من الشباب طريق الراحة واللهو .

جهود الشباب :

وأثمرت جهود الشبـاب — ولم تذهب دماؤهم هباء وتجحت الدعوة التى وجهوها للزعماء للائتلاف — فاتحدوا بعد فرقة ، واتفقوا بعد خصام وجمعت قلوبهم الأسيفة محنة الوطن فى هذا الظرف الحرج وكانت فكرة الائتلاف بعيدة عن أذهانهم بعد السماء عن الأرض لأن كل زعيم كان يعتقد أنه يسير فى الطريق السليمة وأما غيره فإما خائن وأما صاحب مصلحة فضلا عن أنه كان يتطلع إلى الحكم تطلعه إلى الأمل المرجو فيشبع غروره من جهة .ولايرضى من هم حوله من أعضاء حزبه وأقاربه على السواء من جهة أخرى وهذه هى الورقة التى استغلها الإنجليز والقصر لتحقيق مطالبهما المشتركة واستغلوها إلى أبعد الحدود فأفادوا منها كثيراً ومن هنا كانت فكرة الائتلاف التى سعى إليها الشباب ، ودعوا إليها ، هى الضربة التى وجهوها إلى الاستعمار والملك — ونجح الشباب — فائتلفت الأحزاب وتكونت الجبهة الوطنية فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ — واضطر الملك فؤاد تحت هذا الضغط الوطنى والإجماع الرائع أن يعيد دستور سنة ١٩٢٣ فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٢ — ثم بدأت المفاوضات مع انجلترا بعد ذلك فى ٢ مارس سنة ١٩٣٦ — وكان حزب الوفد قد فاز بالأغلبية فى الانتخابات التى أجريت فى عهد وزارة على ماهر الذى استقال ثم عهد مجلس الوصاية إلى مصطفى النحاس بتأليف الوزارة الوفدية فى ١٠ مايو سنة ١٩٣٦ وبعد ذلك سافر وفد المفاوضات إلى لندن للاتفاق على المعاهدة وفى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ تم التوقيع عليها . وقد وافق على هذه المعاهدة ووقعها من الجانب المصرى ممثلو الأحزاب المصرية فيما عدا رجال الحزب الوطنى الذين لم يؤمنوا فى أى وقت بالمفاوضات كوسيلة لجلاء الإنجليز من البلاد .

٢ ـ موقف الشعب من معاهدة ١٩٣٦

صك الاستسلام للخديعة الكبرى :

اقتبسنا عنوان هذه الفقرات كعادتنا من الميثاق الخالد ، فقد تحدث الميثاق عن معاهدة ١٩٣٦ : «وكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ التى عقدت بين مصر وبريطانيا ، والتى اشتركت فى توقيعها جبهة وطنية تضم كل الأحزاب السياسية العاملة فى ذلك الوقت بمثابة صك الاستسلام للخديعة الكبرى التى وقعت فيها ثورة ١٩١٩ . فقد كانت مقدمتها تنص على استقلال مصر ، بينما صلبها فى كل عبارة من عباراته يسلب هذا الاستقلال كل قيمة له وكل معنى » .

فى أواخر عهد فؤاد ، دارت مفاوضات بين المندوب السامى البريطانى السير مايلز لامبسون ورجاله ، وبين مفاوضين مصريين من ممثلى جميع الأحزاب المصرية عدا الحزب الوطنى الذى جعل شعاره كما ذكرنا (لا مفاوضة إلا بعد الجلاء) أسفرت على توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

ولم تكن هذه المعاهدة إلا قيداً جديداً تضعه انجلترا فى معاصم المصريين إذ على الرغم من نص المعاهدة على انتهاء الاحتلال ، بقيت الجنود البريطانية فى منطقة القناة ، وسمح بزيادة عددها فى حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة مفاجئة إلى الحد الذى تريده انجلترا ، إذ أنها لم تكن تهدف إلى تحالف بالمعنى المعروف تقف فيه كل من الدولتين موقف الند للآخر على كل منها واجبات ولها حقوق مساوية للأخرى تماماً .

وهذه المعاهدة لم تحقق إلا مصالح انجلترا وحدها . فهى تجعل مصر قاعدة الجيوش البرية والبحرية البريطانية ، وتحتل موانى مصر ومطاراتها وطرق المواصلات فيها تخضع للقوات البريطانية فى حالة خطر الحرب أو فى حالة الطوارىء الدولية ، وهى عبارات غامضة يمكن تأويلها على الشكل الذى تحدده وترسمه انجلترا .

أباحت المعاهدة للقوات البريطانية احتلال موانى مصر ومطاراتها ، وهذا يعنى فى الحقيقة والواقع تدعيم الاحتلال البريطانى الذى بدأ سنة ١٨٨٢ ويعطيه صورة مشروعه ، تعترف بها الحكومة المصرية ، كما أن التزام مصر فى المعاهدة بإنشاء طرق حربية وصيانتها باستمرار ، وتقديم المساعدات والتسهيلات لقوات بريطانيا ، يكلف الميزانية المصرية نفقات باهظة وأعباء كبيرة ، كما فرضت انجلترا فى المعاهدة أن تستجيب مصر إلى طلب انجلترا بإعلان الأحكام العرفية وفرض الرقابة على الأنباء والحريات لحماية المصالح البريطانية ، وهذا فى الحقيقة صورة من صور الحماية البريطانية التى ثار المصريون ضدها بالأمس .

وكان لبقاء القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس أثره فى الضغط السياسى على الحكومات المصرية ، ويجعل السفير البريطانى هو الحاكم الحقيقى الفعلى لمصر .

وجعلت المعاهدة من السودان مستعمرة بريطانية يحرسها جنود مصريون برئاسة حاكم بريطانى . أما ما ورد فى المعاهدة بشأن إلغاء الامتيازات الأجنبية فلم يكن كسباً كاملا لمصر ، إذ اعترفت المعاهدة بأن إلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة أمر مرهون بالاتفاق مع الدول صاحبة هذه الامتيازات ، كما أن جعل أمد معاهدة ١٩٣٦ عشرين عاماً يعنى وضع القيود فى أيدى المصريين خلال هذه الأعوام الطويلة .

نقد معاهدة ١٩٣٦ :

ولقد كانت هذه المعاهدة من جهة نظر الوفديين وسيلة لاستقرار الحكم فى أيديهم واستتباب الأمر لهم — مع أنها كانت معاهدة تتنافى بنودها مع جوهر الاستقلال ، والعجيب أن هذه المعاهدة لو قلبناها على جميع أوجهها أو نقبنا بين نصوصها ما وجدنا بينها نصاً يفيد البلاد أو يضفى عليها نوعاً من الاستقلال .

ويكفى أن أسوق هنا بعض نصوص المعاهدة ليستبين القارىء إلى أى مدى أهدر ثلاثة عشر سياسياً مصرياً كرامة مصر وعزتها بعد كفاحها المجيد المرير طيلة السنوات الخمسين الماضية .

البند الأول :

يقضى بأن يترك الإنجليز ثكناتهم بالقاهرة والإسكندرية ومن جميع المناطق التي تعسكر فيها عند توقيع المعاهدة وتنتقل إلى منطقة قناة السويس بأكملها ومديرية الشرقية حتى حدود القاهرة ومديرية الجيزة وشبه جزيرة سيناء .

وقد كان هذا النص هو العظمة التي ألقاها الإنجليز للساسة المصريين كي يوافقوا على هذه المعاهدة . وحاول الثلاثة عشر سياسياً الذين وقعوا المعاهدة أن يقنعوا أنفسهم بأن انتقال الإنجليز من مكان إلى مكان آخر يحمل معنى الاستقلال . كأن قناة السويس ومديرية الشرقية وشبه جزيرة سيناء ليست ضمن الوطن الكبير وإنما هي مناطق تتبع بلداً آخر وكأن انتقال الجنود من القاهرة والإسكندرية إلى السويس والإسماعيلية وبور سعيد والتل الكبير وغيرها فيه الكسب لمصر . وفيه الغرم على انجلترا .

البند الثاني :

حددت المعاهدة عدد القوات البريطانية بعشرة آلاف جندى ، وأربعمائة طيار مع الموظفين اللازمين لأعمالهم الإدارية والفنية ــ ويقتصر هذا التحديد على وقت السلم على أن يكون لانجلترا الحق في زيادة هذه القوات كيفما تشاء وإلى أى عدد ترغبه في ثلاث حالات .

أولا : حالة الحرب .

ثانياً : حالة خطر الحرب .

ثالثاً : وأمام حالة دولية مفاجئة .

وظاهر من هذا البند إلى أى مدى كان الإنجليز يضحكون على عقول الساسة المصريين ويعطون باليمين ليأخذوا بالشمال . فانظر معى أولا عند ما حدد الإنجليز قواتهم بعشرة آلاف جندى وأربعمائة طيار ولم يحددوا عدد الموظفين اللازمين ــ

لأعمالهم الإدارية والفنية ، أى أن للانجليز أن يستحضروا أى عدد يشاءون — باعتبارهم موظفين إداريين أو فنيين وهم فى حقيقة الأمر جنود عاملون . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن رغبة منهم فى عدم التقيد بعدد الجنود اشترطت بريطانيا أن تزيد قواتهـا إلى ما تشاء فى الأحوال الثلاثة التى ذكرناها وهى حالة الحرب وقيام حالة دولية مفاجئة وحالة خطر الحرب . أى أن انجلترا ستزيد عدد قواتها على الرقم الذى التزمت به فى أى وقت ، سواء أكان فى الحرب أو السلم ما دامت لها حرية تقدير الموقف الدولى . فلها أن تقول أن خطر الحرب قائم أو هناك حالة دولية مفاجئة ، فيكون لها الحق فى أن تزيد عدد قواتها إلى العدد الذى تريده دون رقيب ، فمتى زال خطر الحرب من العالم ؟ ومتى خلت أخبار العالم من قيام حالة دولية مفاجئة ، وما يفعـله هتلر وألمانيا النازية كل يوم فى التوسع على حساب جيرانها — وما تأتى به الأنباء من أخبار التسلح والاستعداد للحرب فى تلك الأيام ألا يعد كل هذا « خطر حرب » ؟ أو حتى « حالة دولية مفاجئة » . خلاصة الأمر أن انجلترا لن تتقيد إطلاقاً بالعدد الذى التزمت به فى هذا البند سواء أكان فى وقت الحرب أو فى السلم على السواء .

البند الثالث :

اشترطت انجلترا فى هذا البند أن تلتزم مصر ببناء الثكنات الجديدة والمنازل اللائقة وإنشاء الحدائق والملاعب والمصايف للجنود والضباط والموظفين فى المناطق الجديدة التى حددتها المعاهدة .

كما التزمت مصر كذلك بإنشاء أربع طرق حديثة بالأسفلت لتسهيل نقل الجنود الإنجليز ، وهذه الطرق هى :

١ — طريق من الإسماعيلية إلى الإسكندرية ويبلغ طوله تقريباً حوالى ٣٠٠ كيلو متر .

٢ — طريق من الإسماعيلية إلى القاهرة وطوله ١٦٠ كيلو متر تقريباً .

٣ — طريق من بور سعيد إلى الإسماعيلية وطوله ١٠٠ كيلو متر تقريباً .

٤ — وطريق من البحيرات المرة إلى طريق السويس . وهذه الطرق وتلك الإنشاءات تكلفت ملايين الجنيهات دفعتها مصر لراحة جنود بريطانيا دون أى مصلحة تعود على مصر .

البند الرابع :

اشترط فى هذا البند بقاء القوات الإنجليزية فى الإسكندرية لمدة ثمانى سنوات حتى تنشىء مصر طرقاً أخرى خلاف ما ذكره البند السابق ويتم بناء الثكنات فى القناة . والطرق الجديدة التى اشترطت انجلترا على مصر إنشاءها هى :

١ — طريق من القاهرة إلى قنا بمحاذاة النيل .

٢ — طريق من قوص إلى القصير .

٣ — طريق من قنا إلى الغردقة هذا بخلاف إصلاح طريق السويس وطريق القاهرة الاسكندرية وطريق الإسكندرية ومرسى مطروح .

وبديهى أن مصر تكبدت ملايين الجنيهات وأرهقت الميزانية هذه المشروعات التى أقيمت لرفاهية جنود العدو ، وتيسير وسائل النقل لهم عندما تدق الساعة وتعلن الحرب .

البند الخامس :

حدد هذا البند مكان إقامة الجنود حول قناة السويس من بور سعيد شمالا حتى السويس جنوباً على ألا تبعد هذه القوات عن السكة الحديد لأى مدينة مقامة على القناة بخمس كيلو مترات على أن يوضع تحت تصرف القوات البريطانية كل المطارات والميادين والأراضى الواقعة فى هذه المنطقة والتى ترى انجلترا أنها لازمة وقد تضمن هذا البند نصاً غاية فى الغرابة فنص بأن يكون لقوات الطيران البريطانية

حق الطيران حيثما تريد فى الأراضى المصرية مع منح مثل هذه المعاملة للقوات الهوائية المصرية فى الأراضى البريطانية .

وكأننا على قدم المساواة فى القوة بما فى ذلك عدد الطائرات مع بريطانيا .

البند السادس :

ويقضى البند السادس بأنه فى حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة تلتزم الحكومة المصرية أن تقدم داخل حـدود الأراضى المصرية جميع التسهيلات والمساعدات التى فى وسعها إلى القوات البريطانية ويكون للقوات البريطانية حق استخدام موانى مصر ومطاراتها وطرق مواصلاتها وعلى مصر اتخاذ الإجراءات الإدارية والتشريعية اللازمة لذلك بما فى ذلك إعلان الأحكام العرفية وإقامة رقابة وافية على الأنباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدات فعلية ويدخل فى طرق المواصلات الأخبارية اللاسلكية والتليفونية .

ومعنى ذلك أن تسرع انجلترا فى احتلال ما ترى احتلاله من البلاد التى ليست تحت سيطرتها . وتضع مصر جميع مقدراتها تحت تصرف انجلترا .

البند السابع :

ينص على أنه بعد انقضاء عشرين سنة على تنفيذ المعاهدة يبحث الطرفان فيما إذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضرورياً لأن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة فى القناة وسلامتها التامة .

فإذا قام خلاف بينهما فى هذا الصدد فإن الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الأمم أو على هيئة تحكيم تفصل فيه .

أى أن انجلترا إذا لم توافق على الخروج من مصر بعد ٢٠ سنة يكون لنا أن نلجأ إلى عصبة الأمم . وكلنا نعلم ما هى عصبة الأمم . تلك الشمطاء العجوز التى يسيرها الاستعمار حسب هواه .

البند الثامن :

ويقول هذا البند الأخير أن بعد انقضاء العشرين السنة المذكورة وفى أى وقت بعد انقضاء عشر سنوات يمكن إعادة النظر بين الطرفين فى نصوص المعاهدة وفى حالة عدم الاتفاق يعرض الخلاف على عصبة الأمم . ولكن من المتفق عليه أن إعادة النظر فى المعاهدة يجب أن يقرر فيها وجوب استمرار المحالفة بين الطرفين واستمرار التزام مصر فى حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة ــ يخشى خطرها أن تقدم للقوات البريطانية داخل حدود الأراضى المصرية كل التسهيلات والمساعدات اللازمة وتخولها حق استخدام موانيها ومطاراتها وطرق المواصلات فيها . وهذا البند يكشف لنا نيات بريطانيا ويفضح ألاعيبها ويرينا مدى سذاجة ساسة مصر . هؤلاء الساسة الذين باعوا بلدهم بأرخص ثمن أعطوا للإنجليز كل شىء وخسروا هم كل شىء . وهم بمقتضى هذا النص يوافقون على أن تظل مصر مرتبطة إلى أبد الآبدين بعجلة السياسة البريطانية وأن يصبح لانجلترا الحق فى أى وقت تشاء بأن تحتل البلاد من جديد بحجة وجود خطر حرب أو حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها . أى إذلال وأى مهانة .

• ومما يؤسف له أن مصطفى النحاس رئيس المفاوضين فى ذلك الوقت سمى هذه المعاهدة بمعاهدة الشرف والاستقلال . وما درى أنها وثيقة الذل والاحتلال .

• وقد قوبلت هذه المعاهدة من رجال الحزب الوطنى وحدهم بالسخط وبالنقد الشديدين وقد علق عليها الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه : « فى أعقاب الثورة المصرية » . فقال : « من يقل أن معاهدة واحدة من هذا النوع وتاريخها واسم الدولتين اللتين أبرمتاها فنكون له من الشاكرين .. » .

وأما المواد الأخرى للمعاهدة فقد سرت على هذا النمط الغرم لمصر ، والغنم لانجلترا فسلخت عنا السودان وفصمت عرى اتحادنا معه وجعلته مستعمرة إنجليزية . تصول فيه وتجول ما شاء الله لها أن تصول وتجول .

معاهدة مشئومة.

من بنود المعاهدة يبين إلى أى حد باع المفاوضون وطنهم إلى الإنجليز وربطوا مصر بانجلترا إلى الأبد . كالعبد الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً إلا إذا شاء وليه وسيده . وهؤلاء الساسة هم : مصطفى النحاس ومحمد محمود وإسماعيل صدقى وعبد الفتاح يحيى وويصا واصف ــ بطرس غالى ــ الدكتور أحمد ماهر ــ على الشمسى ــ عثمان محرم ــ محمد حلمى عيسى ــ مكرم عبيد ــ حافظ عفيفى ــ محمود فهمى النقراشى ــ أحمد حمدى سيف النصر . وحقيقة الأمر أن الإنجليز ــ وهم الذين يشهد لهم ــ التاريخ برسوخ أقدامهم فى السياسة وبعد النظر ــ كانوا فى أمس الحاجة إلى هذه المعاهدة ذلك أنهم كانوا يشاهدون طغيان هتلر وتغوله ويعلمون أن الحرب واقعة لا محاولة ــ وأن المسألة كانت مسألة وقت بالنسبة لهم لتنظيم صفوفهم واستعادة قوتهم وليعملوا على استقرار الأمور فى البلاد التى يحتلونها . ومن ثم كانت المعاهدة بالنسبة لانجلترا كصمام الأمان لما فى منطقة الشرق الأوسط وخاصة وأنهم كانوا من الحذق والذكاء بحيث أنهم ربحوا من المعاهدة بقدر ما خسرت مصر .

وقد تحقق ما تنبأ به الإنجليز من وقوع الحرب فلم تمض ثلاث سنوات على عقد هذه المعاهدة البغيضة حتى أعلنت انجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا وما لبث أن خاض ــ غمارها إيطاليا واليابان وأمريكا وروسيا وأصبح العالم كله يغلى كالبركان وشرعت المدافع والقنابل تحصد الملايين من البشر وبمجرد إعلان الحرب وضعت انجلترا يدها على مصر وعلى جميع موانيها وسواحلها ومواصلاتها وطرقها واستولت على جميع المؤن والذخائر وأصبحت مصر تحكم من مقر السفارة البريطانية .. كل ذلك استناداً إلى المعاهدة المشئومة ..

اجتماعات بين الشعب :

منذ قامت الحرب بين ألمانيا من جهة وانجلترا وفرنسا من جهة أخرى وانجلترا تتمتع بما خولته لها معاهدة سنة ١٩٣٦ من مزايا ، تلك المعاهدة التى

أصابت الوطن والوطنيين بلطمة شديدة وخيبة أمل ، وكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ من ناحية أخرى وسيلة لإطلاق يد الوفد ورئيسه فى حكم البلاد . ومنذ ذلك التاريخ وحزب الوفد فى تدهور مستمر فظهرت المحسوبية سافرة وتكونت فرق القمصان الزرق التى ضمت السوقة والمرتزقة الذين كان يسخرهم الوفد فى الاعتداء على معارضيه وحكم الوفد مصر حكما ظالماً بغيضاً ونسى كل ما كان يتشدق به من مبادىء ومثل .

وفى هذه الفترة التى تأزمت فيها الأمور حاول بعض الوطنيين التجمع بعد أن رأى زعماءه : يتهاوون الواحد إثر الآخر سعياً وراء القليل من الفتات الذى سمح لهم الإنجليز بأن يلتقطوه .

ووجد الشباب نفسه وحيداً بعد أن كفر بساسته وزعمائه وتنازعته عوامل متضاربة من الحيرة والقلق والغضب وخشى على مصر من الانحدار الذى بدأ يلوح فى الأفق فأخذ يتجمع محاولا فرض سلطانه من جديد لعله يجد مخرجاً من الحلقة التى بدأت تضيق من حوله وكانت هناك تجمعات كثيرة منها جماعة الحزب الوطنى التى اختير أعضاؤها من شباب الحزب المؤمنين وبدأت هذه الجماعة عملها بجمع الأسلحة الصغيرة (المسدسات) من الريف ومن الصعيد ومن التل الكبير وتلى ذلك تدريبهم على إطلاق الرصاص وإلقاء القنابل ، وكانوا يمارسونه بمنطقة نائية هى وادى حوف بجوار حلوان وما لبثت الجماعة أن اشترت ماكينة لطبع المنشورات لبث الروح الوطنية فى نفوس الشباب وحضهم على مقاومة الإنجليز وأعوانهم من المصريين وتبصيرهم بالأوضاع الحقيقية التى كانت تجرى وتشتد فى مصر والدعوة إلى حمل السلاح والجهاد فى سبيل الله والوطن ، وبدأت الجمعية بتوزيع المنشورات فى جميع الجهات بكل حرص لأن الحرب العالمية الثانية كانت قد قامت فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ والأحكام العرفية مسلطة على الرقاب .. والبوليس السياسى يتربص بالوطنيين فى كل مكان لذلك لم يكن توزيع هذه المنشورات بالأمر اليسير ولكنها كانت تصل إلى من أرادت الجماعة أن تصل إليهم سواء أكانوا

من السياسيين أو من الشباب وكانت القاهرة تستيقظ لتجد المنشورات فى كل مكان ملصقة على أعمدة النور ، أو على الجدران أو تحت أعقاب الأبواب أو فى الشوارع . ومهما يكن الأمر فقد كان لها أثر كبير على نفوس الشباب والوطنيين خاصة فى ذلك الوقت .

ثم اتجه الأمر بعد ذلك إلى محاربة الجنود الإنجليز واقتناصهم أثناء خروجهم من المواخير ودور اللهو ، وقد وقت عدة اغتيالات فى ذلك الوقت كان أشدها حادثة السينما وهى سينما خاصة كان يؤمها الإنجليز وحدهم فى أيام معينة ، وكانت تقع مكان لوكاندة فيكتوريا بشارع الجمهورية حالياً (إبراهيم باشا سابقاً) على وجه التقريب وقد وقع الحادث بعد أن تسلل إليها وطنيان من ناحية شارع عماد الدين وألقيا بها قنبلتين انفجرتا دفعة واحدة وقتلت بعض الجنود الإنجليز الأمر الذى جعل الحكومة تشدد وطأتها على الوطنيين من الشباب وتتعقبهم وتزج بهم فى السجون وهاجت الحكومة وماجت بأقلام أمنها ومخابراتها مما حدا بهذه الجماعة إلى التوارى عن الأنظار بعض الوقت حتى تخف هذه الحملة وإلى أن يجدوا مكاناً أميناً يجتمعون فيه بعد أن وضعت بيوتهم تحت المراقبة .

٣ — أسود الجيش ونسور الطيران

بيت المغرب

الشعب يتجه الى قواته المسلحة :

وكان للمغاربة ناد يؤمونه وقت فراغهم كائن بميدان الأوبرا بالعمارة التي بها مقهى نوبار حاليا ، وكان شباب الحزب الوطني يتخذون منه مكانا مختاراً لهم يباشرون عملهم فيه بحرية وأمان حتى أن المنشورات كانت تكتب فيه وتصدر منه وفي هذا البيت ولدت فكرة جديدة طرحت لأول مرة وخرج منه الأعضاء لتنفيذها .

فقد أثار أحد الأعضاء فكرة جديدة : ذلك أنه يكفي ماقاموا به من أعمال حتى الآن هيأت الجو ولفتت الانظار بأن هناك قوة مستعدة للعمل في سبيل الوطن وبين الزميل لباقي الأعضاء بأن قضية مصر لاتحل بالمنشورات والانجليز لن يخرجوا منها لأن عددا من جنودهم لقوا مصرعهم ثم وضح لهم العضو مدى النكسة التي تتعرض لها الحكومة لو أن البوليس السياسي وضع يده عليها — وانتهى من ذلك الى أن خلاص البلد لايمكن أن يتم الا على يد جيشه وبسواعد المخلصين من أبنائه ولاسبيل الى ذلك الا بأن نبحث عنهم بصبر وأناة حتى نعثر عليهم وندفع بهم الى المعركة وماهي الا خلية سرية واحدة تنبثق منها الخلايا فتقوم الحركة وتشتد ولا يبقى الا أن تعلن عن نفسها بانقلاب عسكري ينقذ البلد من الطغيان ويجتث الفساد من أساسه . . ثم بين العضو صاحب الفكرة أن الجيش وحده هو الذى يملك مقومات هذه الحركة بما لديه من أسلحة وامكانيات .

ولم تكن هذه الفكرة على بساطتها يسيرة التنفيذ ، بل دونها عقبات من بعدها عقبات . . فالمعروف أن ضباط الجيش فى مثل هذه الظروف لايطمئن واحد منهم لصاحبه فضلا عن الثقة فيه ليفضي اليه بمثل هذه الأفكار . . ومع ذلك فكيف

السبيل الى نقلها من الداعين لها خارج الجيش الى المدعوين الى تبنيها من داخله ؟ وبالبحث لحل هذه المشكلة وجد المخرج . . وطلب الى كل عضو من الجمعية أن يزكى ضابطا من أصدقائه يرشحه بعد أن يطمئن اليه ويثق بوطنيته . وتم ذلك بالفعل . وبدأ أحد الأعضاء فرشح ضابطا طيارا تربطه به صلة القرابة فضلا عما بينهما من صداقة، وبين لهم مدى استعداده للايمان بما دعا اليه .. ومدى استعداده لبثه سرا بين الموثوق بهم من زملائه . . وأخذت الجماعة العهد على الزميل بألا يفضى بأى اسم من أسماء زملائه أعضاء الجمعية لقريبه ليكونا هما وحدهما المسئولان فيما تعرضا له دون غيرهما .

وفاتح مندوب الجماعة الضابط الطيار الذى وافق على الفور وأردف بأنه يقطن مع ضابطين من زملائه فى الطيران وأنهما على جانب كبير من الوطنية ومتانة الخلق ويعتقد أنهما سيرحبان بالفكرة أيضا .

وحسبما قدر وافق بالفعل زميليه على الفكرة ومن الثلاثة تكونت نواة الطيران فى سنة ١٩٤٠ .

تسور الشعب :

كان الضابط الطيار الذى فاتحه مندوب الجماعة هو الطيار أول محمد وجيه أباظه، وكان أحد الثلاثة المرحوم البطل أحمد سعودى وكان قد سبق للملازم / جمال عبد الناصر أن كون النواة الأولى للجيش سنة ١٩٣٨ فى منقباد ، والنواة الثانية فى الخرطوم بالسودان سنة ١٩٣٩ ، وظلت خليتا جمال عبد الناصر تعملان معا بحذر وفى سرية بعيدا عن خلية الطيران حتى توصل لها جمال وضمها الى الخلايا الأخرى بالجيش ضمن عمليات التجميع التى كان يقوم بها لتوحيد العناصر الوطنية الموجودة بوحدات الجيش المختلفة كما سنبينه فيما بعد .

أما نواة الطيران فقد انضم لها كثيرون وظلت متصلة بالخلية السرية للحزب

الوطنى فترة من الزمن ، وكان أعضاء الخليتين يتعاونون فى كل الأمور التى تهمهم من طبع للمنشورات أو شراء الأسلحة أو تنظيم بعض العمليات ضد الجنود الانجليز . وكان الضباط كثيرا ما كانوا يذهبون الى بيت المغرب لملاقاة بعض أعضاء الجهاز السرى المدنى — للبحث والتشاور فى الكثير من الأمور الهامة والمسائل الخطيرة التى تعرضت لها هذه الخلية كما سيجىء بعد الى أن اكتملت أسباب نجاحها فعملت وحدها . ثم انضمت لجماعة جمال عبد الناصر بعد ذلك .

أما جماعة الحزب الوطنى فاعتبروا أنهم نجحوا عندما نجحت الفكرة التى آمنوا بها ، وهى أن الجيش وحده هو الذى يجب أن تنعقد عليه الآمال لكى تحصل البلاد على استقلالها . وفى يده دون غيره الطريق الى الحرية والوسيلة الى الخلاص من الاستعمار الخارجى والاستعباد الداخلى .

ولم يلجأ أعضاء الحزب الوطنى الى نواة الطيران الا مرات قليلة لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة منها محاولة تهريب عزيز المصرى عقب سقوط طائرته بقليوب سنة ١٩٤١ عندما أراد السفر الى العراق لمساعدة ثورة رشيد الكيلانى وللاتصال بالألمان واختفائه مع زميليه بمنزل صديق لهم بامبابة . وقد وضعت خطة التهريب على أن يتجه عزيز وزميلاه الى رأس البر حيث تكون فى انتظارهم طائرة يقودها أحد أعضاء خلية الطيران وكان قد أنشىء برأس البر مطار حديث ومن هناك يستقلون الطائرة ويهربون بها من جديد ، ولكن حال دون اتمام هذه الخطة قبض البوليس عليهم وتقديمهم للمحاكمة وكان الوطنيون يعتبرون عزيز المصرى المثل الأعلى لهم لأنه كان يمثل قمة الوطنية والفداء فى مصر وقتئذ فاتجهوا اليه ، وكان أعضاء التشكيل المدنى من شباب الحزب الوطنى أول من سعى لمقابلته وكثيرا ما كانوا يتوجهون فرادى الى منزله بعين شمس ويجتمعون معه حتى ساعات طويلة من الليل يستمعون فيها الى نصائحه وآرائه ولطالما استحثهم على ضرورة القيام بثورة تشمل طوائف الشعب ويسندها الجيش كما كان يؤمن بأن ذلك لن يتم الا

إذا تجمع الشباب المؤمن واتحد ، وكان يطالب رحمه الله أمرين فيمن يتصدى للكفاح الوطني : أولهما السعي الدائم لانارة العقل بالعلم حتى يعف عما يصرفه عن الهدف من الدواعي المثبطة والتفاهات . والآخر أن يتدرب على اطلاق النار ، ولا يتخلى عن حمل السلاح ليكون متأهبا في كل وقت عندما تدق الساعة . .

وقد لجأ كذلك أعضاء التشكيل العسكري لعزيز المصري وكثيرا ما كانوا يجتمعون معه سرا وبعيدا عن أعين الرقباء لأن الحكومة كانت تتصيد أي شخص يقابله أو يزوره وتزج به في السجن وتشدد العقوبة على العسكريين منهم بصفة خاصة .

فمن هو عزيز المصري الذي لجأ التشكيلان العسكري والمدني اليه طلبا للرعاية والتوجيه ، وماهو العمل القيادي الذي قام به في العالم العربي وفي مصر على وجه الخصوص حتى أصبح بهذه المنزلة ؟ ؟

صورة لكفاح أسد من الجيش (عزيز المصري)

ولد عزيز المصري بالقاهرة سنة ١٨٨٠ حيث أتم دراسته الابتدائية والثانوية ثم سافر الى تركيا ١٨٩٨ والتحق بالكلية الحربية بالقسطنطينية، وبعد ست سنوات تخرج فيها ضابطا وكان من المتفوقين وعين على الفور في هيئة أركان حرب الجيش الثالث بمقدونيا ، وكانت الدولة العثمانية من أضخم دول العالم ، فقد كانت تشمل جميع البلاد العربية بلا استثناء والبونان وبلغاريا وبلاد البلقان وكردستان، وأرسل الى البلقان لاخماد الثورة التي كانت مشتعلة فيها وقتئذ — ورأى فيه الثوار عدوهم الذي سيقضي عليهم بشجاعته وبسالته فوطدوا العزم على القضاء عليه ، وأسروه تمهيدا لاعدامه ، ولكنه استطاع أن يقتل حارسه وأن يعود الى فرقته . وتمكن من اخماد الثورة بعد جهد كبير . وبعد أن قضى على ثورة البلقان أرسلته تركيا الى اليونان وكانت تحت حمايتها في مهمة عسكرية أداها على أكمل وجه . ولما عاد الى القسطنطينية وجد أن الدولة العثمانية تحتضر ، وكان يتربع على عرشها السلطان

المستبد عبد الحميد نتيجة ضعف الجيش من جهة وللفوضى والفساد والظلم المنتشر في جميع الأرجاء من جهة أخرى،وأبت نفسه المناضلة أن يكون ضابطا في دولة يسودها كل الفساد ، فعقد الرأى على مقاومة الظلم والفساد وكون مع بعض زملائه من الضباط جمعية (تركيا الفتاة) التي سميت بعد ذلك باسم جمعية : (الاتحاد التركى) واتخذت القاهرة مركزا لنشاطها ، وكان من أهم أهدافها منح الحكم الذاتى لجميع الدول العربية الخاضعة للدولة العثمانية والحد من استبداد السلطان عبد الحميد ووقف تيار الفساد ونجحت جمعية الاتحاد والترقى نجاحا كبيرا وانضم للوائها المناضلون من العرب من جميع البلاد العربية — وأجبرت السلطان عبد الحميد على منح الشعب الدستور والافراج على المعتقلين والغاء الرقابة وطرد بطانة السوء ورجال الحاشية الذين كانوا يديرون دفة الحكم ولقد بيت السلطان النية على التنكيل بزعماء هذه الجمعية بعد هذا النجاح . وتم له ما أراد فقبض على زعمائها وعلى رأسهم عزيز المصرى . ولكن قائد الجيش التركى بسالونيك وكان يدعى محمود شوكت زحف بجيشه الى القسطنطينية وأفرج عن عزيز المصرى ورفاقه وتوجهوا الى بلدة يلدز حيث كان يقيم السلطان وأعلنوا خلعه وتنصيب أخيه الأمير رشاد أو السلطان محمد الخامس سلطانا على الدولة العثمانية . وعندما شعر عزيز المصرى بتطريق الفساد الى جمعية الاتحاد والترقى انفصل عنها وكون جمعية جديدة من العسكريين العرب سماها بجمعية العهد ، هدفها تحرير الدول العربية من يد الحكم التركى .

ولما تنازلت تركيا لايطاليا عن سيادتها على طرابلس وبنى غازى ١٩١١ بمقتضى معاهدة (اوشى) ثار العرب على الحكم التركى ورأت تركيا أن توفد عزيز المصرى على رأس قوة من الجيش لتهدئة الحالة . ولكن عزيز المصرى رأى أن الفرصة مواتية لتحقيق أهدافه ومبادئه فساعد الثوار والسنوسيين على محاربة الأتراك والايطاليين واشتدت الحركة وانضم اليها الكثير من المصريين . نذكر منهم عبد الرحمن عزام الذى كان أمينا للجامعة العربية فى وقت من الأوقات ، وصالح حرب رئيس شرف جمعية الشبان المسلمين .

وعندما عاد عزيز المصرى الى استانبول سنة ١٩١٣ اتهمه الأتراك بالخيانة ومساعدة السنوسيين وقبضوا عليه وأودع السجن وشكلت محكمة مخصوصة لمحاكمته برئاسة عودة أنور باشا وقضت فى ١٥ أبريل سنة ١٩١٣ باعدامه رميا بالرصاص.

وثارت جميع البلدان العربية لهذا الحكم الجائر وقامت المظاهرات فى أكثر من عاصمة وتدخلت بعض الدول بمساع جدية لدى السلطان لتخفيف الحكم ونجحت هذه المساعى برفع عقوبة الاعدام الى السجن ١٥ سنة . ثم رأت تركيا بأن تعفو عن عزيز المصرى ترضيه للشعور العام فى داخل تركيا وخارجها . وأمرته بمغادرة البلاد فورا فتركها غير آسف الى مسقط رأسه مصر . ليبدأ فيها كفاحه ضد الاستعمار وليطبق بها مبادئه التى آمن بها من أجل العرب والعروبة .

رجع البطل كما كانوا يلقبونه فى مصر اليها وكانت الحرب العظمى الأولى قد بدأت سنة ١٩١٤ وأعلنت انجلترا زوال سيادة تركيا على مصر ووضعتها تحت الحماية بعد انضمام تركيا لمعسكر ألمانيا ضد الحلفاء . وكانت انجلترا فى حاجة لارضاء العرب مدة الحرب على الأقل وبدأت فى الاتصال بهم وكان عزيز المصرى أول من اتصلوا به وذكروه بفضلهم عليه عندما ساهموا لدى تركيا فى العفو عنه . وحاولوا استمالته لجانبهم ولكنه وهو الوطنى الثائر رفض التعاون مع المستعمرين ومضى قدما فى تنفيذ مبادئه — وعاد فاتصل بأعضاء جمعية العهد وقابل زعماء الدول العربية كالملك فيصل ملك العراق فيما بعد والشريف حسين شريف مكة وغيرهم واضطرت انجلترا تحت ضغط العرب وعدم دخولهم الحرب بجانب تركيا وحلفائها أن تصدر قرار مكماهون فى أكتوبر ١٩١٥ وفيه تعترف رسميا باستقلال الدول العربية وقد أوغر نشاط عزيز المصرى صدور الانجليز فأبعدوه عن مسرح السياسة فى مصر حتى عين مديرا لمدرسة البوليس فأحدث بها انقلابا كبيرا .

ثم عين بعد ذلك مفتشا عاما للجيش المصرى وحاول أن ينفث فيه من روحه مايريده له من نهضة وتحرر ، ولكنه اصطدم بالبعثة العسكرية الانجليزية مرارا وحطم أوامرها واقتراحاتها وأوقف رئيسها الجنرال مكريدى عند حده ومنعه من

التدخل فى شئون الجيش . فطالبوا باخراجه وعزله وتم لهم ذلك،وكانت الحرب قد أعلنت بين الحلفاء وألمانيا فى سبتمبر ١٩٣٩ ، ولم يكتفو بذلك بل ظلوا ومن ورائهم البوليس السياسى المصرى يضيقون الخناق عليه حتى فى حياته الخاصة ولم يستكن البطل للاضطهاد أو الظلم بل وقف كالطود أمام الأحداث التى مرت به يساعد الوطنيين ويبث تعاليمه فيهم ثم خاض معهم بعد ذلك معارك كثيرة ضد المستعمر فى محاولات بطولية لنيل الحرية والاستقلال .

المحاولة الاولى :

كان أعضاء التشكيل يراقبون الحرب الدائرة فى الصحراء الغربية بين الانجليز من ناحية وبين الألمان والايطاليين من ناحية أخرى بعين القلق والترقب يترقبون الوقت المناسب ليسهموا فى المعركة بما يتفق مع صالح الوطن ورأوا أنه لو تيسر لهم الاتصال فى هذه الظروف لأمكنهم الحصول على اتفاق يحقق للبلاد استقلالها من جهة وليشبعوا رغبتهم فى الانتقام من الانجليز الأعداء الحقيقيين للمصريين من جهة أخرى ، واختمرت فكرة الاتصال بالألمان وأصبحت الشغل الشاغل للأعضاء . لأنهم وجدوا أن الاغتيالات والمنشورات لن تحقق أغراضهم . وعرضوا الأمر على عزيز المصرى فوافق على الفكرة على أن يكون هو أول من يسافر فى هذه المهمة . ولكنه عدل الخطة . ورأى أن يتجه أولا الى العراق حيث كانت ثورة الجيش بقيادة رشيد على الكيلانى رئيس الوزارة وقتئذ محتدمة ضد الانجليز وقال أنه سيتصل بالألمان من هناك حيث وعدوا بمساعدة العراقيين فى ثورتهم ضد الانجليز وبهذا يضرب عصفورين بحجر واحد — فيساهم فى الحرب بجانب زملائه وأصدقائه من رجال جمعية العهد من العراقيين ضد الانجليز — كما يسعى الى الاتفاق مع الألمان لتنسيق المقاومة بالزحف نحو الشام ومصر من الشرق وبذلك تصبح قوى الجيش الانجليزى بين شقى الرحى .

ووافقت الخطة الحربية التى عرضها الرجل الخبير الأعضاء . ووافقوا عليها وانفضوا على أن يبدأوا فى تجهيز الطائرة التى ستنقل القائد الكبير ومرافقيه .

الطائرة رقم ٢٠٥ :

ظل الأعضاء يدرسون طريقة السفر والاستيلاء على الطائرة التى تقل عزيز المصرى ومرافقيه أياما طويلة . حتى استقر الرأى على أن يرافق عزيز المصرى فى رحلته كل من الضباط الطيار حسين ذو الفقار صبرى (نائب وزير الخارجية) الآن ، والطيار الأول — عبد المنعم عبد الرؤوف وكانت الطائرة انسون رقم ٢٠٥ من طائرات سلاح الطيران الملكى المصرى هى التى اختارها القدر لنقل الضباط الثلاثه فى سفرهم الى العراق — وفحصت الطائرة . وجربت آلاتها وقام بالتحليق بها أحد الضباط فى جولة فوق القاهرة وقدم تقريره بصلاحيتها للطيران ، وقبل الغروب ملئت خزانات الطائرة بالبنزين وكانت تتسع لمائة وأربعون جالونا وأخطر الضباط بالتأهب بالسفر فى هذا اليوم .

ثلاثة أشباح :

بعد منتصف ليلة ١٥ مايو سنة ١٩٤١ كانت هناك ثلاثة أشباح تتجه الى الطائرة رقم ٢٠٥ الواقفة بأرض مطار ألماظه العسكرى — بينما كان يحمل آخرون احدى عشرة حقيبة تحوى ملابسهم ومعداتهم .

وركب الضباط الثلاثة الطائرة ودارت محركاتها وحلقت فى الجو وكانت قلوب كثيرة على الأرض تخفق وتدعو لهم بالتوفيق — حتى اختفت الطائرة وراء الأفق . وتفرق باقى الرفاق الى منازلهم يتعجلون طلوع النهار ليطمئنوا الى وصول الطائرة بسلام . وما دروا أن القدر كان يخبىء للحركة أمرا هو آخر ما كان يدور فى أذهانهم . فما كادت الطائرة تقطع بضعة كيلو مترات حتى أصاب محركاتها عطب لم يعرف سببه وبدا أن الطائرة تكاد تسقط نتيجة لهذا الخلل . ولم يكن أمامهم لتجنب الكارثة سوى الهبوط بها فى أى مكان بأقل ضرر ممكن وتمكن حسين ذو الفقار من الهبوط بها فى حديقة فاكهة بجوار بلدة قليوب دون أن يصاب أحد منهم وتنبهوا الى الموقف الحرج الذى وقعوا فيه ولكن عزيز المصرى الذى تعود على مثل هذه المواقف رأى أن يتصرف وبسرعة .

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة من صباح يوم ١٦/٥/١٩٤١ والظلام يخيم على المنطقة المحيطة ببلدة قليوب عندما ترك الضباط الطائرة المنكوبة محطمة بين أشجار حديقة الفاكهة واتجهوا الى بلدة قليوب وسأل عزيز عن منزل مأمور المركز أو من ينوب عنه واعتقد زميلاه أن رئيسهم ينوى تسليم نفسه الى البوليس . وطرق عزيز المصرى منزل مأمور مركز قليوب ومعه زميلاه ، وخرج اليهم أحد الضباط وكان النوم لا يزال يغالبه ولكنه عندما شاهد عزيز المصرى لم يصدق عينيه — وبدأ يفيق وسأله « أوامرك ياباشا » . وبكل هدوء أجاب الباشا « أنه كان مدعو وزميليه فى حفلة زفاف باحدى العزب القريبة من قليوب وتعطلت السيارة التى كانت تقلهم ويطلب منه أن يحضر أن عربة ليعودوا بها الى القاهرة وعلى الفور أمر الضابط باحضار سيارة المركز الخاص « البوكسفورد » واستقلها الضباط الهاربون وسط ترحيب ضابط البوليس وسروره لأدائه هذه الخدمة للرئيس السابق لمدرسة البوليس . ووصلوا القاهرة وصرفوا عربة البوليس وكانت تباشير الصباح قد بدأت تلوح — وكان عليهم أن يختفوا بسرعة لأن البوليس سوف يجد فى البحث عنهم ان لم يكن قد بدأ بالفعل . واستقر الرأى على أن يختبئوا فى منزل أحد الوطنيين ، وكان يقيم بمفرده فى امبابة . وفى هذا المنزل أقام الضباط الثلاثة متوارين عن الأعين عشرين يوما » .

الصدمة :

خرجت صحف الصباح تحمل فى صفحاتها الأولى نبأ سقوط الطائرة وهروب الضباط الثلاثة . وهاج الانجليز وطالبوا باجراء التحقيق وتجنيد البوليس لضبط الضباط الهاربين ورصد البوليس السياسى الكثير من رجاله لهذه المهمة كما وعدوا بتقديم مكافأة كبيرة لمن يدلى بمعلومات هامة تؤدى الى القبض على الضباط الثلاثة . وكان أعضاء التشكيل يسمعون ويقرأون هذه الأخبار وهم فى ذهول من هول الصدمة التى فاجأهم بها القدر — وكأنه يدخر تنفيذ خطة الخلاص ليوم آخر لم يحن بعد . ومع ذلك فان هذه الصدمة لم تنل من عزيمتهم ولم توهن من ارادتهم —

واجتمعوا كى يواجهوا الموقف الذى جد بسقوط الطائرة وفشل محاولة الاتصال بالألمان .

المطار الجديد :

كان لابد من اعاده تهريب الضباط الثلاثة من جديد والحيلولة دون القبض عليهم ، ولكن كيف السبيل الى ذلك والبوليس السياسى منتشر فى جميع الأرجاء — ورجال المخابرات الانجليزية ينقبون فى كل ناحية والسفير البريطانى يستحث حكومة حسين سرى لكى يسرع فى القبض على الهاربين . وعلى ضوء هذه الاعتبارات رؤى أن يبحث عن منطقة بعيدة نوعا من أعين الانجليز وأعوانهم من رجال البوليس. وكان هناك مطار جديد قد أنشىء فى رأس البر ولم يكن من المطارات العسكرية الهامة التى يهتم بها الانجليز . ومن ثم اتجه التفكير فى البحث عن أى طائرة حتى لو كانت تستعمل فى الأغراض المدنية — لاستعمالها لهذا الغرض ووجدت الطائرة ووضع الوطنيون خطة جديدة لتهريب الضباط الثلاثة .

وكلف التشكيل أحمد سعودى بهذه المهمة وشوهد برأس البر فى ذلك الوقت بعض الشبان الذين جاءوا لوضع الترتيبات النهائية للمغامرة الجديدة ، ولكن القدر كان لهم بالمرصاد فقد نمى الى رجال البوليس السياسى أن الأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة — وكان معتقلا وهرب — يختبىء فى منزل الأستاذ عبد القادر رزق بامبابه ، وفى يوم ١٩٤١/٦/٤ توجه أمام ابراهيم الذى أصبح رئيسا للبوليس السياسى بعد ذلك ومعه قوة من رجال البوليس وداهم المنزل الذى اعتقد أن رئيس حزب مصر الفتاة يحتمى به . ولشد مادهش اذ رأى أمامه وجها لوجه عزيز المصرى ورفيقيه !! وقد أطلقوا لحام توطئة للهرب الذى كانوا ينتظرونه ، وقبض عليهم وأدعوا السجن ووجهت اليهم تهمة الخيانة العظمى وعقوبتها الاعدام. وضربت الحركة الوطنية فى الصميم لهذا الفشل . وران السكون على رجال التشكيل بعض الوقت حتى تهدأ العاصفة وينقشع الضباب .

المحاكمة :

اضطرت الحكومة تحت ضغط الرأى العام الذى كان يطالب بالافراج عن عزيز المصرى الى تشكيل محكمه عسكرية عليا ومحاكمته مع زميليه بعد أن قضوا أكثر من خمسة أشهر فى السجن ، وفى صباح يوم ١٩٤١/١٠/٩ عقد المجلس العسكرى جلسته الأولى بالكلية الحربية بمنشية البكرى واستمع المتهمون الى قرار الاتهام ، وأهم هذه الادعاءات هو الادعاء الأول وكان كما يلى :

. المتهم الفريق عزيز المصرى باشا من المعاش والخاضع الأحكام العسكرية مدعى عليه بما يأتى :

الادعاء الأول :

اغراؤه شخصا خاضعا الأحكام العسكرية بالهروب من خدمة جلالة الملك ، وذلك أنه بجهة القاهرة بتاريخ المدةالواقعة من ٩ مايو ١٩٤١ و ٦ يونيو ١٩٤١ أغرى كلا من الطيار حسين ذو الفقارصبرى والطيار الأول عبد المنعم عبدالرؤوف من سلاح الطيران الملكى المصرى على الهروب من خدمة صاحب الجلالة الملك ومبارحة القطر المصرى . فاستقل ثلاثتهم طائرة حربية فى ليلة ١٦/١٥ مايو من المطار العسكرى خلسة حتى هبطت بهم اضطراريا بجوار قليوب فى الليلة نفسها — ثم فروا واستمروا هاربين حتى قبض عليهم بمعرفة السلطة المدنية وهم مرتدون ملابس مدنية ومختفين بمنزل المدعو عبد القادر رزق بجهة امبابه .

أما باقى الادعاءات فكانت خاصة بسرقة الطائرة الحكومية والاهمال فى اطاعة الأوامر ، وقد أثبت عبد الرحمن الطويل النائب العام فى التحقيق الذى أجراه عند تفتيش حقائب الضباط الثلاثة وجود خرائط للوجه البحرى ومديرية الفيوم — وطرق المواصلات من القاهرة والاسكندرية الى مرسى مطروح وكذلك خريطة لواحة سيوة والطرق المؤدية لها حتى العلمين ومرسى مطروح . وتطوع للدفاع عن المتهمين كثير من المحامين نذكر منهم حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى ومصطفى الشوربجى وزير العدل الأسبق ، وقد دفع المحامون بعدم قانونية تشكيل المجلس

العسكري لتكوينه من أعضاء أقل رتبة من رتبة الفريق عزيز المصري كما دفعوا ببطلان قانون الأحكام العسكرية لعدم صدور مرسوم ملكي به وعرضه على مجلس الوزراء. كما أنه لم ينشر في الجريدة الرسمية للبلاد . وكانت جميع الدفوع التي أثارها الدفاع هي دفوع في حقيقتها سليمة وقانونية — أدت الى احراج المحكمة التي رأت أن تؤجل المحاكمة الى أجل غير مسمى ومعنى هذا أن يظل الضباط الثلاثة في السجن دون أن يصدر ضدهم حكم .

ولكن حكومة النحاس التي فرضها الانجليز بقوة السلاح في ١٩٤٢/٢/٤ رأت أن ترضى الوطنيين فقررت الافراج عن عزيز المصري ورفيقيه، وتم ذلك بعد شهر من تأليف وزارة النحاس أى في مارس ١٩٤٢ ، اعتقادا منها أن هذا الافراج قد يخفف بعض الشيء من واقع حادث ٤ فبراير على المصريين وليكسب النحاس بعض المواقع التي فقدها بسبب اشتراكه في هذا الحادث المشئوم. فما هي ملابسات حادث ٤ فبراير وظروف حدوثه ؟؟

يقتضى الأمر أن نعود الى الوراء قليلا لنتعرف حالة مصر وقتئذ ولن نذهب بعيداً ، بل سنرجع الى شهر واحد سابق على الحادث ، أى الى شهر يناير من سنة ١٩٤٢ .

هروب الانجليز :

كان لحوادث الاغتيالات التي قام بها الوطنيون ضد الجنود والضباط الانجليز وقع سيء عليهم ، كما أشاعت الذعر في نفوسهم فقللوا من الظهور في الشوارع ودور اللهو وكانت غارات الألمان تشتد وطأتها في ذلك الوقت على مواقع القوات البريطانية في الاسكندرية ، والعباسية والقنال تقصفها من الجو باحكام يدعو الى العجب متجنبة قدر الامكان المنشآت المدنية والمدن المفتوحة . ولم يسمع وقتئذ أن قنبلة قد ألقيت على غير الهدف العسكري الا فيما ندر . واذا ماأخطأ الألمان في بعض الأحيان وطاشت منهم قنبلة فان معلقهم العسكري سرعان مايعتذر عن هذا الخطأ غير المقصود ويعد بمحاكمة المتسبب .

وحدث فى شهر يناير ١٩٤٢ أن قام الألمان بقيادة الجنرال روميل — الداهية العسكرى الذى دوخ الحلفاء — بهجوم على القوات البريطانية فاكتسحهم وفروا أمامه بطول الساحل الافريقى على البحر الأبيض المتوسط ، أكثر من ألفى كيلو متر وجنود بريطانيا تلهث أمام روميل حتى وصل حدود مصر ودخلها وتحصن فى مرسى مطروح ليعيد تنظيم صفوفه — ولينتظر البترول والمؤن من ألمانيا ليضرب ضربته الأخيرة وعاد الجنود الانجليز الهاربون الى مصر يحملون معهم الهزيمة والاجهاد والذعر . وكانت قطارات الهلال الأحمر تفد بالليل والنهار تحمل جثث القتلى والجرحى حتى غصت بهم المستشفيات وعندذلك لاحت بوادر الهزيمة وعزم الانجليز على الهرب الى جنوب أفريقيا أو الى غيرها من المستعمرات ، وبدأت العربات والطائرات والسفن تحمل الجنود والضباط وبعض أمتعتهم ومؤنهم الى خارج البلاد . وكان المصريون يسمعون ويشاهدون هذا الهروب بغبطة وسرور بالغين . وفى هذا الجو المكفهر كان الوطنيون يجتمعون باستمرار لمتابعة سير الأمور . وأخيرا رأوا أن يتصلوا بالألمان . وأعدوا بيانا الى روميل أظهروا فيه رغبتهم فى التعاون معه ضد الانجليز للتخلص منهم ومن الاستعمار على أن يكون مفهوما أن المصريين لايقبلون استبدال استعمار بآخر وعلى أن تنال مصر حريتها كاملة ثم يحمله أحد الضباط الطيارين ويسافر بطائرته الى مرسى مطروح ليقابل روميل ويتفاهم معه على كافة الموضوعات التى تهم الجانبين ويحيط بكل التفاصيل حول استقلال مصر بعد خروج الانجليز ، ومن تجنب ضرب القوات الألمانية للمدن والمنشآت المصرية — مقابل أن يساعدهم الوطنيون ، وقد تأخرت فكرة الاتصال بالألمان بعض الوقت وان كانت قد تمت بعد سبعة أشهر أى فى شهر أغسطس من نفس العام.

ولما لم يعد هناك من شك فى خروج الانجليز من مصر فرحت طوائف الشعب واستبشروا وتطلعوا الى الحرية التى انتظروها مايقرب من ستين عاما قضوها فى احتلال بغيض — فخرجوا من ديارهم وتجمعوا فى كل مكان ، فى الأزهر ، والجامعة حتى فى الأحياء الشعبية وساروا فى مظاهرات يعبرون فيها عن شعورهم

بالغبطة والفرح ـــ والتشفي في نفس الوقت لقرب خروج الانجليز من جهة ولهزيمتهم أمام الألمان من جهة أخرى ـ ورأوا الانجليز يرتشفون من نفس الكأس التي شرب منها المصريون ـــ وقد بلغ من كراهيتهم للانجليز أن الهتافات لم تقتصر على المناداة بسقوطهم ، وانما كانت تدعو لروميل بالنصر ـــ وكنت تسمع « الى الأمام يا روميل وانتصار الالمان انتصار لمصر » وغير ذلك من الهتافات التي كانت تعبر عما كان يعتمل في نفوس المصريين من كراهية وحقد على الاحتلال . ولم تكن هذه المظاهرات مدبرة أو من تدبير حزب بعينه كما أن أحدا من المسئولين المصريين لم يستنكرها أو ينتقدها اللهم الا أعوان الاستعمار ، حتى أن حسين سرى رئيس الوزراء في ذلك الوقت لم يحاول اخمادها ـــ مما أوغر صدور الانجليز عليه وطالبوا بوقف هذه المظاهرات بالقوة فرفض حسين سرى ـــ فما كان من السفير البريطاني سير مايلز لامبسون وكان يمثل ذروة الاستعمار (مصر وقتئذ) الا أن توجه الى منزل حسين سرى بالزمالك وطلب منه الاستقالة فورا فرضخ لأمره واستقال في ١٩٤٢/٢/٢ وما كان له أن يستمع الى ممثل بريطانيا حتى ولو أدى الأمر الى اعتقاله ولم يكتف الانجليز بذلك بل أقدموا على أمر ان دل على شيء فانما يدل على مقدار ما وصلوا اليه من نزق وطيش وانهيار في الأعصاب ويقتضي الأمر قبل أن أسرد واقعة ٤ فبراير أن ألمح الى الحالة في مصر في هذه الفترة .

٤ ـ الكفاح الشعبى أثناء الحرب العالمية الثانية :

صورة مصر خلال الحرب :

رسم الميثاق صورة واضحة مفصلة لأحوال مصر الداخلية خلال الحرب العالمية الأولى وهذه الفترة من الفترات الخطيرة فى تاريخ مصر لأنها أدت الى « بدأ التأهب النفسى لثورة يوليو ١٩٥٢ » كما جاء فى الميثاق . وهذه الفترة يمكن أن نسميها بفترة « الأزمة الكبرى » ، وحفلت بصورة مؤلمة كان من الممكن أن تدعوا الى اليأس والقنوط والخنوع ، لولا « صلابة الشعب ومعدنه الأصيل » .

تحدث الميثاق عن هذه الفترة فقال : « ان هذه الفترة كانت قادرة ، لولا صلابة الشعب ومعدنه الأصيل أن تحمل البلاد الى حالة من اليأس تخنق كل حوافز الرغبة فى التغيير أو تلحق بها الشلل الذى يمنعها من الحركة . ان هذه الفترة التى يمكن أن ننظر اليها الآن باعتبارها فترة الأزمة الكبرى كانت حافلة بالواجهات المضللة التى تخفى وراءها الأطلال المتهاوية من بقايا ثورة سنة ١٩١٩ » .

تميزت هذه الفترة بحرمان مصر من القيادات الشعبية ، وحلت مكانها أحزاب سياسية تتألف من رجال من طبقة الاقطاعيين والرأسماليين والانتهازيين ، وشغلوا جميعا بالصراع والتكاليف على مكاسب الحكم ، ونسوا جميعا القضية الوطنية وواجبهم نحو الكفاح الشعبى . ووصف الميثاق هؤلاء بقوله : « لقد كانت القيادات الباقية من ذكريات الثورة مازالت واقفة فى المقدمة ، ولكن هذه القيادات فقدت كل طاقاتها الثورية ، وأسلمت كل الشعارات التى رفعها الشعب سنة ١٩١٩ الى كبار ملاك الأرض الذين كانوا دعامة التنظيمات الحزبية القائمة ، وأشركوا فيها بعض الانتهازيين الذين اجتذبتهم عملية تقسيم الغنائم بعد انتكاسة الثورة .

وتسربت الى الحركات القومية (فئات طفيلية) عملت على توجيه هذه الحركات لصالحها » وبدا ذلك واضحا كلما هب الشعب يطالب بالجلاء وخروج المغتصب من البلاد ، اذا كان دعاة السوء والانتهازيون يعملون على استغلال هذه الحركة

لصالحهم مما يؤدى الى فسادها . قال الميثاق : « ولقد ظهرت فى هذا الجو فئات طفيلية ، ولقد استطاع هذا الانحراف أن يمهد لفئة من الرأسماليين ، ورثوا فى حقيقة الأمر نفس دور المغامرين الأجانب فى القرن التاسع عشر ، بكل سطحيته التى لا تهتم بتطوير الوطن ذاته قدر اهتمامها باستغلال أكبر جزء من ثروته ونزحها فى أقل وقت ممكن » .

ارتمت هذه الأحزاب السياسية فى أحضان الانجليز والقصر ، وحرمت مصر من الزعامة الصالحة والقيادة الشعبية ، ولم يقدر لمصر فى هذه الفترة ظهور زعيم شعبي يكرس حياته وجهوده لصالح الشعب ، ويقود الأمة المصرية على طريق الكفاح والنضال . وأصبحت الاحزاب والانجليز والقصر يهدمون مصالح الشعب، وهم كلهم فى الحقيقة يخافون من سيادة الشعب المصرى. فقال الميثاق: «ثم انتهى المطاف بهذه الاحزاب جميعا الى الحد الذى دفعها للارتماء فى أحضان القصر تارة ، وفى أحضان الاستعمار تارة أخرى . وفى الواقع كان القصر والاستعمار بحكم مصالحهما فى صف واحد ، وان بدت الخلافات السطحية بينهما فى بعض الظروف ، لكن الحقيقة الكبرى أن كليهما كان يقف فى الصف المعادى لمصالح الشعب ، والمضاد لاتجاه التقدم، ان سلطة الشعب كانت خطرا على أوضاعهما الدخيلة ، واتجاه التقدم كان محققا أن يجرفهما معا الى نفس المصير » .

اعتمد الانجليز على قواتهم الحربية الموجودة فى القناة ومدن مصر كلها للضغط السياسى على مصر ، والتدخل فى جميع الشئون الداخلية ، وتحويل رغبات الأمة المصرية وآمالها ، واستجابت الحكومات والقصر لهذا الضغط دائما ، وأصبح الانجليز أصحاب السلطة الحقيقية ، وبات الشعب المصرى يترقب الفرص ليكون هو مصدر السلطات ، وأن يتمتع بالديموقراطية الحقيقية ، وليس بالديموقراطية المزيفة ، ولكن هذه المظالم كلها أثارت مشاعر الشعب المصرى وهيأته لمرحلة جديدة من الكفاح .

صور الميثاق هذه الحقائق كلها تصويرا كاملا فقال: «ان الديموقراطية بالطريقة التي جرت بها ممارستها في مصر في تلك الفترة كانت ملهاة مهينة . ان الشعب لم يعد صاحب السلطة ، وانما أصبح الشعب أداة في يد السلطة أو بمعنى أصبح ضحية لها . ولم تعد أصوات الجماهير هي التي تقرر خط السير الوطني وانما أصبحت أصوات الجماهير تساق وفقا لارادة السلطات الحاكمة وأصدقائها . ولقد كان ذلك نتيجة طبيعية لاغفال الجانب الاجتماعي من أسباب ثورة الشعب سنة ١٩١٩ ، ان الذي يحتكر رزق الفلاحين والعمال ويسيطر عليه ، يقدر بالتبعية أن يحتكر أصواتهم وأن يسيطر عليهم ويملي ارادته ، ان حرية رغيف الخبز ضمان لابد منه لحرية تذكرة الانتخابات . ان هذه الأزمة العنيفة فتحت أمام سلطات الأسرة المالكة أبوابا جاهد النضال الشعبي طويلا لكي يسدها » .

القصر يناهض الكفاح الشعبي :

ان أسرة محمد علي هي ربيبة الاستعمار ، وأداته الأولى ، وطريقه الى احتلال مصر . وقد عمل القصر على مناهضة الروح الوطنية والكفاح الشعبي ، وتدخل في شئون الحكم ، وولى الوزارات الضعيفة الموالية له ، وأصبحت هذه الوزارات ألعوبة في يده ، تعمل لصالحه ولصالح الانجليز ، وكثر تغيير هذه الوزارات مما لم يوفر أسباب استقرار الأداة الحكومية وجعلها غير صالحة لتحقيق رخاء ومطالب وآمال الشعب .

صور الميثاق موقف القصر من كل من الانجليز ومن الشعب تصويرا دقيقا فقال : « لكن انتكاسة الثورة شجعت الأسرة المالكة على تجاوز كل الحدود . وفي جو الأزمة لم يعد الدستور الذي رضيت به القيادات الثورية منحة من الدخيل الا مجرد قصاصة ورق ، بهتت عليها الحقوق الشكلية التي كانت قد ألقيت للشعب ليتشغل بها ويتلهى .

ولقد استسلمت القيادات التي تصدت للنضال الشعبي أمام سلطة القصر المتزايدة

بسبب ضعفها المتزايد . وركمت جميعها تلتمس الرضى الذى يصل الى مقاعد الحكم. وتخلت بذلك عن الشعب وأهدرت كل قيمة له ، ناسية بذلك أنها تتخلى طواعية عن مصدر قوتها الوحيد ومنبعها الأصلى .

وانتهى الأمر الى حد أنهم هانوا على الشيطان الذين باعوه أرواحهم ، فوصل بهم الهوان الى حد أن تغيير الوزارات أصبح له ثمن معلوم يدفع للقصر ولوسطائه.

ان القيادات الوطنية حين تخلع جذورها من التربة الشعبية ، تحكم على نفسها بالذبول ، وبالموت .ولسوف يبقى الوطن زمانا طويلا يشعر فى حلقه بمرارة الذل الذى أحسه فى هذه الفترة المتأزمة من جراء استهانة الاستعمار بنضاله استهانة فاقت كل حدود للاحتمال البشرى » .

موقف الانجليز من آمال الشعب خلال الحرب :

لم يكد يمضى على عقد معاهدة ١٩٣٦ ثلاث سنوات حتى قامت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ ،وأصبحت هذه المعاهدة الزائفة سندا يستند عليه الانجليز فى السيطرة التامة على مصر . فقد طلبت السفارة البريطانية من الحكومة البريطانية تنفيذا لمواد المعاهدة اعلان الأحكام العرفية ووضع الرقابة على المطبوعات ، فكان لها ما أرادت . كما أرغمت انجلترا الحكومة المصرية على قطع علاقات مصر السياسية مع ألمانيا وحلفائها .

واستغلت انجلترا شروط معاهدة ١٩٣٦ أسوأ استغلال ، فاحتلت القوات البريطانية معظم المدن المصرية، وسيطروا على محصولاتها الزراعية وحرموا الشعب من أقواته الضرورية ، فارتفعت الأسعار ، وقلت المواد الغذائية .

تقدمت الهيئة الوفدية ، وكانت حينئذ بعيدة عن الحكم ، الى السفارة البريطانية بمذكرة فى أبريل سنة ١٩٤٠ ، تطلب فيها من الحكومة البريطانية أن تتعهد بسحب قواتها من الأراضى المصرية عند انتهاء الحرب ، وكان رد البريطانيين على ذلك أن قرارات الوفد انما هى « محاولة مقصودة للعب دور فى السياسية الداخلية » .

وخلال الحرب العالمية الثانية أعلنت عهود ومواثيق دولية كان لها أثر فى نشاط الحركة الوطنية وازدياد الوعى القومى فى مصر ، اذ رأت الأمة فى هذه العهود والمواثيق حججا جديدة لمطالبها وسندا دوليا لقضيتها . وأهم هذه العهود تصريح الرئيس روزفلت الأمريكى فى يوليةسنة ١٩٤٠عن الحريات الأربع ، وهى حرية القول ، والرأى ، وحرية العقيدة ، وحرية التحرر من البؤس والحرية التى تنتج عن التحرر من الخوف . ثم صدر ميثاق الأطلنطى الذى وقعه روزفلت وتشرشل فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٤١ وأعلنا فيه أنهما يريدان ألا يقع أى تبدل اقليمى يخالف رغبة الشعوب صاحبة الشأن ، وأنهما يحترمان حق جميع الشعوب فى اختيار شكل الحكومات التى تدير شئونها وأنهما يرغبان فى أن تسترد الأمم المغلوبة على أمرها حقوقها وحكوماتها الحرة ، فكان ذلك حجة للقضية الوطنية .

وانتهز زعماء الأحزاب المعارضة فى مصر فرصة اجتماع روزفلت وتشرشل وشيانج كايشيك زعيم جمهورية الصين الوطنية فى مؤتمر بالقاهرة للتباحث فى شئونهم وقدموا مذكرة لهم طالبوا فيها برفع القيود التى أوجدتها معاهدة سنة ١٩٣٦ والتى جاءت نتيجة الظروف الدولية ، وطالبوا بانسحاب القوات الأجنبية عن مصر بعد انتهاء الحرب العالمية ، والاعتراف بالاستقلال التام لمصر ، وبالروابط التى تربط مصر بالسودان مما تجعلهما وحدة غير منفصلة، وقد منعت وزارة الوفد التى كانت فى الحكم آنذاك نشر هذه المذكرة أو الاشارة اليها فى الصحف .

وقد جاءت هذه الوزارة الوفدية على أسنة حراب الانجليز فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ، فقد استخدم الانجليز قوتهم العسكرية من أجل تعيين وزارة وفدية تخدم مصالحهم السياسية والعسكرية .

حادث ٤ فبراير :

لم يجد الانجليز أمامهم بعد هزيمتهم أمام روميل وتأكدهم من كراهية المصريين لهم الا أن يقدموا على عمل يختمون به اقامتهم الطويلة بمصر قبل هربهم الى جنوب

أفريقيا كما كانوا يدبرون ، فني صباح يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ توجه اللورد كيلرن السفير البريطاني الى مكتب أحمد حسنين رئيس الديوان وسلمه انذارا هذا نصه :

« إذا لم أسمع قبل السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فان جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل مايترتب على ذلك من نتائج » .

والنص الانجليزى كان كما يلى :

Unless I hear by 6 p.m. that M. Nahas pasha has been asked to form a Cabinet, his Majesty King Faruk must accept the consequences.

وكان فاروق قد سبق له في يوم ٢/٣ أن اجتمع مع الزعماء للتشاور معهم بشأن تأليف وزارة قومية تضم جميع الأحزاب لتواجه الموقف الشائك المتخلف من استقالة وزارة حسين سرى وقيام المظاهرات المناوئة للانجليز وليحقق رغبة اللورد كيلرن التى أبداها قبل الانذار بتأليف وزارة برئاسة النحاس باشا أو أى وزارة أخرى يوافق عليها .

ثم عاد واجتمع بهم مرة أخرى يوم ٢/٤ وأثناء اجتماعهم أخبرهم أحمد حسنين بما دار بينه وبين السفير البريطاني وتلا عليهم الانذار وناشدهم بوطنيتهم أن يتداولوا الأمر وقرر الجميع تأليف وزارة قومية فيما عدا النحاس باشا الذى أصر على أن تكون الوزارة من حزب الوفد وازاء ذلك الرفض رأوا أن يردوا على الأقل على الانذار فكتبوا احتجاجا وسلموه الى أحمد حسنين لتوصيله الى السفير (١)

---

(١) وعدد الزعماء الذين كتبوا الاحتجاج سبعة عشر ، وهم :

شريف صبرى ، مصطفى النحاس ، على ماهر ، حسين سرى ، محمد محمود خليل ، أحمد ماهر ، أحمد زيور ، اسماعيل صدقى ، عبد الفتاح يحيى ، محمد حسين هيكل ، محمد توفيق رفعت ، على الشمسى ، حافظ عفيفى ، حافظ رمضان ، بهى الدين بركات ، أحمد محمد حسنين ، محمود جسن .

وكانت صيغته كما يلى :

« ان توجيه التبليغ البريطانى اعتداء على استقلال البلاد ومساس بمعاهدة الصداقة ولا يسع الملك أن يقبل مايمس استقلال البلاد ويخل بأحكام المعاهدة » .

وما من شك فى أن الانذار البريطانى بصيغته ولهجته كان عملا عدوانيا ضد استقلال البلاد — ذلك الاستقلال الذى كانت تؤكده معاهدة ١٩٣٦ ، وما من شك كذلك فى أنه وقد صدر بلهجة بعيدة كل البعد عن آداب الساسة كان مقصودا منه كل حرف فيه ، فالسفير الذى يوجه الى الملك أى ملك بأنه اذا لم يسمع قبل الساعة السادسة بأن النحاس قد دعى لتأليف الوزارة فان الملك يجب أن يتحمل مايترتب على ذلك من نتائج هذا الأمر المصحوب بالتهديد يعنى أن مصر مازالت محتلة ولم تكن المعاهدة التى طبل لها النحاس وهلل سوى حبرا على ورق .

وصدور الانذار ورفض النحاس تأليف وزارة قومية يحملان معنى خطيرا يفيد بأن الأخير كان على علم بمطلب الانجليز — والا فما الحكمة فى فرض شخص معين رئيسا للوزارة ، وما هو الشأن إذا ما رفض هذا الشخص قبولها . بل ان فرض الانجليز لشخص النحاس فيه مساس بسمعته واساءة لمركزه وكان الأولى بالنحاس أن يرفض هذا الأمر وأن يبادر هو وحده قبل غيره من الزعماء بالاحتجاج على تكليف الانجليز له بتأليف الوزارة ولكنه صمم بأن تكون الوزارة وفدية وظل على موقفه حتى بعد الانذار البريطانى وتحرج الموقف وآثر مساندة الانجليز ورضى بأن يتولى الحكم عن طريقهم لا بالطريق الذى رسمه الدستور . ولو أن النحاس رفض الانذار وقبل الوزارة القومية لمرت العاصفة ولا ارتدت الضربة التى وجهوها الى نحورهم . ولكنه كان قد اتفق معهم على تنفيذ مايريدون فكيف يتراجع . وعندما تسلم السفير البريطانى الاحتجاج الموقع عليه من الزعماء المصريين ألقى به جانبا ثم التفت لأحمد حسنين بعد أن رأى توقيع النحاس على الاحتجاج وسأله عما اذ كان متأكدا من أن هذا التوقيع هو توقيع النحاس حقيقة

فلما رد أحمد حسنين بالايجاب ، قال السفير ما معناه أنه أصدر أمرا والأمر لا يكون الرد عليه بالاحتجاج وأنه سيقابل الملك الساعة التاسعة من مساء اليوم ليوضح الأمور كما بينها فى انذاره ، ومعنى ذلك أن رغبة الانجليز يجب أن تنفذ كاملة والا تحمل الملك نتيجة مايحدث .

وبعد أن تجاوزت الساعة الثامنة بعشرين دقيقة حاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين من جميع جهاته ووجهت مدافعها الى البهو الذى يقيم فيه الملك السابق وكان وقتئذ مجتمعا مع الزعماء — ومنع الجنود البريطانيون دخول أو خروج أحد من القصر بعد أن جردوا الحرس من أسلحتهم . وفى تمام الساعة التاسعة حضر السفير ومعه الجنرال استون القائد العام للقوات البريطانية ومعهما بعض الضباط الانجليز وكانوا يشهرون مسدساتهم فى وجوه من يقابلهم من رجال القصر .

ولما أراد أحد رجال القصر التوجه بهم الى احدى القاعات دفعه السفير قائلا : أنا أعرف طريقى .I know my way واتجه رأسا الى الغرفة التى كان فيها الملك وسلمه ورقة ليوقعها ، وكانت وثيقة بتنازله عن العرش !! فتصفحها الملك جزعا فزعا وبسرعة التفت الى السفير وأجابه بأنه سينفذ أوامره — ودخل على الزعماء وكان قد اكتمل جمعهم وقال لهم « اعتبروا كل ماوقع اليوم وماسبق أن قررتموه كأن لم يكن. والتفت الى النحاس قائلا :« أكلفك يانحاس باشا بتشكيل الوزارة» أى أن تكون وزارة وفدية كما صمم عليها وكما أرادها الانجليز ! .

كان الغيظ يملأ نفوس الزعماء والأسى باد على وجوههم والحزن يرين عليهم لذا لم يتمالك أحمد ماهر أكثر الزعماء حماسة وجاهر النحاس بخطئه قائلا : « كنت أظن أن النحاس باشا وهو يدعى بأنه زعيم البلاد والرئيس الجليل وصاحب معاهدة الشرف والاستقلال أن يرفض تشكيل الوزارة . أما وقد قبلها فانى أعلن فى حضرة مليك البلاد بأن النحاس باشا يتولى الحكم الليلة مستندا الى أسنة الرماح الانجليزية» .

وهنا استشاط النحاس غضبا أو افتعل الغضب ، ورد قائلا بأنه ليس هو الذى

يستند الى أسنة الرماح — وانما غيره الذى يحتاج الى هذه الأسنة . . فتدخل صدقى باشا ووجه الكلام الى النحاس ساخرا — « أظن رفعتكم وصلتم الى هنا بعد انصراف الدبابات » — ويقصد أنه برىء من مسألة التدخل بالسلاح ، أو لعله كان يعنى علمه بتهديد الانجليز ، وأنه حضر لتلق الأمر بتشكيل الوزارة حسب اتفاقه مع السفير وترك للنحاس تفسير أى هذين السؤالين حسب هواه وكلاهما مر . وعلى أى حال كان صدقى باشا يقول الجملة التى تحمل أكثر من معنى . وقد هم غيره من الزعماء بالحديث لينفس عما فى صدره ولكن الملك أوقف المناقشة وقال للنحاس عليك أن تتوجه للسفير وتخبره بأنك قبلت تأليف الوزارة — فأجاب بالايجاب . وواقع الأمر أن موقف النحاس من الأزمة كان موقفا غير سديد بل غير وطنى على الاطلاق لأنه موقف لايثير الشكوك فحسب وانما يدين النحاس بوصمه بما لا نرضاه فقد باع بلده باتفاقه مع الانجليز أو على الأقل بموافقتهم على تحقيق رغبتهم ضد ارادة البلاد وبقوة السلاح . ولم يكن فى المقدور أن يشكل النحاس الوزارة قبل أن يلغى الانذار والا وصمت وزارته رسميا بممالأتها للانجليز وبأنه قبل الوزارة فى ظل التهديد وعلى أسنة الرماح كما قال أحمد ماهر وكان يتعين القيام باجراء يمحى أثر الانذار فاتفق مع السفير على أن يتبادل واياه خطابين — يحتج النحاس فى أولها على الانذار البريطانى وبأنه لايمكن أن يقبل الوزارة الا بالطريق الدستورى لا عن طريق الانجليز أو السفير البريطانى . وعلى السفير أن يرد بما يؤيد هذا المعنى وفيما يلى صيغة الخطابين اللذين حررا فى يوم واحد وهو يوم ١٩٤٢/٢/٢٥ :

خطاب النحاس

ياصاحب السعادة :

لقد كلفت بمهمة تأليف الوزارة وقبلت هذا التكليف الذى صدر من جلالة الملك بما له من الحقوق الدستورية ، ولكن مفهوما أن الأساس الذى قبلت عليه هذه

المهمة هو أن لا المعاهدة البريطانية المصرية ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة يسمحان للحليفة بالتدخل فى شئون مصر الداخلية ، وبخاصة فى تأليف الوزارات أو تغييرها .

وانى آمل ياصاحب السعادة أن تتفضلوا بتأييد ما فى خطابى هذا من المعانى وبذلك تتوطد صلاة المودة والاحترام المتبادلين وفقا لنصوص المعاهدة .

وتفضلوا ياصاحب السعادة بقبول فائق الاحترام .

خطاب السفير

وأجاب السفير :

ياصاحب المقام الرفيع :

لى الشرف أن أؤيد وجهة النظر التى عبر عنها خطاب رفعتكم المرسل منكم بتاريخ اليوم وانى أوكد لرفعتكم أن سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق التعاون باخلاص مع حكومة مصر كدولة مستقلة وحليفة فى تنفيذ المعاهدة البريطانية المصرية من غير أى تدخل منها فى شئون مصر الداخلية ولا فى تأليف الحكومات أو تغييرها .

وانى لأنتهز هذه الفرصة لأؤكد لرفعتكم فائق احترامى .

هذه هى المهزلة التى أراد النحاس أن يختم بها مأساة الانذار البريطانى — وكأن هذين الكتابين قد محوا كل أثر من آثار اعتداء الانجليز — أو صححا الوضع الدستورى لحكومة النحاس من أنه يتولى الوزارة طبقا للأوضاع الدستورية لا استنادا الى أسنة الرماح الانجليزية .

وقد صدر هذان الخطابان وتبودلا فى يوم واحد هو يوم ٥ فبراير سنة ١٩٤٢ وعلى أثرهما ألف النحاس الوزارة وذهب السفير الى النحاس فى نفس اليوم ليهنئه

فهتف أعضاء الوفد الذين كانوا مجتمعين وقتئذ بحياة اللورد كيلرن وبحياة بريطانيا العظمى وحملوه على الأعناق وخرجوا به الى شرفة مجلس الوزراء وأطلوا على الشعب المنتظر — الذى رأى عجبا — قائد الشعب وعدوه فى تآلف وعناق . فكان ذلك مثار سخطه .

موقف الشعب المصرى من الانجليز اثناء الحرب :

أعلنت الحكومة المصرية بأمر من الانجليز الأحكام العرفية ، وكمت أفواه الوطنيين ، وقيدت الحريات ،واعتقلت الآلاف ، ولكن هذا الارهاب لم يقض على روح الكفاح الشعبى ، ولم يخمد الروح الوطنية المشتعلة فى قلب كل مصرى وطنى مخلص . وظهر هذا الكفاح فى صور عديدة ، علنية أحيانا وسرية أحيانا أخرى ، وقد أدرك الجميع فساد الحكومات المصرية ، والقصر الملكى ، وتحالفهم مع الانجليز . ضد مصالح الشعب وآماله .

لم ترهب القوات البريطانية الكثيرة العدد الشعب المصرى ، بل مضى على طريق الكفاح ، وبدأ الشعب ينظر الى عملاء الاستعمار فى مصر نظرة ازدراء واحتقار، وأصبح شباب الجيل الجديد هو أمل الشعب المرتقب .

صور الميثاق هذه الظروف ، وهذه الآمال ، فقال : « إن الشعب المصرى بدأ يتأهب لاستئناف دوره التاريخى حتى قبل أن تنتهى الحرب العالمية الثانية ، وقبل أن تنزاح الأشباح الكئيبة لدبابات الاحتلال عن مدنه الكبرى . ولقد عبر الشعب المصرى عن نفسه برفضه العنيد أن يشترك فى الحرب التى لم تكن فى نظره الا صراعا على المستعمرات والأسواق ، بين العنصرية النازية ، وبين الاستعمار البريطانى الفرنسى الذى سيجر على البشرية كلها ويلات لاحدود لها من القتل بالجملة والدمار الشامل » .

لقد رفض الشعب المصرى كل الشعارات التى رفعها المتحاربون أعلاما فوق رءوسهم ليخدعوا بها الشعب . وسحب الشعب المصرى كله البقايا الباقيةمن تأييده

للذين تعاونوا مع سلطة الاحتلال طمعا فى مكاسب السوق السوداء التى فرضتها الحرب وظلالها القاتمة .

وعمت الشباب المصرى موجة من السخط والغضب على كل الذين مدوا أيديهم للاحتلال ، وقبلوا وجوده ، ولقد ترددت فى مصر فى ذلك الوقت أصداء طلقات الرصاص ، وتجاوبت أصداء انفجارات القنابل ، وكثرت التنظيمات السرية بمختلف اتجاهاتها وأساليبها .

لم تكن تلك هى الثورة وانما كان ذلك هو التمهيد لها . كانت تلك هى مرحلة الشعب التى تمهد لاحتمالات الثورة ان الغضب مرحلة سلبية . ان الثورة عمل ايجابى يستهدف اقامة أوضاع جديدة . ان غضب الشعب المصرى الممهد للتغير بدأ يجاوز النطاق الفردى الى النطاق الجماهيرى » .

النسور يواصلون كفاحهم :

رأى الوطنيون أن يسرعوا فى الاتصال بالألمان بعد أن تأخروا مدة طويلة كانوا خلالها يتحينون الفرصة المناسبة وكلفت شعبة الطيران أحمد سعودى برسم تخطيط دقيق لجميع معسكرات الانجليز ومطاراتهم فى القاهرة والقنال والاسكندرية — وبعد مجهود كبير صورت جميع المواقع الهامة ، ثم وضعت خطة السفر واقترعوا على من يسافر ليتصل بالألمان فكان ذلك من حظ أحد الضباط فبكى أحمد سعودى لضياع ذلك منه ثم تكررت القرعة ثلاث مرات ارضاء له بعد طلبه ذلك فوقعت عليه أخيرا للقيام بهذه المهمة الخطيرة بعد أن تأخرت عن ميعادها سبعة شهور ، وكان أهم ما يعترض التشكيل هو اختيار الطائرة ولم يكن ذلك بالأمر اليسير . لأن مصر كانت فى حالة حرب والانجليز يهيمنون على مرافق البلاد ولم يكن يسمح لأية طائرة بالتحليق فى الجو الا بعد بحث وتدقيق وكان كل طيار مسئول عن طائرته وقائد السرب مسئول عمن هم تحت امرته .

وأخيرا وقع الاختيار على طائرة أحدهم ، وكانت تحمل رقم ٩٠٣٦ ماركة

جلاديتر وهي من السرب الخامس وملئت الطائرة بالليل بالبنزين ،واتفق الأعضاء مع صاحب الطائرة على أن يتأخر ١٥ دقيقة عن ميعاد العمل الرسمي في الصباح وهو يبدأ الساعة السادسة صباحا ليتيح الفرصة للطيار أحمد سعودي للخروج بها واستلم الآخير الحقيبة السوداء التي تحمل مواقع المعسكرات والمطارات الانجليزية والبيان الذى سبق أن كتبوه الى روميل خاصا باتفاقنا معهم ومساعدتنا لهم مقابل الحصول على الاستقلالوزوده بالتعليمات الخاصة عن كيفية الاتصال بهم عن طريق الراديو وأعطوه كذلك بعض الاسلحة الخفيفة وآلة ارسال واستقبال .

وفى الساعة السادسة من صباح يوم ١٩٤٢/٨/٧ اتجه سعودى الى الطائرةرقم ٩٠٣٦ ومعه الحقيبة السوداء التي تحمل السر الرهيب . وكان مجرد الاشتباه فيه كفيل بأن يسلم رقبته الى حبل المشنقة فضلا عن تشريد باقى الجماعة وسجنهم ووأد الحركة

وكانت التعليمات تقضى بأن يتجه سعودى بطائرته الى السلوم ، ولكن الألمان كانوا يعسكرون فى العلمين فى ذلك الوقت فرأى أن ينزل فى الضبعة ودار المحرك وارتفعت الطائرة وعيون الجماعة تتطلع اليها وكلها أمل ورجاء وهى تحلق فى الجو متجهة الى الصحراء .

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٩٤٢/٨/٧ أذيع بأن هناك طائرة مفقودة ، وانقلبت الدنيا رأسا على عقب وخرج سرب من الطائرات للبحث عن الطائرة ومسح منطقة القاهرة والصحراء المحيطة بها حتى الفيوم ولكن دون جدوى وهاج الانجليز وهددوا وطالبوا باجراء تحقيق لمحاكمة المسئولين ، وأمر أحمد حمدى سيف النصر وزير الحربية فى حكومة النحاس الجديدة بتشكيل مجلس عسكرى لمحاكمة المسئولين من الضباط .

الشهيد الاول

بعد سفر أحمد سعودى تنفس الوطنيون الصعداء وهدأت خواطرهم ولم تمكن محاكمة الضباط الثلاثة أعضاء التشكيل وتشريد باقى الضباطووضع الرقابة الشديدة

عليهم يساوى شيئا بجانب نجاحهم فى تهريب سعودى لأن هذه الخطوة كانت فى نظرهم فاصلة وعلى جانب من الأهمية ونقطة تحول كبير فى مستقبل الحركة والبلاد. فالتحالف بين الألمان والوطنيين لازم لكليهما ضد العدو المشترك تجمعهما مصالح مشتركة فالألمان يبغون هزيمة الانجليز ويحتاجون لمن يحمى ظهورهم والوطنيون يتطلعون الى الاستقلال والحرية .

ولم يكد يمضى يومان على سفر سعودى حتى قامت القوات الألمانية بضرب شديد ومركز على موقع المعسكرات والمطارات الانجليزية وكانت كما بينتها الوثائق والخرائط التى حملها سعودى فى حقيبته فتأكد الوطنيون بأن سعودى قد وصل ، ودليل هذا الضرب المنظم الذى قام به الألمان .ولكن الشك ساورهم عندما تأخر سعودى من الاتصال بهم كما اتفقوا معه . فاجتمع الضباط وقرروا ارسال صول وطنى آخر هو الصول محمد رضوان ليستطلع أخبار سعودى وليؤكد للالمان ماسبق واتفقوا عليه معهم . فسافر محمد رضوان بطائرة زودوها به الى الصحراء الغربية عن طريق واحة سيوه واتصل بالألمان وعرف منهم أن سعودى هبط بطائرته بجهة الضبعة التى كان الألمان قد لغموها ، فنسفت الطائرة وأصبح سعودى أول شهيد للتشكيل العسكرى . والعجيب أن سعودى كان له أثنا عشر أخا مات بعضهم فى حوادث متفرقة ، كما غرق اثنان فى مياه البحر بالاسكندرية حيث نشأت أسرته، وكان هو آخرهم ، وكأن الموت كان لهم جميعا بالمرصاد :

أما الصول محمد رضوان فظل مع الألمان يحارب بجانبهم حتى سافر معهم عندما انسحبت قوات المحور الى أوروبا وقبض عليه بعد هزيمة ألمانيا وحوكم أمام مجلس عسكرى .

وقد كانت الضربة شديدة على الوطنيين فقد خسروا وشردوا وفرضت الرقابة على جميع الضباط وكانت ترصد عليهم كل حركة،أما عزيز المصرى القائد الروحى للثورة فلم يكن حظه بأسعد من حظ الضباط .

فقد كان الانجليز يتوجسون منه خوفا ولا يطمئنون اليه لمبادئه الوطنية ولآرائه

التحررية التي كان يجاهر بها أمامهم ، وعندما شدد الألمان الضغط على الانجليز ولاحت بوادر هزيمتهم دعا الانجليز الى عقد اجتماع مشترك فحضره من الجانب المصرى صالح حرب وزير الحربية وقتئذ وعزيز المصرى بصفته رئيس هيئة أركان الجيش ومن الجانب البريطانى الجنرال ولسون والسير مايلز لامبسون سفير بريطانيا وأقترح الجانب البريطانى انسحاب الجيش المصرى وكان عبارة عن فرقتين الى سيوة لمواجهة قوات المحور اذا لزم الأمر ويترك الساحل بأكمله للقوات البريطانية مع ترك جميع الأسلحة والعتاد التى كانت بالجيش المصرى للقوات البريطانية ، فرفض عزيز المصرى الموافقة على نقل الجيش المصرى الى سيوة وبدون سلاح لأن ذلك على مافيه من امتهان ، فانه يعرضه للابادة فى حالة هجوم الألمان، لأن القوات المصرية ستكون معزولة تماما، وعندما وجد أن الانجليز مصممون على رأيهم تقدم باستقالته للوزارة ، ولكن على ماهر أعطاه أجازة طويلة والى أجل غير مسمى، وعندما سمع الضباط ذلك اتفقوا على عدم تسليم أسلحتهم وثاروا وعقدوا العزم على احتلال بعض المواقع الاستراتيجية الهامة ومقاومة الانجليز وكان من بين هذه القوات بعض أعضاء التشكيل فى ذلك الوقت ولكن الانجليز عادوا وتساهلوا وسمحوا للجيش المصرى بالعودة الى القاهرة ومعه أسلحته وعتاده ، واعتبر الوطنيون أن رضوخ الانجليز انتصار لهم .

وظل عزيز المصرى بعيدا عن الجيش حتى قرر الهرب وما استتبع ذلك من فشل وسقوط الطائرة ، واعتقاله ومحاكمته مع زميليه حتى أفرجت عنهم حكومة النحاس فى مارس سنة ١٩٤٢ كما ذكرنا من قبل .

ولم يستمر هذا الأفراج طويلا اذ أعيد اعتقال عزيز المصرى فى ١٢/٨/١٩٤٨ بعد أن قبض على أنور السادات وحسن عزت لأن الانجليز عرفوا أن لعزيز المصرى ضلعا فى الحوادث التى كانت تحدث فى تلك الأيام كما كانت الأصابع تشير اليه بسبب الظاهره الجديدة التى ظهرت بين ضباط الجيش .

ولم تكن هذه الضربات التى توالت على الوطنيين فى هذه الفترة الوجيزة

بالشيء اليسير فقد كانت كفيلة بأن تؤدى بأى حركة وتخمدها الى الأبد ولكن الوطنيين لم يفقدوا الأمل ولم يزيدهم الفشل الا اصرارا ، حتى فى أحرج أوقاتهم لم ينسوا مصر ولا الفكرة التى آمنوا بها .

الشعب يرفض الاشتراك فى الحرب :

عندما تولى أحمد ماهر الوزارة فى ١٩٤٤/١٠/٨ كانت فكرة اعلان الحرب على المانيا وايطاليا واليابان لاتزال تراوده وهى الفكرة التى نادى بها سنة ١٩٤٠ ورفضها البرلمان وكان المصريون لايريدون اعلان الحرب لا عن خوف أو رهبة وانما لكراهيتهم للانجليز ولكن أحمد ماهر أعد فعلا بيانا بهذا المعنى ليلقيه فى البرلمان .

وفى مساء السبت ١٩٤٥/٢/٢٤ ألقى أحمد ماهر بيان اعلان الحرب على المانيا واليابان بجانب انجلترا ، وفى أثناء اجتيازه للبهو الفرعونى الذى يفصل مجلس النواب عن مجلس الشيوخ تقدم اليه محمود العيسوى وأطلق عليه الرصاص فسقط قتيلا .

ومحمود العيسوى كان ضمن الشعبة المدنية التى ألفت لمقاومة الانجليز وأذنابهم وقد ولد فى قرية « بنى غربانة » التابعة لمركز قويسنا بمديرية المنوفية ونال اجازة الحقوق سنة ١٩٣٩ ، وحصل على دبلوم القانون الخاص سنة ١٩٤٠ ، ودبلوم القانون العام سنة ١٩٤١ بتفوق ، وأعد رسالته لنيل الدكتوراه فى الحقوق موضوعها مركز مصر الدولى بعد ابرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وكان من أشد المعارضين لها الناقين على موقعيها ، وعمل بعد تخرجه بمكتب الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى — ولم يكن يباشر القضايا أو الدعاوى التى تتداول بالمكتب وانما تفرغ تفرغا تاما الى كل مايخص مصر من مشا كل سواء أ كانت داخلية أم خارجية . وكان رحمه الله مثال الخلق الكريم المتواضع المخلص — يفيض علما ويتوقد ذكاء — جرىء فى الحق ، حدث عندما قبل حافظ رمضان رئيس الحزب

الوطنى الاشتراك فى الوزارة فى ١٩٤٠/٦/٢٨ وكانت وزارة ائتلافية برياسة حسن صبرى أن ثار شباب الحزب لأن مبادءه كانت تحرم على أعضائه الاشتراك فى الحكم مادام الاستعمار جاثما على أرض الوطن ، فذهب اليه محمود العيسوى مع بعض الشباب ليسألوه : كيف خرج على مبادىء الحزب وقبل الوزارة ، فلم يجب بما يقنعهم واعتذر لهم بمرضه . وكان يلازم فراشه فعلا ، فما كان من محمود العيسوى الا أن قال له : « جئنا اليك لنقول لك انك خرجت على مبادىء الحزب ، وان جهادك القديم قد دنسته بدخولك الوزارة فعليك أن تستقيل — وكان أولى بك أن تعتذر لهم بمرضك خير من اعتذارك لنا الذى نراه تهربا من الاجابة !! ثم انسحب وزملاءه » .

ومن دلائل جرأته أنه كان أكثر أعضاء الجماعة السرية نشاطا فى توزيع المنشورات التى كانت تطبع فى منزل واحد منهم بالدقى . وحدث فى أواخر سنة ١٩٣٩ أن تسلم دفعة لتوزيعها بأنحاء متفرقة بالقاهرة فظل يقوم بالتوزيع الى ماقبل الفجر بقليل ، وكانت الأماكن التى اختارها أخطر الأماكن ، ومنها رياسة مجلس الوزراء والسفارة البريطانية ووزارة الحربية وغيرها وعندما أوشك على الانتهاء من توزيع هذه المنشورات قبض عليه وسجن ، وعلى الرغم مما لاقاه من عنت وتعذيب فانه ظل صامتا ولم يفتح فمه .

وعندما قبض على محمود العيسوى بعد مقتل أحمد ماهر كان كعادته رابط الجأش صامتا ولم تنجح وسائل التعذيب القاسية التى قام بها البوليس السياسى ومنها اقتلاع أظافره ، ولم يستمع الى الوعد الذى منوه به بأن يعطوا أهله ١٠ آلاف جنيه إذا اعترف على شركائه . ولكنه تحصن بالايمان والعقيدة وأسلم أمره الى الله الذى اليه مرد كل الأمور . ولما أعيت الحيل البوليس السياسى قدموه الى المحاكمة ، وكان فى محاكمته مثلا آخر فى الشجاعة وهدوء الأعصاب والإيمان العميق .

وبعد أن قتل أحمد ماهر أسندت الوزارة الى محمود فهمى النقراشى يوم ١٩٤٥/٢/٢٤ — وكان النقراشى باشا يحضر التحقيق كما كان يستدعى محمود العيسوى الى مكتبه أحيانا أخرى لعله يحصل منه على اعتراف يطمئن فؤاده .

ولهذا طلب المتهم من المحكمة فى أحدى الجلسات استدعاء رئيس الحكومة لسماع أقواله كشاهد نفى . وذلك لثلاثة أسباب : « أولها أن دولته يعلم أن الحرب كانت ستعلن هجومية وترسل قوات مصرية الى الشرق الأقصى وأوروبا وأن هذا الوضع قد تغير بعد ارتكاب الحادث .

وثانيهما أن اعلان الحرب كان بناء على تدخل الانجليز وكان أحمد ماهر والنقراشى عند السفير البريطانى يوم الحادث مما يدل على أن هناك تدخلا من الانجليز فى شئون مصر الداخلية .

والسبب الثالث — أن النقراشى باشا قال لى شخصيا أن الحكم فى هذه القضية سيكون رادعا . وقال المتهم ولهذا أصمم على استدعاء رئيس الحكومة لسماع شهادته كما أطلب الشهادة كذلك مصطفى النحاس وحافظ رمضان » .

وعارضت المحكمة هذا الطلب وكانت مشكلة برياسة محمود منصور مما حدا بالأستاذ على بدوى عميد كلية الحقوق والأستاذ السابق للمتهم ومحاميه الى طلب التنحى عن الدفاع وقال للمحكمة :

« انى رجل لم احترف السياسة ولم أخض غمارها ، ولكننى أنظر الى الأمانة التى فى عنق وأخشى أن يطاردنى ضميرى إذا لم يعط للدفاع حرية مطلقة ومهما تكن النتائج فانى لن أسمح لنفسى بتسليم عنق المتهم الى حبل المشنقة قبل أن تستوفى جميع وسائل الدفاع » .

ثم احتج على ماجاء فى مرافعة الاتهام وكان يمثله عبد الرحمن الطوير ، عندما قال : « وقضية اليوم هى قضية الشهيد والبغيض — أما الشهيد فهو أحمد ماهر ، وأما البغيض فهو هذا الشقى الماثل أمامكم » .

« وأستغفر الله أن أذكر اسميهما معا . غير أن التاريخ سيفرق بين الاسمين فيرفع اسم أحمد ماهر الى السماء وسيضع التاريخ هذا المعتدى القاتل يوم ولد ويوم يموت بين المجرمين الآثمين » .

فرد عليه الأستاذ على بدوى منفعلا (لسنا هنا فى مقام تقدير الفضائل الشخصية لكل واحد من الناس ولا لبيان العيوب الشخصية ولسنا أمام قضية تعيس وشهيد أو شقى وسعيد ، انما نحن أمام قضية تتعلق بأمر خطير — قضية آمن بها المتهم واذا كان أحمد ماهر صاحب رسالة فان المتهم اعتقد وآمن بفكرة تسلطت عليه واعتقد المتهم وأعتقد أنا أيضا معه أن مبعثه وحى الانجليز) .

وقد استجابت المحكمة لطلب الدفاع بشأن سماع الشهود .

وشهد النقراشى ببعض ما أثاره المتهم فاعترف بأنه استدعاه الى مكتبه أكثر من مرة وان أنكر ذهابه مع أحمد ماهر الى السفارة البريطانية كما سمعت المحكمة شهادة كل من على ماهر ومكرم عبيد اللذان قررا بأن أحمد ماهر قابل السفير فى بيته كما قرر المتهم — كما شهد حافظ رمضان بأنه استقال من الوزارة عندما علم بمسألة اعلان الحرب .

وأثناء شهادة الشهود شعر المتهم بأن المحكمة تهاجمه فثار وطلب الطعن بالتزوير فى محضر الجلسة كما طلب رد المحكمة لأنه لا يستطيع أن يطمئن الى الحكم الذى ستصدره دون ميل منها ، وانه لن يبدى أى دفاع أمامها . وإزاء ذلك أثبت الرئيس طلب الرد وأمر المتهم بكتابة أسباب الرد ، فلما طلب أجلا لكتابته رفضت المحكمة هذا الطلب وكلفته بكتابة الأسباب فورا وفى قفص الاتهام ، فطلب قلما وورقة وكتب أسباب الرد وهو فى القفص وبعد المداولة رفضت المحكمة الطلب .

وهنا وقف المتهم وقال : وأنا أعفى أستاذى على بك من المرافعة ، ولكن الأستاذ على بدوى وقف بجانب تلميذه ولم يخذله وظل يدافع عنه طوال المحاكمة .

وبجلسة ١٩٤٥/٧/٢٨ قضت المحكمة باعدام محمود العيسوى شنقا وفى الصباح الباكر من يوم ١٩٤٥/٩/١٨ اقتيد محمود العيسوى الى المشنقة فطلب أن يسمح له بالصلاة ، فتوضأ وصلى صلاة الصبح ، وكما تقدم ابراهيم الوردانى الى المشنقة بشجاعة فقد توجه محمود العيسوى بقلب ثابت وبايمان عميق الى حيث كان يتدلى

حبل المشنقة وقبل أن توضع الطاقية السوداء على رأسه قال كلمته المشهورة :

« أنا لا يهمني الا حكم التاريخ . وأرجو الصحفيين ألا يشوهوا سمعتي كما شوهوا القضية ، وكلمتي لهم ألا تفتروا على ميت » . وذهبت روح الشهيد الوطني محمود العيسوى الى بارئها .

الشعب يوالى كفاحه :

مهما قيل فى مقتل أحمد ماهر — فان قاتله رأى أن الزعماء يلعبون بالشعب ويلهون به وكل همهم بريق الحكم ومتعة السلطان وحيمهم دون استثناء أذناب الاستعمار ومطاياه ومنفذى أغراضه وكان يتردد بعد مقتل أحمد ماهر سؤال وجيه لماذا لم توجه هذه الضربة لصانعى يوم ٤ فبراير وهم الذين طعنوا الوطن فى الصميم وأذلوا مصر فى شخص الملك وكان الملك فى ذلك الوقت لم ينحدر الى ما انحدر اليه بعد ذلك من خيانة وفساد واستهتار .

والحقيقة أنه لم يفت على التشكيلات الثورية فى مصر ضرورة الانتقام لهذا اليوم الأسود ولكن الظروف لم تكن تسمح وخاصة بعد القبض على بعض أعضاء التشكيل وفشل البعض الآخر من تنفيذ الخطط التى وضعوها .

وعندما هدأت الحالة بعض الشيء وضعت الخطة لاغتيال النحاس باشا بطل يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .وفى مساء يوم ٦/١٢/١٩٤٥ وقف ثلاثةمن الوطنيين بشارع رستم باشا ينتظرون قدوم النحاس أثناء توجهه الى النادى السعدى للاحتفال بعيد الهجرة وكان يستقل سيارة فؤاد سراج الدين ولما شوهدت السيارة هم أحد الثلاثة بالقاء قنبلة بدويةعلى العربة ولكن السائق شاهد الوطنيين الثلاثة يتحركون ورائه الأمرفما كان منه الا أن انحرف بسيارته وأسرع بها وكانت القنبلة قد ألقيت خلفها وسمع لها دوى هائل ولكن أحدا لم يصب بسوء لسرعة بديهة السائق وفطنته التى أنقذت النحاس من موت محقق .

وأما الوطنيون الثلاثة فقدتفرقوا كل فى ناحية الى حيث يقيمون وظل مرتكبو هذه الحادثة مجهولين ولم يستدل البوليس عليهم حتى وقع حادث الاغتيال الثانى

من سلسلة الاغتيالات التي وقعت في هذه الأيام .

العميل الاول للانجليز

وكان وراء حادثة ٤ فبراير صديق للانجليز ظل وراء الكواليس ولم يظهر على المسرح لاقبل ولا بعد الحادثة بل انه لم يشترك في الوزارة التي ألفها النحاس في ١٩٤٢/٢/٦ ولكن الشعب كان يعرفه ويعرف الدور الذي قام به ذلك العميل هو أمين عثمان الصديق الحميم للانجليز وسفير الوفد لديهم وكيف لايكون كذلك وهو الذي شرب التعاليم الانجليزية في مدارسهم وجامعاتهم واختلط بهم واتخذ من قادتهم وزعمائهم اصدقاء له وهو صاحب الجملة المشهورة بأن مصر وانجلترا متزوجان زواجا كاثوليكيا ، ثم تزوج منهم وأنشأ ناديا أسماه « رابطة النهضة » في شارع عدلى باشا يرمى الى دعم الصداقة بين المصريين والانجليز وتوطيد الصلات بين انجلترا ومصر وضم هذا النادي كثيرا من المصريين من ذوى الزلفى وأصحاب المصالح والمتملقين كما كان يذهب اليه السفير البريطاني ورجال السفارة وبعض الضباط الانجليز ولقد كان في انشاء هذه الرابطة وخاصة في ذلك الوقت تحد لشعور المصريين واستهتار لعقائدهم ومحاولة لقتل الروح الوطنية وافساد ذمم ونفوس الساسة والحكام من طالبي الحكم فلم يكن من بد أن يتجه اليه أنظار الوطنيين من الشباب وهكذا عزموا على ازاحته من طريقهم على أن يكون ذلك في النادي الذي أنشاه وفي مساء يوم ٥ يناير سنة ١٩٤٦ كمن ثلاثة من الوطنيين أمام النادي وفي تمام الساعة السادسة والنصف مساء أقبل أمين عثمان في عربة أجرة الى مقر النادي الذي كان يحج اليه كل يوم تقريبا وعندما بدأ يصعد درجات العمارة التي بها مقر الرابطة ركض أحدهم خلفه وناداه باسمه .

فلما توقف والتفت اليه أطلق عليه رصاص مسدسه اذ كان يحمل مسدسين ويخفي معه قنبلتين فأرداه قتيلا .

ثم هرب الثلاثة كل الى داره .

يصف أحدهم (١) شعوره فى هذا الوقت فيقول « لم يكن معظمنا ليكترث بما سيصيب أنفسنا فى عملية التدمير أو الخلاص التى نقوم بها ولكننا كنا نجد فى نوع من التفكير الصبيانى وكأن المشنقة أو السجن أهون من مقابلة أو مواجهة آبائنا الذين لم يكونوا يعرفون عنا شيئا — ولم نكن أشجع من غيرنا ولم نكن نقبل فكرة الموت بأسهل علينا من غيرنا ولم يكن الخروج الى العمليات يخلو من الخوف الطاغى . الذى يتحتم علينا أن نروضه ونتحكم فيه ولكن ربما كان معظمنا أكثر احساسا بآلام الغير واستجابة لها واستيعابا لبؤس شعبنا كله » .

ولم يقتصر تكوين الجمعيات السرية على القاهرة وانما كانت هناك جمعيات أخرى تكونت فى الاسكندرية ففى أثناء نظر قضية مقتل أمين عثمان انتفضت الاسكندرية وتكونت بها جماعة من الطلبة تعاهدوا فيما بينهم على مقاومة الانجليز وبموارده‍م الضئيلة اشتروا بعض القنابل الايطالية وبعض المسدسات من مخلفات الجيش التى كانت ترد مع التجار من الصحراء الغربية وعندما توفر لديهم السلاح هاجموا مواقع الانجليز وتجمعاتهم وارتكبوا أربع حوادث هامة كبدت الانجليز خسائر جسيمة فى الأرواح حتى بلغ عدد القتلى والمصابين منهم ١٣٨ شخصا وهذه الحوادث الهامة حسب ترتيب وقوعها هى حادثة الأنفوشى، وحادثة الشلالات وحادثة اسحاق نديم وأخيرا حادثة النادى البريطانى وظلت جميع هذه الحوادث لا يعرف مرتكبوها وكان لها دوى كبير فى مدينة الاسكندرية وسائر البلاد حتى أصبحت حديث الناس فى كل مكان الى أن وقع أسوأ حادث خيانة فى تاريخ التشكيلات الوطنية ، ذلك أن أخ أحد الوطنيين من أعضاء الجمعية وابن عم آخر تطوع بافشاء سرهم طمعا فى الحصول على مكافأة مالية كان البوليس قد وعد بها لمن يدلى بمعلومات تؤدى الى القبض على الجناة . وتفاصيل المأساة أن شقيق فاروق كامل وكان يدعى محسن كامل وهو فى الوقت نفسه ابن عم عبد الرحمن موسى وصديق باقى أعضاء الجمعية اتصل برجال البوليس وأخبرهم أنه يعلم سر الحوادث ومرتكبيها فرسموا له طريقة القبض عليهم وتتلخص فى أن يرسلوا لهم أحد التجار ليتفاوض معهم لشراء بعض الأسلحة حتى

---

(١) من كتاب الكفاح السرى لوسيم خالد .

يتمكنوا من معرفة المكان الذى يختبئون فيه ، واستحضر البوليس من كان يدعى اسماعيل أحمد حسين باعتباره المشترى المزعوم وتوجه محسن كامل ورجال البوليس الى منزل عبد القادر محمود عامر الذى أحضر له ثلاث مسدسات من حجرة نومه ، وعندئذ هاجم البوليس المنزل وضبط به بعض الأسلحة والقنابل ثم قبض على باقى المتهمين، واستعمل البوليس معهم القسوة والتعذيب وقد بين هذه الأساليب أحد المحامين فى مرافعته فقال فيها (انى أدافع ببطلان الاعترافات التى أدلى بها المتهمون لأنها أخذت بطريق الاكراه وأنها جاءت نتيجة التعذيب بعد ارهاق أعصاب المتهمين وأنها كانت تؤخذ منهم فى منتصف الليل وكانوا يشربون الماء ممزوجا ببول الخيول ويحرمون من الطعام أياما) .

وفى أثناء نظر القضية نجح ثلاثة من المتهمين فى خلع نافذة غرفة السجن بالحدراء وهربوا وهم : عبد القادر عامر ، وعبد الرحمن قرشى ، ومصطفى الدفراوى ، وجميعهم من الطلبة وقد صدر عليهم الحكم غيابيا بحبس الأولين عشر سنوات والأخير خمس سنوات فى ١٩٤٧/٦/١٠ ، وهكذا كانت المادة ووسائل الاغراء التى اتبعها البوليس وضعف أخلاق الخائن محسن كامل سببا فى القضاء على الحركة التى قامت بالاسكندرية. وجعلت الأخ يناصب أخاه العداء — بل دفعته الى أن يسلمه ومن معه الى السجن لقمة سائغة دون وازع أو ضمير وكان المحامون وهيئة المحكمة على السواء يستنكرون موقف محسن كامل . وقال أحدهم فى مرافعته : « تصوروا معى كيف قضى محسن كامل مع أخيه ليلة الجمعه يباحثه ويلاطفه وهو ينوى فى الصباح أن يسلم عنقه للجلاد » فما كان من رئيس المحكمة الا أن أجابه ساخرا وكله أسى، هناك مثل آخر وهى مأساة قابيل وهابيل .

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ صدر القانون رقم ٢٤١ لسنة ١٩٥٢ بالعفو الشامل عن الجرائم التى ارتكبت بسبب أو بغرض سياسى وبذلك كشف الوطنيون الهاربون عن أنفسهم وخرجوا من أماكنهم التى كانوا يختفون بها وجدير بالذكر أنهم كانوا قد توجهوا الى القنال بعد الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واشتركوا فى عمليات المقاومة.

الباب الخامس

الكفاح الشعبي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

١ ــ الحركة الوطنية بعد نهاية الحرب العالمية .

٢ ــ كفاح الشعب المصرى من أجل فلسطين العربية .

٣ ــ مأساة شعب وخيانة ملك .

١ ـــ الحركة الوطنية بعد نهاية الحرب العالمية

عودة الكفاح الشعبي :

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أعلنت الحكومة المصرية سنة ١٩٤٥ انتهاء الرقابة على الصحف والمطبوعات ، والغاء الأحكام العرفية . وظهرت بين أبناء الشعب المصرى رغبة تحقيق الآمال الوطنية ، وألف رئيس وزارة مصر هيئة أطلق عليها اسم (الهيئة السياسية) تتألف من بعض زعماء الأحزاب والمستقلين ، لتكون هيئة استشارية للحكومة . وأصدرت هذه الهيئة بيانا عبرت فيه عن مطالب الشعب فى جلاء القوات البريطانية ووحدة مصر والسودان ، وطالبت باتخاذ الوسائل لمفاوضة انجلترا على أساس هذه المبادىء والمطالب . وأقر مجلس وزراء مصر هذا البيان وطلبت الوزارة من الحكومة البريطانية التفاوض لاعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦ .

ولم تستجب الحكومة البريطانية لطلب حكومة مصر ، وأصرت على تنفيذ شروط معاهدة سنة ١٩٣٦ ، مما أثار مشاعر الشعب المصرى ، فعمت المظاهرات القاهرة وبعض المدن ، ولكن الحكومة المصرية للأسف فضت هذه المظاهرات بالعنف ، وسقط عدد من الشهداء ، مما جر السخط على وزارة النقراشى فاضطر الى الاستقالة ، وخلفه اسماعيل صدقى .

وتوالى قيام المظاهرات فى الأيام الأولى من حكم وزارة اسماعيل صدقى ، وتصدى الجنود البريطانيون لهذه المظاهرات الوطنية ، وسقط عدد من المصريين قتلى ، وكان من المنتظر أن تؤدى هذه الحوادث الدامية الى توحيد الصفوف ، كما حدث سنة ١٩٣٥ ، وسعى الشباب سنة ١٩٤٦ كما سعى أسلافهم سنة ١٩٣٥ فى التقريب بين الأحزاب وتوحيد جبهة المقاومة الوطنية لكنهم أخفقوا بسبب أنانية الأحزاب .

كفر شباب مصر بهؤلاء الزعماء الحزبيين ورأوا أن يعتمدوا على أنفسهم فى تحقيق المطالب الوطنية ، واجلاء القوات البريطانية عن الأراضى المصرية ، وأدركوا أن أقوال وأفعال هؤلاء الزعماء ماهى الا تسكينا لخواطر الشعب ، وتخديرا لثورته الجامعة ، بينما هم فى الحقيقة يمالئون القصر ويخشون الانجليز ، ليحتفظوا بكراسى الحكم ، وهم فى كل ذلك يقسمون الأسلاب ومغانم الحكم بينهم بالعدل والقسطاس .

كفاح شباب الجامعة :

كانت مظاهرات الطلبة قد قامت تأييدا للوزارة فى طلبها بشأن اعادة النظر فى معاهدة سنة ١٩٣٦ عقب الحرب العالمية الثانية ، وجاء الرد بأن أسس المعاهدة لايجوز تغييرها فى الوقت الحالى .ويرى الانجليز عوضا عن ذلك البحث فى وسائل دعم التعاون الوثيق بين الدولتين .

وقد أرسلت الحكومة البريطانية ردها السابق بمذكرة الى الحكومة المصرية فى ١٩٤٦/١/٢٦ وعندما علم طلبة الجامعة بذلك ورأوا عزم الانجليز فى عدم تحقيق مطالب البلاد غضبوا وثاروا وحددوا يوم ٩ من فبراير سنة ١٩٤٦ ميعادا للاجتماع لبحث الموقف واتخاذ مايرونه من قرارات ، وفى صباح هذا اليوم اجتمع أكثر من خمسة آلاف طالب وتداولوا الرأى وأصدروا البيان التالى : « وهو موجه الى الملك » .

مولانا صاحب الجلالة :

يود الألوف من طلبة الجامعة المؤتمرين فى الحرم الجامعى صباح يوم ١٩٤٦/٢/٩ لبحث الموقف الحاضر أن يرفعوا الى مقام جلالتكم السامى ما استقر عليه رأيهم الثابت وما انتهى اليه عزمهم الأكيد . فقد أعلن طلبة الجامعة عند ابتداء هذا العام أنهم لن يضنوا بالدماء والأرواح فى سبيل تحقيق الجلاء التام ووحدة وادى النيل وقد ترك الجامعيون الفرصة الكافية للحكومة لمطالبة بريطانيا

بهذه الحقوق المغتصبة وأنهى الطلبة البيان بمطلبهم . بأنهم يرون أنه يجب على الحكومة المصرية أن تبلغ الحكومة البريطانية تبليغا رسميا أن الجانب المصرى لن يقدم على المفاوضة الا على أساس الجلاء ووحدة وادى النيل .

ثم خرج الطلبة من حرم الجامعة قاصدين ميدان عابدين لابلاغ رغباتهم وقراراتهم وعندما أرادوا عبور كوبرى عباس وجدوه مفتوحا فنزل بعض الطلبة تحت الكوبرى ونجحوا فى قفله وأثناء عبورهم فاجأهم البوليس واعتدى عليهم اعتداء وحشيا وحاصر الكثير منهم ممن لم يتمكنوا من الوصول الى حى الروضة حتى أن الطلبة كانوا يلقون بأنفسهم فى النيل هربا من هذا الاعتداء المفاجىء ويروى شاهد عيان بأن النوتية كانوا يتلقون من يسقط من الطلبة فى النيل ويلتقطونهم فى قواربهم أما الذين نجحوا فى عبور الكوبرى فقد ظل البوليس يتعقبهم واعتدى عليهم اعتداء وحشيا مما حدا بالطلبة الى اللجوء للمنازل القريبة يحتمون بها من هذا العسف وكان أصحاب الدور يفتحون لهم منازلهم ويأوونهم ويضمدون جراحهم وقد أصيب أثناء ذلك ٨٤ طالبا باصابات بالغة ونقلوا الى القصر العينى للعلاج .

وفى اليوم التالى تجددت المظاهرات وخرج الطلبة يبغون الوصول الى رياسة مجلس الوزراء وقصر عابدين لينبهوا الى المسئولين برغباتهم وما اتخذوه من قرارات ولم يفل من عزمهم ما لاقوه بالأمس ولكن قوات البوليس حاصرتهم أمام حديقة الحيوان من كل ناحية واعتدوا عليهم بقسوة وتعقبوهم فى كل مكان حتى أن بعض الطلبة استقلوا المراكب الشراعية فما كان من رجال البوليس الا أن تعقبوهم وقبضوا على بعضهم وكانت مطاردة من نوع فريد ولم تكن مظاهرات القاهرة وحدها التى قامت يومى ٩ و ١٠ بل حدثت مظاهرات أخرى فى الاسكندرية والمنصورة والزقازيق وأسيوط وأسوان ، واستشهد بها سبعة من الشهداء عدا الكثير من الجرحى .

وظلت البلاد من أقصاها الى أقصاها تتأجج بفورات السخط والغضب ولم يهدأ الطلبة فى الأيام التى تلت يومى ٩ و ١٠ من فبراير بل ظلوا يوالون الاجتماعات

ويصدروا القرارات وتمكنوا من الوصول أكثر من مرة الى قصر عابدين وقدموا للملك مذكرتهم الثانية وقالوا فيها (اليوم يخرج الطلبة متحدين مالاقوه بالأمس من القوة الغاشمة والعسف والارهاب فى سبيل الوصول اليك يرفعون ما اجتمعت اليه كلمتهم ودفعهم اليه اخلاصهم من عزمهم على الجهاد والكفاح حتى ينال النيل حريته واستقلاله وحتى يجلوا الجنود الأجنبية عن وادى النيل) وأعادوا فى هذه المذكرة ماسبق أن أبدوه من ضرورة الحصول على تصريح بريطانى يعترف بالجلاء ووحدة وادى النيل كأساس للمفاوضة والتمسك بدولية القضية المصرية .

ومطالبة الحكومة بعدم الخروج على هذا الأساس وأخيرا التحقيق مع المسئولين عن حوادث يومى ٩ و ١٠ فبراير .

ولم يجد النقراشى ازاء الخطأ الجسيم الذى اقترفته وزارته فى حق طائفة من الشعب تعتبر بحق أخلص طائفة فيه — الا أن يستقيل فاستقالت الوزارة فى يوم ١٩٤٦/٢/١٥ كما نقلت انجلترا سفيرها اللورد كيلرن من مصر بطل مسرحية ٤ فبراير وبذلك هدأت النفوس بعض الشىء .

مزيد من الضحايا :

كانت فكرة الجلاء ووحدة وادى النيل التى نادى بها الحزب الوطنى منذ بدء نشأته هى التى سادت بين طلبة الجامعة وقتئذ ، وذاع هذا المبدأ وانتشر بينهم حتى آمنوا به ودعوا له وكفروا بفكرة المفاوضة بعد أن لمسوا فشلها ، وقد اتخذ الطلبة هذا المبدأ شعارا لهم ورمزوا له بشارة برنزية نقشوا عليها كلمة الجلاء وعلقوها على صدورهم — وانتشرت هذه الشارة بين المواطنين جميعا وأصبح مبدأ الجلاء على كل لسان .واتفقوا على أن يخصصوا يوما كل عام يسمونه يوم الجلاء يحتفلون فيه بهذه الذكرى .

وانعقد رأيهم على أن يكون يوم ٢١ فبراير هو هذا اليوم ،وفى يوم الخميس الموافق ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ خرج طلبة الجامعة والعمال للاحتفال بهذا اليوم وأضربت

جميع الطوائف الأخرى كما اشترك الموظفون فى المظاهرة وطافوا بشوارع القاهرة ينادون بالجلاء وبالوحدة وبأن (لاحزبية بعد اليوم) وكان اسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء قد رأى ألا يتعرض لهذه المظاهرات الوطنية فأمر رجال البوليس بعدم مناوأتها طالما كان النظام رائدها والسماح لها بالسير كيفما شاءت .

وكانت المظاهرات التى مرت فى شوارع القاهرة فى ذلك اليوم غاية فى النظام واتسمت بطابع وطنى قوى لا أثر للحزبية فيه وأثبت اسماعيل صدقى بعد نظره فى عدم مقاومتها أو التعرض لها كما فعل سلفه النقراشى ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى (وبدأ الطابع القوى على هذه الحركة الشعبية إذ كان مما تنادى به ألوف المتظاهرين (لاحزبية بعد اليوم) . وأعادت الى الأذهان ذكرى مظاهرات سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٣٥ ولم يكن يشوبها أى شىء من المتافات والتدابير الحزبية) بل كانت تعم الجميع روح وطنية عالية لا أثر فيها للحزبية الممقوتة ، وكان الطلبة والوطنيون من طوائف الشعب قدوجهوا نداء الى المواطنين يستحثونهم على الجهاد ويطالبونهم بالتمسك بالمبادىء الوطنية السليمة وأن لايعتمدوا الاعلى أنفسهم وقالوا فى ندائهم (ان مستقبل الوطن وكرامته وحريته فى الميزان وليس من قوة تحررنا الا قوتنا الشعبية وايماننا بحقوقنا وكرامتنا .) وكاد هذا اليوم الرائع يمر بسلام لولا أن الاستعمار عز عليه ذلك وساءه أن يرى نجاح يوم الجلاء دون أن تراق الدماء أو يمضى هذا اليوم من غير أن يعتدى رجال البوليس المصرى على اخوانهم من المواطنين كما تعود ذلك من قبل .

فما كانت المظاهرات السلمية تصل الى شارع سليمان باشا حتى واجهتها أربع سيارات بريطانية كبيرة محملة بالجنود (لورى) قادمة من قصر النيل وتسير بسرعة فائقة فأفسح الوطنيون لها الطريق ، ولكن احداها اخترقت صفوفهم متعمدة فقتلت وأصابت الكثيرين . .

وبدأ الانجليز الذين يستقلون هذه العربات يطلقون النار على المتظاهرين مما حدا بالمصريين بأن يدافعوا عن أنفسهم فأحرقوا السيارتين اللتين كانتا تقلان الانجليز،

ومن فندق سمير اميس أطلق بعض الضباط الانجليز عدة طلقات أصابت بعض الوطنيين ، فما كان من الطلبة الا أن أشعلوا النار فى الدور الأرضى من الفندق كما أحرقوا سيارة بريطانية ، كانت تقف خارجة وظل الرصاص يتجاوب فى أنحاء شوارع القاهرة وعند غروب الشمس كان رقم الشهداء قد ارتفع الى ٢٤ شهيدا وأكثر من ١٣٠ جريحا عدا الضحايا الذين سقطوا فى باقى مدن القطر .

واتفق الوطنيون بعد ذلك على تحديد يوم ٤ مارس لاعلان الحداد العام على أرواح شهداء يوم ٢١ فبراير وفى هذا اليوم أضربت جميع المدن فأغلقت المتاجر والمدارس والمقاهى والمحال العامة واحتجبت الصحف وبدت القاهرة وقد ران عليها حزن رهيب بعد أن أقفرت الشوارع من الأهالى ولزموا منازلهم وهدأ ضجيج العربات والسيارات وغدت القاهرة وكأن سكانها قد نزحوا منها ومر يوم الحداد فى جميع المدن كما مر بالعاصمة فى حزن وصمت وهدوء فيما عدا الاسكندرية فقد تصدى الانجليز للمتظاهرين المسالمين وبدءوا يطلقون النار عليهم من الأماكن التى كانوا يقيمون بها أو يعسكرون فيها ، فعندما مر الوطنيون بشارع سعيد الأول أطلق الانجليز القاطنين بالعمارة رقم ١٤ منه النار عليهم وفى ميدان سعد زغلول خرج البوليس الحربى البريطانى الذى كان يعسكر هناك وأطلق النيران على جموع الشباب فقتل منهم ٢٧ شهيدا بينما وصل عدد الجرحى الى ٣٤٢ جريحا وقتل من الانجليز جنديان وجرح أربعة فقط .

هذه هى الحوادث المؤسفة التى وقعت فى تلك الأيام وذهب ضحيتها بعض الأهالى والطلبة الذين أرادوا أن يظهروا شعورهم الوطنى وقاموا يطالبون بالاستقلال والجلاء فكان جزاؤهم الضرب والتنكيل والقتل وان كانت جهود الشباب لم تفلح فى سنة ١٩٤٦ فى توحيد الصفوف كما أفلح زملاؤهم سنة ١٩٣٥ بسبب تعنت الوفد الا أن كفاحهم المنزه عن الغرض ونضالهم الخالص لوجه الله والوطن وتضحياتهم المستمرة فى سبيل الجلاء والوحدة جعلت الشعب يؤمن بندءاتهم ويتخذ منها نبراسا اضاء له الطريق .

على أن الانجليز ظلوا يلحون بين الحين والحين بالمفاوضة تمهيدا للجلاء حتى إذا ما اجتمع الساسة المصريون معهم تنكروا لكل حق لمصر وضنوا عليها بالحرية.

مشروع معاهدة صدقي – بيفن :

تفاوض اسماعيل صدقي رئيس وزارة مصر مع المستر بيفن، وزير خارجية بريطانيا ، وعقد الطرفان مشروع معاهدة في أكتوبر سنة ١٩٤٦ ، اشتهر باسم (معاهدة صدقي — بيفن) وجاء فيها :

١ — انتهاء العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦ .

٢ — جلاء القوات البريطانية التام عن الاراضي المصرية في موعد أقصاه أول سبتمبر ١٩٤٩ .

٣ — اتفق الطرفان على أنه في حالة الاعتداء المسلح على مصر أو اشتباك المملكة المتحدة (انجلترا) في حرب نتيجة وقوع اعتداء مسلح على البلاد المتاخمة لمصر فانهما يتخذان بالتعاون الوثيق وبعد المشاورة أي اجراء يتبين ضرورته .

٤ — تحقيقا للتعاون بين الطرفين ، تنسق تدابير الدفاع المشترك ، فتتكون لجنة دفاع مشتركة من السلطات الحربية المختصة لدى الحكومتين لدراسة المسائل الخاصة بالدفاع المشترك عن الطرفين المتعاقدين في البحر والبر والجو .

٥ — الاحتفاظ بمعاهدة سنة ١٨٩٩ المتعلقة بالسودان انتظارا لأن يستطيع الطرفان المتعاقدان بالاتفاق بينهما وبعد استشارة السودانيين تحقيق رفاهية السودانيين وتقدم مصالحهم وتهيئتهم تهيئة مجدة للحكم الذاتي ومزاولة ما يترتب عليه من حق اختيار نظام الحكم في السودان مستقبلا .

عرض اسماعيل صدقي مشروع المعاهدة مع هيئة الوفد الرسمي للمفاوضات ، فقوبل بالرفض من معظمهم ، وقاموا باصدار بيان الى الشعب في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٦ شرحوا فيه أسباب رفضهم لهذا المشروع وجاء فيه :

١ — يمكن جلاء القوات البريطانية في فترة قصيرة ، والفترة التي حددها المشروع وهي ثلاث سنوات مبالغ فيها .

٢ ــ ان قبول مصر مبدأ الدفاع المشترك ينتج عنه اتخاذ مصر قاعدة لأعمال حربية ، وتزايد عـدد القوات البريطانية فى مصر وعودة الاحتلال ، وجر مصر الى خلافات مع دول أخرى .

٣ ــ يحتفظ المشروع بالأحوال الراهنة فى السودان ، بل ان هـذا المشروع يمهد لفصل السودان عن مصر .

استقال اسماعيل صدقى بعد اخفاق مشروع المعاهدة ،وخلفه محمود فهمى النقراشى، واستأنف المفاوضة مع السفير البريطانى فى مصر ، ولم تجد هذه المفاوضات شيئا، وقررت الحكومة المصرية عرض القضية على مجلس الأمن ،والمطالبة بجلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان وانهاء النظام الادارى القائم بالسودان ، لأن هذا كله يتعارض مع ميثاق هيئة الأمم المتحدة. ولـكن المؤامرات الاستعمارية جعلت مجلس الأمن يمتنع عن الاستجابة لمطالب مصر العادلة ، وترك القضية المصرية معلقة دون حل حاسم .

وبدأت انجلترا تتخذ خطوات سريعة نحو فصل السودان عن مصر، وخدعت السودانيين بايجاد حكم ذاتى مزيف قوامه انشاء جامعة تشريعية ومجلس تنفيذى بالسودان .

٢ ـ كفاح الشعب المصرى من أجل فلسطين العربية :

اغتصاب فلسطين العربية :

كان يطلق على الجزء الممتد من حدود تركيا شمالا الى حدود مصر جنوبا بمحاذاة البحر الأبيض المتوسط بلاد الشام حتى سنة ١٩١٦ الى أن جاء الاستعمار الغربى فقسمها الى ثلاثة أقسام ، هى : سوريا ، ولبنان ، اللتان كانتا من نصيب فرنسا ، وفلسطين ـ وقد اعتبرت منطقة (١) دولية وسعى اليهود بما لهم من نفوذ لدى المحافل الدولية ـ لكى يجعلوا منها وطنا قوميا لهم . وتذرع اليهود فى سبيل الوصول الى هدفهم بكافة الوسائل والطرق ـ وجندوا رجالاتهم ورصدوا أموالهم ليحققوا هذه الأمنية وعلى رأسهم المليونير اليهودى روتشيلد صديق الوزراء الانجليز ـ وقد تمكن من الحصول على وعد منهم بتأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ـ وجاء الوعد فى صورة خطاب من مستر بلفور وزير خارجية انجلترا الى روتشيلد فى ١٩١٧/١١/٢ يزف اليه هذه البشرى ويقول فيه (يسرنى جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك التصريح التالى الذى ينطوى على العطف على أمانى اليهود الصهيونية وقد عرض على الوزارة وأقرته ـ بأن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن للشعب اليهودى فى فلسطين ـ وستعمل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضر الحقوق المدنية أو الدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى) .

ولم يخرج وعد بلفور المشئوم الى الوجود بناء على سعى اليهود ونفوذهم فحسب وانما جاء بعد موافقة الانجليز ورضائهم عنه وعملوا على تنفيذ وتمكين اليهود من فلسطين . وقد تجلى ذلك فى جميع خطواتهم ويقول حاييم وايزمان أول رئيس لاسرائيل عن مساعدة الانجليز وشعورهم نحو الصهيونية (بينما كنت أنتظر خارج مكتب الوزارة البريطانية أثناء انعقادها لكى تصدق على النص النهائى لوعد بلفور

---

(٢) اتفاقية سايكس بيكو .

واذا بمستر سايكس يسعى إلى هاتفا : (انه غلام [1] يادكتور وايزمان) يقصد وعد بلفور ـــ وبذلك (أعطى من لا يملك فلسطين لمن لا يستحق) وبعد هذا الوعد بما لا يزيد على ثمانية أشهر وبالتحديد فى ٤ يوليو سنة ١٩٤٨ أصدر الرئيس الامريكى ويلسون تصريحه المعروف ويشمل أربعة مبادىء ، وقرر أن الحلفاء يحاربون لتحقيقها ومن بين هذه المبادىء مبدأ حق تقرير المصير الذى يتضمن (بأن حل المسائل الاقتصادية والسياسية يجب أن يبنى على قبول الناس الذين يتعلق بهم قبولا حرا لا على المصالح المادية أو لفائدة أى دولة أو أمة أخرى ترغب فى حل آخر لنفوذها الخارجى أو لسيادتها (واعتقد العرب أن بابا من الأمل قد فتح عقب صدور هذا التصريح وأنه لن يتاح لليهود لكى يغتصبوا فلسطين طالما أن الحلفاء وضعوا نصب أعينهم تحقيق رغبة الشعوب فى تقدير مصيرها ومن أن حل كل مسألة يجب أن يبنى على قبول الناس الذين يتعلق بهم قبولا حرا ورأى العرب أنه يستحيل استنادا لذلك المبدأ فرض أقلية يهودية تمثل عشرة فى المائة من سكان فلسطين واقامة وطن لهم دون ارادة التسعين فى المائة الباقية وهم من المسلمين والمسيحيين أيجوز أن نتصور تشريد ما لا يقل عن مليون ونصف مليون عربى من بلادهم وديارهم لكى يتربع عليها مالا يزيد على مائة وخمسين ألف يهودى . ومع ذلك فقد ضرب الغرب بتصريح ولسون عرض الحائط وما حوى من أهداف ادعوا أنهم حاربوا من أجل تحقيقها ـــ فعقب انتصار الحلفاء فى الحرب العظمى الأولى على ألمانيا أصدروا قرارا فى ٢٠/٤/١٩٢٠ بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى بعد أن ظلت أربعة أعوام منطقة دولية . وعينت بريطانيا هربت صمويل اليهودى مندوبا ساميا لها فى فلسطين . ليحقق أمل الصهيونية العالمية ليضع وعد بلفور موضع التنفيذ . وقام يعلن هذا الأخير سياسته فى البلاد فى صراحة ودون خجل وقال : (ان سياسة حكومة جلالة الملك التى جاء لتطبيقها هى تشجيع اليهود الى أن تصبح السيطرة لهم على البلاد ـــ ويمكن انشاء حكومة يهودية) وعلى أثر ذلك تدفقت

---

(١) من كتاب التجربة والخطأ لحايم وايزمان .

افواج اليهود من كافة أنحاء العالم على فلسطين حتى وصل عددهم فى سنة ١٩٤٥ الى نصف مليون مهاجر .

وفى أوائل سنة ١٩٤٧ أصدرت هيئة الأمم المتحدة قراراً بتقسيم فلسطين واقامة دولتين فيها أحدهما عربيـة والأخرى يهودية ورفض الجانبان اليهودى والعربى هذا القرار وعندئذ وطبقا للخطة التى وضعها الغرب قررت انجلترا أنها لن تنفذ قرار التقسيم بالقوة وانها ستسحب قواتها من فلسطين فى يوم ١٤/٥/١٩٤٨ وقد أصدرت هذا القرار بعد أن اطمأنت على قوة اليهود وبعد أن أصبح عددهم يزيد عـــلى المليون شخص كلهم مقاتلون مارسـوا الحرب فى ألمانيا وفرنسا وبولندا وغيرها .

وهكذا شاء الاستعمار الغربى أن يعطى فلسطين لقمة سائغة لليهود مهدرا كل القيم الانسانية والسماوية معا .

النضال الشعبى فى فلسطين :

عقب صدور قرار التقسيم فى سنة ١٩٤٧ تكونت فى جبل الجليل بفلسطين نواة من الفدائيين بقيادة الشهيد البطل عبد القادر الحسينى سميت بقوات الجهاد المقدس وكان لها شعب فى القدس وحيفا والناصرة وحنين وغيرها من البلاد ، وعلى أثر تكوينها التحمت فى معارك كثيرة مع اليهود وكانت الغلبة فى كثير منها للفدائيين العرب وحتى المعارك القليلة التى رجحت فيها كفة اليهود كانت بسبب تدخل الانجليز ومساعدتهم لليهود وكانوا يتدخلون كلما لاحت لهم بوادر الهزيمة كما حدث فى واقعة بيت صفافا وهى قرية هامة تقع جنوب القدس مباشرة وتكاد تعتبر من ضمن أحيائها وهى قائمة على تل مطل على سكة حديد تربط بين القدس ويافا وتل أبيب ، ومن يهيمن عليها يؤمن الطريق بين هـذه المدن الثلاث فضلا عن أنها موقع استراتيجى غاية فى الأهمية فقد حدث أنه عندما اشتبك اليهود والفدائيون العرب فى هذه القرية أن تدخلت القوات الانجليزية وأوقفت القتال وتعهدت للعرب عـلى لسان قائدهم

الكولونيل هاربر بأنها لن تسمح لليهود بدخولها أو تسليمها لهم واطمأن العرب للوعد البريطاني ولكن ما حدث كان يناقض هذا الوعد فقد غدر الانجليز كعادتهم وخانوا العهد الذي قطعوه للعرب وأخذوا المدينة بعد سبعة أيام فقط من الوعد وسلموا القرية لليهود الذين استولوا عليها بعد أن نسفوا الكثير من المنازل بمن فيها من الأهالي العزل وقد تمكن اليهود بعد استيلائهم على هذه القرية من السيطرة على القطاع الجنوبي بأكمله ، هذا مثل من الأمثلة العديدة على خيانة الانجليز وممالأتهم لليهود .

ومن العراق دخل فلسطين بعض الفوائيين بقيادة فوزي القاوقجي وعسكر في بلدة جبع بناحية حنين وشاركوا في كثير من المعارك الناجحة منها معركة بيت شوريك التي قتل فيها أكثر من أربعين يهوديا ومعركة كفار عصيون التي غنم فيها العرب كثيرا من الأسلحة والمؤن .

وكانت النفوس ثائرة في مصر تطالب بالتطوع لمحاربة اليهود في فلسطين فأسرع القائمقام الشهيد البطل أحمد عبد العزيز بتكوين كتيبة من الفدائيين سافر بها ليشارك اخوانه العرب في الكفاح ودخلت كتيبة أحمد عبد العزيز فلسطين وبها بعض التشكيل العسكري ، ولقد أبلت هذه الكتيبة بلاء منقطع النظير وشاركت في الكثير من المعارك المجيدة وشعر اليهود بوطأة الفدائيين المصريين فبدأوا يستنجدون بالانجليز ، وقد ساهمت كتيبة أحمد عبد العزيز بالجانب الأكبر في معركة صور باهر وهي قرية جنوب القدس عندما هاجم اليهود ساحة الحرم وأطلقوا النار على المصلين ونسفوا المنازل القائمة بأطراف القرية كما هاجمت الكتيبة المصرية اليهود المعسكرين في تبة اليمن وأخرجوهم منها بعد أن كبدوهم خسائر كبيرة .

كما أبلى الفدائيون المصريون في بيت لحم ورأس جالا والصليب وعند العطور بلاء رائعا .

وقد استشهد البطل أحمد عبد العزيز بعد جهاد طويل مرير في موقعة عراق

المنشية فى يوم ١٩٤٨/٨/٢٢ وتولى القيادة بعده محمد علي فكرى وعبد الجواد طبالة وسيف اليزل وكان المصريون فى كفاحهم مثالا للفداء والتضحية .

كما أسهم الفدائيون السوريون بنصيب كبير فى مقاومة العصابات الصهيونية ودحروهم فى مواقع عديدة بالحى القديم وفى القسطل والقطمون .

وكانت هناك فى فلسطين جماعات أخرى من شباب الأردن ولبنان والسعودية تحاول انقاذ فلسطين بجوار الوطنيين من شبات مصر وسوريا والعراق وفلسطين ، ولكنها فشلت لأسباب خارجة عن ارادتها كما فشلت جيوش الدول العربية مجتمعة عندما دخلت فلسطين بعد ذلك أما اليهود فانهم عندما رأوا تكتل شباب الدول العربية ـــ سارعوا الى تنظيم صفوفهم وجلبوا أحدث الأسلحة من انجلترا وفرنسا وسلموا قيادتهم الى قواد مهرة ذو خبرة ودراية مارسوا فن الحرب عمليا فى الحرب العظمى وكون اليهود جمعياتهم الارهابية والحربية على أحدث الطرق وأدقها وفى سرية تامة ولطالما سمعنا عن جمعيات شتيران والهاجاناه والبالماخ والارغون تساى لئومى ورأينا كيف انضوى تحت لوائها شباب اليهود من جميع أرجاء العالم ووطدوا العزم على الرغم من قلتهم على احراز النصر ، كل ذلك بمعاونة الانجليز لهم فاحتلوا القسطل ذات الموقع الهام فى طريق القدس بعد معارك دامية قتل فيها كثير من الطرفين ، كما استشهد فى هذه المعركة البطل عبد القادر الحسينى الذى كان فى الشام يستحث رجالات العرب كى يمدوا يد المساعدة لفلسطين وللفدائيين الذى يدافعون عنها وكان مجتمعا بها ببلدة القادسية فى ذلك الوقت الحاج أمين الحسينى وعبد الرحمن عزام ورياض الصلح واللواء اسماعيل صفوت وغيرهم . ولما جاءته الأنباء بمحاصرة اليهود لبلدة القسطل ورأى عدم جدوى ضياع الوقت مع قادة العرب الذين كانوا يبحثون طريقة انقاذ فلسطين على الورق عاد على الفور ليقود كتيبته . وقد تمكن ومن معه من طرد اليهود من القسطل وعند مشارف البلدة استشهد برصاص اليهود وكان لموته وقع أليم فى نفس المحاربين . والشهيد عبد القادر الحسينى ولد فى استانبول وتخرج فى الكلية الأمريكية بالقاهرة وشاهد اضطهاد الانجليز واليهود للعرب عندما

كان أبوه رئيسا لبلدية القدس ورأى بعينى رأسه ما كانوا يقترفونه من جرائم فى حق مواطنيه فكرهم كرها شديدا وعزم على أن يسهم فى المعارك التى كانت تدور وقتئذ وخاض ، بجوار والده الكثير منها حتى لمع اسمه وسعى الانجليز جاهدين للقبض عليه ولكنه تمكن من السفر الى العراق والتحق بالكلية الحربية ببغداد وتخرج منها برتبة ضابط واشترك فى ثورة على الكيلانى ضد الانجليز سنة ١٩٤١ وعندما فشلت الثورة اعتقله الانجليز وظل مسجونا فى سجون بغداد والعمارة ما يقرب من أربع سنوات ، سافر بعدها الى وطنه فلسطين ليواجه شراذم اليهود ومؤامرات الانجليز حتى استشهد فى معركة القسطل بعد أن انفق كل ثروته التى تركها له والده وكانت كبيرة على حركة النضال . وكان رحمه الله يفيض غيرة وحماسة ويتعجب من موقف رجالات العرب من فلسطين — حدث عندما طالبهم بمد المجاهدين بالسلاح عقب سقوط القسطل أن وجد منهم تواكلا يثير الدهشة — ويقول عارف العارف فى كتاب النكبة .وبدلا من أن تعطيه اللجنة ما يريد من سلاح قال له اسماعيل صفوت باشا رئيس اللجنة العسكرية . (ها قد سقطت القسطل وعليك أن تسترجعها ياعبد القادر، واذا كنت عاجز عن استرجاعها فقل لنا لنعهد بهذه المهمة الى القاوقجى) فغضب عبد القادر وأجابه (القسطل يا باشا مأخوذة من كلمة Castle ومعناها الحصن وليس من السهل فتح الحصن بالبنادق الايطالية والذخائر القليلة ، التى بين أيدينا، واليهود أصبحوا يملكون المدافع والطائرات) .

فقال له الباشا (شو نو عبد القادر ؟ ما أكو مدافع ، أى ليس معكم . مدافع، وعندئذ استشاط عبد القادر غيظا وألقى بالخارطة التى كانت معه فى وجه الباشا وزملائه ، وقال لهم بصوت مسموع أنتم خائنون ، سيسجل التاريخ أنكم أضعتم فلسطين — سأحتل القسطل وأموت أنا وجميع اخوانى المجاهدين) . وعاد عبد القادر ليحتل القسطل كما قال ، واستشهد كما أراد وكما أرادت له القيادة العربية ، وعندما سرى خبر استشهاد عبد القادر بين زملائه تركوا مواقعهم بالقسطل ليشاركوا فى تشييع جنازته — واستغل اليهود الموقف وكروا على من بقى فيه وأجلوهم عنه —

ثم احتلوا بعد ذلك قرية دير ياسين واقترفوا فيها من الجرائم ما تقشعر له الأبدان، فبعد أن دخلوها واستتب مقامهم بها ذبحوا ثلث أهلها أى حوالى ٢٥٠ شخصا من بينهم ٢٥ امرأة حبلى و ٥٢ طفلا قطعت أيديهم وأرجلهم أمام ذويهم الذين اجتزت رؤوسهم هم أيضا ومثل بها ، ويروى مناحم بيجين رئيس الأرجون عن معركة دير ياسين فيقول (لقد سيطر الرعب على عرب اسرائيل نتيجة لمذبحة دير ياسين - وفى أنحاء القطر ابتدأ العرب يفرون هلعا قبل الاصطدام بالقوات اليهودية - ليس بسبب ما حدث لدير ياسين بل لما حيك حول دير ياسين من دعاية ساعدتنا على ان نشق طريقنا الى المعارك الفاصلة فى الميدان) ، وتوالى سقوط القرى والمدن العربية فى يد اليهود الواحدة بعد الأخرى فسقطت طبريا التى فتحها صلاح الدين والقطمون وصفدو بيسان وكفار عصيون ويافا وغيرها — حدث كل ذلك والدول العربية تشاهد هذه المآسى — مكتوفة اليدين — تهز كتفيها وكأن شيئا مما يجرى لا يعنيها .

الدول العربية تتحرك

ولم يكن أمام الدول العربية الا أن تدخل فلسطين لتحارب بجانب المتطوعين العرب الذين كانوا يحاربون وحدهم شراذم اليهود وقوات بريطانيا ، فدخلتها فى ١٩٤٨/٥/١٥ دون سلاح وبذخيرة فاسدة وبلا تدريب أو تنسيق أو مقاومة أو خطة حتى ان بعض رؤساء الوزارات لم يكونوا على علم بقرار الحرب — وكان النقراشى رئيس حكومة مصر أحد الرؤساء الذين عرفوا ذلك من الصحف التى خرجت تحمل أنباء الحرب ولم يكن على علم بها وقد صرح بذلك لبعض أعضاء وزارته حتى أنه فكر فى الاستقالة — الا أنه رأى أن الاستقالة فى هذا الوقت تعتبر طعنة للجيش وهو فى الميدان وقال لزميل له انه لا يريد أن يقف موقف النحاس عندما هاجمه وهو يدافع عن قضية البلاد أمام مجلس الأمن عندما أرسل برقيته المعروفة للانجليز يقول لهم فيها : « لا تصدقوا النقراشى..

انه لا يمثل الشعب ، ثم يعلق النقراشى على ذلك بقوله : « ومع ذلك فهناك فارق كبير بين الموقفين » .

اخطاء وخيانات

ودخلت الجيوش العربية فلسطين فاستولى الجيش اللبنانى على الناقورة والزيب ونهاريا — كما استولى الجيش السورى على مدينتى سمخ وصفد والجيش العراقى على حنين وطولكروم وقلقيلة .

أما الجيش المصرى فقد تفرع الى فرعين: الأول سار بمحاذاة الساحل فاحتل غزة والمجدل وأسدود على بعد ٢٩ كيلومترا من تل أبيب . وأما الجزء الثانى من الجيش المصرى فقد توغل داخل فلسطين نحو بيرسبع والخليل وبيت لحم حتى وصل القدس.

وكان سلاح الطيران المصرى يضرب المدن اليهودية وتل أبيب ضربا محكما ويدك حصونها ، وحارب جنودنا وضباطنا ببسالة فى ظروف غاية فى القوة وبدا أن ساعة الصفر قد اقتربت — وأن يوم تحرير فلسطين قد جاء — فضلا عن نقص السلاح وفساده ووقوف الدول الاستعمارية فى جانب اسرائيل ، وتلاقى الجيش المصرى مع الجيش الاردنى بعد ان استولى الأخير على القدس ورام الله واللد والرملة واقترب الجيشان من تل أبيب حتى لم يعد يبعدان عنها سوى ثمان كيلوا مترات ، وهنا ظهرت الخيانة سافرة فى موقف الجيش الأردنى ، ذلك أنه عندما أعلنت الحرب تولى الملك عبد الله ملك الأردن القيادة العليا للجيوش العربية وترك زمام الأمر كله فى يد قائد الجيوش الأردنى جون جلوب باشا الانجليزى الذى كان يتلقى أوامره من لندن رأسا وبذلك أصبحت الجيوش العربية فى يد الانجليز واليهود ،ولذلك — تلكأ جلوب فى احتلال القدس ليمكن اليهود من احتلالها فهو يتلقى الأوامر من انجلترا لامن الدول العربية .وانجلترا بطبيعة الحال لم تكن تسمح للجيوش العربية بالانتصار على اليهود ، ثم انسحب جلوب من اللد والرملة حتى يتيح الفرصة لليهود لاحتلالها ، كما وضع جلوب هذا الجيش العراقى فى مركز دقيق عندما أمره بالتوجه الى منطقة محصنة تحصينا قويا . فتكبد بذلك خسائر كبيرة كل هذا كان متوقعا ما دامت القيادة فى أيدى الانجليز .

ساعد الانجليز اليهود بكل الطرق ـــ حتى طريق الخيانة لجأوا اليه وسخروا له جلوب الانجليز القائد العام للقوات العربية فى فلسطين لتحقيق أغراضهم .

ولم تكن خيانة جلوب فى فلسطين وحدها السبب فى النكبة وانما هناك خيانة أخرى كانت تدبر فى مصر ضد جيش مصر . وكان بطلها الملك السابق فاروق . فقد وضح بعد أن سافر الجيش المصرى الى فلسطين أنه لم يكن يملك السلاح ولا الذخيرة اللازمة لحرب طويلة . وهنا وجد الملك وحاشيته الفرصة سانحة للاتجار فى السلاح والذخيرة وبدأت الحاشية تجمع القنابل والذخيرة من الصحراء الغربية وتصنع الخوذات الحربية وتوردها لجنودنا وضباطنا فى الميدان وتدفقت الملايين الى جيوب صاحب الجلالة ومن معه فى الوقت الذى سقط الشهداء بالمئات. لأن هذه الأسلحة وتلك الذخيرة التى وردها الملك لجنوده كانت أسلحة فاسدة .

الاسلحة الفاسدة :

عندما وصل الأمر الى هذا الموقف ـــ لم يكن هناك بد من وضع حد لهذه الحرب الفاشلة التى أحاطتها الخيانة من كل جانب ـــ وخاصة وبعد أن اعترفت أمريكا باسرائيل فى ١٩٤٨/٥/٢٤ وبعد أن اجتمع مجلس الأمن وأمر بوقف القتال وعقد الهدنة .

ففى يوم الجمعة الموافق ١٩٤٨/٥/٢٩ [1] عقدت الهدنة بعد ١٤ يوما فقط من دخول الجيوش العربية فلسطين لتحريرها وعاد جنودها وضباطنا من فلسطين مثخنين بالجراح ، وكانت قد سبقتهم بمدة طويلة ـــ اشاعة فساد الأسلحة ـــ والقنابل التى تنفجر قبل القائها فتصيب الصديق قبل العدو والأسلحة التى لاتصلح للحرب ولاينطلق منها الرصاص وانما ترتد لتردى مصوبها ، وكأنه هو الهدف المقصود وكثر اللغط وتزايد الهمس حول الملك وحاشيته من أنهم يتاجرون فى

(١) توقف القتال رسميا فى ٧ يناير سنة ١٩٤٩ .

السلاح ويرسلونه فاسداً الى رجالنا فى خطوط القتال فيصابون بها لا برصاص العدو . ويسقطون صرعى الخيانة والغدر والجشع . وخرج الحديث من رجل الشارع الى الصحف والى البرلمان ، وبذلك أصبحت المسألة اتهاما صريحا موجها مباشرا الى الملك ، وطالب الرأى العام بالتحقيق عن المسئول أو المسئولين عن هذا الجريمة . فكيف تكشفت حقيقة الأسلحة الفاسدة ؟ وكيف سار التحقيق فيها وما هو دور الملك فى هذه القضية وما المصير الذى آلت اليه ؟ هذا ماسوف تكشف عنه الصفحات التالية . وان كانت محكمة الثورة قد أوضحته بما لامزيدعليه ولكننى أجد استكمالا لهذا البحث أن أتناوله بايجاز لأوضح أثر الأسلحة الفاسدة على رجال التشكيل وما نتج عنها من آثار هامة غيرت تاريخ مصر وأطاحت بالنظام القائم بها بأكمله .

استجواب ومقال :

بدأت فضيحة الأسلحة الفاسدة فىالظهور الى المحافل السياسية علىأثر استجواب فى مجلس الشيوخ ومقال فى مجلة روز اليوسف .

أما الاستجواب فقد تقدم به الأستاذ مصطفى مرعى المحامى وكان عضوا فى مجلس الشيوخ الى رئيس المجلس فى ١٩٥٠/٥/٢٩ وهذا نصه :

« أتشرف بأن أنهى اليكم أننى أريدأن أستجوب حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة فى تصرفات بدت من الحكومة كان لها أثرها فى استقالة الرئيس (السابق لديوان المحاسبة) » .

والاستجواب وان كان ظاهره البراءة الا أنه كان يعنى أمورا غاية فى الخطورة، فالمعروف أن رئيس ديوان المحاسبة كان قداستقال استقالة غير مسببة لمخالفات مالية ارتكبها رجال الحاشية وكانت هذه الأمور قد بدأت تنتشر فى جميع أرجاء البلاد ، ولكن أحدا لم يكن يجرؤ على التحدث عنها خوفا من بطش الملك وغضب وزارة النحاس التى كانت تغترف من خزائن الدولة لتغدق على المحاسيب والأقارب.

وأفاقت حكومة النحاس على صوت مصطفى مرعى يدوى فى أرجاء المجلس أثناء مناقشة استجوابه . قائلا : « ان هذه أمور يشيب من هولها الوليد — نحن الآن فى حالة حرب قانونا — فكيف نسكت على أن نقدم لرجال الجيش الذين يقاتلون ذخيرة عفنة — ويعلم ذلك المسئولون هنا — حتى ليبدو أن هناك مؤامرة مدبرة لتعطيل جهودنا الحربية» ثم لمح فى كلامه عن الملك السابق عندما ذكر « انواجب الولاء للجالس على العرش نفسه وواجب الولاء للبلدالتى تطمع فى أن ترى قوانينها تسود الكافة لاتسود فردا دون فرد أن تتبين الأمر ويلزمنا أن نصارحهم بأن التصفيق للجريمة لاينفى كونها جريمةوأن الاعجاب بالمجرم يؤثم المعجب ولايبرىء المجرم » .

واهتز مجلس الشيوخ اهتزازا عنيفا كاقال فؤاد سراج الدين على أثر القاء هذا الاستجواب ، كا ارتعدت فرائص الملك وحاشيته — خوفا من ظهور الحقيقة، وتلفت عن مخرج ينتقم فيه من مقدم الاستجواب ومحبذيه ، ولما لم يجد أقدم على انتهاك الدستور — وما أكثر ما كان ينتهك — فاستصدر فى ١٩٥٠/٦/١٧ ثلاثة مراسيم بزوال عضويتهم وطردهم من المجلس وكان من بينهم الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ .

هذا ما كان من أمر الاستجواب . .

وأما المقال — فقد كتبه الأستاذ احسان عبد القدوس فى مجلة روز اليوسف فى عددها الصادر بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٩٥٠ وتعرض فيه الى أن الأسلحة التى ترسل الى فلسطين فاسدة وقدعلم ذلك من بعض الضباط العائدين فى أجازات وأن بعضهم قد أصيب نتيجة استعمالها وثمة شخصيات هامة وخطيرة فى الجيش والقصر تتاجر فى أرواح الجنود ابتغاء الكسب غير المشروع والثراء العاجل .

ولم يكن من الممكن أن تسكت حكومة النحاس على هذه الجرائم التى ترتكب أمام بصرها وعلى أرواح رجال الجيش وهى تحتفظ ضدرا وهم يحاربون العدو فى الميدان .

فأبلغ وزير الحربية مصطفى نصرت النائب العام محمود عزمى باجراء التحقيق فى موضوع الأسلحة ، وباشر رجال النيابة التحقيق فى ١٩٥٠/٦/٢٠ ، وتكشف التحقيق عن أمور مشينة وجرائم دنيئة دمغت الملك ورجال القصر وألصقت بهم التهم التى كان الشعب يهمس بها فى الشوارع والمنازل والمنتديات .

واتضح أن الجيش ما كاد يدخل فلسطين حتى بث الملك رجاله وسماسرته فى كل ناحية يجمعون السلاح ويتجرون فيه . ابتغاء المكسب الحرام المخضب بالدماء وعلى أشلاء جثث الضحايا . ووضعت النيابة يدها على الأدلة التى تدين الملك وحاشيته وهم : أحمد بدر الياور الخاص له، وعبد الغفار عثمان مدير متحف الدراى وأدمون جهلان مدير حسابات الدراى وحسن عاكف قائد طائرته الخاصة وحلمى حسين مدير الركائب الملكية وبوللى السكرتير الخاص وعباس حليم وهو من الأسرة المالكة السابقة.

أما عبد الغفار عثمان فقد أرسله الملك الى ايطاليا وتعاقد مع شركة تدعى شركة كونستر كزيونى ميكانيكا على صنع مائتين وخمسين ألف قنبلة بسعر ٧٥ قرشا للقنبلة وتسلمها المتهم دون فحص وبسعر يزيد عن مثيلاتها بأكثر من النصف اذ أنها لاتساوى أكثر من ٣٠ قرشا وبديهى أن الفرق فى السعر دخل جيب صاحب الجلالة مع باقى أفراد الحاشية .

ولم تكن هذه القنابل مرتفعة السعر فحسب وانما كان أكثرها غير صالح وبه عيوب يجعل من الخطورة استعمالها .

وكان اليهود يعلمون سر هذه القنبلة ويسرون عندما كان الضباط المصريون يطلقونها — وحدث فى موقعة رفح فى يوم ٤ يناير ١٩٤٩ ولم يكن لدى الجيش المصرى من الأسلحة سوى هذه القنابل المشئومة فاضطر لاستعمالها وألقى منها الكثير على اليهود ولكن للأسف لم ينفجر منها سوى القليل — وحتى تلك التى انفجرت لم يكن لها أى أثر يذكر حتى أن اليهود كانوا يتصايحون متهكمين . وارم يامصرى من ده كمان ! ، وكأننا كنا نلقى عليهم لفافات الحلوى أو باقات الزهور ، وهزم

المصريون فى رفح وقبض وأسر بعضهم واستشهد بعض آخر ، لا برصاص العدو وانما بالقنابل والأسلحة التى كان يوردها الخائن عبد الغفار عثمان وأدمون جهلان وغيرهما من سماسرة الملك .

وكما حدث فى موقعة رفح حدث فى غيرها من المواقع — وتسببت هذه القنابل فى أسر وقتل الكثير من المصريين فى موقعة العوجة التى وقعت فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٤٨ وكانت بعض القنابل تنفجر فى أيدى الضباط المصريين وقبل القائها وانها كانت تنطلق الى الخلف لا الى الامام، وقد كان أثر هذه الأسلحة الفاسدة على رجال الجيش وهم يحاربون فى فلسطين سيئا الى أبعد الحدود .وقد شعر الجنود والضباط — بعد أن تكشفت لهم الأمور بعض الشيء ولاحت بوادر الخيانة — أنهم قد وقعوا فى الكمين الذى أعد لهم وأنهم وقعوا فى هوة سحيقة لا قرار لها ، وكانوا يتصورون أى شيء الا أن يعدم المسئولون بأسلحة فاسدة، بندقية لا تنطلق أو قنبلة لا تنفجر أو تنفجر بلا سبب أو رابط أو ميعاد ، لتصيب حاملها قبل أن تصيب الهدف،ولا أجد أصدق من شعور جمال عبد الناصر فى هذا المقام عندما حوصر بالفالوجة هو وباقى فرقته من قوله «ها نحن هنا فى هذه الجحور محاصرين — لقد غرر بنا دفعنا الى معركة لم تعد لها — لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح » .

ضع نفسك مكان الصاغ أحمد مختار الدسوقى الذى كان يحارب فى رفح فى يوم ٤ يناير سنة ١٩٤٩ واستمع اليه وهو يقول يصف هذه المعركة : « حدث هجوم نهارى يوم ٤ يناير سنة ١٩٤٩ وكان هذا الهجوم بمصفحات ودبابات تلقاها اليهود من المساعدات الخارجية واستطعنا بما لدينا وكان عندنا مدفع واحد ان نصد الهجوم النهارى وفى الليل هجم علينا اليهود كما توقعنا وكان ساعتها ليلة عاصفة وظلام حالك والأسلحة الصغيرة كانت تتعطل من الرمال ولم يكن أمامنا غير القنابل اليدوية وكانت جديدة وكنا عاملين اعتمادنا عليها — ولما شفنا اليهود جايين فاليوزباشى فراج وأنا والعساكر كان معنا القنابل فقذفناها فدهشنا لأن

بعضها لم ينفجر وبعدين سمعنا لنطامن اليهود يقولون : « احدف كان يامصرى ! » « سلم يامصرى ! » واحنا استمرينا فى قذف القنابل وكانت عديمة الفائدة وقنبلة انفجرت فى يدى ، واليهود لما شعروا بفساد أسلحتنا اقتحموا الموقع وأنا نقلت الى المستشفى .

واستمع معى الى قائد معركة العوجة الصاغ فتحى رمضان عندما استعمل هذه القنابل اذ يقول : « استخدمنا القنابل فى معركة العوجة فى يومى ٢٦ ، ٢٧ ديسمبر بعد انتهاء الجبخانة واليهود أثناء تقدمهم رمينا عليهم القنابل ولكنها لم تنفجر واستمروا فى التقدم » .

ماهو موقف ضابط الجيش وماهو شعوره وهو يشاهد جنوده وزملاءه يستشهدون ويؤسرون بسبب أسلحة زودوهم بها رؤساؤهم فى مصر — ماهو شعور الضابط الذى يصاب بالقنبلة التى كان يحملها معتقدا أنها الدرع الذى يحميه فيجدها تنفجر فيه ثم ينقل الى المستشفى من أثر الانفجار لابسبب رصاص العدو ؟ ؟ .

ويروى احسان عبد القدوس فى مقاله المؤرخ فى ٦ يونيو سنة ١٩٥٠ عن الأسلحة الفاسدة فيقول : « وأذكر أننى سألت المرحوم القائمقام أحمد عبد العزيز قائد الكوماندوز فى حرب فلسطين عن اليوم الذى لاينساه من أيام القتال ، فأجابنى ، والدموع تملأ عينيه — أنى لا أستطيع أن أنسى يوم كان الباشجاويش يطلق مدفعه على مواقع العدو وقد وقف من حوله طاقم المدفع من الجنود ، فاذا باحدى القنابل تنفجر الى الوراء لتحطم المدفع وتقتل الباشجاويش . وجميع رجاله فيخرون صرعى فوق حطام المدفع وابتسامة الاستشهاد تضىء وجوههم » .

ومع ذلك فقد ظل ضباطنا وجنودنا يحاربون العدو بشجاعة منقطعة النظير . وفى هذه الظروف العصيبة ، وعلى الرغم من تآزر قوى الشر والخيانة من الداخل والخارج ، بعد قرار مجلس الأمن بوقف القتال وعقد الهدنة بأكثر من أربعة شهور .

هـذه هى القنابل التى تعاقد عليها عبد الغفار عثمان بدون وازع من ضمير — ولا عجب فقد كانت حياته كذلك ضربا من الخيانة والفساد . وفيما يلى نبذة عن حياته كما جاءت بمحاكمات الثورة .. وعندما أراد الزواج بحث بادىء الأمر عن احدى الانجليزيات ليتخذ منها زوجة وبعد طول تنقيب راقت له احدى الموظفات اللاتى ترسلهن انجلترا الى البلاد المحتلة كى يعملن بها كموظفات وكجاسوسات فى نفس الوقت وتزوج عبد الغفار عثمان الضابط بالجيش المصرى بالانجليزية فيوليت الموظفة فى قسم الامدادات والتعويضات بالجيش الانجليزى — ولم يكن يملك سوى مرتبه لأنه لم يرث عن والده شيئا — ورشحته هذه الزيجة لأن يعمل فى السراى كدير للتحف ولما قامت حرب فلسطين تهيأت له وللسراى الفرصة الذهبية للاثراء فتاجر فى أرواح الضحايا — وتدفقت الأموال من كل جانب حتى بلغ رصيده وحده فى البنوك فى مدة تقل عن سنة مبلغ ٣٦ ألف جنيه واقتنى الأراضى والعقارات وركبت فيوليت الانجليزية السيارات الفاخرة — وسكنت بحى الزمالك بعد أن كانت تقيم فى حى السيدة زينب وأصبحت من سيدات المجتمع اللاتى يشار اليهن بالبنان بصفتها احدى نجومه وزوجة الضابط المسيطر على امدادات الجيش المصرى وحياة ضباطه وجنوده .

هذه عينة من ضباط الملك وسماسرته الذين أطلقهم ليعيثوا فى الأرض فساداً وليجمعوا له المال من كل جهة وبأى وسيلة . فهل كان عبد الغفار عثمان وحده فى هذا المضمار ؟؟ أيتحمل بمفرده وزر الجرائم الشنيعة التى ارتكبت فى حق البلاد والجيش ؟ ؟ كلا كان معه باقى أفراد الحاشية وعلى رأسهم المدبر والمستهتر الأكبر الملك فاروق .. فبينما كان عبد الغفار عثمان يقوم بعقد صفقات القنابل التالفة من شركة سكوزيو فى ميكانيكا من ايطاليا والمدافع الاسبانية عن طريق شركة أورليكون السويسرية بزيورخ . كان هناك عملاء آخرون للملك يوردون الدمار والهلاك للجيش المصرى الذى يحارب عصابات اليهود فى فلسطين ، فأرسل فاروق من يدعى أدمون جهلان وهو يهودى الجنسية وكان يعمل كرئيس حسابات للمصروفات والايرادات الخاصة للملك — الى الصحراء الشرقية حيث تراكمت ملايين القنابل الايطالية.

المختلفة من الحرب وبدأ فى جمعها ليبيعها الى الجيش المصرى الذى أرسلها بدوره الى الجبهة — ٢ مليون قنبلة فاسدة لا تساوى ثمن حملها تباع بمئات الألوف من الجنيهات. ولتساعد العدو فى الحاق الهزيمة بالجيش المصرى . أهو طمع أم خيانة أم كل هذه الموبقات مجتمعة ثبت بعد ذلك أثناء التفتيش أن وجدت عقود محررة بين أدمون جهلان وشخص يدعى كوهين وهو يهودى كذلك . على توريد مهمات باسم الملك ، وداثما الملك قاسم مشترك أعظم فى جميع الصفقات .

تصوروا معى الى أى مدى بلغت الخيانة — يهودى يورد الذخيرة الى الجيش المصرى الذى يحارب أهله اليهود فى فلسطين .

وكانت أسماء أدمون جهلان وكوهين وبوللى ومحمد حسن الخادم وحلمى حسين السائق والنبيل عباس حليم الى آخر قائمة حاشية الملك هى التى كانت تنشر الفساد والانحلال وتتعاون مع العدو لتضرب الجيش فى الظهر وهو فى الميدان ، هذه الحاشية وتلك القائمة هى التى كانت تحكم مصر فى تلك الفترة العصيبة من تاريخها .

دوفيل واكس ليبان:

الموائد معقودة والكئوس مرصوصة ـ والغانيات من كل لون يجلسن فى شبه حلقة ـ وأوراق اللعب تختلط مع أوراق البنكوت والضحكات المخمورة تردد صداها القاعة الفاخرة التى يجتمع فيها الملك مع أعوانه ومباذله . لقد كان الملك وهو قائد الجيش الأعلى يلهو فى دوفيل [1] . كما كان رئيس وزرائه مصطفى النحاس يصطاف فى اكس ليبان ـ فى الوقت الذى كان فيه الجنود والضباط يستشهدون فى فلسطين ، الألوف تجمع هنا من حصيلة الأسلحة والقنابل الفاسدة ترسل هناك الى الملك فى دوفيل وتبعثر ذات اليمين وذات اليسار على موائد القمار وتحت أقدام الغوانى .

أيجوز أن نستمع الى براءة الملك من هذه الصفقات الملوثة ؟ كما كان يذيع رجال حاشيته ؟ وهل يصح أن نوجه الاتهام الى رجال الحاشية دون الملك ؟ .

كثيرا ما حاول رجال الدراى دفع الاتهام عنه دون جدوى ، فقد كانت جميع الأنظار تتجه اليه ـ واليه وحده . حتى أصبح الشك حقيقة ـ وظهرت الجريمة سافرة تعلن عن نفسها . فقد ثبت من التحقيقات التى أجراها محمود عزمى النائب العام عندما أراد أن يتحقق من الأموال التى أودعت البنوك فى فترة حرب فلسطين بأسماء رجال الحاشية من شركات أجنبية وخاصة التى تتجر فى السلاح واتضح أن هناك مبالغ كبيرة أودعتها شركات الأسلحة البلجيكية باسم الملك فى البنك الأهلى ، كما أن مبالغ أخرى تزيد عـلى ١٥٠ ألف جنيه أودعت البنك البلجيكى فى ١٥/٩/١٩٤٨ باسم الملك نتيجة عمليات بيع الأسلحة الفاسدة ، وعندما تعاقد عباس حليم على توريد المدافع الأسبانية فى ٦/٤/١٩٤٩ أودع النبيل السابق باسم الملك مبلغ ١٠٠ ألف جنيه لموافقته على تمام هذه الصفقة . هكذا أدين الملك السابق فى صفقات

---

(١) توفى فاروق الملك السابق فى ملهى ليلى بايطاليا اثناء احدى حفلاته الماجنة فى ليلة ١٨ مارس سنة ١٩٦٥ .

الأسلحة وانكشف ما حاولوا اخفاءه . ومع هذا فلم تزل هناك خبايا فى كثير من الزوايا .

قرارات هامة :

ذلك أنه عندما وضح أن أدمون جهلان مدير حسابات الملك هو الوسيط فى شراء الأسلحة البلجيكية، وأن الشركة أودعت قيمة العمولة بالبنك لحساب الملك، أمرت النيابة بالقبض على أدمون جهلان ، وبتفتيش منزله ومكتبه . وعلى الرغم من أن أمر التفتيش كان سريا الا أن وزير الداخلية (١) استدعى النائب العام ثانى يوم صدور هذا الأمر أى فى يوم ١٠/٩/١٩٥٠ وأبلغه أن الملك يطالب عدم اجراء التفتيش . لأن بخزائن أدمون جهلان أوراقا للملك وعلى النيابة أن تنتظر حتى يحضر أدمون من دوفيل وتفتح الخزائن بوجوده وبحضور نجيب سالم مدير الخاصة بالنيابة . وبعد أسبوعين حضر جهلان وكان أمر القبض قد أخطر لجميع الجهات المسئولة بما فيها المطارات ، وكان المفروض أن يقبض عليه بمجرد نزوله من الطائرة ويسلم للنيابة لاجراء التحقيق ، ولكن شيئا من ذلك لم يحصل فماذا تم فى أمر القبض ؟ وما هو دور وزارة الداخلية المكلفة بذلك ؟ .

وصل أدمون جهلان فى مساء يوم ٢٦/٩/١٩٥٠ ، وكانت تنتظره عربة من عربات السراى الحمراء الفاخرة وبها بعض رجال الحاشية وتحت أنظار رجال البوليس خرجت السيارة من مطار فاروق الدولى . واتجهت الى مكتب أدمون جهلان وفتحت الخزائن وسرقت المستندات الباقية التى تدين الملك وحاشيته ثم توجه أدمون الى باقى الأماكن والمخابىء التى يخفون فيها جرائمهم وأحرق جميع الأوراق الهامة التى تفيد التحقيق .

والى هنا كانت مهمة أدمون جهلان قد انتهت فعاد الى دوفيل يزف البشرى الى سيده ــ وكأن شيئا لم يحدث .

كيف وقع كل هذا أمام بصر الحكومة ورجال البوليس . ولماذا لم تنفذ أوامر النيابة ويحترم القانون ؟! .

---

(١) فؤاد سراج الدين :

هنا يبرز لنا دليل آخر على ادانة الملك ، ان كانت المسألة تحتاج الى دليل آخر ذلك أنه لما كان الثابت أن بخزائن جهلان الوثائق الدامغة على جريمته فقد كان لا بد من أن يتصرف الملك بسرعة لاخفائها ، ومن القاعة الحمراء وبين النوافى التقط الملك التليفون ليتصل بوزير الداخلية ممثل الحكومة ليخطره بأن جهلان سيحضر الى القاهرة وعلى الوزير أن يسهل له جميع طلباته ويمكنه من الهرب ثانية الى دوفيل بعد أن يفتح الخزائن ويأخذمنها ما يشاء . هكذا سارت الأمور — وهرب جهلان وانتصرت الجريمة ولكن الى حين .

تاجر الدواجن :

لم يكتف الملك بكل هذه الاحتياطات وانما مضى جاهدا الى ضياع معالم الحقيقة وتشويهها وتبرئة رجال السراى مما نسب اليهم — واظهارهم بمظهر من اعتدى عليهم بدون وجه حق ، وبعد تفكير رأى أن أقرب طريق الى ذلك هو شراء ذمم رجال النيابة بأن يمنيهم بالمناصب الرفيعة والترقيات العاجلة السريعة . لقاء أن يطمسوا معالم القضية ويحفظوا التحقيق .

وفى أمسية من ليالى يناير سنة ١٩٥١ الباردة ، كان يجلس فى محل تاجر الدواجن بميدان العتبة يدعى الشيمى شخصان هامان وان كانت طبيعة عملها تجعل من وجودهما معاً شيئاً غير طبيعى ، أولهما محمد حسن خادم الملك ، وأمينه الخاص ، وثانيهما محمد كال قاويش رئيس نيابة الصحافة فى ذلك الوقت ، وطلب الاول من الثانى أن يتصل بالنائب العام ليحفظ التحقيق ، وأنه يتحدث باسم الملك وأضاف بأنه يعد بأن يعين القاويش نائبا عاما ومحمود عزمى وزيرا للعدل . اذا حفظ التحقيق . وتم الاتصال بين القاويش ومحمود عزمى وعرض عليه طلبات الملك .

وتشكك النائب العمومى فى كلام القاويش واستبعد أن يكون موفدا من قبل الملك ، ولكن القاويش جاءه بدليل قاطع يؤكد هذا الاتصال فقد أخبره بأن سراج الدين سيتصل به الساعة السابعة من مساء يوم معين ليخبره برغبة الملك فى حفظ التحقيق وسيردد على مسامعه نفس الكلام الذى رواه له القاويش — واتصل سراج

الدين بالنائب العام فى اليوم الذى عينه القاويش وأبلغه رغبة الملك وبذلك تحقق النائب العام من صدق رسالة القاويش .

وعلى أثر ذلك تم لقاء آخر بمحل تاجر الدواجن بين النائب العام والقاويش وكان ينتظرهما فيه خادم الملك محمد حسن .

وبعد ذلك بقليل حفظ التحقيق فى قضية الأسلحة الفاسدة بالنسبة لجميع المتهمين وبذلك أكتملت الحلقة وأقام الملك بنفسه الدليل على ادانته هو ومن معه ، فلم يكن حفظ التحقيق سوى الدليل الأخير من الأدلة العديدة التى أوردناها على ادانة الملك وحاشيته .

ولقد كشف ثورة ٢٣ يوليو الكثير عن هذه الأسرار أثناء محاكمتهم أمام محاكم الثورة التى شكلت سنة ١٩٥٣ وأمسكت برقاب المتهمين فقدموا للمحاكمة من جديد وحاسبتهم على الجرائم التى اقترفوها فى حق البلاد وكانوا يعتقدون أنهم أفلتوا من العقاب وأصبحوا بمنجاة من يد العدالة . وما دروا بأن عين الله ساهرة لاتغفل وان أمهلتهم الى حين . وقد شكلت المحكمة التى سميت محكمة الثورة برئاسة عبد اللطيف البغدادى وعضوية حسن ابراهيم وأنور السادات وقضت فى ٥٣/١١/٧ على عبد الغفار عثمان بتجريده من رتبته العسكرية والنياشين والميداليات الحاصل عليها وسجنه ١٥ عاما ومصادرة كل ما زاد من أمواله وأملاكه هو وزوجته شفيقه (الأولى) وفيوليت (الثانية وهى انجليزية) عما كان لديهم قبل أول يناير سنة ١٩٤٦ لصالح الشعب أى قبل حرب فلسطين أما حلمى حسين السائق الخاص للملك والذى رقى حتى وصل الى رتبة الأميرالاى فقد جردته المحكمة من رتبه العسكرية وصادرت ما قيمته ٧٠٦٧٢ جنيه من أمواله وأموال زوجته وأعفته من عقوبة السجن لمرضه . كما قضت على كريم ثابت مستشار الملك الصحفى وصادرت كل مازاد من أمواله هو وزوجته عما كان يمتلكانه قبل ١٩٤٦/٥/٢٧ وقضت على أحمد النقيب وهو طبيب الملك الخاص وأحد أعوانه المقربين بسجنه ١٥ عاما ومصادرة مازاد من أملاكه بعد سنة ١٩٣٩ .

أما محمد كامل القاويش فقد قضت بسجنه ١٥ عاما مع وقف التنفيذ وتجريده من شرف المواطن ، كما سجلت المحكمة فى حكمها وهى فى شدة الأسف المسلك المعيب الذى سلكه النائب العام الأسبق محمود عزمى وموقفه من تحقيقات الأسلحة والذخيرة الفاسدة واذعانه لأمر فؤاد سراج الدين بحفظ التحقيق ، وكان الملك وبطانته يعتقدون أن النيابة بحفظها التحقيق سيسدل الستار على جريمتهم الى الأبد وأن خياناتهم ستظل طى الكتمان ، ولكن عين الله التى لاتنام لم تغفل عنهم فلم يكد تمضى ثلاث سنوات من قرار النيابة بحفظ التحقيق حتى بعث من جديد بعد قيام الثورة وجىء بالمجرمين فى الأصفاد واقتص منهم الشعب فى محكمة الثورة .

وكان حفظ النيابة للتحقيق وهى السلطة القضائية المستقلة التى لا سلطان لأحد عليها - وبأمر الملك يعد غاية الفساد . ويعنى ذلك أن الدولة قد تنازلت للملك وحاشيته عن آخر ما كان لها من سلطات . فلم يعد الملك يفعل مايشاء فحسب بل صار يرتكب الجرائم ويتستر على مقترفيها من عملائه، واذا وجد الرجل الحر النزيه الذى يحاول أن يقر العدل ويطبق القانون لم يزل يغويه أو يقربه اذا لم ينفع التهديد والوعيد ، وبذلك كان الملك يزداد قوة فى نظر نفسه وهو فى الواقع يزداد قربا من الهاوية حتى أصبح على شفا جرف هاو منها وعميت بصيرته ، عن ادراك ما هو مقبل عليه بسبب ما كان غارقا فيه من مباذل وشهوات حتى أفاق على دقات الثورة التى أطاحت بعرشه فى قرار سحيق من الهاوية .

الباب السادس

كفاح الشعب المصري في القنال
بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦

١ — الشعب يجبر الحكومة على الغاء المعاهدة

٢ — كفاح الفدائيين الوطنيين فى القنال

٣ — موقعة كفر أحمد عبده

٤ — معركة التل الكبير

٥ — كفاح الشباب والشرطة

١ ــ الشعب يجبر الحكومة على الغاء المعاهدة

مجلس الأمن يخذل القضية المصرية .

تحدثنا آنفا عن مشروع معاهدة صدقى ــ بيفن ، ولمسنا مدى تشبث الانجليز ببقائهم فى مصر وعدم اعترافهم بحقها فى الجلاء ، بل انها نقضت من جانبها معاهدة سنة ١٩٣٦ بنفسها وجلبت آلافا من الجنود لسبب الحرب وأبقتهم فى مصر ، حتى بعد أن توقف اطلاق النار باستسلام ألمانيا ولم تحترم المعاهدة التى لم تجز لهم الا البقاء فى منطقة القنال وبقوات محدودة لا تزيد على عشرة آلاف جندى ، ولذلك لم يجد النقراشى باشا أمامه عندما ألف الوزارة فى ١٩٤٦/١٢/٩ الا أن يتقدم بمطالب مصر الى مجلس الأمن بعد أن وضحت له نوايا انجلترا الخبيثة وعدم جدوى المفاوضة كطريق للجلاء . وسمعت الدول صوت النقراشى يدوى فى أرجاء المجلس يوم ١٩٤٧/٨/٥ قائلا : « نطلب اليكم أن تقرروا اجلاء القوات البريطانية جميعها عن وادى النيل ، وأن يكون هذا الجلاء كاملا غير مشروط .

« ونقرر نحن المصريين بأن معاهدة سنة ١٩٣٦ لاتعبر عن رضائنا ، وأنها جاءت مناقضة لأحكام اتفاقات دولية فضلا عن كونها لا تتلاءم مع أحكام الميثاق. وأود أن أكرر أنه مادام الاحتلال باقيا فلن يكون فى الطوق الحد من سخط الشعب، ولا هناك سبيل الى اخماده اذا اشتعل ، وأن زمام الأمر ليفلت بسهولة فى مثل هذه الأحوال . وحينئذ فلن تغنى النيات السليمة لحكومتى شيئا » .

ولكن مجلس الأمن تردد فى اصدار قرار الجلاء ارضاء للدول الاستعمارية . ورفضت انجلترا أن تتقدم خطوة واحدة للوزارات التى جاءت بعد وزارة النقراشى وظلت على موقفها العدوانى من مصر حتى جاءت حكومة النحاس فى يناير سنة ١٩٥٠ بعد استقالة وزارة حسين سرى فى ١٢ ــ ١ ــ ١٩٥٠ ورأت أن تحقق ما عجزت عنه الوزارات السابقة من مطلبى الجلاء والوحدة بصفتها حكومة الأغلبية ولكنها فشلت تماما عن الوصول الى أى اتفاق . بل ان الانجليز رفضوا صراحة الجلاء على لسان

المارشال سليم رئيس أركان حرب الجيش البريطانى ، ولم يكتفوا بهذا بل ضاعفوا من عدد جنود الاحتلال وكانت تصرفاتهم تنطوى على اعتداء مستمر على مصر وعلى وحدة وادى النيل . وقد حاول النحاس أن يصل الى اتفاقية قريبة من اتفاقية صدقى — بيفن التى عارضها وبينا شطرا منها فيما سبق ، ولكن الانجليز ضنوا عليه بها . وهو صديقهم القديم والأثير لديهم ، والمنفذ لطلباتهم والمحقق لرغباتهم ، لأن الانجليز لا يعرفون سوى مصالحهم أولا وقبل كل شىء ، وما كان الوزراء الذين يعضدونهم ويأتون بهم غير أدوات لتحقيق مطالبهم وللوصول بها الى أهدافهم . ولهذا تنكروا حتى للنحاس ! ورفضوا أن يعقدوا معه أى اتفاق يرقى لمشروع معاهدة صدقى — بيفن ! ورفضوا الجلاء . وكان النحاس يستعطفهم قائلا لهم :

« لقد اتفقتم مع صدقى باشا على أن يتم الجلاء التام فى سبتمبر سنة ١٩٤٩ فكيف يمكن أن أقول للشعب غير ذلك ؟ اوقد كنا ضد صدقى فى ارجاء الجلاء الى ذلك التاريخ ، وطلبنا الجلاء الناجز ، ولو أن اتفاق صدقى — بيفن قد أبرم فى ذلك الحين لما بقيت الآن فى مصر قوات بريطانية » .

وكان رد الانجليز يجىء دائما بالرفض وأنه لا جلاء . ثمانية عشر شهرا والنحاس يتمسح بأعتاب الانجليز يستجدى حقوق مصر وهو يعلم بأن المفاوضات ما أجدت فى أى فترة من فترات الاحتلال الطويلة . وانما ثبت فشلها . وما كانت المفاوضات سوى وسيلة الى الحكم ومخرج للمساومة على حقوق البلاد يكسب فيها دائما الطرف الأقوى . فلما فشل النحاس فى التفاوض مع الانجليز . وكانت الحالة السياسية والداخلية غاية فى السوء لانتشار الفساد والمحسوبية والاستغلال ، وكانت فضيحة الأسلحة الفاسدة تزكم الأنوف ، شعر أن الأرض تميد من تحت قدميه ، وأن كرسى الوزارة يهتز وهو فوقه ، ورأى أن يهدىء النفوس الثائرة ويطمئن الرأى العام القلق ويثبت وزارته قبل أن تطيح بها كل المساوىء والمباذل والفضائح التى ارتكبها فأقدم على اجراء حقق له الهدف الذى سعى اليه .»

من اجل مصر :

وفى يوم ١٩٥١/١٠/٨ وقف النحاس فى البرلمان ليعلن قطع المفاوضات والغاء المعاهدة . وقال كلمته المشهورة أثناء القاء البيان : (انه من أجل مصر عقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أعلن اليوم الغاؤها) . وبهذا أصبحت القوات الانجليزية فى مصر بدون سند قانونى يعضدها أو يبرر وجودها ، ولم تعد تتمتع بالامتيازات والحقوق المستمدة من معاهدة سنة ١٩٣٦ ، واصبح بقاؤها بعد الالغاء بمثابة اعتداء مستمر على الاراضى المصرية يتحتم على الحكومة والشعب مقاومته وعدم مهادنته . وكان المفروض أن الحكومة التى قررت الغاء المعاهدة قد اتخذت كل الاجراءات والتدابير لمواجهة الحالة التى تنشأ بعد هـذا الاجراء — وأنها استعدت لحماية الشعب من اعتداء القوات البريطانية ، ورتبت احتياجات الشعب فى نضاله ضد هذه القوات وقد صرح النحاس باشا عقب الغاء المعاهدة بأن الحكومة أعدت لكل شىء عدته منذ وقت طويل قبل أن تقدم على خطوة الالغاء ، واستقبل الشعب بجميع طوائفه وهيئاته خبر الغاء المعاهدة بمزيد من الحماسة والسرور واستعدوا منذ الساعة الأولى للكفاح وانتظروا اشارة الحكومة ببدء النضال ضد القوات البريطانية الغاصبة ، ولكن الانتظار امتدت ساعاته وطالت أيامه والحكومة لاتزال تصطاف فى الاسكندرية ولم تقم بأى اجراء لتهيئة الجو للكفاح أو لدفع حركة المقاومة الى الأمام أو حتى لاتخاذ أى اجراء لوقف اعتداء القوات البريطانية . على أفراد الشعب فى منطقة القنال .

دور الشعب .

ولم ينتظر الشعب خطوة الحكومة التالية بعد الغاء المعاهدة ، وانما هب من تلقاء نفسه وبوحى من شعوره ووجدانه لأداء الواجب الذى يتطلبه الموقف الوطنى فى تلك الآونه فانسحب العمال الذين كانوا يعملون بالمعسكرات البريطانية منها وكانوا يقدرون بحوالى ٦٠ ألف عامل وموظف ، وامتنع سائقوا وعمال القطارات من من نقل الجنود والمعدات البريطانية ، كما رفض عمال الشحن والتفريغ عن تفريغ

حمولة البواخر البريطانية بمنطقة القنال ولم يكتف المصريون بذلك بل امتنع المتعهدون والموردون الذين كانوا يمولون القوات البريطانية بمواد التموين — رغم ماكانوا يربحونه نتيجة لذلك ، وكانت هذه المقاطعة الاجماعية الرائعة دليلا على وعى الشعب وتصميمه الراسخ على مقاومة الاستعمار وعدم معاونته والصمود فى وجهه ومحاربته بكل الطرق والوسائل مها تكبد من خسائر .

وقد سببت مقاطعة المصريين للقوات الانجليزية فى منطقة القنال عرقلة مواصلاتهم واشاعة الفوضى فى حياتهم اليومية وكبدتهم ملايين الجنيهات مما اضطرهم الى جلب موظفين وعمال آخرين من انجلترا والبلاد الموالية لهم ، كما استعانوا للتغلب على مشكلة التموين التى وضعهم فيها الموردون المصريون الى استيراد بعضها من الخارج بمبالغ كبيرة وأسعار مرتفعة من ناحية ، عدا ما كانت القوات الانجليزية تسلبه وتستولى عليه كرها من المحال التجارية والمناطق الزراعية المتاخمة المعسكرات من ناحية أخرى .

ولم يكن الشعب ليرضى أو يقتنع بمقاطعة القوات البريطانية وعدم التعاون معها ، بل كان يتطلع الى مقاومتها ايجابيا ومواجهتها فى حرب سافرة ، وعدم السماح للجنود البريطانيين بالتمتع بالراحة والطمأنينة التى كانوا يتمتعون بها فى ظل معاهدة سنة ١٩٣٦ ،وتحويل منطقة القنال الى جحيم مستمر لا يهدأ أواره ،وبذلك تنعدم القيمة العسكرية لهذه المنطقة التى يعتمد عليها الانجليز كل الاعتماد ، ويصبح يقاومهم فيها مهددا من الداخل والخارج بخطر بالغ .

اعتداءات وحشية :

أدى العمال والموظفون والموردون بالمعسكرات البريطانية دورهم الوطنى كاملا ، وانتظر الشباب دعوة الحكومة لتدريبهم وتسليحهم استعدادا للمقاومة دون جدوى وحار الشباب بين موقف الحكومة المتواكل وبين واجبه الوطنى ولم يجد أمامه سبيلا لاظهار شعوره سوى التنفيس عنه بالمظاهرات .

فقامت فى يوم ١٦/١٠/١٩٥١ جماعات من الأهالى والطلبة والعمال فى مدن القنال بمظاهرات تؤيد الغاء المعاهدة وتطالب بالسلاح وتنادى بتشكيل كتائب التحرير التى وعدت بها الحكومة .

ولم ترق هذه المظاهرات للانجليز ، فأمر الجنرال أرسكين قائد القوات البريطانية باخمادها بقوة السلاح . وعلى الفور نزلت السيارات المصفحة المزودة بالمدافع الرشاشة ، واعترض الجنود طريق المتظاهرين ، وأطلقوا عليهم الرصاص لا للارهاب بل بقصد القتل .. وساد الذعر والفوضى مدن القنال ، وسقط ثمانية من القتلى فى مدينة الاسماعيلية ، وخمسة فى مدينة بورسعيد ، عدا الجرحى الذين بلغوا أكثر من تسعين جريحا تخضبت بدمائهم شوارع المدينتين ، واحتلت القوات الانجليزية جميع المكاتب والمصالح الحكومية بمنطقة القنال ، وطردت الموظفين المصريين ، كما قامت القوات البريطانية فى يوم ١٧/١٠/١٩٥١ بهجوم على القوات المصرية التى كانت تعسكر بجوار « كوبرى الفردان » واعتدت عليها واستولت على هذا «الكوبرى» بعد أن قتلت بعض الجنود وأسرت باقى القوة ! ولم تقف الأعمال الوحشية للقوات البريطانية عند هذا الحد ، بل احتلت منطقة القنال بأكلها وفرضت ستارا حديديا عليها ، وعزلت المدن والقرى بمنطقة القنال عن باقى مدن القطر ، وبدأت الدوريات تقبض على الموظفين والجنود وتستعبد من تغضب عليه وتستبق من ترضى عنه . وتضطهد الأهالى وتعتدى على الآمنين من السكان — وتنهب البضائع من المحال والمتاجر — وتستولى على الأراضى المزروعة خضر وفاكهة — وتسلب ما يقع تحت يدها من مواد التموين الخاصة بالأهالى وتحرمهم قوتهم ، وبذلك ساد منطقة القنال حالة من الفوضى والذعر والارهاب لم يسبق لها مثيل من قبل .

قبيل المعارك :

كان ضباط الجيش المصرى يراقبون الحالة بقلق زائد ، وكانت قد تكونت

منهم منذ سنة ١٩٣٨ جماعات سرية صغيرة — كما بينا فيما سبق — وكانت تسمى بالتشكيل العسكرى. كما كانت هناك أيضا جماعات من شباب الشعب المثقف كونت فيما بينها خلايا سرية تهدف لنفس الغرض الذى يسعى اليه جماعة الضباط وكانت هذه الجماعات من الشباب تسمى بالتشكيل الشعبى . ويذكر السيد « أنور السادات » ذلك فى كتابه « صفحات مجهولة » اذ يقول :

« وكنا قد رسمنا على أن ننشىء تشكيلا شعبيا وتشكيلا عسكريا يعملان جنبا الى جنب كل بوسائله وكل بخططه ولا يرتبط أحدهما بالآخر بأى ارتباط ظاهر حتى تأتى اللحظة المناسبة » . وقد سمى التشكيل العسكرى بعد ذلك باسم الضباط الأحرار ،وسنبين الدور الهام الذى قاموا به طوال هذه السنين حتى قيامهم بالثورة عند الكلام عن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

والواقع أن التشكيل العسكرى بمجرد الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ بدأ فى العمل واتصل بأفراد التشكيل الشعبى رغبة منه فى تنسيق الكفاح وتوحيد حركة المقاومة وبدأ الجميع فى دراسة الموقف واستعرض المشاكل والصعاب التى سيقابلونها ليجدوا لها الحلول — ويتفهموا طبيعة المعركة الجديدة — والظروف المحيطة بها من مالية وسياسية وعسكرية واجتمع الرأى على أن يتوجا الى منطقة القتال وفد يمثل التشكيلين لوضع الأسس الأولى لحركة المقاومة دون انتظار لمعاونة الحكومة أو توجيهاتها ..

ورأت الجماعة أن توجه منشورين الى القوات البريطانية : أحدهما الى الجنود والضباط ، والثانى الى أسرهم المقيمة خارج المعسكرات . يعلنون فيها بداية الكفاح، ويبينون لهم دقة مركزهم وخطأ موقفهم تجاه شعب يريد الحرية والاستقلال وقد تم طبع هذين المنشورين ووزع المنشور الأول الموجه الى الجنود فى ١٩/١٠/١٩٥١ وهو باللغة الانجليزية .

. وهذا نص المنشور الأول :

What a terrific show you are putting up. Shooting down defenceless civilians, you are to be applauded for your gallantry. How would you like a taste of your own medicine ? for that is exactly what you are going to get according to an old law which says an eye for an eye, and a tooth for a tooth.

This is not your fight keep out. This is not your country get out.

You have been warned.

وترجمة المنشور :

(أيها الجنود الانجليز .أية مهزلة تمثلونها فى مصر وأنتم ترمون بالرصاص العزل من أهل البلاد ؟ ! انه لعمل مشين يحط من كرامة بلادكم — هل تريدون أن تذوقوا من نفس الكأس ؟ ان هذا سيكون لكم قريبا . بناء على القانون الطبيعى : العين بالعين والسن بالسن . ليس هذا رسالة جهادكم فابتعدوا . هذه ليست بلادكم فاخرجوا ، ولقد حذرناكم . وان المسئولية فى رقاب قوادكم عن كل ما سوف تذوقونه منا) .

ولم يكن توزيع هذه المنشورات داخل المعسكرات بالأمر اليسير ، لأن الانجليز كانوا قد قطعوا الاتصال بين منطقة القنال وباقى مدن القطر وفرضوا رقابة دقيقة على المسافرين . ولكن الفدائيين عرفوا أنه لايزال يعمل بالمعسكرات بعض العمال الذين يقومون بجمع القمامات . وعن طريق هؤلاء العمال الذين كان الانجليز يعتقدون أنهم مسالمون الى حدما وليسوا بذوى خطر عليهم ، تم توزيع المنشورات التى رأت الجماعة أن تبدأ بها الكفاح .

وشرعت الجماعة بعد ذلك فى اعداد الشباب للكفاح المسلح واختيار المدربين منهم للتفرغ الكامل لتحمل عبء المسئولية الجسمية ، فسافر بعضهم الى الاسماعيلية والتل الكبير ، وسافر آخرون الى السويس ، وقد روعى أن يكون بجانب الشباب المثقف بعض الأهالى ممن تكون لهم دراية تامة بالمنطقة . وعلى الرغم من صعوبة الاختيار وما واجهته من ملابسات ، فانه تم تكوين فرق المقاومة فى مدن القنال فى مدى أيام قليلة .

ففي الاسماعلية كانت هناك كتيبة التدمير التي قامت بالكثير من الأعمال الجليلة — وبالتل الكبير كتيبة تكونت أطلق عليها خالد بن الوليد — وأما في السويس فقد كانت هناك كتيبة باسم الشهيد أحمد عبد العزيز ، وكان ينقصها المال والسلاح ، فأعيد تنظيمها ووحدت مع غيرها من الكتائب التي كانت تعمل منفردة . وقد حملت هذه الكتيبة وحدها العبء كله في مقاومة الانجليز بالسويس .

ثم تكونت بعد ذلك كتيبتا مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكانتا تعملان بمنطقة التل الكبير وأبي حماد[1]. وأمرت هذه الكتائب بالعمل فورا على أن تركز عملها في أمرين: أولهما الاستيلاء على الأسلحة من الجنود أثناء تنقلاتهم وابتعادهم عن معسكراتهم .

وثانيهما القاء القنابل على المواقع الهامة والحيوية كمحطات البترول ومخازن الذخيرة وعلى ما يصادفهم من عربات ولوريات أو مصفحات .

ويهمني أن أبين هنا مصادر المال والذخيرة التي أمد بها التشكيل هذه الكتائب في نضالها ، فقد جمع أعضاء التشكيل المال من بعضهم ، كل بحسب قدرته . وتجلت روح البذل والكرم بدرجة كبيرة حتى أنهم جمعوا في يومين ٣٢٠ جنيها . أما السلاح فكانوا يحصلون على بعضه بالشراء من تجار الأسلحة وبعضه الآخر من الجنود الانجليز ومن الأهالي في الريف ، ومما كان يجلبه الضباط المصريون من الجيش ، وبخاصة القنابل اليدوية ومواد التدمير كالجلجنيت ومادة T.N.T. — وقد صنع الاخصائيون منهم قنابل محلية وزجاجات حارقة شديدة الانفجار سميت بقنابل مولوتوف . وكان لها أثر كبير في المعارك التي دارت بعد ذلك .

---

(١) من هؤلاء الوطنيين نذكر الدكتور عصمت سيف الدولة وحسن البسيوني المحاميان بالتل الكبير ، ومصطفى الجيار ومحب السباعي وعبد الهادي نجم الدين بالسويس ، والطيار حسن عزت وسعد زغلول فؤاد ، و مدحت فخري ، وعز الدين كامل ، وعلي رمزي بالتل الكبير وزكريا صلاح الدين ، وعبد الرءوف بدير ، ومحمود مدمد بالاسماعيلية .

ماهية الحركة :

سنذكر فى هذه الصحفة والصفحات التالية — شطرا من كفاح الشباب فى القنال كما وقع وبكل صدق وأمانة . ويهمنا أن نبرز الدور الذى قام به الفدائيون فى نضالهم المجيد ضد القوات البريطانية ،وأن نبين ماهية المعارك التى قامت فى تلك الفترة الدقيقة من فترات مصر . لأنه على الرغم من أن الصحف كانت تذكر بعض تلك المواقع فى حينها الا أنها لم تكن تشير الى أعمال الفدائيين دون تحيز أو محاباة ، ولم تحاول كذلك أن توضح هذه المعارك وتتحقق من وقوعها فى تواريخها، وانما كانت تنشر ما يملى عليها من مندوبها الخاص فى تلك المدن أو القرى ، وبذلك خرجت صور أعمال الفدائيين مشوشة ومهزوزة وغير واضحة .

كما أن الكتاب الذين أرخوا لهذه الفترة لم يذكروا لنا شيئا عن سير هذه المعارك وتطورها الحقيق .

ويهمنى وأنا أكتب عن هذه الفترة أن أبرز كفاح الشعب فى القنال ونضاله ذلك النضال المتأصل جذوره فى تربة مصر والذى لم يخمد أبدا على مدى السنين الطويلة .

٢ ــ كفاح الفدائيين الوطنيين فى القنال

العمليات الأولى :

بدأت المعارك فى أول الأمر بالاستيلاء على الأسلحة من العربات أثناء وقوفها أو سيرها من الجنود الذين كانوا يتنقلون بين ارجاء المدينة ، وكان الوطنيون يسلكون فى سبيل ذلك طرقا شتى ، منها أن يستقل وطنيان دراجتيهما ويتجولان بالمدينة حتى إذا لاح لهما جندى انجليزى ومعه بندقية أو مسدس يتقدم الأول ليصدمه بالدراجة ، بينما يخطف الثانى السلاح منه وقت الارتباك ثم يوليان الهرب. ومن ذلك أيضاً خطف السلاح من سائق سيارات الجيش البريطانى أثناء وقوفها ، بأن يتقدم أحد الوطنيين من سائق السيارة محاولا أن يعرض عليه أى شىء بينما يكون الآخر قد فتح باب العربة وخطف البندقية التى تكون بجواره . وفى بعض الأحيان عندما يتحرج الموقف كان الوطنيان يقتلان الجندى ويسرقان بندقيته .

ثم تطورت المعارك بعد ذلك لأن القيادة البريطانية أمرت بأن يستصحب السائق جنديا آخر كحارس له ، وقد قابل الوطنيون هذا الاجراء بشراء عربة يكمن فى مقدمتها أحدهم ، وتسير خلف سيارة الانجليز حتى إذا ما اقتربت منها قفز الفدائى الذى فى مقدمة السيارة إلى سيارة العدو ويوقف العربة بقوة التهديد ويأخذ الوطنيون ما بها ويلقون العربة فى ترعة الاسماعيلية إن كانت قريبة أو فى أى جهة أخرى بعد قتل السائق والحارس .

وعادت القيادة فأصدرت أمراً بأن يكون فى كل عربة أربعة جنود أو ثلاثة على الأقل : جندى بجوار السائق ، وجندى أو جنديان فى العربة نفسها ، ويكون اتجاههما عكس سير السيارة لمراقبة الفدائيين .

كانت هذه أولى العمليات ، ثم تحول العمل إلى شىء آخر ، ففى الليل كان الفدائيون يرابطون حول المعسكرات يطلقون النار عليها ويتدربون على إصابة الكشاف الذى كان يضىء المنطقة المحيطة ، وقد أثمرت هذه العمليات الأولى للفدائيين

الانجليز بأن المقاومة الايجابية قد بدأت بالفعل والمهمة التى كان يؤديها جندى واحد جندت لها القيادة أربعة من جنود . وكان إطلاق النار على أى معسكر يعنى بقاء جميع جنوده على أهبة الاستعداد لئلا يؤخذو على غرة وبهذا يظل الجنود محرومين من النوم أو الراحة طول الليل ، وهذا وحده إقلاق ما بعده إقلاق .

ونجحت الخطوة الأولى للفدائيين وبلغ جملة ما استولوا عليه من الأسلحة ١٨ قطعة مختلفة الأحجام ، وشعروا بأنهم يزدادون قوة ، ورأوا أن يقوموا بهجوم ليلى مدروس على أحد معسكرات الانجليز لينقلوا المعركة من خارج المعسكرات إلى داخل خطوطهم .

المعركة الاولى :

وقع اختيار الفدائيين على محطة بترول نفيشة ، وهى تقع بجوار مدينة الاسماعيلية ، وهذه المحطة تمد جميع المعسكرات المحيطة بمدينة الاسماعيلية بالمؤن كمعسكر الطيران والجيش — وتعتبر من أكبر المحطات لدى الجيش البريطانى . ففيها مخازن ضخمة تحت الأرض تحوى الآلاف من صفائح البنزين المعبأة والمعدة لسد حاجة الطيارات والدبابات والسيارات .

ووضعت الخطة بعد دراسة هذا المعسكر دراسة وافية على أن يكون الهجوم من ناحية ترعة الاسماعيلية وطريق الانسحاب عبر عزبة أحمد عطا الله التى كانت تجاوز المعسكر من الناحية الشرقية . والتى كان صاحبها على صلة وثيقة بالانجليز ، لأنه كان يمدهم بالمؤن من خضروات وفاكهة ولحوم ويقبض منهم آلاف الجنيهات ، حتى أنه أنشأ لهم حظيرة كبيرة لتربية الخنازير لسد حاجياتهم منها . واتفق الفدائيون على تنفيذ هجومهم بعد منتصف الليل . وقسموا أنفسهم قسمين وكانوا تسعة . يكمن ستة منهم فى مكانين متباعدين على جسر الترعة المرتفع ، الذى كان بمثابة ساتر لهم من رصاص الانجليز ، والثلاثة الباقون مهمتهم وضع المتفجرات فى مخازن البنزين وصفائح البترول وعبر الفدائيون الثلاثة الترعة ومعهم المتفجرات وزجاجات مولوتوف ورشاش واحد من طراز ستن ، ثم تسللوا عبر الأشجار

المحيطة بالمعسكر ، وعندئذ بدأ الفريق المرابط على جسر الترعة فى اطلاق النار فى اتجاه الأنوار التى كانت تضىء المعسكر . ورد الجنود الانجليز على الفدائيين بسيل من الرصاص ، ثم سلطوا الكشاف الضخم الذى يتوسط المعسكر للكشف عنهم وركز الفدائيون تصويبهم نحو الكشاف حتى أصابوه ، وأفسدوا مفعوله . وفى أثناء إطلاق النيران نجح الفريق المهاجم فى عبور الأسلاك الشائكة واتجه كل كل فرد منهم إلى ناحية معينة ووضعوا المتفجرات فى عيون المخازن الأرضية وبين بعض الصفائح ، وكانت هذه المتفجرات تعمل بعد ٢٠ دقيقة من وضعها .

وعند انسحابهم تنبه لهم بعض الانجليز فأطلقوا عليهم نيران مدافعهم الرشاشة وعندئذ ألقى الفدائيون الثلاثة ما كان معهم من زجاجات مولوتوف على صفائح البنزين وخيام الجنود ، وكانت هذه الزجاجات تنفجر وتشتعل بمجرد ملامستها لجسم صلب،فلم تلبث النار أن اشتعلت فيه وأخذت صفائح البنزين تنفجر وتتطاير فى الجو فأحدثت دوياً كبيراً ، وهب الانجليز من كل مكان لوقف النيران ومكافحتها ومحاولة الحد من انتشارها ، وعمت الفوضى المعسكر وفى خلال ذلك الهرج تمكن الفدائيون من الانسحاب عن طريق عزبة عطا الله وتلاقوا مع زملائهم الذين كانوا يرابطون على جسر ترعة الاسماعيلية واتجهوا جميعا إلى الاسماعيلية عن طريق عزبة على عيد وقد أصيب فى هذه المعركة أحد المواطنين ، وهو من أهالى المنطقة ، برصاصة فى قدمه . وعندما عادوا إلى منازلهم كانت تباشير الصباح قد بدأت تلوح ، ولكن النجاح الكبير الذى حققوه واعتراف راديو فايد بهذه المعركة ووصفه لها بأنها أو معركة جدية منظمة للفدائيين خفف من إصابة الزميل المصاب وشجعهم على المزيد من العمل .

منشور الأسر الانجليزية :

رأت الجماعة بعد معركة نفيشة أن ترسل منشوراً إلى أسر الضباط والجنود على غرار المنشور الذى وجهه إلى الجنود ، وكان بعنوان « إلى العائلات البريطانية » .

وترجمته العربية كما يلى :

(سبق أن حذرنا الجنود والضباط الانجليز من بقائهم فى مصر لأن مصر ليست بلادهم والقضية التى يحاربون من أجلها هى قضية خاسرة لأنهـــا قائمة على الظلم والعدوان .

« ولقد وطدنا العزم على القتال والمهلة التى منحناها لكم قد انتهت سنحارب . وسنقاتل . وسنذبح ما يقابلنا من الضباط والجنود بالبنادق والقنابل والخناجر . سيدتى ستفتحين عينيك ذات صباح وإذا برأس زوجك أو أخيك أو ابنك أو أبيك فى تابوت والدماء الساخنة تسيل منه » .

« حذرنا الجنود والضباط ـــ ونعود الآن فنحذرك باعتبارك أنت وحدك التى ستواجهين الفجيعة أمام الجثث التى سنوافيك بها تباعا ومن الآن » .

ووزع الفدائيون هذا المنشور على جميع الأسر الانجليزية فى صبيحة يوم ١/١١/١٩٥١ فى السويس والاسماعيلية ولم يلق الفدائيون جهداً كبيرا فى توزيعه كما سبق أن لاقوا فى توزيع المنشور الذى وجهه إلى الجنود ، واتبعوا فى ذلك وسائل عديدة ، فكانوا يضعونه فى صناديق البريد المثبتة على واجهات منازل الأسر أو بوضعه تحت الأبواب ، أو بالقائه من النوافذ أو بتسليمه لصغار الأطفال ، أو بتركه فى عربات الأتوبيس الخاصة بهم حتى أن بعض الفدائيين كان يسلم هذه المنشورات للسيدات الانجليزيات يداً بيد أو بوضعها فى سلال الخضر التى كن يحملنها . وعلى كل فقد وزع المنشور فى المدينتين على كثير من الأسر بكل سهولة ويسر ، وكان له أثر كبير فى نفوس السيدات الانجليزيات فأشاع الذعر فى قلوبهن وبث فى نفوسهن الرعب ، وقد انعكس ذلك على أعمالهن وفى طرق تصرفهن فى حياتهن بعد ذلك ووقع كثير من الحوادث الطريفة أثر توزيع هذا المنشور ، منها أن إحدى السيدات استصحبت طفلها وتوجهت به إلى الحى الذى يقطن فيه الأهالى وأبدت رغبتها فى أن تعيش بينهم لأن فى هذا ما يضمن حياتها وحياة وحيدها ، ولم تعد إلى منزلها إلا بعد حضور البوليس الحربى البريطانى على

رأس قوة من الجيش وانتزعها قسراً ! وكان خوفهن دائماً على أساس من الواقع ، ذلك لأن الانجليز يخافون على الأخص من طريقة القتل بالخناجر والمدى التى كانوا يعتقدون أن العرب يجيدونها ، كما أن المنشور جاء بعد الحوادث والمعارك التى قام بها الفدائيون فى ذلك الوقت فوضح لهم أن الفكرة خرجت إلى حيز التنفيذ ، وأن المسألة لم تعد هزلا كما كانوا يتوقعون ، وأنه من غير المستبعد أن ترى المرأة الانجليزية ابنها أو أخاها أو زوجها مذبوحا وقد أرسلت إليها جثته فى تابوت كما حذر المنشور ، وبذلك كثر الجدل فى المنزل الواحد وتعدى إلى مناقشات مستمرة كان يثيرها النساء عن طبيعة وجود الانجليز فى مصر وهل هم على حق أو على باطل ، وما جدوى مقاومة الانجليز للمصريين بلا طائل ودون هدف .

ولم يكن أمام الانجليز إزاء ذلك الموقف سوى أن يقرروا ترحيل العائلات البريطانية من مصر ، واجتمعت القيادة وأمرت عائلات الضباط بالتوجه فورا وسيداتهن وزوجاتهن إلى بور سعيد حيث كانت فى انتظارهن السفينتان البريطانيتان أتلانتس ولاند فورى كاسل اللتان نقلتهن إلى بلادهن .

ومهما قيل فى هذا الاجراء الاجبارى فان الوطنيين اعتبروه انتصاراً لهم واعترافا من القيادة البريطانية بجدية النضال الشعبي وازدياد وطأته كما أنه نوع من الحرب فقد طار صواب الضباط نتيجة لابعاد أسرهم عنهم ، وطاش رشدهم لهذا الفراق وتبدل الحال من استقرار عائلى شامل إلى قلق وحيرة .

وقد كتب مراسل أخبار اليوم من إنجلترا الرسالة التالية تعليقا على ترحيل العائلات البريطانية :

(وصل إلى بلاك بول عدد من عائلات الضباط والجنود الانجليز فى قيادة السويس وقالت بعض الزوجات الانجليزيات أنهن تلقين منشورات مكتوبة بلغة انجليزية صحيحة جاء فيها : احرقى حقائبك وعودى إلى وطنك وحاولى أن تقنعى زوجك بأن يحذو حذوك واصحبيه معك ، أما إذا رفض زوجك النصيحة

فسنشحنه لك فى تابوت . وقالت زوجات الجنود أن هذه المنشورات وزعت بنظام دقيق . وأنها أثارت الرعب فى قلوبهن ..) .

منشورات بريطانية :

وقد رأى الانجليز أن يقاوموا المنشورات — أى منشورات الفدائيين بمنشورات مضادة تهدف إلى زعزعة الثقة فى نفوس المصريين وبث روح التشكك والتخاذل فى نفوسهم وإشاعة بغض المحكوم للحاكم، حتى أنهم نادوا بضرورة ثورة الطبقات المعدمة التى لا تملك شيئا على تلك التى تملك كل شىء.وما كانوا يعرفون أن هذه الثورة فى طريقها إلى الوجود ، كما كانت هذه المنشورات تهدف إلى طمأنة جنود الامبراطورية الذين بدءوا يتشككون فى عدالة ما يحاربون من أجله بعد أن أصبحت حياتهم وحياة أولادهم وزوجاتهم فى كفة القدر ينامون ولا يعرفون هل سيطلع عليهم النهار أو ستواريهم أرض الفراعنة .

ومن هذه المنشورات ، نشرة أنباء القنال ، بالعربية Canal zone. Anew وبالانجليزية .

ولقد جاء فى احدى هذه النشرات مايلى :

« لقد انخفض دخل الحكومة المصرية من الجمارك بحوالى ٥٠ ٪ فماذا هى فاعلة؟ هل تتخذ خطوة سريعة لفرض ضرائب باهظة على الأغنياء ، ويقول المسئولون فى مصر أن فرض ضرائب جديدة يكاد يكون مستحيلا لأن ذلك سيسبب غلاء المعيشة وارتفاع الأسعار يوما بعد يوم ، وقد تسلك الحكومة طريق الاستسلام ومجابهة الفاقة والقنوط وذلك بطبع أوراق نقدية إضافية وطرحها للتداول .

كما نشرت القوات البريطانية فى إحدى نشراتها فى سبيل إثارة طبقات الشعب ضد الحكومة والأغنياء فقالت : « ذكرت الصحف المصرية أن قسم الميزانية التجارى لوزارة التجارة والصناعة وضع كشفا بما استوردته مصر من الخارج خلال العام المنتهى أمس الأول وقد جاء فى هذا الكشف ما يلى :

عشرة ملايين من الجنيهات ثمن مجوهرات وأحجار كريمة .

تسعة ملايين جنيه ثمن سيارات ملاكى .
ستمائة ألف جنيه ثمن روائح عطرية .
. . ٥ ألف جنيه ثمن أسلحة وذخائر .

ولا حاجة بنا إلى التعليق على هذا النبأ فأرقامه تتكلم عن نفسها وتعطينا صورة واضحة عن حياة الرفاهية التى ينعم بها ثراة مصر وتعكس لنا صورة قاتمة عن حياة الفاقة التى يحياها الفقراء وهم السواد الأعظم من الشعب » .

وقال الانجليز فى نشرة أخرى : « لقد ارتفع كل شىء ، وحسب تقرير الحكومة بلا استثناء فى جميع مواد الغذاء كاللحوم والجبن والمسلى والزيت والبيض والزبدة والسكر والفلفل والبن والثوم والبصل والسردين والبطاطس واللوبيا والليمون والبلح الابريمى فماذا يفعل الموظف الذى لا يكاد مرتبه يكفى لطعام شخص فما بالك به وهو يقتات به هو وأولاده » — بهذه النشرات كانت تحاول بريطانيا الرد على منشورات الفدائيين فى محاولة لاثارة الفتن والقلاقل بين الطوائف ضد الحكومة من جهة ، وهى من جهة أخرى محاولة لتثبيت الثقة فى قلوب جنودها الذين ملأهم الخوف والقلق .

وقد قام الوطنيون بتوجيه منشور آخر ضد من ظل يعمل مع الانجليز من المصريين حتى ذلك الوقت وكان يتزعم هذه القلة من يدعى محمود صبرى الذى كان يتجسس على المصريين ويقبض من الانجليز الثمن وقد لاقى جزاءه على يد الفدائيين.
كما كتب أحدهم نشيداً للثورة لحنه الموسيقار مدحت عاصم ، وكان يعمل فى حركة المقاومة ونشر وحفظه الكثيرون وقد أدخله مدحت بعد ذلك فى فيلم مصطفى كامل وسطوره هى :

الثورة يامصر الثورة — ع الـذل والاستعمار
بالدم لآخر قطره — بالروح بالمال بالنار
يا نعيش فى مصر الحرة — يا نموت موت الأحرار
الثورة يا مصر الثورة

قلوبنا فى ايدنا — ورءوسنا أهيه فى كفوفنا
ولمصر تكون النصرة — وبلادنا تصبح حرة
الثورة يا مصر الثورة
حصون الطغاة — حتصبح قبور
ودم الغزاة — حيجرى بحور
وراية النيل الخضرة — بتنادى بلادنا الحرة
الثورة يا مصر الثورة

حوادث ثلاث

فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ قام الفدائيون بهجمات ثلاث فى يومين متعاقبين أولهما تسلل بعض الوطنيين من بلدة القرين ليلا — وهى قرية من قرى مديرية الشرقية وتجاور معسكرات القوات البريطانية — وقتلوا ثلاثة من الجنود الانجليز الذين كانوا يتناوبون الحراسة فى ذلك المعسكر ، وقد أصيب فى هذه المعركة الزميل « على رمزى » بالرصاص فى ساقه اصابة بالغة أتلفتها ، وقد كرمته الثورة بعد ذلك فعولج على نفقة الدولة .

وثانى أعمال الفدائيين هو قيامهم بالقاء بعض زجاجات مولوتوف على الطائرات التى كانت بمطار كسفريت الكبير المجاور للاسماعيلية فاشتعلت فيه النيران وأحرقت طائرتين حربيتين . ولولا أن أسرع الانجليز إلى إطفاء النار لأتت على ما كان بالمطار من طائرات .

أما ثالث هذه الأعمال فهو عمل جرىء قام به اثنان من الفدائيين ، على الرغم من أنه كان محفوفا بالمخاطر والصعوبات ، وهذا العمل هو نسف مخازن ومستودعات البترول فى منطقة العجرود ، وهى تقع فى مكان ناء عن عمل الفدائيين بالقرب من السويس . ولم يكن الانجليز يعتقدون أنها ستكون هدفا لأعمال الوطنيين التى تركزت فى ذلك الوقت فى مدينة الاسماعيلية وما جاورها . وقد حمل الفدائيان معهما مادة T. N. T. وزجاجات المولوتوف وقنابل الميلز لاستعمالها وقت الهروب ، وكذلك أصابع الجلجنايت وأنابيب انفجار خاصة أمد رجال الجيش بها الفدائيين .

وهى عبارة عن زجاجة داخل أخرى تحمل موادمشتعلة وتنفجر بعد عشرين دقيقة من خلط المواد التى فى داخل الأنبوبة بالمواد الموجودة فى الغلاف الجلجنايت ومادة.

وقد نجح الفدائيان فى التسلل الى معسكر العجرود بعد أن قطعا الأسلاك الشائكة المحيطة به بمقص خاص ، ووضعا الأنابيب المتفجرة ومواد الجلجنايت ومادة .T.N.T فى أسفل الخزانات الضخمة وأشعلا الفتيل وانسحبا ، وكانت تنتظرهما عربة جيب فى الصحراء وبجوار تبة من الرمل يخفيها عن الأنظار وعلى بعد غير قليل من المعسكر . ولم تكد العربة تسير حتى سمعا انفجارا مدويا ولم تلبث النيران أن شبت فكانت تشاهد من على بعد سحيق وعلى طول الطريق الوعر الذى سلكه الفدائيان عند رجوعهما الى القاهرة .

موقف الحكومة من الفدائيين

اضطرت الحكومة ازاء الحماسة الوطنية الجارفة أن تشكل لجانا لمقاومة الانجليز ، وانهالت التبرعات لهذه الجماعات ، ولكن هذه الأموال لم تصل أبدآ الى الوطنيين والفدائيين الحقيقيين الذين كانوا يكافحون فعلا فى القنال معتمدين على أنفسهم وبما كانوا يجمعونه فيما بينهم . وقد كان من نتيجة العمليات التى قام بها الفدائيون فى القنال أن وضعت جميع هذه الجمعيات فى حرج كبير وتخبطوا كثيرا وظلوا مدة طويلة يبحثون عمن يقوم بهذه العمليات ، حتى أن بعض هذه التكوينات نسبت لنفسها قيامها ببعض هذه الأعمال ،وكان أكثر الجهات بحثا عن الفدائيين الحقيقيين الحكومة وعلى الأخص وزير الداخلية (١) ، ولم يكن من العسير عليه معرفة أولئك الوطنيين فأرسل الوزير اليهم يطلب مقابلة مندوبين عنهم ليتعاون معهم ، وكان يرمى من وراء ذلك الضغط على الانجليز لكى يتفاوضوا مع الوفد ولكن الفدائيين اشترطوا شروطا ثلاثة (٢) :

(١) عدم ذكر أسماء الفدائيين .

(٢) مساعدة الحكومة لهم بالأسلحة .

---

(١) فؤاد سراج الدين .

(٢) وقد اجتمع وزير الخارجية المصرية مع مستر ايدن فى ١٩٥١/١٢/١٨ تمهيدا للمفاوضة .

(٣) بقاؤهم كوحدة منفصلة وعدم اندماجهم فى أى هيئة أو جماعة أخرى .

ووافق وزير الداخلية على هذه الشروط الا أنه اشترط من جانبه شرطا واحدا هو أن يقوم الفدائيون بعملية واحدة ليتأكد بعدها من أنهم فعلا هم الذين يقومون بالمعارك فى القنال ثم يحقق لهم بعد ذلك مطالبهم.واجتمع الوطنيون ووافقوا على هذه الشروط ولم يكن الوزير قد باح حتى ذلك الوقت بالعملية التى جعل تحقيقها رهنا بموافقته لشروط الجماعة . .

وتعجب الوطنيون عندما علموا بشرط الوزير ، فقد قال لمندوب الفدائيين: « أريد أن تدمروا محطة مجارى نفيشة بالاسماعيلية ! ووجه العجب أن محطة المجارى لم تكن هدفا عسكريا هاما . وكان التشكيل يعتقد أن الوزير سيطلب منهم طلبا عسيرا . . لهذا فقد سر الفدائيون لقيامهم بهذه العلمية وشعروا أن مطالبهم ستتحقق وأن الصعاب التى طالما قابلتهم ستذلل ، ولذلك فقد صمموا على القيام بتدمير هذه المحطة فى أسرع وقت ممكن وشدوا الرجال الى الاسماعيلية ودرسوا الموقع وحددوا يوم ١٦/١١/١٩٥١ موعدا للتنفيذ .

وفى الساعة الثانية عشرة تسلل ثلاثة من الذين تخصصوا فى التدمير الى المعسكر بعد أن عبروا ترعة الاسماعيلية من ناحية مزارع عزبة على عيد ، بينما رابطت باقى الفرقة فى مواجهة المعسكر لمناوشة نقط الحراسة البريطانية ولحماية الثلاثة المهاجمين الذين تسللوا داخل المعسكر بعد أن قصوا الأسلاك الشائكة وأوجدوا ثغرة تكفى لمرورهم زحفا ، وتمكنوا من وضع الديناميت بين الآلتين الضخمتين الخاصتين بالمجارى ثم أشعلوا الفتيل وانسحبوا دون أن يقابلهم أو يراهم الجنود الانجليز . وفى أثناء عبورهم ترعة الاسماعيلية انفجر اللغم الكبير وحدث دويا هائلا ، وكان يدخل المعسكر أثناء ذلك رتل من السيارات فأصلتهم باقى الفرقة المرابطة فى اتجاه المعسكر بوابل من نيران بنادقها فقتل سائق السيارة الأولى والحارس الذى بجواره وساد المعسكر هرج ومرج وانبعث الرصاص من جميع الجهات من داخل المعسكر ومن خارجه ــ وهب الجنود من النوم على صوت

الرصاص ليواجهوا مشكلة فادحة لم تطرأ لهم على بال ، وهى انفجار محطة المجارى وتدفق المياه والقاذورات منها الى المعسكر . . وبهدوء رجع الفدائيون كل الى داره ولم يصب منهم سوى أحدهم برصاصة [1] فى عينه بعد أن حققوا الهدف الذى سعوا اليه . وفى الصباح أذاع راديو فايد :

« ان جماعة من الوطنيين هاجموا محطة المجارى بمعسكر الاسماعيلية وألقوا بداخله لغما أحدث انفجارا مدويا وقد تسبب عن ذلك قتل سائق سيارة وجندى واحد » .

وبمناسبة اصابة الزميل الفدائى فى عينه تحضرنى هذه الواقعة . فقد كانت اصابة الفدائى فى عينه على شىء من الخطورة ، فسافر به اثنان من الفدائيين أحدهما ضابط طيار ، والثانى محام شاب الى الزقازيق لعلاجه عند دكتور عيون ونائب وفدى مشهور طالما تشدق بمساعدته للفدائيين ، وكان على شىء كبير من اليسار ، وأجريت للمريض عملية جراحية بسيطة أكد الطبيب بعدها أن الوطنى سيشفى فى مدى يومين أو ثلاثة ، وفرح صاحباه لنجاح العملية واعتقد أن الدكتور الوطنى الكبير لن يتقاضى عنها اجراء مساهمة منه فى الكفاح . وعندما هموا بالانصراف طالبهما الدكتور بمبلغ جنيهين أجر العملية قائلا لهما بأنه راعى الظروف وخفض الأتعاب من خمسة جنيهات الى جنيهين فقط !! ولم تكن قيمة الأتعاب هى التى كانت تشغل بال الوطنيين وانما لأنه لم يكن معها وكذلك المريض سوى مائة وأربعين قرشا دفعوها له وخرجوا خالى الوفاض !! وإذا كان هذا هو موقف الدكتور مدعى الوطنية ، فقد كانت هناك مواقف أخرى كريمة من أناس أقل يسارا بكثير من هذا الدكتور .

وأذكر على سبيل المثال أنه فى أوائل ديسمبر سنة ١٩٥١ كان الشاب المحامى يقود سيارة جيب بها بعض الفدائيين متجها بهم الى بلدة التل ، وعند أول ضاحية المطرية وقف لتموين العربة بالبنزين والزيت ، ولما هم بدفع الحساب أخبره العامل أن هناك من قام بسداد المطلوب ، ولما سأله عمن يكون هذا الشخص ، أشار

---

(١) عبده قنفش من أهالى الاسماعيلية .

بهذه الحقوق المغتصبة وأنهى الطلبة البيان بمطلبهم . بأنهم يرون أنه يجب على الحكومة المصرية أن تبلغ الحكومة البريطانية تبليغا رسميا أن الجانب المصرى لن يقدم على المفاوضة الا على أساس الجلاء ووحدة وادى النيل .

ثم خرج الطلبة من حرم الجامعة قاصدين ميدان عابدين لابلاغ رغباتهم وقراراتهم وعندما أرادوا عبور كوبرى عباس وجدوه مفتوحا فنزل بعض الطلبة تحت الكوبرى ونجحوا فى قفله وأثناء عبورهم فاجأهم البوليس واعتدى عليهم اعتداء وحشيا وحاصر الكثير منهم ممن لم يتمكنوا من الوصول الى حى الروضة حتى أن الطلبة كانوا يلقون بأنفسهم فى النيل هربا من هذا الاعتداء المفاجىء ويروى شاهد عيان بأن النوتية كانوا يتلقون من يسقط من الطلبة فى النيل ويلتقطونهم فى قواربهم أما الذين نجحوا فى عبور الكوبرى فقد ظل البوليس يتعقبهم واعتدى عليهم اعتداء وحشيا مما حدا بالطلبة الى اللجوء للمنازل القريبة يحتمون بها من هذا العسف وكان أصحاب الدور يفتحون لهم منازلهم ويأوونهم ويضمدون جراحهم وقد أصيب أثناء ذلك ٨٤ طالبا باصابات بالغة ونقلوا الى القصر العينى للعلاج .

وفى اليوم التالى تجددت المظاهرات وخرج الطلبة يبغون الوصول الى رياسة مجلس الوزراء وقصر عابدين لينهوا الى المسئولين برغباتهم وما اتخذوه من قرارات ولم يفل من عزمهم مالاقوه بالأمس ولكن قوات البوليس حاصرتهم أمام حديقة الحيوان من كل ناحية واعتدوا عليهم بقسوة وتعقبوهم فى كل مكان حتى أن بعض الطلبة استقلوا المراكب الشراعية فما كان من رجال البوليس الا أن تعقبوهم وقبضوا على بعضهم وكانت مطاردة من نوع فريد ولم تكن مظاهرات القاهرة وحدها التى قامت يومى ٩ و ١٠ بل حدثت مظاهرات أخرى فى الاسكندرية والمنصورة والزقازيق وأسيوط وأسوان ، واستشهد بها سبعة من الشهداء عدا الكثير من الجرحى .

وظلت البلاد من أقصاها الى أقصاها تتأجج بفورات السخط والغضب ولم يهدأ الطلبة فى الأيام التى تلت يومى ٩ و ١٠ من فبراير بل ظلوا يوالون الاجتماعات

الانجليز يفقدون اعصابهم :

كانت أعصاب الانجليز مشدودة بعد رحيل أسرهم ، ونتيجة لأعمال الفدائيين المتزايدة ، وبخاصة بعد عملية نسف مجارى نفيشة ، فعاودوا الاعتداء على الأهالى والمواطنين ، وكانوا يطلقون النار لأبسط الأسباب محاولين بذلك استفزاز شعور الاهالى واثارتهم ، ففى بلدة القرين سلط الانجليز مدافعهم عليها وأمطروها بوابل من قنابل الهاون والفيكرز فأصابوا المستشفى الوحيد بالبلدة المقام فى مواجهة المعسكر كما هدموا بعض بيوت الفلاحين مما حدا بقيادة الفدائيين الى نقل المرضى منه الى مستشفى أبو حماد ، ثم اتخذه الفدائيين مركزا لهم بعد ذلك يوجهون منه الضربات للانجليز الذين كانوا يشاهدون بسهولة من هذا المكان أثناء غدوهم ورواحهم وقد ساهم أهالى القرين فى الكفاح الوطنى واشترك الكثيرون منهم فى محاربة الانجليز كما تحملوا الخسائر التى أصابتهم من هدم منازلهم واتلاف مزارعهم بنفس راضية . وكانوا يقفون جنبا الى جنب مع الفدائيين كلما حاول الانجليز تطويق البلدة أو حصارها وما أكثر ما حاولوا . وعندما كان يشتد اطلاق النار كانوا يتركون أعمالهم ويهجرون مزارعهم ويخرجون بنادقهم العتيقة من أماكنها ويظلون الساعات الطويلة يطلقون الرصاص على الانجليز المحتمين وراء دباباتهم جنبا الى جنب مع الفدائيين . وحدث عندما علم أهل القرين بوجود « عزيز المصرى » القائد العام للوطنيين بها أن ترك الجميع بيوتهم ، وهجروا فراشهم ، وقد كانت الساعة تزحف نحو الثانية عشرة مساء وذهبوا ليلتقوا بالقائد العظيم فى المستشفى عارضين عليه أنفسهم وأصروا على أن يتبرعوا بما لديهم من أموال — كل على قدر حاله — مساهمة منهم فى معركة النضال الشعبى .

هذا ما كان من أمر بلدة القرين ،أما ما فعله الانجليز فى الاسماعيلية فهو يصور بجلاء مدى توتر أعصابهم وفقدانهم لرشدهم ، فقد صبوا جام غضبهم على المدينة وقاموا بالاعتداء على المواطنين ورجال البوليس اعتداء وحشيا ينم عن الضغينة والحقد ويتفق تماما مع ما جبلوا عليه من غدر وخيانة .

فقد أصدرت القيادة البريطانية الأمر لجنودها بأن يتحرشوا برجال بلوكات الخفر الذين كانوا يقيمون بمبنى المحافظة بالاسماعلية بعد أن جلبتهم الحكومة لحفظ النظام والأمن بالمدينة .

وفي صباح يوم السبت الموافق ١٩٥١/١١/١٧ أطلق بعض الجنود النار على رجال البوليس دون سبب ، فأصابوا اثنين منهم ، ولكن جنود البوليس جمعوا شملهم وحصنوا أنفسهم وردوا على هذا العدوان المفاجيء الذى لامبرر له بالمثل . ولكن الانجليز طلبوا النجدة وسرعان ما جاءت قوات كبيرة من الجنود تؤيدها الدبابات وحاصروا مبنى المحافظة وظلوا يطلقون النار من كل جهة على جنود بلوكات النظام الذين كانوا يدافعون ببنادق قديمة ، وبذخيرة ضئيلة ومضى يوم ١١/١٧ ،وفي اليوم التالى عادوا الى ضرب المبنى بقوة أشد . وحلقت الطائرات الانجليزية فوق أرض المعركة لالقاء الرعب فى قلوب المحاصرين ، وتقدمت الدبابات بمدافعها تحاول اقتحام الموقع ولكن رصاص جنود بلوكات النظام كان يردهم على أعقابهم خاسرين فينسحبوا ليقابلوا رصاص الفدائيين الذى كان ينهال عليهم من كل صوب وحدب ، من المنازل ، ومن الشوارع ، ومن الحارات الضيقة المحيطة بالمنطقة ، فيصيبهم الهوس لهذه المقاومة الجريئة وتنهار أعصابهم لعدم تمكنهم من الاستيلاء على مبنى بسيط مكشوف يدافع عنه أشخاص غير حربيين ولا مدربين، ويحاربون بأسلحة بدائية وبذخيرة محدودة ،وهم الذين يملكون المعدات الحربية الحديثة بشتى أنواعها ! وعلى الرغم من ذلك فقد عجزوا عن اقتحامه يومين كاملين واضطروا الى احتلال مبنى الاسعاف المواجه لمبنى ثكنات بلوكات النظام بعد أن طردوا من فيه من جرحى ومرضى ، وألقوا بهم الى عرض الطريق بما استتبع ذلك من عنف وتنكيل وما فى ذلك العمل من اهدار لأبسط مبادىء العدل والقانون الدولى . وبعد جهاد مرير يزيد على أربعين ساعة نفذت ذخيرة المدافعين واقتحم الأوغاد أبطال ذلك مبنى بلوكات النظام ، ومع ذلك فقد كانت الخسارة متعادلة فبينما كان عدد القتلى من المصريين ثمانية جنود وخمسة من المدنيين نجد أن القتلى من الانجليز ، ثمانية منهم خمسة ضباط ، أما الجرحى فنحو الى ٢٠ من الطرفين .

وبعد هذه المعركة اتصلت القيادة البريطانية بالحكومة المصرية تطلب الاذن لها بنقل باقي أفراد الأسر البريطانية من داخل المدينة الى المعسكرات البريطانية توطئة لترحيلهم الى انجلترا ..

وقد وافقت الحكومة على ذلك بشرط انسحاب الجنود الانجليز من المدينة وعدم ظهورهم بها ، وأن يوكل الى المصريين أمر المحافظة على الأمن وتم الاتفاق على ذلك في يوم ١٩/١١/١ . ونفذه كل من الطرفين ، وسمي هذا الاتفاق باتفاق أرسكين غزالي لأنه تم بين القائد البريطاني أرسكين ومحافظ القنال عبد الهادي غزالي. وتمكن الانجليز بواسطة الاتفاق من ترحيل باقي أسرهم ،وبذلك وصل عدد الأفراد الذين رحلوا من مصر الى انجلترا حوالي ٤٠٠٠ سيدة وطفل .

معارك السويس :

لم تكن بالسويس حتى ذلك الوقت معارك تذكر بين الوطنيين والانجليز لأن القوات البريطانية كانت قد فصلت منطقة القنال عند الكيلو ٩٩ من طريق القاهرة السويس فصلا تاما وضربت عليه ستارا من حديد .

وهنا قد يتساءل البعض : كيف لم يواصل الفدائيون أعمالهم في منطقة السويس بعد فصلها باغلاق الطريق عن الكيلو ٩٩ من طريق : القاهرة — السويس مع أنهم واصلوا العمل بعد اغلاق الطريق عند الكيلو ٩٠ من طريق القاهرة — الاسماعيلية — وللاجابة على ذلك نقول : انه كانت هناك عدة طريق يسلكها من يريد الذهاب الى الاسماعيلية ، بينما لم يكن هناك الا طريق واحد يصل بين القاهرة والسويس ، ولذلك فقد تأخرت العمليات بعض الوقت بالسويس ، ومع ذلك فقد قام الوطنيون بتنظيم فرقة بها بعد أن وحدوا جميع الكتائب وضموها اليها وأمدوها بالسلاح والمال ،وكان من أعضائها كثير ممن حاربوا في فلسطين تحت قيادة المرحوم البطل أحمد عبد العزيز ولذلك سميت بكتيبة أحمد عبد العزيز ، وكان أول ظهورها واشتراكها الفعلي يوم ١٩٥١/١٢/٣ وتفصيل ذلك أنه بينما كان عدد من بلوكات

النظام لايتعدى العشرين جنديا وعلى رأسهم ضابط صغير برتبة ملازل أول (ألفى عثمان) يستقلون سيارة من سيارات نقل الجنود فى طريق السويس أن تعطلت فترجلوا وحاولوا دفعها ليصلوا بها إلى أقرب مكان يصلحونها فيه ، وإذا بهم يفاجأون بالجنود البريطانيين يطلقون عليهم النار دون سبب ، ونشبت معركة غير متكافئة ، وهب أهالى مدينة السويس وعلى رأسهم كتيبة أحمد عبد العزيز ، واشتركوا فى القتال الذى انقلب فى لحظات إلى معركة كبيرة سميت بمعركة السويس الأولى .

والواقع أن الانجليز لم يطلقوا النار على جنود بلوكات النظام بلا سبب بل انهم كانوا قد بيتوا النية للاستيلاء على المدينة ورصدوا لذلك سبعين سيارة من سيارات نقل الجنود تتقدمهم الدبابات والمدافع وما كان اطلاقهم النار على رجال البوليس الاتمهيدا لهذا الاستيلاء .

وأعود لأبين كيف سارت المعركة الغادرة التى رسم خطوطها الانجليز الغادرون، فقد بدءوا يطلقون النار على جنود بلوكات النظام حوالى الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ١٩٥١/١٢/٣ وانضم الأهالى إلى رجال البوليس ، وخرجت كتيبة أحمد عبد العزيز تنظم القتال وتوزع السلاح . ولما شعر الانجليز بشدة كفاح شعب السويس توجهت خمس عربات محملة بالجنود البريطانيين إلى طريق الزيتية لتطويق الأهالى ، ولكن أفراد كتيبة أحمد عبد العزيز تنبهوا لذلك وقطعوا عليهم الطريق المؤدى إلى الزيتية ، ونشبت معركة أخرى رجحت فيها كفة الوطنيين ، وأحرقوا أربع عربات من الخمس التى كان بها الانجليز ، وقتلوا ما يزيد على عشرين جنديا منهم ضابط برتبة ميجر وجرح حوالى سبعين جنديا آخرين ، وولى باقى الجنود الانجليز الفرار ، وكأنما خجلوا من هذا الفشل .. فأصدرت القيادة البريطانية لقواتها التى أعدتها من قبل ، والتى كانت تستعد لاحتلال المدينة ، أوامرها بتأديب أهالى السويس ، فتوجهت السيارات السبعون بمن فيها من جنود مسلحين بالمدافع الرشاشة والبنادق إلى المدينة وصبت عليها وابلا من الرصاص ، وقد قابلهم

الأهالى بالمثل ، وانضم رجال البوليس إلى الشعب ، واستمر اطلاق النار حتى غربت الشمس فانسحب الانجليز حاملين معهم قتلاهم وجرحاهم وقد قتل منهم زيادة على العدد السابق حوالى اثنى عشر قتيلا ، وجرح مايربو على أربعين جريحا، وبذلك بلغ عدد قتلاهم يوم ١٩٥١/١٢/٣ بين جندى وضابط سبعة وثلاثون وجرح منهم مالا يقل عن مائة وعشرة جرحى ، وقد استشهد من الوطنيين ٣٤ شهيدا كما جرح ستون وعندما خيم الظلام كانت المدينة الحزينة يجللها السواد حزنا على شهدائها وجرحاها ، ولكنها لم تنم هذه الليلة فقد ظل أبناؤها طوال الليل يقيمون الاستحكامات وينظمون وسائل المقاومة ويوزعون السلاح على الأهالى . وفى الصباح — وهو يوافق يوم الثلاثاء ٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ عاود الانجليز هجومهم على السويس بقصد الانتقام لما أصابهم فى اليوم السابق وكانوا قد أعدوا لهذا الهجوم فرقة لواء المظلات السادسة عشرة ، وهى من خيرة جنودهم ، وكان هذا اللواء مزودا بمدافع الهاون والفيكرز السريعة وظلوا يطلقون النار على المدينة زهاء ساعة أومايقرب من ذلك ثم بدأوا فى الزحف ولكنهم ماكادوا يقربون المدينة حتى تصدى لهم الأهالى وأطلقوا عليهم نيران بنادقهم من نوع (لى انفيلد) وكانت كتيبة أحمد عبد العزيز قد زودت بالكثير من قنابل الميلز وزجاجات كوكتيل مولوتوف فاستعملها أفرادها وألقوا بالكثير منها على السيارات البريطانية فاشتعلت النيران فى عدد منها ، وقد ألقت هذه القنابل الرعب فى قلوب الانجليز الذين لم يكونوا ليتصوروا أن شعب السويس قد استعد كل هذا الاستعداد حتى انه بدأ فى صنع القنابل ، ولذلك انسحب لواء المظلات عندما رأى شدة مقاومة أهالى السويس ، وكان الغيظ يملأ نفوس أفراده وأثناء عودتهم شاهدوا بعض الأهالى يشيعون جنازة أحد الشهداء وهو المرحوم حنفى زهران ، وقد شيعه شعب السويس دون باقى الشهداء تمهيدا لنقله إلى بلدته بالزقازيق وعندما وصلت الجنازة إلى كوبرى السويس رأى لواء المظلات أن فرصة الانتقام من الوطنيين قد حانت فهاجموا المشيعين العزل الآمنين وأطلقوا عليهم النار ، وانضم للواء المظلات القائد العام لمنطقة القنال الجنوبية البريجادير جون كولفيلد بقواته وبدأوا فى تنفيذ عملية لابادة

المشيعين ، وهي احدى العمليات التي يجيدها الانجليز تماما كلما رأوا أمامهم رجالا عزلا .

وبذلك ازداد عدد الشهداء وارتفع رقم الجرحى .. ولكن الانجليز خسروا كذلك خسارة فادحة على الرغم من استعدادهم الفائق ، وذلك أنه عندما حاول لواء المظلات اقتحام المدينة بعد انتصاره على فلول المشيعين . قابلهم رصاص الأهالي فسقط منهم ٣١ قتيلا ،وبلغ عدد جرحاهم ثمانين أي انهم في نصف يوم خسروا ٦٨ قتيلا و ١٩٠ جريحا . وهذه الأرقام قد راعيت فيها الدقة التامة ، وهي بطبيعة الحال خسائر جسمية بالنسبة للانجليز لم تكن في حسبانهم لأنهم لم يتوقعوها ، ولكن هل يسكت الانجليز على هذه الهزيمة التي حاقت بهم على يد شعب أعزل ؟ وهل يقتنع أرسكين واكسهام وكولفيلد بهذا الوضع المشين الذليل ؟ الواقع أنهم لم يرضوا ولم يسكتوا وانما سهروا أربع ليالي لا يغمض لهم جفن ، والحقد الأسود يفرى قلوبهم ، وخرجت القيادة البريطانية بعد هذا السهر الطويل لتعلن على الملأ أنها ستزيل حيا بأكمله من السويس ، وجندت اثني عشر ألف جندي بدباباتهم ومصفحاتهم ومدافعهم وطائراتهم لتنفيذ هذا القرار الهمجي البعيد كل البعد عن أبسط مبادىء الانسانية ، ولم يكن له من دلالة سوى الانتقام واستعراض عضلات الأسد البريطاني الجريح ، لأن هذه المنطقة لم يكن لها أية قيمة عسكرية والحي الذي أرادت بريطانيا أن تجعله مسرحا لهزلتها الجديدة هو كفر أحمد عبده .

٣ - موقعة كفر أحمد عبده

انذار بريطاني

اجتمعت القيادة البريطانية ووجهت انذارا للسيد ابراهيم زكى الخولى محافظ السويس تذكر فيه أنها قد عزمت على هدم كفر أحمد عبده فى صباح يوم ١٢/٧ /١٩٥١ ، وازالته من الوجود بمقولة أنه بين وابور المياه المملوك للقوات البريطانية وبين باقى المعسكرات ، والقيادة البريطانية لا يعجبها أن ترى منازل الأهالى وعددها ١٥٦ منزلا تقع فاصلا بين منشآتها . واجتمع المحافظ بكتيبة أحمد عبد العزيز ونائب الدائرة وبعض الوطنيين وتباحثوا فى أمر هذا الطلب الغريب ، ورأوا أن يتصلوا بوزير الداخلية الذى رفض الانذار ومقاومة القوات البريطانية بكل وسيلة ، ولكن الانجليز عززوا انذارهم الأول بانذار آخر قالوا فيه أنهم أجلوا عملية الهدم ٢٤ ساعة ، وانهم مصممون على احتلال هذا الحى وهدمه وازالته من الوجود وضمه لأملاك الامبراطورية فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٢/٨ ، ومنذ الساعة الرابعة من مساء يوم الجمعة ١٢/٧ بدأت القوات البريطانية تتدفق حول مدينة السويس حتى أحاطت بها من جميع الجهات ،وتقدمت البوارج البريطانية من الميناء حتى أصبحت على مقربة منه ، وظلت الطائرات تحلق طوال الليل فى سماء المدينة المنكوبة ، ولم تهدأ الدبابات ولا السيارات المصفحة طوال يوم الجمعة ٨ ديسمبر ، وقد رأى المحافظ ومن معه من الوطنيين أن المقاومة لن تجدى ، بل هى ضرب من الانتحار ، فاتصلوا بوزير الداخلية مرة أخرى ليطلعوه على الموقف فأجابهم بأن مجلس الوزراء اجتمع بمنزل رئيس الوزراء مصطفى النحاس وقرر رفض الانذار ومقاومة الانجليز وشعر المجتمعون أن مجلس الوزراء يهزل ، وأن أهالى مدينة السويس هم الذين يقدرون الموقف حق قدره فالمقاومة معناها ابادة سكان كفر أحمد عبده على بكرة أبيهم ، فضلا عن الخسائر الأخرى التى تصيب أهالى المدينة فأخذوا على عاتقهم عدم تنفيذ قرار مجلس الوزراء وأمروا سكان الكفر بمغادرته . .وحسنا فعلوا .

تنفيذ الانذار :

وفى الصباح الباكر من يوم ٨ ديسمبر زحف ١٢ الف جندى بريطانى تتقدمهم الدبابات والسيارات المصفحة والمدافع وترفرف فوقهم على إرتفاع بسيط ستون طائرة حتى وصلوا الى كفر أحمد عبده وبدأت الموقعة التاريخية التى هيأها لهم وهم قادة بريطانيا الأفذاذ فوضعوا المواد المتفجرة والديناميت فى البيوت فنسفتها ، فى حين كانت الدبابات تتم باقى العملية بتسوية الأنقاض المتخلفة من النسف والحريق حتى أتوا على الحى بأكمله ، وبهذا انتصرت بريطانيا العظمى على عدد من المنازل . انتصرت حسب خطتها الموضوعة باتقان ، وضعها قواد الحرب الانجليز الجنرالات أرسكين واكسهام وكولفيلد .

ومهما قيل فى أمر هذا العمل الهمجى الوحشى فان له دلالة واحدة هى أن الامبراطورية أرادت أن تنتقم لضحاياها الذين سقطوا فى كل مكان وانها لم تكن تتصور أن المقاومة الشعبية ستصل إلى درجة أن يخسر الانجليز هذا العدد الضخم من الضحايا .

ولقد انعكس ذلك على أقوال المسئولين منهم فيما بعد فقد قال السير أنطونى أيدن صراحة بعد ذلك عندما اجتمع بوزير الخارجية المصرية محمد صلاح الدين يوم ١٢/١٨ أن بريطانيا لا يمكنها مفاوضة مصر فى الوقت الذى تتوالى فيه الهجمات على القوات البريطانية .

وقد أذاعت السفارة البريطانية بيانا رسمياً يردد هذا المعنى فى ١٢/٢٠ اذ قالت: (وينبغى ألا يغيب عن البال أن الشرط لتحقيق أى تقدم فى هذه المباحثات) (يقصد مباحثات صلاح الدين ـــ ايدن)، هو أن توقف الحكومة المصرية اتخاذ التدابير ضد المصالح البريطانية فى مصر، وأن تتوقف عن أعمال الارهاب والتهديد فى منطقة القنال .

ولا يهمنا بعد ذلك ما تكبدت مصر من خسائر فى الأرواح والمال قدر اهتمامنا بأن المقاومة الشعبية كانت تزداد وطأتها شدة يوما بعد يوم باعتراف الانجليز أنفسهم حتى أنهم جعلوا وقف نشاطها أول شرط من شروط الاتفاق

على الجلاء . بل تعدى أثر ذلك خارج نطاق مصر وانجلترا فقد كانت أمريكا تتابع بقلق واضح سير الأمور فى مصر .

اذ ألقى مسئول أمريكى بيانا قال فيه : (بلغت الدوائر العسكرية الأمريكية بنيويورك تقارير سرية تدل على أن عدم التعاون الذى أظهره الشعب المصرى ضد القوات البريطانية فى قنال السويس أصبح يكلف انجلترا عشرات الملايين من الجنيهات عدا النفقات العادية للقاعدة البريطانية والخسائر المادية الأخرى . وقد بحث القواد فى عدة اجتماعات عن قواعد فى الشرق الأوسط يمكن أن تحل محل قناة السويس) . ولعل هذا ما حدا بالقوات البريطانية بأن تطلب من المسئولين فى مصر طلبا ساذجا وغريبا، فقد طلب أحد القواد الانجليز من وزير الخارجية المصرى بأن تبيع مصر لبريطانيا منطقة القنال .. ويذكرنا هذا القائد المخمور بذلك الساذج الذى أتى مصر لأول مرة ، وعندما رأى الترام وركبه وأعجب به أراد أن يشتريه .. وقد تجلى حنق البريطانيين على حركة الفدائيين عندما حضر الجنرال بريان روبرتسون قائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط إلى مصر ١٩٥١/١٢/٣١ وأدلى ببيانه المعروف إلى الحكومة المصرية ، اذ قال : « ان التصريح الذى أدلى به الآن هو متفق عليه من رئيس الوزراء ونستون تشرشل ، وأقول أنه لخطأ كبير أن يتخيل أى انسان أن أعمال الضغط والارهاب وما يتلوها من نتائج لا مفر منها تؤثر بأى شكل من الأشكال فى عزمنا ، وإذا اقتضت الضرورة ذلك فاننا سنستمر فى أعمال المقاومة شهرا فى أثر شهر بل وشهورا عديدة اذا احتاج الأمر وسنقابل القوة بالقوة مستخدمين من جانبنا ما لا يزيد على الحاجة ، ولدينا القوة الكافية تحت تصرفنا كما لدينا التأييد من عدة بلاد أخرى فلا يخدعن امرؤ نفسه بالتفكير فى أننا سنغير سياستنا على مر الوقت أو نتيجة للارهاب » .

ومن يسمع أو يتصفح هذا البيان دون أن يعرف من أصدره ، فانه سيقرر على الفور أنه صدر من الجانب المصرى ، فلقد صورت القوات البريطانية موقفها كمن يعتدى عليها ووضعت نفسها موضع المظلوم المضطهد الذى يدافع عن نفسه ويرد العدوان ويقاوم الغاصب ولا تصدر جملة وأننا سنستمر

فى أعمال المقاومة شهراً فى أثر شهر وستقابل القوة بالقوة ، الا من شعب مضطهد يرنو إلى الحرية ويحاول مقاومة غزاة طغاة معتدين ، ومهما يكن من أمر فان الانجليز قد شعروا بوطأة الكفاح الشعبي وبدأوا يشكون ويئنون منه وهذا أقصى ما كان يرنو اليه ويتمناه الوطنيون فى مصر .

معارك فى كل مكان :

لم يتمكن الوطنيون من الوصول إلى بور سعيد لبعدها ولذلك بدأت وكأنها بمنعزل عن باقى مدن القنال حتى أخبارها كانت منقطعة عنا ولا يعنى ذلك أن شعب بور سعيد لم يحاول مقاومة الانجليز بل على العكس فانه منذ الاعتداء الوحشى الأول على الاسماعيلية والوطنيون ببـور سعيد يتوجسون خيفة فكـونوا فـرق المقاومة التى قامت ببعض العمليات المتفرقة على الرغم من قلة السلاح والذخيرة وبعد الشقة بينها وبين القاهرة مصدر التنظيم والوحى ، وقد حدث أن أذاعت وزارة الداخلية البيان الرسمى التالى من بور سعيد فى ١٩٥١/١١/٩ أى فى أوائل أيام الكفاح .

«حضر لقسم القنطرة أمس ضابط انجليزى برتبه بكباشى ومعه بعض الضباط البريطانيين وابلغوا أنهم فى الساعة الثامنة والنصف صباحا بينما كانوا يستقلون سياراتهم فى طريـق بور سعيد القنطرة اعترضتهم عربة جيب وأطلق عليه أحد الأشخاص الذين يستقلونها ٢٥ عيارا ناريا من مدفع اشتن وأصاب الجندى البريطانى الذى يقود سيارتهم وقد طلب الضابط القبض على السيارة والفدائيين الذين كانوا بها وهددت القوات الانجليزية بالقبض على الضابط رئيس نقطة القنطرة.

وقد كان من أثر مقاطعة المصريين للانجليز وعدم التعاون معهم وما كان يعتمل فى قلوبهم من كراهية كانت تتزايد يوما بعد يوم أن وقع احتكاك بين الوطنيين والقوات البريطانية فى حى العرب ما لبث أن أتسع نطاقه والتحم الطرفان ونشبت معركة أستعمل فيها الوطنيـون بجانب البنادق المدى والسكاكين والحجارة ، وظلت المعركة دائرة الى ما قبل غروب الشمس عندما انسحبت القوات البريطانية الى ثكناتها وقد رأى الوطنيون فى بور سعيد بعـــد

هذه المعركة أن من واجبهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد . والتأهب لمقاومة الانجليز فى أى وقت وقد قاموا بعدة عمليات متفرقة منها مهاجمة مخازن « النيق » واحراقها كما قاموا باشعال النار فى مخيات الانجليز على حدود المدينة وقد استشهد فى احدى هذه الغارات الطالب الصغير نبيل منصور وكان قد استفزته الأعمال الارهابية التى قام بها الانجليز فصمم على الاشتراك فى النضال حتى استشهد وذهبت روحه إلى بارئها .

أما باقى مدن القنال فقد كانت تقاوم كذلك ، فى يوم ١٩٥١/١٢/١ حدث أن نسف الفدائيون محطة مياه معسكر التل الكبير بعد أن اشتبكوا مع نقطة الحراسة.

وفى يوم ١٩٥١/١٢/١٤ هاجموا ميناء فنارة وأشعلوا به النار .

وفى يوم ١٩٥١/١٢/١٦ هاجموا محطة لاسلكى الفردان وتمكنوا من وضع ألغام الديناميت تحت الصوارى العالية ونسفوها واشتعلت النيران فى المحطة وقد نتج عن هذا الهجوم خسائر مادية كبيرة اعترفت بها اذاعة فايد اذ ذاك .

وفى يوم ١٩٥١/١٢/٢٨ هاجم الوطنيون نقطة الحجر التى تقع بعد أبى حماد فى طريق التل الكبير واشتبكوا مع القوات البريطانية التى كانت تعسكر بها .

وفى ليلة عيد الميلاد أى فى يوم ١٩٥١/١٢/٣١ مساء شن الوطنيون بالاسماعيلية هجوما عاما على القوات البريطانية أثناء احتفالها برأس السنة الميلادية فاتخذ بعض الوطنيين مواقعهم فى منزله بشارع محمد على أمام محطة ترشيح المياه المجاورة لنادى الضباط وكمن البعض الآخر فى الفضاء المجاور للترعة المؤدية إلى بورسعيد فى مواجهة معسكر الطيران وأما باقى الوطنيين فكمنوا فى أماكن متفرقة فى شارع الثلاثين أمام هيبرت هاوس وبجوار كوبرى سالا فى مواجهة القوات البريطانية ، وفى تمام الساعة الثانية عشر مساء هاجم الوطنيون الانجليز فى جميع هذه الأماكن فى وقت واحد ، وقد روع الانجليز من هول المفاجأة وتحولت الحفلات الصاخبة إلى فزع ورعب وحاولوا الهرب فتصيدهم الفدائيون برصاص بنادقهم ، وجاءت امدادات

الانجليز تترى والتحمت مع الوطنيين وأطلقت قنابل مدافعها على المدينة واستمر الرصاص يدوى فى كل مكان حتى الفجر وقتل من الانجليز فى هذه المعارك ١٢ قتيلا وجرح ١٨ وقد علق راديو فايد . على هذه المعركة فقال : (أن بعض الارهابيين حاولوا بقوة منظمة ، وبخطة مدروسة الهجوم على معسكرات طيران الاسماعيلية ونادى الضباط وترانسيت كامب ولكن قواتنا ردتهم على أعقابهم وكبدتهم خسائر) .

وفى يوم ٢ يناير نسف الوطنيون مخزن الذخيرة الواقع على بحيرة التمساح الواقع بالقرب من الاسماعيلية بعد أن تمكنوا من الدخول إلى سرداب من سراديب الذخيرة عن طريق الأبواب البحرية . وقد اعترف راديو فايد بهذا الانفجار ، وهددت القيادة القرى المجاورة التى يأوى اليها الوطنيون بهجوم شامل ، وقد أرسل أرسكين بعد ذلك إلى وزير الحربية البريطانية باقتراحين للانتقام من الوطنيين : أولها القبض على الوطنيين وارسالهم إلى انجلترا أو استراليا لمحاكمتهم أمام محاكم عسكرية ، وثانيها فرض غرامات فادحة على المدن والقرى التى تقع فيها أو بجوارها الحوادث ولكن كلا الاقتراحين رفضا .

وفى ١٢ يناير هاجم الوطنيون معسكر أبو صوير وقتلوا اثنين من الانجليز وقامت قوات كبيرة من البريطانيين لتعقب الفدائيين لتقبض عليهم ، وتتبعتهم حتى عزبة عبد الحميد صادق المحامى ، أحد المحامين الذى كانوا يساهمون فى الكفاح ، والواقعة فى الضفة اليمنى لترعة الاسماعيلية واقتحمت الدبابات العزبة من ثلاث جهات وحاصرتها ودخلت منزل المحامى وأتلفت أثاثه وقبض الانجليز على بعض الوطنيين كما عثروا على بعض الاسلحة وتمكن المحامى ومن معه من الوطنيين من الهرب عن طريق الصحراء إلى القاهرة وباختصار كانت المعارك تدور فى كل مكان وقد أحال الوطنيين حياة القوات البريطانية إلى ما يشبه الجحيم فلا عجب اذا عبر قائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط عن شعوره ازاء هذه العمليات وبدأ يصرخ ويبكى من ظلم المصريين له ولقواته عندما أدلى بتصريحه الذى سبق الاشارة اليه مهددا وبأنا سنستمر فى أعمال المقاومة شهرا فى أثر شهر وسنقابل القوة بالقوة .

(بيان الجنرال روبرتسون فى ١٩٥١/١٢/٣١) ..

اللغم :

كان الوطنيون يحاربون الانجليز فى كل مكان ، وكانوا يبحثون عن كل ما من شأنه اقلاقهم وتكبيدهم أفدح الخسائر . وقد رأوا أثناء نضالهم اغراق أية باخرة انجليزية أثناء عبورها لقناة السويس ، ففضلا عما يصيب الانجليز من وراء ذلك من خسائر فى الأرواح والأموال فان هذا العمل سيكون له أثر بالغ فى المجال الدولى ، لأنه يعنى قفل القناة أمام جميع السفن على اختلاف جنسياتها ، ومن ثم يأخذ الكفاح مظهرا دوليا ويخرج من الحيز الضيق إلى المحافل الأجنبية .

وقد فكر الوطنيون بادىء الأمر فى التربص بالسفن الانجليزية على الشاطىء ثم ضربها بمدفع من نوع بازوكا . وقد خشى من فشل هذه العملية ، ولذلك رئى اغراق السفينة بواسطة لغم بحرى زيادة فى الحيطة ، وأعد التشكيل العسكرى اللغم ، ولكن بعد جهد ، وكان من الضخامة بحيث أن الوطنيين عجزوا عن نقله إلى منطقة القنال فقسموه إلى أربعة أجزاء وضعوها فى عربة جيش لتوصيلها إلى أعضاء التشكيل المقيمين برفح ، على أن يعاد تركيبه فى رفح ثم يرسل إلى القنطرة لاتمام العملية هناك ، وتم نقل اللغم دون تركيب وسار بالصيد الثمين إلى القنطرة حيث تسلمه الضباط الاحرار أعضاء التشكيل العسكرى وأعادوا تركيبه هناك ثم أخذوه إلى حين تنفيذ العملية وكان ذلك فى آخر ديسمبر سنة ١٩٥١ . وقد حال دون تنفيذ هذه العملية المعارك العنيفة التى خاضها الوطنيون ضد الانجليز وخاصة معركة التل الكبير وسلسلة المجازر التى أقدمت عليها بريطانيا بعد ذلك والتحام الوطنيين فى هذه العمليات مما اضطرهم إلى تأجيل عملية اللغم أو التيتل كما كانوا يسمونه وقتذاك زيادة فى الحيطة والحرص .

الملك والمقاومة :

منذ الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وقيام الوطنيين بالكفاح فى القنال والملك السابق

فاروق ينظر بعين المتوجس المتربص الخائف ، فهو بين أمرين إما أن يساعد الحركة ويباركها وفى ذلك ما يغضب أسياده الانجليز . وإما أن يناهض الحركة ويعادى الشعب والدولة التى يتربع ملكا عليها . وهما أمران أحلاهما مر !! وإن كان يفضل عدم اثارة الحاكم ، الآمر الجالس بقصر الدوبارة لأنه لم يكن قد نسى درس ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ واللطمة التى وجهها السفير البريطانى سيرمايلز لامبسون لاتزال واضحة المعالم على وجهه .

ولم يكن تحالفه مع الانجليز هو وحده الذى أبعده عن الشعب ، وإنما كانت هناك مباذل ، ومساخر . وخمر ، ونساء — وقد بينا ذلك فيما سبق ورأينا كيف ابتعد فاروق عن الشعب بعد حادثة ٤ فبراير كلية ، بعد أن كان ابتعاده جزئيا خاصة بعد المظاهرات التى قام بها طلبة الجامعة خلال شهر ديسمبر وهتفوا فيها بسقوطه ، وأنزلوا صورته وداسوها تحت أقدامهم ، وسمع فاروق هذه الهتافات لأول مرة فارتعدت فرائصه — ومن أجل ذلك كان يخشى من حركة الوطنيين بالقنال فظل يتابع الحركة ، ويرصد حركاتها ، ويبحث عن الأسماء التى وراءها حتى اهتدى إلى مركز المقاومة فى مصر ، وكان بمكتب أحد المحامين . وفى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٩٥١ اتصل مصطفى صادق عم الملكة السابقة ناريمان زوج الملك الجديد بالمحامى وطلب منه الحضور لمقابلته فى مقر عمله بشركة سعيدة للطيران ، ولما استوضحه المحامى عن سبب المقابلة قال له انها هامة وخطيرة للغاية .. فرفض المحامى الذهاب اليه لعدم معرفة سبب المقابلة .. ولما رأى مصطفى صادق تشبث المحامى برأيه طلب منه أن يخطر القائد العسكرى للحركة — وكان ضابطا فى القوات الجوية (١) — بأنه سينتظره فى مكتبه ، وألح فى عدم التخلف ، وبدأت لهجة التهديد التى استهل عم الملكة الحديث بها تخف حدتها وأنهى الحديث بأنه والضابط الطيار زملاء وأصدقاء . واجتمع بعض المسئولين عن الحركة فى القنال وقرروا أن يقابل الضابط الطيار مصطفى صادق لمعرفة ما يريد ، وتمت المقابلة ودارت

(١) وجيه اباظه .

المناقشة حول موقف الوطنيين من الملك ، وهل حركة الفدائيين فى القنال تشمل برنامجا عدائيا للملك أم لا ؟ وانتهى مصطفى صادق إلى طلب اصدار بيان من الفدائيين فى الصحف يوضحون فيه موقفهم من الملك ويؤكدون أنهم لا ينتمون إلى الشيوعية ، وقد أحرج الضابط الطيار لأنه مهما يكن الأمر فانه يعمل فى قوات صاحب الجلالة ، واجتمع الوطنيون ووافقوا على اصدار البيان بتوقيع مستعار لأنهم رأوا أن هذا البيان لا يضرهم بقدر ما يحميهم من محاربة الملك وهذا نص البيان :

« عندما ألغيت معاهدة سنة ١٩٣٦ هب الشعب بجميع طوائفه للكفاح والنضال ضد الغاصب بالقنال بقصد اجلائه عن أرض الكنانة ، غير آبه بما يعترضه من صعاب أو ما يقابله من عقبات ، ولم ترهبه قوة العدو وجبروته وما يملك من حديد ونار ، وإنما زحف إلى القنال فى تصميم ، وهو الأعزل الا من الايمان لمحاربة الانجليز وطردهم من البلاد بوحى من ضميره ووجدانه ، وننوه هنا أن حركة المقاومة فى القنال لا تنتمى إلى أى حزب أو أية هيئة سياسية كانت أو دينية أو اجتماعية — كما أنها بعيدة كل البعد عن أية مبادىء يسارية أو شيوعية ، وقصدها الأول والأخير هو محاربة الانجليز ، وأنها تكن كل تبجيل واحترام للسراى والملك الذى يقدر الشعور الوطنى حق قدره ويضعه فى المقام الأول من اعتباره » . ولقد عدل المنشور بعد ذلك بما لا يخرج عن هذا المعنى ونشر فى أخبار اليوم فى ١٩٥١/١٢/٢٩ . وقد أغضب هذا المنشور جميع الأحزاب والهيئات التى كانت تدعى أنها تمارس أعمال المكافحة فى القنال ، فالاخوان المسلمون الذين كانوا على شىء من التنظيم ، وكانت لديهم جميع وسائل الكفاح من مال وسلاح ، لم يظهر لهم أثر يذكر فى معارك القنال ، ولعلهم كانوا يتحينون الفرصة الملائمة للانقضاض على الحكم ، الأمر الذى كانوا يهدفون اليه أولا وأخيرا .. وكذلك كانت حال الشيوعيين وأنصار اليسار الذين وضعوا ضمن برامجهم انتهاز فرص الازمات لاثارة القلاقل وتوسيع هوة الفوضى ليحققوا من ذلك أى كسب ولو ظهروا بمظهر الغيورين على الوطنية المناضلين من أجل مقاصد سامية . . .

وأما الشباب الوفدى فكانوا يعتبرون أنفسهم ممثلين للحكومة التى ألغت المعاهدة، وعلى هذا الاعتبار رأوا أن من واجبهم أن يكافحوا الانجليز ، وقد كافحوا فعلا ولكن على صفحات جريدة المصرى بما كانت تدبجه من قصص خيالية وهمية ، وكانت هناك أيضا بعض هيئات ادعت أنها تحارب فى القنال كجماعة عباس حليم والهيئة التى نظمتها الحكومة للكفاح وأرادت أن تهيمن بها على فرق المقاومة ولكن هذه الهيئة لم يظهر لها أى نشاط أكثر من تصريحات طنانه كانت تلقى أثناء ولائم الطعام أو خلال حفلات السمر .

وبمناسبة قرار الحكومة بتنظيم الكفاح ووضع فرق المقاومة تحت اشرافها فقد أبدت لندن ارتياحها لهذا القرار وخرجت الصحف البريطانية تشيد بموقف الحكومة لعلمها بأن ذلك سيؤدى حتما إلى انتكاس الحركة التى نبعت من قلب الشعب وبدافع من وجدانه .

٤ — معركة التل الكبير

احقاد الانجليز :

كان الغيظ والحقد يملآن قلوب الانجليز ، والخيبة والفشل يغمران نفوسهم لما لاقوه على أيدي الوطنيين فبيتوا النية على خوض معركة أخرى كتلك التي تقع بين الجيوش في ميادين القتال .

فما كاد فجر يوم السبت ١٢ يناير سنة ١٩٥٢ يبزغ حتى كانت المدافع الثقيلة تدك بلدة التل الكبير وما يجاورها من قرى تتقدمها الدبابات الثقيلة والسيارات المصفحة يتبعها الجنود شاكين السلاح وظلت النيران تصب حممها على البلدة الوادعة وعلى أهلها الآمنين فتصيب الأطفال والنساء والفلاحين الوطنيين في مصر . بلا ذنب أو جريرة بحجة أن البلدة تأوى بعض الوطنيين وقد فوجىء الأهالي بهذا الجحيم الذى أحال البلدة إلى لهيب مستعر فهبوا مذعورين وهرولوا ينشدون النجاة بعيدا عن البلدة المشئومة والموت يترصدهم في كل خطوة لأن الرصاص كان ينهمر من كل جانب وفي كل اتجاه .

ومن شاهد هذا اليوم اعتقد أنه يشاهد يوم الحشر فكانت طوائف الأهالي تتسابق في غير وعي النساء يولولن والأطفال يصرخن والفلاحون يهرولون مذعورون على وجوههم دلائل الأسى وآيات الحزن ، جلاليب زرقاء وسوداء بطول الطريق المؤدى إلى أبي حماد وما بعدها من قرى . والصرخات مع أزيز القنابل ودوى الرصاص .

وبينما كانت هذه الطوائف تهرب من الجحيم الذى فتحت أبوابه دون انذار وبلا مقدمات كانت هناك طائفة أخرى تواجه الحديد والنار بقوة ايمانها — ظلت تحارب وحدها الانجليز وتخوض المعركة التي أرادوها بعزم وثبات وقد قسموا أنفسهم إلى فئتين الأولى لعرقلة تقدم القوات الانجليزية والأخرى للأعمال التي

تحتاج إلى تضحية وفدائية وقد قامت هذه بعملها تحت وابل النيران فنسفت قطار الذخيرة القادم من الاسماعيلية فلم يتمكن الانجليز من استعمال ما به فى المعركة فى الوقت الذى حددوه كما قامت بفتح الكوبرى القائم على ترعة الاسماعيلية وأفسدوه وبذلك تعذر على الانجليز عبوره والوصول إلى الضفة الأخرى من الترعة حيث كان يقيم الفدائيون .

الشرطة الى جانب الشعب :

ولما رأى رجال البوليس استبسال الفدائيين انضموا اليهم وكونوا معا قوة كبيرة بها ظلت تقاوم الانجليز الذين شددوا الضرب من الجو والبر وعبروا الترعة بقوارب من المطاط أتوا بها على وجه الترعة وأنزلوا جنودا آخرين من الجو (بالباراشوت) وبذلك حاصروا الفدائيين ورجال البوليس من كل جهة فأسروا سبعة من الفدائيين منهم أحمد فهمى المنسى الطالب بكلية الطب وعمر شاهين الطالب بكلية الآداب وعبد الحميد عبد الله كما أسروا ٣٠ جندى وضابط من رجال البوليس.

وقد استشهد كثير من الأهالى والفدائيين فى هذه المعركة وجرح كثير منهم وقتل من الانجليز ثمانية عشر جنديا وضابطا وجرح ضعف هذا العدد .

اعتراف الصحف البريطانية ببسالة المصريين

واستمرت معركة التل الكبير يومى ١٢ و١٣ من يناير سنة ١٩٥٢ وكانت أولى المعارك المفتوحة التى واجه فيها الفدائيون قوات ضخمة كاملة من البريطانيين، واستبسلوا فيها استبسالا ذكرته جميع الصحف البريطانية واذاعاتهم .

فقالت جريدة التيمس : « أن من المدهش والغريب أن القيادة البريطانية فى مصر تعترف بصراحة بأن جميع الفدائيين المصريين تصدوا لها أثناء معركة التل الكبير وواجهوا القوات البريطانية بجميع أسلحتها وحاربوا ببسالة منقطعة النظير . »

وأيدت ذلك جريدتا الديلى ميرور والنيوز كرونيكل فقالتا : « أن معركة التل الكبير تعتبر من أعنف المعارك التى واجهتهم فى مصر اذا أنها تفوق فى عنفها

جميع المعارك التى خاضوها فى فلسطين وتستطرد الجريدة الأولى بأنها تعجب كيف صمد الفدائيون للقوات البريطانية يوم السبت الموافق ١٩٥٢/١/١٢ يحاربون ببسالة وشجاعة الفرق الميكانيكية والأسلحة الثقيلة وجنود المظلات وفرق الكاميرون والهايلاندرز ، وهم خيرة جنودهم ويحتفظون برجالها ولا يعرضونهم الحرب الا فى المعارك الهامة .

أن هـذه الاعترافات لتدل دلالة واضحة على ما أبداه الوطنيون من شجاعة نادرة وبسالة منقطعة النظير أثناء معركة التل الكبير .

وحشية الانجليز :

بعد أن ضرب الانجليز التل الكبير بقنابلهم وصبوا جام غضبهم على أهلها أسروا من أسروا من الجنود المصريين والفدائيين ، بات الشعب بأسره ينتظر الخطوة التالية ، والواقع أن الانجليز أعلنوا أنهم أسروا جنود البوليس وضباطهم ، ولكنهم لم يذكروا شيئا عن أسرهم للفدائيين السبعة مما جعل الوطنيين يتوجسون خيفة ويتوقعون شرا فاتصلوا بالانجليز عن طريق الهلال الأحمر لمعرفة مصير الفدائيين المفقودين وبعد أخذ ورد اعترف الانجليز بأنهم أسروا سبعة من الفدائيين المفقودين وأن أخبارهم سترد إلى مركز أبى حماد فى ساعة ما من نهار يوم ١٩٥٢/١/١٤ وعلى الفدائيين أو كل من يهمه الأمر أن يترقب هذه الأخبار التى ستوافيهم بها القيادة البريطانية من وقت لآخر .

كانت هذه الأنباء التى حملها الهلال الأحمر من داخل الستار الحديدى لاتوحى بالاطمئنان وأن حملت بين طياتها الكثير من الغموض المشوع بشيء من التهديد مما زاد فى حدة القلق ، وفى نحو الساعة الثانية عشرة ظهرا دق التليفون فى المركز ، وكانت القيادة البريطانية فى الجانب الآخر تطلب ارسال عربة اسعاف ، ثم انقطعت المكالمة ، ران سكون رهيب على من كان فى حجرة المأمور ، وكان بها — عدا بعض الفدائيين — مدير الشرقية محمد صادق الملا وبعض كبار الضباط أتوا لمراقبة ما

يحدث بالمنطقة وليطمئنوا على من أسر من الضباط والجنود والوطنيين وليكونوا على اتصال دائم بالوزارة . ومضت الدقائق متثاقلة والجميع ينتظرون بصبر نافذ ما ستحمله عربة الاسعاف من أخبار .

وبعد ساعتين ظهرت العربة وهى تسرع نحو أبى حماد وكأنها كلب يلهث فنزل الجميع ليستطلعوا الخبر وإن كانت بوادره قد ظهرت على سائق السيارة الذى هبط منها، ثم أجهش بالبكاء. وفتح الوطنيون صندوق العربة وياهول ما رأوا .الفدائيون السبعة قتلى بطريقة لم يعرف لها التاريخ مثيلا الجثث بعضها فوق بعض وعارية تماما وأطرافها منهوشة مشوشة يختلط فيها الدم مع قطع من أجسام الضحايا فى وضع بشع شنيع يقشعر له البدن ويقف له شعر الرأس هولا وجزعا .. فما هى أحداث الليلة الماضية ، وماهى الجريمة الجديدة التى اقترفها الانجليز فى حق الوطنيين.

بدأ الانجليز يحققون مع الفدائيين السبعة فور القبض عليهم، فظلوا يستجوبونهم وقوفا طوال ليلة ١٣ يناير بلا راحة ولا نوم حتى انصرم جانب كبير من الليل ولاحت خيوط الصباح والفدائيون السبعة صامتون لايبوحون للمحققين الانجليز بسر ولا يطلعونهم عن أماكن اخوانهم الفدائيين ،وأثار ذلك حفيظة الانجليز وحقدهم.

وعندما بدأ التحقيق معهم للمرة الرابعة محقق كان من أقسى المحققين وأفهمهم بأنه سيسلك معهم وسائل لم يسمعوا عنها من قبل أن لم يذعنوا ويعترفوا بما يطلب منهم ، ولكنهم كانوا قد عاهدوا الله وأنفسهم بأنهم لن يخونوا الرسالة التى حملوها أو يفرطوا فى الأمانة التى وكلت اليهم .

وانتظر المحقق ذو الوجه الأحمر اجابة من الفدائيين ، ولكنه لم يتلق سوى الصمت الذى يشبه صمت القبور . عندئذ سيق الشهداء إلى قاعة التعذيب وجردهم الانجليز من ملابسهم ثم أوثقوهم وقوفا على أن يرى كل منهم الآخر . وبعد برهة أطلقوا عليهم الكلاب المتوحشة ، وهى كلاب أعدت ودربت خصيصا لاستعمالها فى الحروب وفى مثل هذه العمليات الوحشية التى لا تمت للانسانية بصلة ، وهاجمت

الكلاب الجائعة أجسام الوطنيين وكأنها أسود ضارية وصارت تنهش قطعة من هنا وقطعة من هناك والدم يراق ليتجمع فى وسط القاعة حارا دافقا ثم لايلبث أن يتجمد من شدة البرودة . والمحقق واقف أمامهم جامد الوجه صارم الأسارير ينتظر الاذعان ليمنع عنهم هذا الهول ، ولكنهم كانوا قد صمموا وعقدوا العزم . ولا عجب فانهم لم يخرجوا من ديارهم الاوهم يعلمون أنهم سيلاقون الموت ،وأنهم وهبوا حياتهم للفداء. فسواء عليهم لاقوه فى الميدان أم شاهدوه يغتالهم قطعة قطعة وقطرة قطرة بين الجدران فليضحوا اذن بأنفسهم فى سبيل الآخرين . ولتذهب أرواحهم إلى السماء مثلا يضرب فى التضحيـة والفـداء لتتلاقى مع القديسين والملائكة والشهداء .

ظلت الكلاب المسعورة تنهش أجسادهم والموت يقترب منهم شيئا فشيئا ، وعندئذ أمر القائد البريطانى المنتصر بضربهم بالنار ثم القائم على تل بجوار المسكر حتى أرسلوا فى طلب عربة الاسعاف فشحنوهم بها شحنة إلى أبى حماد .

فهل هذه هى مدينة الغرب التى طالما تشدقوا بها .. وهل يجوز لنا أن نتصور أنه يوجد فى العالم أمة ـــ أية أمة تقترف مثل هذا العمل الاجرامى . لا أظن حتى بين القبائل الضالة التى تعيش فى الكهوف فان لها تقاليدها التى تمنعها من ممارسة الجريمة فى أبشع صورها كما مارستـه انجلترا الدولة العريقة كما يدعون مع الفدائيين السبعة .

هناك صورتان من صور الاضطهاد البريطانى لن تنساهمصر على مدى العصور . صورة مشانق دنشواى وهذه الصورة التى جاوزت كل الحدود ، وعلى كل فان بشاعة الجريمة التى أقدمت عليها بريطانيا العظمى لهى البرهان الواضح على أنها فقدت صوابها وطاش رشدها نتيجة للخسائر التى تكبدها من مقاومة الوطنيين .

الفدائي

سارب في غيابة الظلماء
يستحث الخطا لقرب اللقاء (١)

لبس الليل وامتطى صهوة العـ
ـزم وولى كجنة الصحراء

وعوى الليل حوله وهو يمضي
بجناحين قوة ومضاء

ورأى المـوت جهرة فتحدى
في تحد وقال في استعلاء

أيها المـوت امض عني اني
صانع المجد خالق الكبرياء

الجبان الرعديد داوس عريني
وسيدري الجبان كيف جزائي

من أنت

قلت من أنت أيها الباعث الصـ
ـوت رهيب الصدى كصوت القضاء

أيها الدافع الخطا وظلام الليل
والهوى في طريق الفناء

قال : اني أنا ابن مصر ومفديها
وساقي ترابها بدمائي

والملبي نداءها يوم نادت
كل حر فكنت رجع النداء

والمذيق العدو علقم حقدي
والشراب المرير من بغضائي

---

(١) من قصيدة للاستاذ احمد عنبر عن الفدائيين القيت يوم ٤/١٢/١٩٥١ في الحفل الذي اقامه المؤلف يتحدث الشعب لمقاومة الانجليز وكان بحضرة الاجتماع القائد عزيز المصري وفتحي رضوان المحامي .

الانتقام :

صمم الوطنيون على الانتقام للشهداء ، فبينما كانت عربة الاسعاف تتجه إلى الزقازيق لتشييع الضحايا كانت هناك ثلاث فرق من الفدائيين تتجه إلى معسكرات التل والقرين وكفر حماده .

وقد وضعت الخطة على أثر ما أذاعته القيادة البريطانية بأنها ستحتل بلدة التل الكبير وجميع القرى المحيطة بها ،وذلك فجر يوم ١٥ يناير ، وكان أكثر مايضايق الجنود البريطانيين حرمانهم من الراحة أو النوم ، وكانت الاوامر بالمعسكرات البريطانية تقضى بأنه عند سماع أية طلقة يتعين أن يكون المعسكر بأكمله فى حالة استعداد من أصغر جندى إلى أكبر ضابط . كل ذلك العمل المنوط به لئلا يؤخذوا على غرة . وكانت هذه هى خطة الوطنيين الأولى لا راحة ولا نوم وليعلموا أنهم اذا كانوا قد اغتالوا سبعة من الوطنيين فهناك آلاف غيرهم على استعداد بأن يضحوا كما ضحى اخوانهم ، وأن جريمتهم لن توقف التيار الذى يزحف عليهم رويدا رويدا ولن تكون وحشيتهم سببا فى اخماد جذوره الوطنية أوفتور حماس الكفاح .

وطبقا لهذه الخطة ظل الوطنيون يحيطون المعسكرات الثلاثة : التل ، والقرين، وكفر حماده من كل جهة يطلقون النار ويلقون بالقنابل الحارقة على من فيها والانجليز يجاوبونهم بالرصاص وبقنابل الهاون وكشافاتهم وقنابلهم المضيئة Pining تضىء المنطقة بأكملها فتحيلها إلى نهار شمسه ساطعة للكشف عن الفدائيين . واستمر اطلاق النار حتى الساعة الرابعة صباحا ثم توقف الأزيز الذى ملأ الجو زهاء عشر ساعات لأن الوطنيين كانت لديهم عملية أخرى هامة . عملية الانتقام للشهداء فتسلل أربعة عشر شابا إلى مشارف بلدة التل وعند الظاهرية بين حماده والتل نصبوا مدفعين من مدافع البرن القوية فى مدخل البلدة وفى الشارع العام الوحيد بها تقريبا فوق سطح منزلين متقابلين كل سبعة من الوطنيين بجوار أحد المدفعين يفصلها عن بعضها الشارع الوحيد بالبلدة ليسيطروا على المنطقة وليتمكنوا من

رؤية الجنود البريطانيين عند دخولهم البلدة . وبذلك تم اعداد الكمين الذى رسمه الوطنيون بشجاعة واحكام .

وكانت القيادة البريطانية ومن ورائها المخابرات تعلم عن يقين أنه لم يعد ببلدة التل الكبير أو بالقرى المجاورة لها أى كائن حى . انسانا كان أو حيوانا نتيجة لضرب المنطقة الشديد بالقنابل وأسر الفدائيين والجنود ونزوح جميع الأهالى منها . فلم يتصوروا أن أحدا من الوطنيين يجرؤ بعد ذلك على أن يدخل هذه المنطقة أو يبقى بها وخاصة بعد أن ظل الوطنيون زهاء عشر ساعات يطلقون النار على المعسكرات وأنهم بذلك قد انتهوا من عملهم اليومى . ولكن فات الانجليز أن الوطنيين كانوا قد صمموا على الانتقام مهما تكن الصعاب ، وعلى الرغم من كل الظروف .

كان السكون الشامل يخيم على المنطقة والبرد يلفح الوجوه والندى يتساقط على الكون والضباب الكثيف يمنع الرؤية ، والوطنيون قابعون فى أماكنهم فلا همس ولا حركة يترقبون ما سوف يأتيهم به القدر وأنهم لحكم القدر لخاضعون . ثم بدأ النور يزحف رويدا رويدا على جحافل الظلام فيبددها وخفت عتمة الضباب بعض الشىء وما هى الا ساعة أو بعض ساعة حتى سمعت حشرجة آلات الدبابات التى بدأت تتحرك فى طريقها إلى بلدة التل ، فأفاق الوطنيون وكأنهم يهبون من نوم عميق يترقبون ويترصدون ولاح فى بداية الطريق ثلة من جنود المظلات وفرق الهايلاندرز تتقدم الدبابات يدخلون البلدة المهجورة مطمئنين وقد بدا ذلك من أحاديثهم وتسامرهم ، فقد كانوا يتحدثون بصوت مرتفع ويتضاحكون ، وعندما أصبحوا على مقربة من الوطنيين انطلق رصاص المدفعين فحصدهم حصدا وكانوا حوالى ثمانية عشر ضابطا وجنديا لم ينج منهم سوى ستتولوا الأدبار وأشاعوا الفوضى والخوف فى باقى الفرق التى كانت خلفهم وتمكن بعض الفدائيين من فتح الكوبرى لمنع تدفق القوات البريطانية والدبابات لحين انسحابهم ثم عادوا وغنموا بعض الأسلحة الخفيفة تشمل ثلاثة مسدسات وجهاز لاسلكى كان يحمله أحدهم .

والبطاقة الشخصية لقائدهم وهو البريجادير كورنيل هول .

ثم انسحب الوطنيون بعد ذلك فى العربيتين الفولكس والجيب اللتين كانتا تنتظرهم خارج البلدة . فيما عدا اثنين لم يعرف مصيرهما وقتئذ .

وعندما عاد الوطنيون إلى مدينة الزقازيق كانت الساعة نحو الثامنة صباحا . وقد لبست المدينة لباس الحداد على الشهداء وعزمت على أن تشيع جثمانهم قبل أن تشيعهم القاهرة : فأغلقت المتاجر والمحال أبوابها وخرج الطلبة من مدارسهم والموظفون من مكاتبهم وأقفرت البيوت من ساكنيها ما عدا النساء اللائى سددن النوافذ والأبواب بأجسامهن يولولن ويصرخن وكانت الكتل البشرية تملأ الطريق الطويل من المديرية حتى المحطة والنعوش السبعة تتقدم كل هذه الجموع فى طريقها إلى القاهرة حيث مثواها الأخير .

وكان المشهد فى جملته غاية فى الحزن والأسى ، وما لبث أن أذيع خبر المعركة ، وقبل توديع جثمان الشهداء ، وعندميدان المحطة ، تحدث أحدهم إلى جموع المودعين بأن الوطنيين قد انتقموا للضحايا وقتلوا اثنى عشر جنديا وضابطا منذ ساعة واحدة ، وأن أرواح الشهداء ستلاقى ربها راضية مرضية . وكان لاذاعة هذا الخبر أحسن الوقع على النفوس الغاضبة ، وجاء فى وقته كالدواء يوضع على الجرح فيهدأ بعض شىء .

الضابط الطيار :

عندما ضرب الانجليز التل الكبير فى يومى ١٢ و١٣ يناير سنة ١٩٥٢ واشتدت قسوتهم على الأهالى والآمنين ، وخرجت الصحف بأخبار القتلى والجرحى من المصريين وأنباء إعتقال الفدائيين وجنود البوليس ، كان هناك شاب ضابط طيار يحرق الحزن قلبه ويأكل الألم صدره هذا الضابط الطيار هو أحمد عصمت الذى لم يكد يتصفح صحف يوم ١٤ يناير ويعلم أخبار مجازر الانجليز ، حتى هب لتوه فودع زوجته وأطفاله الثلاثة وحمل مسدسين معبأين بالرصاص واستقل عربته

متوجها إلى بلدة التل لينضم إلى المجاهدين الذى يكافحون الانجليز فى القنال ، ولم يكن منتميا إلى أية هيئة أو مشتركا مع أية جماعة من الجماعات التى تكافح القوات البريطانية . أو حتى على صلة بأى مجاهد هناك ، وإنما سافر إلى القنال بدافع وطنى نابع من صميم قلبه أهاب به أن قم ودافع عن شرفك وشرف بلادك فلبى النداء دون احجام أو تردد .

وفى الطريق إلى التل قرب أبى حماد شاهد رتلا من العربات التى تنتظر دورها فى التفتيش ، وجاء دور الضابط ، ولكنه رفض أن يفتشه عدو بلاده ، وعندئذ دعا الجندى البريطانى قائده وكان برتبة بريجادير فحضر ومعه ياوره وهجم على البطل الشهيد بالقول الجارح ، فلم يتمالك ولم يتوان ، ولم تحتمل أعصابه أن يشاهد قاتلى زملائه يأمرون وينهون وكأنهم أصحاب البلاد وتراءت له جثث ضحايا الأمس السبعة وهم عرايا تنهشهم الكلاب ، فصمم على الانتقام ، ولم لا وقد خرج من بيته عاقدا العزم على الجهاد حاملا سلاحه معه . فسيان عنده الكفاح فى الميدان أو الكفاح هنا ، وفى هذه البقعة بالذات ، ولم لا يقتل هذه الثلة من الجنود وعلى رأسهم قائدهم ، أن حياته لم تعدلها أية قيمة ، فالأجدر به أن يضحى بها مقابل هذا الصيد الثمين .. ولما اختمرت الفكرة فى ذهنه بدأ بتنفيذها على الفور ، وكان فى حافظته مبلغ عشرة جنيهات قذفها إلى ركاب سيارة لنقل الركاب ، كما أعطاهم كل ما كان معه من ملبس ومأكل صائحا فى عجلة :؛ أرجوا أن تعطوا هذه الأشياء لمن يستحقها » .

وواجه الجنود البريطانيين وقائدهم البريجادير ومسدسه فى يده ، وفى لمح البصر أطلق الرصاصات كلها عليهم فسقط القائد وياوره وجندى آخر صرعى .. وتم ذلك بسرعة مذهلة حتى أن باقى الجنود لم يفكروا فى ضرب الضابط الشهيد الا بعد سقوط زملائهم ، واستشهد البطل بعد أن أدى رسالته التى خرج من أجلها ــ تاركا أولاده الثلاثة الصغار وزوجته ــ وثلاثين ربيعا هى كل عمره .

وعادت جميع العربات التى كانت تنتظر دورها فى التفتيش بما فى ذلك عربة

الركاب التى أهدى لركابها ما كان معه إلى الزقازيق ليرووا الأهالى قصة أخرى عظيمة من قصص البطولة النادرة .

وقد يعتقد البعض أن الضابط الشهيد قد استفزته أقوال البريجادير ، وأنه لولا ذلك لما وقع هذا الحادث ، وأنه كان ينوى العودة إلى بيته بعد أن يطمئن على المجاهدين فى القتال ، أو بعد أن يمدهم بالذخيرة أن العتاد . والواقع غير ذلك لأن الضابط الشهيد قد بيت النية على الفداء وصمم على التضحية بنفسه فى سبيل وطنه ، وعندما لاحت له الفرصة اقتنصها دون تردد . وتؤكد ذلك وصيته التى كتبها إلى صهره يوم رحيله وهذه نصها :

أخى حسن : (١)

« أن حبي لوطنى هو الذى حبب إلى سفك الدماء ، دماء الغاصب المستعمر البغيض فذهبت اليهم غير منتم إلى هيئة أو جماعة ذهبت اليهم مسرورا فرحا وكأنى ذاهب إلى رحلة صيد مثل الرحلات التى كنا نقوم بها .

فان مت فأعلن إلى كل مصرى أنى شاب متزوج ، ولى ثلاثة أطفال ولى أمى واخوتى ، ومع هذا فقد ضحيت بنفسى ليعيشوا هم أحرارا فى بلدهم . فالحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات .

فالى اللقاء فى كلتا الحالتين أن مت أو عدت .

أخيك

أحمد

هذه هى كلمات البطل الشهيد الضابط أحمد عصمت الذى لم يتجاوز الثلاثين وبيعا وترك أطفاله وأمه واخوته وضحى بحياته فداء لمصر ، ومن هذا الخطاب نرى أنه لم يذهب للنزهة وإنما سافر وكله عزم وتصميم على أن يكافح أولئك الذين وطئوا أرض بلاده وحاولوا أن يذلوا مواطنيه ويقتلوا اخوانه فى الجهاد .

وستبقى ذكرى هذا البطل مثلا نادرا ساميا فى التضحية والشجاعة والفداء ».

---

(١) من كتاب الاستاذ عبد الحليم الجندى رئيس ادارة قضايا الحكومة عن الفقيد .

٥ — كفاح الشباب والشرطة

عربة البرتقال :

عندما اشتدت حركة الوطنيين وزادت وطأتهم على القوات البريطانية أقدموا على عمليات استفزازية كثيرة ، إذ ما لبث الانجليز أن نقضوا تعهداتهم السابقة وتجاهل الجنرال أرسكين فى ١٩ يناير ١٩٥٢ اتفاقية « ارسكين — غزالى » والتعهدات الأخرى التى تقضى باعتبار مدن القنال مناطق محرمة على الجنود الانجليز ، وأعلن فى تبجح أن القوات البريطانية ستحتل جزءا من مدينة الاسماعيلية ، وبخاصة حى العرب ، بحجة البحث عن الفدائيين المختبئين به .

وقد نفذ الجنود البريطانيون أمر أرسكين بطريقتهم التعسفية المعروفة ، فطردوا الأهالى من بيوتهم وألقوا بالأطفال والشيوخ والنساء إلى عرض الطريق واعتقلوا كل شاب قابلوه باعتباره فدائيا — وما لبثوا كعادتهم أن عاثوا فى الأرض همجية وفسادا . ومن الطبيعى ألا يقف الوطنيون مكتوفى الأيدى ازاء هذه الأعمال الاجرامية ، فاستحضروا عربة يد من تلك التى يستعملها الباعة الجائلون وملأوها برتقالا ، وتحت البرتقال كان يكمن قنبلة زمنية ، وسار أحدهم بالعربة ينادى لبضاعته حتى وصل إلى الكوبرى المقام على ترعة الاسماعيلية والذى يفصل المدينة عن المعسكر ، وتوقف أمامه وأشار للانجليز الواقفين فى الجانب الآخر عارضا بضاعته ليشتروا منه ، وسرعان ما حضر لفيف منهم يربو على اثنى عشر جنديا وصار يساومهم حتى لم يعد على انفجار القنبلة سوى أربع دقائق ، فاستأذن منهم ليقضى أمرا من محل البقالة المواجه له . وفى الساعة الثانية من بعد الظهر تماما انفجرت القنبلة يتطاير شظاياها وتساقط الجنود صرعى وجرحى حول عربة البرتقال .. ولما علم أرسكين بهذا الحادث ثار وأراد أن ينتقم ، ولكن انتقامه كان ينصب دائما على الأهالى العزل الآمنين ، فأمر فرق الجيش والدبابات باحتلال مدينة الاسماعيلية واستعمال القوة مع الأهالى واطلاق النار على المدينة ومن فيها ، وكانت نتيجة ذلك أن كثر عدد الضحايا وسالت الدماء من جديد ، واستشهد

كثيرون منهم راهبة أمريكية . حاول الانجليز الصاق تهمة اغتيالها بالوطنيين ، ولكن التحقيق أثبت أن الراهبة قتلت برصاص الانجليز وكان استشهادها دليلا آخر على انهم اعتادوا قتل الأبرياء . واليك قصة اغتيالها :

بالاسماعيلية دير يسمى سان فانسان دى بول يقيم به راهبات أجانب يؤدين واجب دينهن بايمان وفى صمت ، وعندما أمر القائد الانجليزى أرسكين باشاعة الفوضى فى المدينة واطلاق النار على الآمنين . ولم يكن الجنود البريطانيون بأقل رغبة فى تنفيذ هذا الأمر الفوضوى من القائد ، فاقتحموا المدينة وأسرفوا فى اطلاق النار فى الطرقات وعلى المنازل وفى كل اتجاه ، فكثر القتلى وتناثرت جثثهم فى كل مكان، وكان من بينهم الراهبة الأمريكية انتونى المقيمة بدير سان فانسان دى بول فى يوم ١٩ يناير سنة ١٩٥٢ .

وكان لمصرع هذه الراهبة دوى كبير فى جميع المحافل العالمية عامة وفى أمريكا على وجه الخصوص . وتنصلت انجلترا بطبيعة الحال من جريمة مقتل الراهبة واتصلت بالسلطات الأمريكية وادعت بأن الفدائيين هم الذين قتلوها والفدائيون من دمها براء . وصورت الموقف بأن الأهالى والفدائيين يعتدون على الأجانب المسالمين حتى أنه لم تسلم منهم الراهبة المتدينة القابعة فى عقر ديرها . ولم يكن من الصعب اثبات مقترف الجريمة فشكلت لجان للتحقيق حضره مندوبون من مصر وانجلترا وأمريكا وأثبتت هذه اللجان بما لا يدع مجالا للشك بأن القوات البريطانية هى التى أردت الراهبة ، فقد وضح من الكشف الطبى أنها قتلت بذات الرصاص الذى أصيب به المصريون . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان القوات البريطانية التى أربت على أربعة آلاف جندى تؤيدهم الدبابات الثقيلة والمصفحات والمدافع كانت قد اكتسحت المدينة الصغيرة وظلت تطلق النيران فى كل اتجاه حتى خلت المدينة من سكانها كما أن الفدائيين كانوا قد اختفوا تماما من المدينة لأن المقصود هو اغتيالهم ، أو على الأقل اعتقالهم ، وأخيرا فقد ثبت أن الراهبة الأمريكية لم تكن وحدها التى قتلت برصاص الانجليز وهى فى ديرها وانما قتل كثيرون غيرها وهم

فى منازلهم أيضا أو فى متاجرهم وذلك من جراء الرصاصات الغادرة . وبذلك أضاف الانجليز إلى سجل جرائمهم جريمة جديدة .

حتى القبور :

بدأ الانجليز بعد ذلك فى القبض على الأهالى وتعذيبهم وقتل كل شاب يقابلونه باعتباره من الفدائيين .

وكان هناك خائن مصرى يسمى (محمود صبرى) يعمل مع الانجليز وأثرى من وراء خيانته ، فدلهم على مكان اخفاء أسلحة الفدائيين وذخيرتهم وكانت مخبأة بمنطقة المقابر ، فتوجهت قوة من الجيش تتقدمها الدبابات والسيارات المصفحة إلى هذه المنطقة وحاصرتها من كل جهة ، ودكت القنابل والدبابات القبور ونبشها الانجليز وأخرجوا الأشلاء منها بحثا عن الأسلحة والفدائيين وعثروا على بعض الذخائر وعدد من الأسلحة ، منها ١٢ مدفع استن ، وستة آلاف طلقة من عيار ٣٠٣ و ٤٠ مليمترا عدا بعض القنابل والجلجنات التى كان يستعملها الفدائيون فى صنع المفرقعات . والأسف قبضوا أثناء تفتيشهم ونبشهم للقبور على خمسة من الوطنيين استعملوا معهم نفس الطريقة الوحشية التى استعملوها من قبل مع الفدائيين السبعة الذين قبضوا عليهم ببلدة التل — خلعوا عنهم ملابسهم وأوثقوهم ببعض جذوع الأشجار المقامة بالمقابر وأغروا بهم الكلاب المتوحشة ، ثم أطلقوا عليهم النار ، وقد اعترف الشهيد رفعت على بدر بأنه من الفدائيين ، فلم يكتفوا بكل مافعلوه به من وحشية وإنما أوثقوه باحدى الدبابات التى طافت به المدينة — امعانا منهم فى الاجرام واذلالا للشعب الذى هب يطالب بحقه الطبيعى فى الحياة الكريمة الشريفة .

كان هذا المشهد البربرى الوحشى يذيب الأسى فى القلوب ، ولا يملك من يشاهده الا أن يعتقد بانه أمام أناس قد ابتعدوا عن الانسانية بعدا كبيرا .

المجازر :

وقعت معركة المقابر فى يوم ١٩٥٢/١/٢٢ وانتصر الانجليز على الموتى ، فيالها من معركة ، ولكن هل يقف الاستعمار عند حد . أيجوز المجرم أن يعطف أو يلين — يقول علماء النفس أن المجرم يدور فى حلقة مفرغة — فلا يكاد ينتهى من جريمة حتى يقترف جريمة أخرى قد تكون أبشع من سابقتها . وهذا الرأى أكده باستمرار معتادو الاجرام من ضباط وجنود بريطانيا العظمى ، فلم يكد يبزغ فجر يوم ٢٥ من يناير حتى أقدم الانجليز على أبشع مجزرة عرفتها الاسماعيلية حتى ذلك الوقت ، بل انها تعتبر من أدنأ الجنايات التى أقدمت عليها أية دولة فى هذا العالم وفى القرن العشرين .

فقد استدعى القائد البريطانى اكسهام أحد ضباط البوليس المصرى من منزله الساعة الخامسة من صباح هذا اليوم وألقى فى وجهه بورقة ، ثم أدار له ظهره وتركه وأغلق عليه باب حجرته ، وعندما تصفحها الضابط المصرى قرأ فيها الانذار التالى :

« على جميع قوات البوليس المقيمة فى مدينة الاسماعيلية بما فى ذلك القوات الموجودة بمبنى المحافظة والثكنات أن تسلم جميع أسلحتها وذخيرتها إلى القوات البريطانية ، وأن تجلو عن المدينة وترحل من منطقة القنال فى ميعاد أقصاه الساعة السادسة والربع » .

ورجع الضابط المصرى ومعه صورة الانذار المهين وقدمه إلى قائد بلوكات النظام ووكيل المحافظة ، وقرروا رفضه ، ثم اتصلوا بوزير الداخلية (فؤاد سراج الدين) الذى وافقهم على الرفض وعدم التسليم ومقاومة أى اعتداء بالقوة . ولم يبين لهم الوزير طريقة رد القوات البريطانية ومقابلة القوة بالقوة ، ولم يقدم لهم أية معونة أو يرسل على جناح السرعة القوات والذخيرة اللازمين لمواجهة اعتداء الانجليز أو رد عدوانهم . لقد كان من اليسير على الوزير أن يصدر هذا الامر وهو

قابع فى داره محتمٍ بحجرته ، متدثر بأفخر الرياش ، وكأنه بذلك قد أصدر حكما باعدام جميع جنود البوليس المقيمين بمبنى المحافظة .

وفى تمام الساعة السادسة والربع بدأت المدافع تقصف المدينة وتضرب المحافظة وثكنات بلوكات الخفر ، وحاصر المدينة عشرة آلاف جندى وضابط مسلحين بالدبابات والسيارات المصفحة وقاذفات اللهب ومدافع الميدان ، وتساقطت القنابل على المنطقة بنية هدمها ودكها دكا على من فيها فما كان من جنود البوليس الا أن تحصنوا فى المبانى التى كانوا يقيمون بها وبدأوا يردون على العدوان ويقابلون القوة بمثلها ويواجهون المدافع والدبابات برصاص الأسلحة الصغيرة التى كانت فى حوزتهم ، وهى من نوع لى انفيلد ، والتى لا تقاس بالأسلحة الأوتوماتيكية ومدافع الميدان والدبابات وقاذفات اللهب التى يملكها العدو . ولكن هكذا كتب القدر بأن تدور معركة بين هاتين القوتين المتفاوتين فى العدد والعدة .

وأحال الانجليز المنطقة إلى شعلة من النار وظل عشرة آلاف جندى بريطانى تؤيدهم الدبابات والمدافع يقصفون مبنى بلوكات النظام ودار المحافظة مدة ساعتين وبدون انقطاع حتى تهدمت المبانى التى كان يحتمى بها جنود البوليس ، ولكنهم ظلوا يقاومون ببسالة ولم يتوقفوا عن اطلاق النار الا بعد أن نفذت منهم الذخيرة فاقتحمت الدبابات مبنى بلوكات النظام وأسروا من بها من جنود وضباط وظل باقى جنود البوليس الذى كانوا يعسكرون فى دار المحافظة يطلقون النار على الانجليز ولم يرهبهم استسلام زملائهم ولا كثرة عدد القتلى والجرحى ولم يخشوا النيران التى كانت تتساقط من فوقهم ، ولا تهدم جزء من مبنى المحافظة على بعض الجنود ، بل ظلوا ثابتين فى أماكنهم يردون الحديد بالحديد والنار بالنار .

وقد تعجب الجنود الانجليز لهذا الموقف البطولى النادر فما كان منهم الا أن أرسلوا لمن بقى حيا فى دار المحافظة انذارا نهائيا يخطرونهم فيه بأنه إذا لم يستسلموا فورا فان الدبابات والمدافع والطائرات ستهدم الدار على من فيها وبذلك يدفنون أحياء : وان الضرب سيبدأ بمجرد عدم الموافقة على الانذار بالاستسلام .

.. وكان يقود جنود البوليس فى هذه المعركة ضابط برتبة يوزباشى هو البطل مصطفى رفعت فجمع شمل جنوده وأطلعهم على الانذار فقرروا جميعا رفضه والاستمرار فى المقاومة ، ورفض الانذار يعنى أن رجال البوليس الأبطال قد قرروا الاستشهاد فى سبيل الدفاع عن أى جزء من أرض الوطن حتى ولو كان مبنى متهدما كالذى يلوذون به . واستمرت المقاومة - مقاومة مالا يزيد على خمسين جنديا وضابط من رجال البوليس للجيش البريطانى ممثلا فى عشرة آلاف جندى وضابط تؤيدهم الدبابات والمدافع وقاذفات اللهب وكان المشهد فى جملته يجمع بين البطولة النادرة والسخرية اللاذعة ، وشدد الانجليز الضرب وصمد رجال البوليس ولم يستسلموا حتى نفذت منهم آخر طلقة كانت مع آخر جندى . واقتحم الانجليز أنقاض دار المحافظة ، لأنها كانت قد تهدمت تماما وشبت بها النيران كما تهدمت قبلها ثكنات بلوكات النظام ، وأسروا الأبطال من الجنود والضباط الذين كانوا بها وظلوا أحياء .

وقد اعترف قائد الجيش البريطانى أمام الجميع بشجاعة وبطولة رجال البوليس ضباطا وجنودا وانه لا يسعه ازاء ذلك الا أن يؤدى واجب الاحترام لهم لأنهم أدوا الواجب الملقى على عاتقهم بأمانة . كما أنهم حاربوا بشجاعة منقطعة النظير .

وقد استشهد (1) فى هذه المعركة خمسون جنديا كما جرح أكثر من تسعين أما خسائر الانجليز فتقدر وفقا لتقديراتهم بحوالى ٢٥ قتيلا وأربعون جريحا ، أما باقى الجنود والضباط المصريين وعددهم حوالى ستمائة وخمسين فقد أسرهم الانجليز فى احدى معتقلاتهم بالقنال

هذه المعركة كانت نهاية المجزرة التى بدأها الانجليز يوم ٢٢ يناير ١٩٥١ . ولهذا كانت مدينة الاسماعيلية التى جللها السواد وخيم عليها الحزن والأسى قد استركانت يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ وكظمت غيظها فقد كانت هناك مدن أخرى

---

(1) تحتفل البلاد سنويا بذكرى هذا اليوم .

قد انفجر غضبها ورأت أن تنتقم للضحايا التى سقطت والمدينة التى انتكبت . والسماء التى سكتت ، وكان أول هذه المدن التى قامت تحتج على هذا العدوان الظالم — مدينة القاهرة التى غلى مرجل غضبها غضبا أدى إلى أن ينتهز أعداء البلد ، وعلى رأسهم الملك ، هذه المظاهرات وهذا الغليان فاندس منهم من اندس وسط الجماهير المتدفقة الفياضة وحرقوا القاهرة .

وقبل أن أتحدث عن هذا اليوم المشئوم وتسلسل الحوادث ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة يهمنا أولا معرفة موقف الملك أثناء تلك الأحداث كى نصل إلى مرتكبى الحريق أو المحرضين عليه . وقد سبق أن أشرنا إلى إلحاح الملك فى الحصول من الوطنيين على بيان يطمئنه ، وبعد أن حصل عليه لم يقتنع به . وخشى من حركة الوطنيين أن تتحول إلى ثورة جامحة يؤيدها الشعب بجميع طوائفه يكون هدفها تغيير النظام واقتلاع الفساد من أساسه ورأى أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بوقف حركة الفدائيين بأى شكل وبأى ثمن مهما يكن فادحا .

ولكن كيف السبيل إلى ذلك . هل يجوز أن يكون باصدار الأوامر الملكية باقصاء الفدائيين ومنعهم من محاربة الانجليز . ومن الذى يستمع إلى تلك الأوامر — هذا إذا لم تأت بعكس ما يريد فيتجه الفدائيون إلى تحطيم القصر مع الانجليز بعد أن كانت وجهتهم مقصورة على قوات الاحتلال فى منطقة القنال .

الباب السابع

مقدمات ثورة الشعب فى يوليو ١٩٥٢

١ ــ روما الجديدة أو (حريق القاهرة).

٢ ــ تجمعات فى الجيش.

٣ ــ رجال التشكيل فى فلسطين.

٤ ــ بداية الانطلاق الثورى.

١ ـ روما الجديدة أو (حريق القاهرة)

صدى معركة الاسماعيلية فى القاهرة :

لم تكد أنباء معركة الاسماعيلية ترد إلى مدينة القاهرة حتى ثار الشعب وهب يطالب المسئولين بالثأر . وما بزغت شمس يوم ٢٦ يناير حتى كان الشعب قد أعرب عن سخطه . فأضرب الموظفون وتركوا مكاتبهم ، وخرج طلبة المدارس، وزحفت جنود بلوكات النظام من ثكناتهم بكامل أسلحتهم ، واتجه الجميع إلى الجامعة مبدين سخطهم على ما أصاب زملاءهم فى الاسماعيلية ، وكانت مظاهرة رجال بلوكات النظام التى خرجت من ثكناتها بالعباسية حتى حرم الجامعة يزداد عددها من وقت لآخر بانضمام أفراد الشعب اليها . حتى وصلوا إلى الجامعة ، وهناك وفى حرم الجامعة الفسيح تبادل الطلبة ورجال البوليس الرأى وقرروا أن يتوجهوا إلى رياسة مجلس الوزراء ليطلبوا من المسئولين السلاح لمحاربة الانجليز ومشاركة الوطنيين القلائل الذين يقفون وحدهم أمام قوات الاحتلال ومؤازرة شعب القنال الذى صمد وحده فى وجه الانجليز ، واضطهادهم .

وسارت جموع الشعب من حرم الجامعة بالجيزة إلى رياسة مجلس الوزراء ، وعند مرورها فى شارع الجمهورية رأى الأهالى بعض الفدائيين بأسلحتهم يخرجون من العمارة رقم ٢٢ ليتوجهوا إلى القنال ، فحملوهم على الأعناق وساروا بهم إلى ميدان عابدين ، وعندما رأى حرس قصر عابدين الشعب الغاضب نصبوا المدافع الرشاشة فوق القصر وتأهبوا لاطلاق النار عند أول بادرة تبدو من هذه الجموع لاقتحام القصر . ولو أن الفدائيين المسلحين المحمولين على الأعناق أشاروا إلى هذه الجموع باقتحام القصر ، أو أطلقوا النار فى اتجاهه لتغير الموقف . ولقامت الثورة على الفور ، ولسالت الدماء ، ولكثرت الضحايا ولعل الشعب كان قد نصب المشانق فى الميادين كما وقع قبل ذلك فى فرنسا عندما ثار الشعب ضد لويس والطبقة الأستقراطية .. ولكن الفدائيين آثروا السفر إلى القنال فى العربات التى كانت

تنتظرهم للقيام بعمليات الثأر التى رسموا خطوطها طوال يوم ٢٥ يناير وبذلك تجنبت البلاد ويلات حرب أهلية لايعرف مداها الا الله حتى قامت الثورة البيضاء التى لم ترق فيها قطرة دم واحدة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

اين الملك ؟! :

كانت الهتافات تملأ الجو ، والشعب الحانق ثائر غاضب ، والموقف ينذر بأوخم العواقب ، فما هو موقف فاروق — وماذا كان يجرى داخل القصر ؟ .

من المفارقات العجيبة — ومن مهازل القدر — أن الملك كان يحتفل فى هذا اليوم بعيد ميلاد ابنه ولى العهد الأمير أحمد فؤاد من زوجته الثانية ناريمان كريمة حسين فهمى صادق سكرتير عام وزارة المواصلات فى ذلك الوقت . والتى اختطفها من خطيبها الدكتور محمد زكى هاشم ، وأجبر الجميع على الاذعان لمشيئته والخضوع إلى شهواته ، وقد دعا الملك جميع المسئولين فى الحكومة للاحتفال بهذا اليوم ، وكان ضمن المدعوين كبار ضباط البوليس المنوط بهم المحافظة على الأمن . وكذلك كبار ضباط الجيش : ورفض الملك رفضا باتا تأجيل الاحتفال نظرا لتوقع المسئولين وقوع اضطرابات فى هذا اليوم . وقد احترقت القاهرة فعلا على حين كان الملك ومدعووه يتناولون طعام الغداء ، ولم يحاول مسئول واحد انقاذ الموقف. لقد قبضت الحكومة على رجال مصر الفتاة واتهمت النيابة العامة السادة أحمد حسين رئيس الحزب ومحمد جبر حسن وممدوح عبد المقصود وسليمان زعارى وعلى عبد الحليم هاشم وغيرهم من الأهالى بأنهم فى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ اشتركوا بطريق التحريض والاتفاق فى ارتكاب جنايات وضع النار عمدا فى محلات التوارز والأمريكين وجروبى وشيكوريل الخ : واتلاف ونهب الأمتعة من تلك المحال بالقوة الاجبارية [1] وقد ألمح المتهمون أثناء محاكمتهم بأن الملك هو الذى دبر الحريق بالاشتراك مع الحكومة وذكروا أن مسئولية الملك السابق عن هذا اليوم

(١) من قرار النيابة العمومية لاعضاء مصر الفتاة .

وعن تطور حوادثه هى مسئولية لاشك فيها وهى على أهون أحوالها صورة من صور الاشتراك بالترك وهذا التعبير معناه أن الملك رأى حريق القاهرة وترك المرتكبين ينفذون قصدهم باحتجازه كبار رجال البوليس المسئولين عن الأمن والواقع أن الأمر لم يكن صورة من صور الاشتراك بالترك ، وانما هو اشتراك فعلى فى الجريمة بعد دراسة وتدبير . ولقد تحدث أستاذنا الكبير عبد الرحمن الرافعى عن حريق القاهرة وأسند الجريمة إلى الشعب أو ما أسماه بالعناصر الرديئة من الشعب ، ولكننى أعارضه فيما ذهب اليه لأنه لا يتفق مع تسلسل الحوادث ، ولا مع الأغراض التى تحققت من ورائه . وأسوق فيما يلى رأى الأستاذ الرافعى والأسباب التى دعته إلى اسناد الجريمة إلى الشعب . وسيتأكد بعدها القارىء أن الأسباب التى تدين الملك والانجليز أرجح بكثير ، وهى الأقرب إلى العقل والمنطق.

يقول سيادته فى كتابه عن مقومات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ تحت عنوان « هل للانجليز أو القصر يد فى حريق القاهرة » قرأت فى بعض الصحف والمجلات تلميحات تشير إلى أن الانجليز هم الذين دبروا حريق القاهرة مثلما دبروا مذبحة الاسكندرية التى وقعت يوم ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ ، وزعم آخرون أن لفاروق يدا فى هذا التدبير .

وكنت أود أن يسفر البحث والاستقراء عن تدبير الانجليز أو فاروق حريق القاهرة . ولقد قضيت عدة سنين وأنا أعاود البحث لعلى أصل الى بيانات أو مجرد قرائن تثبت هذا التدبير مثلما انتهى بى البحث والتحقيق إلى ثبوت تدبير الانجليز لمذبحة الاسكندرية وتبين لى مع شديد الأسف أن حريق القاهرة كان عملا محليا قامت به العناصر الرديئة من الشعب .

فالحقيقة المؤلمة أن هذا الحريق هو عمل محلى محض ، وأصلى صرف ، ولقد عشنا فى هذه الحقبة من الزمن وشهدنا الحريق بأعيننا ، وأمكننا أن نتبين صورة صحيحة من حقائقه وملابساته . ولقد رأينا الغوغاء يشعلون النار جزافا فى المحلات التجارية دون مبالاة أو اكتراث . رأينا اللهب يتصاعد إلى عنان السماء دون أن

نلاحظ أى مجهود ولو يسير من رجال البوليس وضباطه فى منع الحرائق ،ورأينا بأعيننا الجماهير المحتشدة على الأرصفة وقت اشتعال النيران مبتهجة مغتبطة .رأيناها تنظر بعين الحقد إلى رجال المطافىء وهم ذاهبون بسياراتهم لاطفاء الحرائق ، ولم ينجهم من الغضب الشعبي الا انحناءات منهم بأنهم لن يعملوا على اخمادها .ولاحظنا أن هذه الايماءات كانت تقابل من الجمهور بالهتاف والتصفيق ، وتحققنا أن بعض المتظاهرين كانوا يقطعون خراطيم المياه ليمنعوا رجال المطافىء من أداء واجبهم وهذه المشاهدات دلتنا مع الأسف على أن الحريق انبعث من النفوس المريضة من بين الوطنيين . وقد عثر على كثير من المنهوبات فى منازل العناصر الرديئة من الشعب وهذا ينفى أن الحريق أو النهب كان بتدبير من الانجليز أو القصر .وصفوة القول أن حريق العاصمة يوم ١٩٥٢/١/٢٦ كان مأساة ينفطر لها البلد حزنا وأسفا».

ويقول سيادته عن مسئولية فاروق : « لا نعتقد أن لفاروق يدا فى تدبير هذا الحريق كما أسلفنا الا فى مساعدته على وقوعه بطريق غير مباشر ، فهو شريك فى المسئولية بسبب مأدبة الغداء التى دعا اليها معظم ضباط الجيش والبوليس وأقيمت لهم بقصر عابدين فى يوم ١٩٥٢/١/٢٦ يوم الحريق ابتهاجا بميلاد ولى العهد » .

من المسئول ؟!! :

هذا هو الرأى الذى ذهب اليه الأستاذ عبدالرحمن الرافعى، وهو يتلخص فى أن الذى حرق القاهرة هم العناصر الرديئة ذوو النفوس المريضة من الشعب ،استنادا الى أنه قد شوهد بعضهم وهم يحرقون المحلات التجارية جزافا دون مبالاة أو اكتراث . ومن أن البوليس عثر على كثير من المنهوبات فى منازلهم ، وهذان هما الدليلان الوحيدان اللذان ذكرهما سيادته لالصاق تهمة الحريق إلى العناصر الرديئة من الشعب . وهما لا يرقيان بحال الى الأسباب التى سأسوقها وهى تؤيد وجهة النظر التى ترجح تآزر الملك والانجليز فى ارتكاب الحريق .

١ — فقد يبدو أن الملك كان يخشى من حركة الفدائيين التى كانت تشتد من

وقت لآخر ويخاف على نفسه وعرشه من أن يطيح بهما الوطنيين ، وبذلك أرسل مصطفى صادق إلى قادة الحركة يطالب منهم الضمان حتى حصل منهم على البيان الذى نشرته الصحف . ولكنه مع ذلك كان دائم القلق وأبدى فى كثير من المناسبات لمن حوله ضرورة وضع حد لحركة الوطنيين فى القتال .

٢ — على الرغم من أن الأخبار قد انتشرت فى جميع الأرجاء عن مجزرة الاسماعيلية وما كان يتوقعه الجميع من مظاهرات واضطرابات احتجاجا عليها لم يحاول المسئولون وعلى رأسهم الملك تلافى ذلك بل أن الاضطرابات قد بدأت بالفعل قبل بزوغ شمس يوم ٢٦ يناير فى الساعة الثانية من صباح هذا اليوم عندما تجمع عمال مطار فاروق وجنوده وموظفوه حول أربع طائرات لشركة الخطوط الجوية البريطانية ومنعوا نزول الركاب منها ، وكان عددهم يبلغ ١٢٠ راكبا ، ورفضوا تزويد هذه الطائرات بالوقود وحالوا بينها وبين استئنافها السفر ، وفضلا عن قيام المظاهرات منذ الصباح الباكر فى جميع الجهات فإن الملك صمم على احتجاز كبار ضباط البوليس المسئولين عن الأمن لحضور مأدبة الغداء بمناسبة ميلاد ولى العهد « أحمد فؤاد » ولم يقبل أى نصيحة بارجاء الوليمة أو جعلها للعشاء بدلا من الغداء .

٣ — ومما يؤكد كذلك الرأى القائل بتدبير الملك والانجليز للحادث أن (أيا منهما) لم يطلب نزول الجيش لقمع المظاهرات الصاخبة التى عمت القاهرة ، مع أنه نزل فى ظروف أقل من هذه الظروف خطورة وكان من اليسير قمع هذه الاضطرابات فى حينها ويؤيد ذلك الاجراء الذى اتبعه مرتضى المراغى محافظ الاسكندرية فى ذلك الوقت فأمر بانزال الجيش إلى المدينة للمحافظة على الأمن مع الفارق الكبير بين القاهرة والاسكندرية ، وقد أخطر مرتضى القصر والوزارة بذلك منذ الساعات الاولى من صباح يوم ٢٦ يناير وألمح إلى خطورة الحالة ولكن القصر ضرب بذلك عرض الحائط وأصم أذنيه . أما الانجليز — لأمر بيتوه — فلم ينصحوا كعادتهم بتدخل الجيش ، وكل مافعلوه أن اتصل السفير البريطانى بابراهيم فرج

وزير الخارجية بالنيابة وقال له أنه يتمنى أن تكون الحكومة قد أعدت نفسها لهذا اليوم دون زيادة أو نقصان .. فما هو السر الذى يكمن وراء كل هذا التراخى والتغاضى والاستهتار . ولم لم يجزع الملك كعادته ويلجأ إلى الجيش ليوقف تذر الشر التى لاحت فى الأفق ؟ وهنا يرد سؤال طالما ألح على الجميع .. ألم يخش الملك على عرشه أو نفسه من حالة الفوضى التى كانت تلوح فى الأفق . ويأتينا الرد سريعاً من ناحية أصدقائه فى القنال . فقد أمر القائد العام للقوات البريطانية الجيش الانجليزى بأن يتقدم نحو القاهرة — ونصب الحرس الملكى المدافع الرشاشة فوق القصر واستعدوا حتى إذا ماقشلت مؤامرة الحريق وتعرض الملك إلى أى خطر كان الانجليز على أهبة الاستعداد لدخول القاهرة لاحتلالها ولحماية عرش فاروق والأقليات والمصالح البريطانية التى طالما جعلوها ذريعة لكل تدخل ، هذه هى الحقيقة التى لاتقبل جدلا أو نقاشا .

٤ — وإذا تتبعنا سير حوادث الحريق — التى بدأت بعد الساعة الثانية مساء طريق كازينو أوبرا وانتهت قبل الساعة الخامسة وأتت على (٨٥٠) مكانا وأحرقتها تماما لما تصورنا أن ذلك من فعل الغوغاء وإنما هو تدبير محكم مرسوم له خط سير معلوم يؤيد ذلك ماأثبته التحقيق من أن مرتكبى الحوادث كانوا يستعملون مواد غريبة سريعة الالتهاب (كالكبسولات والكيروس والأنابيب) التى كانت تلقى فى أماكنها وسرعان ماتشتعل النيران بطريقة لم ير الناس لها مثيلا .

فهل كان الشعب الثائر أو حتى الغوغاء من ذوى النفوس المريضة كانوا يعلمون أنهم سيحرقون هذه الأماكن من قبل ولذلك أعدوا هذه المواد ليستعملوها فى الحريق ، من السذاجة أن نتصور ذلك ولا يعقل اطلاقا أن يتفق جميع طوائف الشعب على الخروج فى مظاهرة يعبرون فيها عن شعورهم ويحرصون قبل الخروج من منازلهم على أن يضعوا فى جيوبهم هذه المواد الغريبة السريعة الالتهاب . أيجوز لنا أن نتخيل ذلك بمجرد تخيل ؟ ليس هناك إلا صورة واحدة لحدوث الحريق هى أن عملاء الملك والانجليز من أمثال جماعة اخوان الحريق والبوليس السياسى وأعوانهم اندسوا وسط المظاهرات والاضطرابات ثم ارتكبوا حوادث الحريق بالقاء هذا المواد فى الأماكن التى شبت فيها النيران .

٥ — ثم أن هناك مسألة جوهرية هامة وهى أن البوليس لم يضع يده على اعتراف صريح أو حتى ضمنى على من ألقى القبض عليهم وهم كثيرون بأنهم اقترفوا جرائم الحريق وإن كان البعض قد اعترف بأنه شارك فى أعمال النهب والسلب وهذا يعنى أن مقترفى الحادث قد اندسوا وسط الجموع الغاضبة وبعد أن أشعلوا النار تواروا عن الأنظار ليبدو الأمر وكأنه شىء طبيعى قامت به طوائف الشعب الثائرة.

وأما أعمال النهب والسلب التى تمت بعد الحريق فلا تدل بحال على أن مرتكبيها هم الذين أشعلوا النار ، وإنما يحدث ذلك عادة فى الثورات وفى جميع الدول على اختلاف ألوانها . حدث ذلك وأكثر منه بكثير فى الثورة الفرنسية وفى الثورة البلشفية وفى كل الثورات دون استثناء . ولقد وضع رجال البوليس أيديهم على بعض من اقترفوا جرائم السلب والنهب ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى شخص بعينه أشعل النار فى مكان بعينه ولم يكن أمام البوليس إلا أن يقبض على بعض رجال مصر الفتاة لكى يلصق بهم تهمة احراق القاهرة ظلما وزوراً وبعد أن أعيته الحيل وضاقت به السبل .

ولو أن حريق القاهرة كان حقيقة من فعل طوائف الشعب الثائرة لما عجز رجال البوليس من إثبات ذلك ولوضح الأمر بما لايدع مجالا لأى شك ولكن الحقيقة على خلاف ذلك تماما .

٦ — ولطالما سعى الوفد إلى تأزم الأمور فى القنال وتمنى أن تشتد عنفا وكان يتعمد إظهار موقف رجاله من النضال بأنهم هم وحدهم الذين وراء الحركة يشجعونها ويوجهونها بالمال والسلاح . ويصرحون بذلك فى صحفهم ومجالسهم . وكان الوفد يهدف من وراء ذلك إلى الضغط على الانجليز لحل القضية المصرية وفى سبيل ذلك أيضا سحبت مصر سفيرها فى لندن وصممت بأن تقطع العلاقات مع انجلترا . . وكانت السراى تنظر إلى هذه الاجراءات بخوف شديد وشعر الملك بالخطر المحدق بعرشه وتلاقت أهدافه مع أهداف الانجليز ورأوا ضرورة ضرب

الحركة الوطنية بوسيلة أو بأخرى . ولاحت لهم الفرصة عندما قامت المظاهرات صبيحة يوم ٢٦ يناير وكانوا يتوقعونها كما سبق وبينا فاندس بين المتظاهرين جماعة اخوان الحرية الموالين الانجليز ورجال البوليس السياسى (١) الذين كانوا من أعوان القصر ويعملون لحسابه وأحرقوا القاهرة . وبذلك سنحت الفرصة للملك باقالة الوزارة لأنها قصرت فى حفظ الأمن والنظام وتحقق له ولأسياده الانجليز ما أرادوا. فأقصى الوفد وانتكست الحركة .

٧ — وأخيراً فإننا إذا نظرنا إلى النتيجة الحتمية لحريق القاهرة وبحثنا عن الهدف من وراء ارتكابه والفوائد التى سيجنيها مقترفوا الجريمة لوجدنا أن الملك والانجليز هم أصحاب المصلحة الحقيقية فى الحريق ولا يمكن بحال أن يكون الشعب لأنه هو الذى خسر أولا وآخراً ، فقد ضاعت الدفعة الثورية التى كانت تتمثل فى نفوس الوطنيين بالقتال والتى كان يتجاوب معها الشعب فى كل الأرجاء .

وقد رجح هذا الرأى كثير من الكتاب فأوضح الدكتور سعيد عبد الفتاح فى كتابه « ثورة شعب » بأن الملك هو الذى أحرق القاهرة فقال: (وقد ساد الاعتقاد بأن فاروق هو المدبر الأول لحريق القاهرة لكى يثبت فشل حكومة الوفد فى حفظ الأمن والنظام ويتخذ من ذلك ذريعة لاقالتها من الحكم بدليل ماذكره الملك فى كتاب إقالة الوزارة فى ٢٧ يناير سنة ١٩٥٢ (من أن الأمور سارت سيراً يدل على أن جهد الوزارة التى ترأسونها قد قصر عن حفظ الأمن والنظام) وبدليل أن الملك حرص فى يوم الحريق على أن يقيم وليمة كبرى فى قصر عابدين لضبـاط الجيش والبوليس ومن جملتهم ضباط المطافىء وذلك احتفالا بمولد ولى العهد مما أضعف قوة الضبط فى العاصمة فى ذلك اليوم) كما يؤكد الأستاذ أحمد بهاء الدين رئيس تحرير مجلة المصور هذا النظر فيقول (ولم يكن فاروق مستطيعا أن ينفـذ

---

(١) شاهد كثير من المصريين رجال البوليس السياسى وهم يمرون بسياراتهم على المتظاهرين يشجعونهم ويوزعون على بعضهم المواد الحارقة .

بنفسه خطة الخيانة والغدر فى هذه الظروف فهى مهمة صعبة لا ينهض بها هذا الفاسق الجاهل الذى يعيش فى عالم من الانحلال والقهار ويجالس حثالات هابطة المستوى لا تجيد الا حديث الدعارة مثل بوللى وبتروو وحلمى حسين فلم يكن بد من أن يختار رجلا ينفذ له الخطة المرسومة وكان حافظ عفيفى ذلك الرجل وكانت الخطة التى رسمها فاروق والانجليز لطعن القضية الوطنية يستهدف أولا اخراج وزارة الوفد وكانت خطة اخراج الوزارة تتلخص فى الآتى .

١ — تشجيع الحملة على مظاهر الفساد الداخلى فى الوفد والتشهير بالأخطاء والسرقات واستغلال النفوذ لجذب اهتمام الناس إلى الوضع الداخلى ولزعزعة ثقة الشعب فى الوزارة التى تجتاز به المعركة .

٢ — نشر الأنباء المختلفة أو المبالغ فيها عن محاربة الوزارة للفدائيين والقبض عليهم وما إلى ذلك لزعزعة الثقة بين المقاتلين فى الجبهة والوزارة فى الداخل .

٣ — أن يقوم الانجليز باستفزازات وتحرشات عنيفة لا غرض من ورائها أكثر من تعريض الوزارة لهزات عنيفة .

٤ — مشاورات متصلة للبحث عن الوزارة التى يمكن أن تخلف وزارة الوفد ويجب أن تكون وزارة قادرة على التظاهر بالاستمرار فى مقاومة الانجليز تلافيا لثورة الرأى العام من جهة وحتى يمكن تحويل التيار تدريجيا وفى هدوء .

٥ — البحث عن وسيلة للحد من الحريات العامة لأن قتل القضية الوطنية لن يتيسر أبدا وهذه الاجتماعات تعقد والصحف تكتب والناس يقولون ما يشاءون .

وتمت الخطة بحذافيرها فقد انتشر احساس غير ملائم بعدم قدرة الوزارة الوفدية على مواجهة الموقف : وأثر الاعتداء الوحشى على محافظة الاسماعيلية فى استفزاز الناس واشعال غضبهم وتمرد جنود بلوكات النظام ذلك التمرد الذى لم يكشف الأصابع الخفية فيه بعد وكان تضليل هذا الشعب سهلا نتيجة التوجيه الخاطىء

الذى قامت به بعض الصحف موهمة الناس بأن المعركة تكسب بالتخريب الداخلى والتحرض على أرواح الأجانب وممتلكاتهم .

ولما انطلقت كل هذه العوامل وتفاعلات وسنحت الفرصة لعناصر الخيانة كلها أن تعمل على نطاق واسع . البوليس السياسى وعملاء الانجليز من نوع جماعة اخوان الحرية وغيرهما أخذت هذه بعمل على تكميل المأساة وكانت قيادة الجيش الفاسد كالأصابع فى يد الملك فاستطاع أن يمنع من التدخل لحماية الأمن حتى يعم الدمار بشكل جسيم يبرر الاجراءات التى ينوى الملك الاقدام عليها .. واحترقت القاهرة .

من كل ما سبق يبين بجلاء أن أصبع الملك والانجليز كانت من وراء حريق القاهرة ما فى ذلك شك وستحفظ لهما مصر هذا العمل من بين ما تحفظ لهما فى سجلها الحافل بالسواد والخزى والعار . وستبقى ذكرى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ماثلة كدليل مادى على أعمال الخيانة وكمثل حى للجريمة فى أبشع صورها .

انتكاس الحركة :

تحقق الأمل الذى راود الانجليز والملك للقضاء على حركة الوطنيين فى القنال بحريق القاهرة وبمحوا فى طمس أهم معالمها وآثارها الحديثة ممثلة فى الجمال الفنى المعمارى من فنادق جميلة كشبرد والكونتنتال ومينا هاوس وسميراميس ، الى دور السينما التى بنيت على أحداث الطرق كسينما مترو وريفولى وراديو والمتاجر الكبرى كمحلات شيكوريل وشملا وعمر أفندى والمطاعم الفخمة كجروبى والكورسال والأمريكين ومئات المكاتب الأنيقة الأخرى التى كانت تزين العاصمة ثم أصبحت أماكنها خرابا وظل دخان الحرائق يزكم الأنوف حتى اليوم الثالث من وقوع الحريق ، ومن شاهد القاهرة فى ذلك اليوم المشئوم ليذكرنا بما أنبأنا به التاريخ من حريق روما على يد حاكمها نيرون وسعادته الفائقة وهو يشاهد النيران وهى تندلع فيها ومنها ، ولعل التاريخ أراد أن يعيد نفسه على يد فاروق أو لعل هذا الأخير أراد أن يقلد

يرون وما أكثر ما كان يقلد غيره من أمور ، خاصة ولو كانت تخالف طبيعة البشر . وعقب الحريق فرضت الوزارة الأحكام العرفية وأصدر الحاكم العسكرى أوامر عسكرية بمنع الأهالى من التجول من الساعة السادسة مساء حتى صباح اليوم التالى ابتداء من يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٥٢ كما أصدر أمر بمعاقبة كل من يضبط ومعه سلاح بالسجن مدة لاتقل عن خمس سنوات .

ومعنى ذلك أن على الوطنيين عدم حمل السلاح ، وبمعنى أوضح وقف جميع العمليات بمنطقة القنال ومهادنة الانجليز . وهذا هو ما كان يهدف اليه الملك والانجليز من وراء حريقهم القاهرة .

استمرار كفاح الضباط الاحرار :

ولكن الوطنيين لم يرضخوا لهذا الأمر ولم يسلموا السلاح الذى كان معهم واجتمعوا وقرروا الاستمرار فى الكفاح ، وان كانت مهمتهم قد غدت أصعب من ذى قبل ، اذ كان عليهم أن يحاربوا الانجليز ويستخفوا من الحكومة خشية القبض عليهم ، وفى هذا الوقت العصيب ودخان الحرائق لايزال يتصاعد إلى السماء والمدينة يلفها غبار أسود ، تحرك التشكيل العسكرى لانه رأى أن الموقف يحتم عليه أن يعمل ، وبسرعة فائقة لاعداد الترتيبات اللازمة للضربة القادمة القاضية . فقد كان التشكيل العسكرى يعمل جنبا الى جنب بجوار التشكيل المدنى فى القنال يساعد بخبرته وبأسلحته وبذخيرته وبكل امكانياته فى المعركة ، بل ترك بعض الضباط عملهم بوحداتهم واشتركوا فعلا فى عمليات المقاومة ولم يبق منهم سوى القادة الذين كانوا يديرون المعركة من وراء ستار خشية انكشاف أمرهم .

فكنت ترى وسط المعركة على سبيل المثال السادة كمال رفعت وعصام خليل الضابط الذى كشف مؤامرة الخونة بلبنان بعد أن حاولوه نصف مليون جنيه ليتعاون معهم . . ومجدى حسنين ووجيه أباظة — محافظ البحيرة — وصلاح هدايت وزير البحث العلمى وكان يقوم باعداد القنابل الزمنية ، فهو فوق أنه ضابط جيش الا أنه خريج كلية العلوم .

وتحضرني واقعة طريفة وقعت أثناء اعداد احدى هذه القنابل فقد أحضر له الوطنيون عشر ساعات كانت من النوع الرخيص لاعداد عشر قنابل وتسلمها صلاح هدايت ووعد بصنعها على أن تكون معدة صباح اليوم التالي وكان ذلك في أوائل ديسمبر سنة ١٩٥١ وعندما تم تركيبها لم يشأ صلاح أن يسلمها الى الوطنيين الا بعد أن يجرب احداها ، وكانت الساعة الحادية عشرة صباحا فقام باعداد احدى هذه القنابل للتفجير بعد نصف ساعة وتوجه الجميع الى صحراء العباسية وثبت الفتيلة تحت أحد الأعمدة الخشبية القديمة وانتظر الجميع انفجار القنبلة دون جدوى حتى جاوزت الساعة الثانية عشر ورأى الوطنيين أن من الحكمة عدم ترك هذه القنبلة في مكانها لأنه من الجائز أن تنفجر بعد ذلك فتصيب أحد المارة وتشاوروا على من يقع عليه عبء احضار القنبلة لافسادها فتصدى أحدهم ولكن صلاح هدايت أبى وصمم على أنه هو وحده الذى سيقوم بهذه المهمة ، وكانت القنبلة على بعد حوالى ثلثمائة متر ، وذهب صلاح لاحضارها زحفا لأن انفجارها في أى وقت معناه اصابة أى شخص في محيط مساحته ٢٠٠ متر مربع ، ووصل إلى مكان القنبلة وأخرجها .

كل هذا والوطنيون يترقبون رجوعه سالما بصبر نافذ وقد أخذ منهم الخوف كل مأخذ وعندما عاد صلاح وجد أن الساعة تسير ببطء وأن القنبلة لابد لها أن تنفجر لو انتظروا عليها ١٥ دقيقة أخرى ، فأعادها وانفجرت القنبلة .

هذه هى روح بعض الضباط الأحرار الذين كانوا يقودون المعركة وقدمت هذه الحادثة البسيطة لأدلل على مدى روح الفداء التى كانت تسيطر على الجميع أثناء معارك القنال .

أعود فأقول ان الرئيس جمال عبد الناصر واخوانه من الضباط كانوا يرون فى حركة القنال مرتعا خصبا لاشعال الشعور الوطنى ، ويعتقدون بحق أن فى ازدياد عدد الوطنيين فى القنال يوما بعد يوم اعدادا للثورة الشاملة جيشا وشعبا ،

ولذلك لم يتركوا الوطنيين يحاربون وحدهم بالقنال وانما أمدهم جمال بخيرة الضابط ولم يبخل عليهم بالسلاح والذخيرة ، ولطالما كان الوطنيون يتوجهون اليه بالعباسية ليتسلموا منه رصاص بنادق لى أنفيلد (٣٠٣) والبنادق أو مدافع البرن المشهورة التي استعملوها فى معركة ١٤ يناير سنة ١٩٥٢ عندما قتلوا الاثنى عشر جنديا من جنود الكاميرون والهايلاندورز .

ولذلك فقد ارتاع التشكيل العسكرى لحريق القاهرة وما تبع ذلك من فرض الأحكام العرفية وما تلاه من قوانين مقيدة للحرية منعت الوطنيين من حمل السلاح أو التجول ورأى التشكيل أن الحركة قد انتكست وأن الدفعة التى كانت تسير بها قد توقفت لذلك رأى جمال أن الوقت قد حان ليبدأ العمل مع اخوانه لتخليص البلاد من الفساد الذى استشرى فى كل مكان حتى أصبحت مصر بؤرة من بؤر الفساد ، وقد أعرب جمال عبد الناصر عن شعوره ذلك عندما احترقت القاهرة فى احدى خطبه فقال : « حرقت القاهرة وحرق معها كفاحنا فى القنال ومن ذلك اليوم يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ بدأنا نفقد الصبر وبدأنا نفكر فى العمل الايجابى وآثرنا أن نصرع الفساد قبل أن يصرعنا وأن نحطم الطغيان قبل أن يحطمنا » .

ومنذ هذا اليوم المشئوم والعربة الأوستن السوداء القديمة التى كان يركبها جمال لا تهدأ لها حركة لا فى الليل ولا فى النهار .

موقف الملك وحكومته من الكفاح الشعبى :

عقب صدور مرسوم اعلان الأحكام العرفية والأوامر العسكرية التى تفرعت منه مساء يوم الحريق أى يوم ٢٦ يناير اجتمع الوطنيون وقرروا الاستمرار فى الكفاح ، على الرغم من هذه الأوامر الصارمة لأنهم رأوا أن فى وقف العمليات الدائرة بالقنال لطمة كبرى للحركة وانتصار كبير لقوات الاحتلال وإن كان من المتعين عليهم أن يتحركوا فى صمت وحيطة وحذر وأن يخفوا ما معهم من ذخيرة وأسلحة لأن قوات البوليس وضعت نصب عينيها تعقب الوطنيين والقبض عليهم،

وكان لدى الوطنيين عربة جيب وعربة لنقل الجنود وخمسين بندقية والتي طلقة من عيار ٣٠٣ فرأى الوطنيون أن يخفوا هذه الأشياء تماما عن الأنظار، وسافروا فعلا وفي احدى قرى مديرية الشرقية أخفيت العربتان والأسلحة وسحبوا جميع الوطنيين بالقنال فيما عدا كتيبة واحدة في كل من الاسماعيلية والسويس والتي روعي في اختيارها اعتبارات كثيرة (١) وعاد الوطنيون إلى القاهرة ظهر يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٥٢ وكان البوليس يجد في القبض على من يشتبه فيه تنفيذا الأوامر العسكرية والعجيب أن الملك بعد أن حقق مأربه واتخذ من النحاس مطيه للوصول الى الأحكام العرفية وايقاف حركة الوطنيين التي كانت تقض مضجعه أعد مشروع اقالة النحاس قبل ميعاد تنفيذ الأوامر العسكرية، فبينما كان النحاس يجلس في داره هادئا مطمئنا حوالى الساعة العاشرة مساء، اذ برسالة من الملك تصله وكانت تحوى إقالته من الوزارة، ثم أسند الملك الوزارة إلى على ماهر وفرح الناس بعض الشيء وترقبوا تغييراً في السياسة انقاذاً للموقف المؤسف الذى وصلت إليه البلاد، ولكنها كانت وزارة بطش وغدر فلم تحقق أمل الشعب فيما انتظره طويلا من أن يرى حاكما على قسط من الشجاعة والغيرة الوطنية يسهم في النضال الوطني ويدفع المناضلين في القنال دفعة المؤيد المعضد دون نظر إلى أى اعتبار آخر أو التفات إلى أية مصلحة شخصية أو ذاتية ولكنها خيبت الآمال وصدمت الشعب، فلم تلبث أن أمرت بالقبض على الوطنيين وزجت بهم في السجون ثم أرسل على ماهر رسالة إلى قادة الفدائيين يطلب مقابلتهم، وفي يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٥٢ قابل اثنان من الوطنيين رئيس الوزارة الذى طلب منهم وقف العمليات في القنال، واطلاعه على أسماء المساهمين في الحركة وأماكن الأسلحة والذخيرة، وبطبيعة الحال رفض الوطنيان على الفور كل ماطلبه صاحب المقام الرفيع ولاذا بالصمت وقد دارت في ذهنيهما وهما جالسان أمام مقامه الرفيع فكرة القبض عليهما. ولكنها كانت بالنسبة لهما أهون ألف مرة من الاستجابة لطلباته، وكانا يتساءلان فيما بينهما أثناء فترة الهدوء التي استمرت بعض الوقت، وهما جالسان، ألم يعد بمصر

(١) كتيبة الحزب الوطني.

وطنى واحد يتجاوب مع الشعب ويتفاعل معه ، هل أقفرت البلاد من ذلك المكافح الذى يضحى بمصلحته وينسى مطامعه من أجل مصر . ولماذا يتغير السياسيون وتختلف وجهات نظرهم ويتصرفون وهم فى الحكم على عكس ما كانوا يقولون وهم بعيدون عنه ؟ ولماذا ينسون بسرعة وهم لاتذين بكراسى الوزارة تباكيهم على مصر وتصريحاتهم الملتهبة عن الوطنية ووعودهم الجياشة عن الكفاح والنضال ؟ ألا لعن الله ذلك الحرص الذى يذل أعناقهم .

خرج الوطنيان من منزل رئيس الوزارة بالجيزة ليسمعا أخبار القبض على زملائهما وتعقبهم فى مدن القنال والقاهرة وفى كل مكان .

وقد أعقب هذه الزيارة زيارتان أخريان تمتا بناء على طلب على ماهر والحاحه وذلك على أثر قيام الوطنيين بمعركتين فى القنال هما معركتا المحجر والقنطرة للرد على اعتقال على ماهر لزملائهم وقد اعترف بهاتين المعركتين إذاعات الانجليز ، وأحرجت وزارة على ماهر لأنه أخذ على عاتقه وقف هذه العمليات اعتقاداً منه أنه سيصل عن طريق المفاوضة إلى ما لم يصل إليه أسلافه .

وقد ذكر موسى صبرى فى كتابه (قصة ملك وأربع وزارات) هاتين المقابلتين فقال :

« وفى ظل الشك استعد على ماهر لمواجهة الموقف فعرض بنفس الأسلوب ، أسلوب الباب الموارب على بعض الأشخاص التعاون معه واستمع إلى آراء كثيرين حتى أنه قابل ممثلين عن حركة الكتائب فى الشرقية هما عبد الحميد صادق ومدحت عاصم اللذان شرحا له تفصيلات معركة الكتائب وقدما له صورة عن الموقف وسألهما على ماهر عن عدد المشتركين فى الكتائب من الحزب الاشتراكى فأجاباه أنهم لا يتجاوزون أصابع اليدين وأنهم يخلعون فى تطوعهم رداء حزبيتهم وأن رئيسهم أحمد حسين أبدى أطيب روح واستعداد للتعاون مع الكتائب قائلا لهم — خذونى معكم كأى مجاهد مصرى بين الصفوف ثم يسألهما على ماهر هل

يمكن وقف أعمال الكتائب ولو فترة قصيرة من الوقت إذا دعت إلى ذلك مصلحة الوطن .

وعندما طلبا تفسيراً لهذا السؤال قال على ماهر — أن المتحاربين فى كوريا ، هذه الحرب التى تشترك فيها جيوش الأمم المتحدة كثيراً مايعلنون الهدنة ويوقفون القتال فى بعض المناطق للوصول إلى حلول — فاذا لم يتفقوا على حل قطعوا الهدنة وتابعوا القتال . فليس الهدف هو سفك الدماء فقط بل الوصول إلى حل ، وقال ممثلا الكتائب نؤكد لرفعتك أننا على استعداد لهذه الهدنة إذا رأيت فى المستقبل أن صالح البلاد يقتضى ذلك فقال على ماهر أننى أقول لفترة قصيرة مؤقتة بحيث إذا لم تجب مطالب البلاد عدنا إلى حرب الكتائب حرباً منتظمة قوية تؤتى نتائجها . وبعد أسبوع واحد من اجتماع على ماهر بممثلى الكتائب تولى رئاسة الوزارة ودعاهما إلى مكتبه برئاسة مجلس الوزراء وحضر هذا الاجتماع وجيه أباظه بصفته قائد كتائب الكفاح فى الشرقية والقنال ونصحهم على ماهر بالتوقف فى هدنة » . ويستطرد موسى صبرى بأن الفدائيين المجتمعين مع على ماهر اشترطوا أن تكون الهدنة لأجل محدود مدته ثلاثة شهور وأن لا يقبض على أحد من الفدائيين وأن يطلق للكتائب الحرية فى المران وقد أجاب على ماهر بقوله سأحاول أن أصل مع الإنجليز إلى تحقيق مطلب البلاد فإن أخفقت ورأيت أنهم يماطلون وعدتكم بنفسى إلى استئناف الكفاح ونزلت معكم إلى الميدان) .

وقد رأى على ماهر أن يهادن الفدائيين فوافقهم على جميع طلباتهم وأفرج عمن قبض عليه منهم . وتفرغ رئيس الوزراء للحكم محاولا الوصول مع الإنجليز إلى حل ولكن العراقيل وضعت فى طريق الوزارة منذ اليوم الأول من تشكيلها وكان الملك هو المعول الأول فى سقوطها ولم تمكث فى الحكم سوى شهرين .. ويرجع ذلك إلى أن نفوذ رجال القصر وخدمه كانت قد استفحلت وأصبحوا يتدخلون فى شئون البلد ويطالبون بتعيين المحاسيب فى المناصب من ذلك أن السراى طلبت تعيين كريم ثابت وزيراً فى الوزارة وكامل قاويش نائباً عاماً

بصفته صديقاً شخصياً للشماشرجى محمد حسن ومما زاد الموقف سوءاً ايعاز السراى إلى السفير البريطانى بعدم التفاوض مع على ماهر أساس أن فاروق سيقيل الوزارة وعندما أراد رئيس الوزارة مقابلة الملك ليستوضح الموقف رفض هذا الأخير مقابلته مما اضطر على ماهر إلى تقديم استقالته . وأسندت الوزارة بعد ذلك إلى نجيب الهلالى ، وبنفس السياسة والأسلوب بدأت الحاشية تتدخل فى الحكم فاعترضوا على الأسماء النظيفة التى رشحها نجيب الهلالى مثل محمود محمد محمود ومحمد نجيب ، وعزيز المصرى ورشحوا هم من ناحيتهم محاسيب السراى ، فطلب الملك تعيين أحمد النقيب وزيراً للصحة — وهو صديق الملك — فرفض نجيب الهلالى هذا الأمر قائلا كيف أعين أحمد النقيب وزيراً وهو ضمن الأشخاص الذين سيتناولهم التطهير » .

وكانت الوزارة قد وضعت نصب عينها إجراء التطهير فى جميع النواحى حتى بين رجال السراى وكانت هذه السياسة هى السبب الرئيسى للاطاحة بوزارة نجيب الهلالى ، فقد أعاد رجال السراى ماسبق أن طلبوه فى وزارة على ماهر من ضرورة تعيين كامل قاويش نائباً عاماً أو وكيلا للوزارة وغير ذلك من الطلبات .

ولم يكن الملك وحده هو الذى يحارب الوزارة وإنما يحاربها كذلك حزب الوفد الذى ظل يتربص بالوزارات الأربع المتعاقبة التى جاءت فى الفترة بين حريق القاهرة ١٩٥٢/١/٢٦ حتى قيام الثورة فى ٢٣ يوليو، للاستيلاء على مقاليد الحكم ، فقد حدث أنه بعد أن اتفق نجيب الهلالى مع الانجليز على الجلاء ووحدة مصر والسودان ، عادوا ورفضوا هذا الاتفاق وكان وراء هذا الفشل حزب الوفد الذى طلب من الانجليز الاتفاق معهم بشروط أسخى من تلك التى عرضت على نجيب الهلالى . ويروى الهلالى فشل المفاوضات فقال « زارنى عبدالخالق حسونه وزير الخارجية فى منزلى وأطلعنى على ما تلقاه من السفير البريطانى وآويت إلى مخدعى لأستيقظ فى الصباح وفى يدى الإعلان بالجلاء والوحدة الذى طلبته. ثم قابلت السفير فى اليوم التالى وتبينت أن النهار قد محا كلام الليل وإذا بالرجل (يلحس) كل ماقاله

قبل ذلك وإذا بالموقف كما هو لم يتغير ولم يتبدل فقد اتصل الوفد بالانجليز وعرض عليهم التفاهم . عرض عليهم أن يقبل الورد بشوكه (١) . وكان وسيط الوفد لدى الانجليز هو للليونير عبود باشا الذى كان يمهد لعودة الوفد ، حتى انه عرض مبلغ مليون جنيه على الملك وحاشيته للاطاحة بوزارة نجيب الهلالى وعودة الوفد .ولم يجد هذا الأخير بدا من تقديم استقالته هروبا من هذا الجو المشحون بالمؤامرت والخيانات ، من كل جهة ، وكان عمر الوزارة ثلاثة أشهر لا تزيد ، وجاءت حكومة حسين سرى التى ألفها الملك على مائدة القمار فى نادى السيارات بناء على طلبات رجال حاشيته وعلى رأسهم محمد حسن والياس اندراوس وبدأت العراقيل تقام أمام الوزارة الثالثة ، فقد أصدر وزير الحربية قرارا بحل نادى ضباط الجيش (ونقل اللواء محمد نجيب الى منقباد ، وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت أن محمد نجيب هو مرشح الضباط الأحرار وربما المتزعم لتشكيلاتهم السرية كما حضر رئيس الديوان حافظ عفيفى الى حسين سرى رئيس الوزارة ومعه كشف بأسماء ١٢ ضابطا من الضباط الأحرار وطلب منه نقلهم من وحداتهم الى جهات متفرقة كطلب السراى . وقد اتضح أن هذا الكشف كتب بخط أحد خدم السراى وهو واحد من الذين كانوا يحكمون مصر فى ذلك الوقت (٢) ، وعندما رأى حسين سرى أن الحالة تسوء والموقف يتدهور ، وأن تباشير الثورة العسكرية قد لاحت عرض على الملك تعيين محمد نجيب وزيرا للحربية واخراج حسين سرى عامر لكراهيته فى الجيش ، ولكنه رفض .. ولم يجد رئيس الوزراء سبيلا آخر أمامه سوى الاستقالة بعد أن مكث فى الحكم عشرين يوما واتجهت الانظار مرة أخرى الى الهلالى كنقذ للموقف المنهار ، وتألفت وزارته فى صبيحة يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ ودخل فيها اسماعيل شرين زوج شقيقة الملك « الأميرة فوزية» مطلقة ايران ، وأذعن الملك الى طلبات الوزارة الجديدة وهى ابعاد أصحاب النفوذ فى

---

(١) من كتاب ملك وأربع وزارات لموسى صبرى .

(٢) الشهاشرجى عزيز .

السراى من أمثال : كريم ثابت ، والياس أندراوس ، واستعد نجيب الهلالى لتنفيذ سياسته السابقة وهى التطهير ومقاومة الانجليز . ولكن القدر كان يخبىء البلاد حدثا سعيدا .ولم يكن أحد يدرى أن جماعة من الضباط المخلصين قد رسموا مستقبل مصر بعد أن يئسوا من الأحزاب والزعماء .فخرجوا من ثكناتهم ليسقطوا الوزارة التى استمرت يوما واحداً وليطيحوا بالملك ، وليقضوا على الفساد ، وليبنوا مصر الحديثة القوية .

٢ ـ تجمعات فى الجيش

فكرة الثورة :

كانت فكرة الثورة تراود كثيرين من ضباط الجيش المخلصين ، ولكنهم كانوا يخشون الخيانة ويخافون العيون التى رصدها الملك ، وسلطان الانجليز الذين كانوا يسيطرون على الجيش فى ذلك الوقت ، وكان من الحكمة وبعد النظر والحال كذلك ألا يطمئن ضابط إلى زميل له فيبوح له بفكرة سامية خطيرة كهذه خشية ألا يكون من رأيه فيفشى سره ، أو يكون من العيون عليه فيغرى به ، وينتهى أمره بعد ذلك إلى ماهو معروف من السجن والطرد والتشريد ، وأم من ذلك تبدد الفكرة وتلاشيها. وكان يسيطر على الجيش جو من الخوف والارهاب ، ولم يكن له من عمل سوى مارسمه له الاستعمار طبقاً لسياسة خبيثة مرسومة كأن يطلب منه المحافظة على الأمن أو قمع المظاهرات بقوة السلاح إذا لزم الأمر ، وهكذا تحددت مهمة جيش مصر كما فرضها الانجليز . المصرى يعتدى على أخيه بحجة المحافظة على الأمن . ونجحت سياسة فرق تسد التى كان يطبقها الانجليز فى كل البلاد التى رزئت بهم .

وفى هذا الجو الملبد بالغيوم ولدت فكرة الثورة . وتبناها الملازم جمال عبد الناصر وكان يعمل فى ذلك الوقت بمنقباد وشق طريقه وبدأ محاذراً فاختار من الأعضاء من يطمئن إليهم اطمئناناً كافياً وبعد اختبار طويل ، وكان يؤمن بالكيف لا بالكم وأن عضواً واحداً أفضل من عشرة أعضاء إذا أحسن اختياره .

النواة الأولى والثانية :

وكون هناك أول سرية[1] فى الجيش وكان من أعضائها الملازم أنور السادات. وكانت هذه النواة البسيطة تفكر فيما آلت إليه حالة البلاد والشعب ومدى طغيان

---

(١) من كتاب صفحات مجهولة لأنور السادات .

الانجليز ومن سار فى فلكهم من المصريين فيحزنون أشد الحزن ويتمنون لو هيأت لهم سبل الخلاص ولم يجدوا لذلك من وسيلة إلا بثورة يقوم بها الجيش .

ولم تستمر اجتماعات نواة منقباد طويلا إذ لم يلبث أن صدر الأمر بنقل أفرادها إلى جهات متفرقة ، وجاء أمر النقل مخيباً لآمالهم ، لأن الصلة الجديدة التى جمعتهم كانت قد وثقت بينهم وربطت بينهم برباط وطيد من الصداقة والاخلاص . ولم يدروا أن نقلهم من منقباد إلى وحدات متفرقة فيه خير كثير للحركة ، لأن كلا منهم بدأ على الفور فى خلق خلية جديدة فى منطقة عمله طبقاً للتعليمات التى أقسموا أن ينفذوها بالطريقة التى نفذت فى منقباد وعلى « تباب الشريف »[1] .

وتفرقت النواة الأولى للتشكيل بنقل أنور السادات إلى مرسى مطروح حيث كانت الحرب دائرة بين الحلفاء والألمان ، وبنقل جمال إلى السودان ضمن الكتيبة الثالثة ، وكلا النقلين يحملان قصة ساعدتا كثيراً فى تدعيم فكرة الثورة .

فأما جمال عبد الناصر فقد نقل إلى السودان بسبب آرائه المتطرفة وبغضه لرؤسائه من الانجليز والمصريين على السواء ، لأنهم كانوا يمثلون فى نظره أبناء مدرسة واحدة وقبل سفره إلى السودان حضر لتوديعه صديقه الصاغ عثمان نصار واستفسر منه عما إذا كان يعرف أحدا هناك . فلما أجاب بالنفى قال له « هناك الملازم عبد الحكيم عامر فاسأل عنه بمجرد وصولك إلى الخرطوم ويمكنك الاعتماد عليه كثيراً » وسافر جمال عبد الناصر إلى السودان وفى الخرطوم قابل عبد الحكيم عامر وتوطدت بينهما صلات الصداقة التى ظلت تنمو وتترعرع حتى أصبحا لا يفترقان،وفى عاصمة السودان تكونت النواة السرية الثانية فى سنتى ١٩٤٠، ١٩٤١ ويروى لنا أنور السادات أول عوامل توطيد الصداقة بين جمال وعبد الحكيم فيقول : [2] « وكان أول هذه العوامل قومندان الكتيبة فقد كان قومندانا من نوع

---

(١) مكان فى منقباد كان الضباط يجتمعون فيه .

(٢) من كتاب صفحات مجهولة لأنور السادات .

فريد قل أن يوجد بين الضباط مثله ، فقد عرفنا قومندانات ذلك الزمان قطعا في ثياب أسود عرفناهم أذلة للضباط الانجليز أعزة علينا نحن أبناء الفلاحين عرفناهم يتحكمون فى مصائرنا وأعمالنا وخطواتنا بالباطل أكثر مما يتحكون بالحق.

بل لعلنا لم نعرفهم يتحكمون بالحق أبدا ـ ولو كانوا كذلك ماغضبنا ولاعتبرنا سلطتهم من مستلزمات الحياة العسكرية . جهلاء فى مناصب القيـادة أذلة لأصغر ضابط انجليزى وعلى أكتافهم المزيد من النجوم والتيجان وتحت أمرتهم شبان صغار كبر بالعلم وبالعزة والوطنية أنفسهم وقلوبهم. وهكذا كان موقف القومندان منا ـ أو هذه كانت أسباب هذا الموقف ، ولكن قومندان الكتيبة الثالثة فى السودان كان يحب أن يتحكم فى ضباطه الصغار من نوع جديد لم نعرف له فى الجيش مثيلا .

كان الرجل ولوعا بالشراب مايكاد المساء يقبل حتى يعد عدته لسكرة تذهب بعقله وتريه نفسه أسـداً هصورا يملأ زئيره الفلوات ، ولم يكن يحب الشراب وحده ، ولم يكن يظفر بفرصة الشراب مع الانجليز . فكان الحل الطبيعى عنده أن يأتى بضباط بالأمر وأن يكلفهم بمجالسته ومشـاركته كلما جاء المساء . وتصوروا شرابا بأمر القائد وفى مجلس الأسد .. لقد كان الضباط جميعاً حتى الذين يشربون الخمر منهم يضيقون بهذا التكليف الثقيل ، ولكن جمالا لم يكن يضيق فقط بل يضيق ويسخط ويقاوم ويفسد على القائد مجلس الشراب ، وماذا يستطيع أن يصنع وقد امتنع عن المشاركة فى الشراب فصدر إليه الأمر بالمشاركة فى جلسة الشراب ، وكانت ليلة لاينساها جمال ولا عبد الحكيم ، وحينما حاولا أن يتركا مجلس القائد رفض وزمجر وقام إلى أبوابه فغلقها ، وتلفت جمال حوله وانتظر حتى شرب القائد كأسين أو ثلاثا وبدأ يصول فى المكان ويزأر ثم أشار إلى عبد الحكيم وقفز من النافذة وقفز عبد الحكيم خلفه وتبعهما الضباط جميعا وعاد القائد إلى مجلس الشراب ليجده خاليا خاوياً من السمار ولم يغن صراخه ولا زئيره شيئاً .. ومنذ الصباح التالى بدأت حرب باردة بين القومندان وبين جمال وعبد الحكيم وبلغ التفنن بين الطرفين أقصاه فى هذه الحرب الباردة . حتى جاء يوم تنفس فيه

القائد الصعداء شيئا ما لأن عبد الحكيم قد هبط الى القاهرة ليلتحق بفرقة دراسية من فرق الجيش .

وبعد سفر عبد الحكيم لم يجد القائد كبير عناء فى اقصاء جمال الذى كان يحتقره الى جبل الأولياء .. وبذلك تفرق الصديقان الى حين وفى رأسيهما أفكار جديدة .

وعندما انتهى عبد الحكيم من فرقته الدراسية بالقاهرة عاد ثانية الى السودان، ولكنه لم يجد جمالا ، ورأى كره القائد وحقده عليه يتأججان فى صدره . وكما تخلص القائد من جمال نقل عبد الحكيم أيضا الى جبل الأولياء كذلك وهناك التقى مرة ثانية بجمال وكانا هما الضابطين الوحيدين اللذين يمثلان كتيبة جبل الأولياء لا ثالث لهما سوى الجنود ، فكان القومندان هو جمال وضابطه الوحيد عبد الحكيم، وفى هذه البقعة النائية تفاهم الضابطان أكثر وأكثر ، وتلاقت أفكارهما وتأكدا من أن حل الموقف بأكمله يقع على كاهل الجيش ، وأقسما وتعاهدا ، ولكن اجتماعهما لم يدم طويلا ، اذ لم تلبث القيادة أن أمرت بنقلهما . فنقل عبد الحكيم الى منقباد حيث كان جمال ونقل جمال الى الصحراء الغربية . ولم يلتقيا بعد ذلك الا فى ديسمبر سنة ١٩٤٢ وكانت قد وقعت خلال هذه الفترة أحداثا كثيرة .

نواة ثالثة :

هذا ما كان من أمر جمال — أما أنور فقد نقل الى مرسى مطروح ، وكانت قوات المحور تهدد الحلفاء ، وكان روميل يضرب بقسوة الجنود البريطانيين فى الصحراء الغربية وأرادت القيادة البريطانية نقل الجيش المصرى الى واحة سيوة فى الجنوب وبدون سلاح لتتفرغ لملاقاة روميل لعدم اطمئنانها للجيش المصرى . ولكن عزيز المصرى رفض وقدم استقالته وامتنع من تنفيذ هذا النقل لسببين : أولهما أن تسليم الجيش لسلاحه يحمل معنى الاهانة ، وثانيهما أن فى نقله الى الجنوب ما يعرضه للابادة فى حالة استيلاء الألمان على مرسى مطروح والعلمين ، لأنه فى هذه الحالة سيقطع الألمان الطريق على الجيش المصرى ، وبخاصة وهو بدون سلاح،

ولكن على ماهر رئيس الوزارة رفض الاستقالة ، وأعطاه اجازة لأجل غير مسمى بناء على نصيحة الانجليز . وعندما علم ضباط الجيش بما حدث ثاروا وصمموا على عدم تسليم أسلحتهم للانجليز وقرروا مقاومتهم اذا لزم الأمر ، بل وفكروا فى أن يعودوا الى مصر ويحتلوا جميع المواقع الهامة أثناء عودتهم ،ولكن الانجليز عادوا ووافقوا على أن ينسحب الجيش المصرى مع أفراده جميع أسلحتهم. واعتبر الضباط هذا التقهقر من الانجليز انتصارا كافيا لهم ، فرجعوا الى مصر بعد أن تكونت نواة ثالثة وقد استقر رأى التشكيل العسكرى على أن يتصلوا بعزيز المصرى يستمدون منه الرأى ويلتمسون منه التوجيه ليؤمنوا حركتهم فى نضالهم الطويل المحفوف بالصعاب والمخاطر .

وتوصل الضباط الى عزيز المصرى فقابلوه وسعوا اليه فى بيته بضاحية عين شمس — وتكررت المقابلات وكانت توجيهاته ونصائحه صريحة وواضحة كالخط المستقيم — فكان يقول لهم لا تعتمدوا على أحد ، واستلهموا الايمان من داخل أنفسكم ، وتسلحوا بالعلم وتكتلوا واختاروا من بينكم الرجل المؤمن الواثق بنفسه ليقودكم والله لو أن هناك خمسة ضباط مؤمنين فحسب لكنت أنا سادسهم ، ولتقدمت لأحمل لواء الثورة لانقاذ البلاد . هذه كانت عينة من توجيهات عزيز المصرى الذى كان يعتبره الضباط مثلهم الأعلى . ومن ثم كانوا يلجأون اليه كلما حزم الأمر أو اكفهر الجو .

وتوطدت صلة الضباط بعزيز المصرى حتى انه أفضى اليهم بسر اتصال الألمان به عندما أصبحوا على أبواب مصر ليستفيدوا بخبرته وليساهم معهم فى طرد الانجليز ، وكانت خطة الألمان فى بادىء الأمر تقضى بأن يرسلوا له فى يوم من أيام شهر ابريل سنة ١٩٤١ طائرة حربية عليها شارات سلاح الطيران البريطانى تهبط فى مطار الحطاطبة قبيل غروب الشمس ثم عادوا وغيروا الموقع الى جبل رزه على طريق الواحات البحرية ، ولكن شاءت الظروف أن تتعطل العربة التى كانت تقل عزيز المصرى فى طريق الهرم ، وفشلت الخطة وفاتت فرصة اتصال عزيز المصرى

بالألمان ، ثم تجددت الفكرة مرة أخرى ، وكانت ثورة رشيد على الكيلانى قد قامت بالعراق ورأى عزيز المصرى ورجال التشكيل أن الوقت قد أزف للسفر الى العراق لتحقيق هدفين : لمساعدة ثورة رشيد الكيلانى من جهة ، وللاتصال بالألمان من جهة أخرى ، لأن الاتصال من العراق بالألمان سيكون سهلا وميسورا ، ووضعت الخطة واستعد عزيز المصرى للسفر بصحبة الضابطين : حسين ذو الفقار ، وعبد المنعم عبد الرؤوف ، ولكن الطائرة سقطت بهم بناحية قليوب كما سبق وبينا فى مايو سنة ١٩٤١ ، أما فى الطيران فقد تكونت به نواة رابعة عملت منفصلة عن خلايا جمال فترة من الزمن حتى ضمها جمال اليه بعد ذلك . وعرفنا ما قامت به من محاولات للاتصال بالألمان بعد أن رسمت جميع مواقع الانجليز وسافر لها أحمد سعودى الى الصحراء الغربية حتى هبط بطائرته فى منطقة الضبعة الملغمة وانفجرت طائرته واستشهد . كما سافر لنفس السبب الصول محمد رضوان وظل مع الألمان واستصحبوه معهم الى ألمانيا أثناء انسحابهم حتى قبض عليه بعد انهزام المحور وسلمته القوات البريطانية الى مصر فحوكم وقضى بسجنه ١٥ عاما .

تجمعات اخرى فى الجيش :

ولم تكن هذه الخلايا الأربع وحدها التى كانت تعمل فى تلك الفترة من أواخر سنة ١٩٤٢ وانما كان لحادث ٤ فبراير دوى كبير فى جميع الأوساط سواء منها المدنية أو العسكرية فتكونت جمعيات أخرى عملت منفصلة تماما عن تشكيل الجيش الذى نتحدث عنه هنا . فكانت هناك على سبيل المثال جماعة مصطفى كمال صدقى وكان ضابطا بادارة مخابرات الجيش ورأى بعد أن كون جماعته وكان أكثرهم من ضباط الصف أن يتخلص من ابراهيم عطا الله واعتقد أن عمله كضابط فى المخابرات يجعله بمنأى عن أية مظنة ويبعد عنه الشبهات ، وبلغ به الاستهتار أنه كان يطبع المنشورات الثورية فى نفس الادارة التى يعمل بها معتقدا أن رؤساءه لا يمكن أن يتطرق اليهم الشك بان ادارة المخابرات بالذات هى التى تطبع هذه المنشورات ، ولكن عيون الخيانة كانت تبحث وتتعقب الوطنيين فى كل مكان فأبلغ بعضهم عنه وقبض على

مصطفى صدق وعلى ٢٣ ضابطا وصولا وقدموا للمحاكمة .

وكانت هناك جماعة الضابط الوطنى وجيه خليل التى عملت منفصلة أيضا عن التشكيل العسكرى وقدر له أن يعلم أن بالجيش تشكيلا عسكريا فسعى اليه وعرض على أحد الأعضاء وكان ذلك عقب حادثة ٤ فبراير بأن يتعاون التشكيلان : تشكيل وجيه خليل والتشكيل الذى يرأسه جمال عبد الناصر للقيام بموجة من الاغتيالات فى الضباط الانجليز وبعض الوزراء المصريين ممن كانوا يتعاونون معهم وخاصة بعد حادثة ٤ فبراير .

ولكن جمال رفض الفكرة وقال تبريرا لأسباب هذا الرفض (بأننا نرى القيام بحملة ارهابية واغتيالات ، ولكننا عندما نصنع ذلك يجب أن نصنعه بأنفسنا ونتحمل وحدنا كل مسئولياته ونتائجه فالخط الذى يجب أن نسير عليه كضباط فى الجيش هو ألا نكون آلات ولا أدوات فى يد أحد من الناس ولا جماعة من الجماعات مهما كانت وحدة أهدافنا ومهما كانت درجة اخلاصهم) .

وبذلك شق التشكيل العسكرى طريقه وحده ببطء وبحذر ودون تعجل ومن غير استعانة بأية قوة أخرى واعتمد أعضاؤه على أنفسهم فى كفاحهم وهذه هى نفس التعاليم التى كان يبثها فيهم عزيز المصرى ورفض جمال وجماعته التعاون مع جماعة وجيه خليل وكان هذا منتهى الحذق وبعد النظر ومع ذلك فقد كان وجيه خليل وطنيا صادقا ومناضلا مخلصا فلم تكد تعلن الحكومة الحرب على اليهود حتى كان أول من تطوع للجهاد وقدم أروع الأمثلة فى الشجاعة والفداء وقد حدث أن جرح زميل له بالمدفعية وكان لا يزال جالسا بمصفحته لا يستطيع الحراك من أثر الجرح الجسيم الذى أصيب به وكانت المصفحة واقفة تحت مرمى نيران اليهود ولكن وجيه عندما رأى هذا الموقف وشاهد الرصاص ينهال حول زميله وهو يصرخ ويستغيث لم يتوان فتقدم دون باقى زملائه وتوجه الى المصفحة وحمل زميله وما كاد يسير به بضع خطوات حتى أصابته رصاصة غادرة أردته قتيلا وهكذا استشهد بطل من أبطال مصر .

هذه بعض التجمعات التي كانت بالجيش ولم تكن هي كلها فقد كانت تجمعات أخرى ظهرت به نتيجة لروح التذمر والامتياء التي سادت فرق الجيش ووحداته وقتذاك وقد وصل القلق الفكري والحيرة في ذلك الوقت أن التجأ الضباط الى الاغتيالات كطريق الى الثورة . أو وسيلة للتنفيس عما في صدورهم من عوامل الكره والغضب، فخرج كثير من رجال التشكيل يمارسون هذا العمل وان كانوا في قرارة أنفسهم لم يستريحوا لسلوك هذا الطريق لأنه لم يكن السبيل الجدي المؤدي الى الخلاص .
ويحدثنا جمال عن مثال من هذه العمليات فيقول في كتابه فلسفة الثورة : « وفكرت في اغتيال الكثيرين وجدت أنهم العقبات التي تقف بين وطننا وبين مستقبله ورحت أفند جرائمهم وأضع نفسي موضع الحكم على أعمالهم . وعلى الاضرار التي ألحقتها بهذا الوطن ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذي يجب أن يصدر عليهم ولم أكن وحدي في هذا التفكير ، ولما جلست مع غيري انتقل بنا التفكير الى التدبير وما أكثر الخطط التي رسمتها في تلك الأيام ،وما أكثر الليالي التي سهرتها ـ أعد العدة الأعمال الايجابية المنتظرة ــ كانت حياتنا في تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة كانت لنا أسرار هائلة وكانت لنا رموز وكنا نتستر بالظلام وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل وكانت طلقات الرصاص هي الأمل الذي نحلم به . وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه ومازلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع في الطريق الى نهايته . والحق أني لم أكن في أعماق مستريحا الى تصور العنف على أنه العمل الايجابي الذي يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا كانت نفسي في حيرة تمتزج فيها عوامل متشابكة . عوامل من الوطنية ومن الدين ومن الرحمة ومن القسوة ومن الايمان ومن الشك ومن العلم ومن الجهل .

ورويدا رويدا وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التي توهجت في خيالي تخبو جذوتها وتفقد قيمتها في قلبي كتحقيق للعمل الايجابي المنتظر . كنا قد أعددنا العدة للعمل واخترنا واحد قلنا انه يجب أن يزول من الطريق ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطط بالتفاصيل ورتبنا فرقة الهجوم التي تتولى اطلاق النار

ورتبنا فرقة الحراسة التى تحمى فرقة الهجوم ورتبنا فرقة تنظيم خطة الافلات الى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح . وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ . وسار كل شىء طبقا لما تصورناه كان المسرح خاليا كما توقعنا ، وكمنت الفرق فى أماكنها التى حددت لها وأقبل الواحد الذى كان يجب أن يزول وانطلق نحوه الرصاص وانسحبت فرقة التنفيذ وغطت انسحابها فرقة الحراسة وبدأت عملية الافلات الى النجاة وأدرت محرك سيارتى وانطلقت أغادر المسرح الذى شهد عملنا الايجابى الذى رتبناه .

وفجأة دوت فى سمعى أصوات صريخ وعويل وولولة امرأة ورعب طفل ثم استغاثة متصلة محمومة وكنت غارقا فى مجموعة من الانفعالات الثائرة والسيارة تندفع فى سرعة ثم أدركت شيئا عجيبا . كانت الأصوات مازالت تمزق سمعى ولم أنم طول الليل . بقيت مستلقيا على فراشى فى الظلام أشعل سيجارة وراء سيجارة وأسرح مع الخواطر الثائرة ثم تتبدد كل خواطرى على الأصوات التى تلاحقنى أكنت على حق — وأقول لنفسى فى يقين — ودوافعى كانت من أجل وطنى أكانت تلك هى الوسيلة التى لا مفر منها وأقول لنفسى فى شك ماذا كان فى استطاعتنا أن نفعل — أيمكن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا اذا خلصناه من هذا الواحد أو من واحد غيره أم المسألة أعمق من هذا — وأقول لنفسى فى حيرة أكاد أحس أن المسألة أعمق اننا نحلم بمجد أمة فا هو الاهم ؟ أيمضى من يجب أن يمضى أم يجىء من يجب أن يجىء وأقول لنفسى واشعاعات من النور تتسرب من الخواطر المزدحمة . بل المهم أن يجىء من يجب أن يجىء ، اننا نحلم بمجد أمة ويجب أن يبنى هذا المجد وأقول لنفسى وما زلت أتقلب فى فراشى فى الغرفة التى ملأها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات — وإذن ؟ أسمع هاتفا يرد — واذن ماذا ؟ وأقول لنفسى فى يقين هذه المرة — اذن يجب أن يتغير طريقنا ليس ذلك هو العمل الايجابى الذى يجب أن نتجه اليه . فالمسألة أعمق جذورا واكثر خطورة وأبعد غورا — وأحسن براحة نفسية صافية ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه هو الآخر أصوات

الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة — تلك التي مازالت أصداؤها ترن في أعماق ووجدت نفسي فجأة أقول — ليته لايموت وكان عجيبا أن يطلع على الفجر وأنا أتمنى الحياة للواحد الذى تمنيت له الموت فى المساء وهرعت فى لهفة الى احدى صحف الصباح وأسعدنى أن الرجل الذى دبرت اغتياله قد كتبت له النجاة » .

هذه هي احدى الطرق التى لجأ اليها أعضاء التشكيل فى احدى مراحله عندما كانت الطريق لم تكن قد مهدت بعد . وكان الضباب يحجب الأنظار عن تبين معالم المسالك والدروب بوضوح .

هذه كانت بعض التيارات والتشكيلات الثورية بالجيش . ولكن التشكيل العسكرى الذى بدأ ينظم صفوفه من جديد كان هو التشكيل الأدق نظاما والأثبت جنانا ، والأقوى ايمانا . فكيف تم له ذلك ؟ .

تنظيم التشكيل :

بدأ التشكيل ينظم صفوفه فى سنة ١٩٤٤ وسط الجو القاتم الذى كان يخيم على الجيش . فتكونت به ثلاثة لجان هى اللجنة الاقتصادية التى كانت تحصل على المال مما كان يتبرع به الأعضاء . ومن يعجز عن المساهمة كان يقترض بضمان مرتبه . وكان لعزيز المصرى حديقة مانجو مثمرة حول منزله بعين شمس ، وباعها وقتئذ بمبلغ خمسين جنيها ، وساهم بها كلها . والواقع أن المال من أسباب نجاح التشكيلات السرية . وبدونه تصبح فرص النجاح ضئيلة . وقد تتعثر خطة العمل بأكملها أو تفشل .

واللجنة الثانية كانت لجنة التشكيلات وتنظيم الخلايا واختيار الأعضاء وحرصت الجماعة على أن يضم اليها ضابط من كل سلاح بالجيش يكون مسئولا عن سلاحه أمام التشكيل وهذه اللجنة كانت تحت اشراف جمال عبد الناصر لأهميتها ، اذ يتوقف على حسن اختيار الأعضاء نجاح التنظيم وتثبيت أركانه . والا فماذا يكون الحال لو انضم اليه ضابط ممن لهم صلة بالسراى أو الوزارة أو كان مزعزع الايمان ضعيف العقيدة .

وكانت اللجنة الثالثة والأخيرة هي لجنة الدعاية وكان من عملها الدعوة الى الجهاد بين الضباط أثناء اجتماعاتهم سواء أكانوا فى النادى أو فى مكاتبهم . كما أنها حاولت بشتى الطرق الاتصال بالهيئات الشعبية الوطنية كالحزب الوطنى والشباب الوطنى الثائر لايجاد تشكيل شعبى خارج الجيش يسير جنبا الى جنب مع تشكيل الجيش، يعاونه ويؤازره .

ويتحدث جمال عبد الناصر عن المراحل التى مر بها التشكيل فيقول : « ولقد مرت على حركتنا ثلاث مراحل . الأولى التى كانت خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٥ وهى فترة صعبة قمنا خلالها بنشر مبادئنا واشعال الروح الوطنية وتقوية الجيش .

والمرحلة الثانية كانت خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٩٤٥ وشهر مايو سنة ١٩٤٨، وقد بدأت الحركة تأخذ خلالها شكلا منظما وأصبحنا مجموعة كبيرة ،ولقد اعترضت طريق المرحلة الثانية عقبات كان من أهمها عدم وجود الثقة بين النفوس، فالفرد لا يثق بنفسه ولا بزميله .

وكانت المرحلة الثالثة للحركة هى التى بدأت عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٥٢ وهى المرحلة الفاصلة التى بدأت الحركة فيها تتطور وتتخذ لانجاحها شكلا محددا لتحقيق خطتها فى القضاء على أعوان الاستعمار .

وبدأت مشكلة فلسطين فسارع الضباط الأحرار فى التطوع مع البطل أحمد عبد العزيز ، وكان أغلب المتطوعين من الضباط الأحرار ، وعدنا من فلسطين فى مارس سنة ١٩٤٩ وبدأنا نجمع صفوفنا بعد أن تفرقت جموعنا وقتل فى الحرب عدد كبير من الضباط الأحرار » .

هذه هى مراحل الحركة حتى حرب فلسطين كما رواها جمال عبد الناصر فماذا حدث فى فلسطين . وما هو أثر النكبة التى وقعت هناك فى نفوس الضباط الوطنيين .

٣ ــــ رجال التشكيل فى فلسطين

من اجل فلسطين العربية :

استعد التشكيل العسكرى ليبدأ الكفاح الايجابى من أجل تحرير مصر وبناء مجدها ثم ظهرت مسألة فلسطين ، فرأى الضباط الأحرار أن يجاهدوا من أجل تحرير فلسطين العربية أولا .

ولم يتردد الكثير من ضباط الجيش فى تقديم استقالاتهم مع أحمد عبد العزيز ، وكانت جامعة الدول العربية قد حددت القطاع الذى يذهب اليه المتطوعين المصريون بالجزء الجنوبى من فلسطين وعينت لقيادته اللواء سليمان عبد الواحد سبل قبل أن يتوجه أحمد عبد العزيز الى فلسطين، ولم يمكث سبل هناك الافترة وجيزة ، وكون بعدها أحمد عبد العزيز كتيبته من بعض الضباط الذين استقالوا من الجيش أو طلبوا احالتهم الى الاستيداع وسافروا الى فلسين بعد أن لاقوا الأمرين فى الحصول على الأسلحة والذخيرة ، لأن الحكومة كانت تعارض فى مدهم بالأسلحة الحديثة ولم تصرح لهم ببعض المدافع الا بعد أخذ ورد مما أياس البعض فعادوا الى الجيش ، وفى القطاع الجنوبى الذى حددته الجامعة للمتطوعين المصريين بدأت كتيبة أحمد عبد العزيز تقاوم عصابات شترين والهاجانا المدربة والمسلحة بأحدث وأقوى الأسلحة . وقد قامت هذه الكتيبة بالكثير من المعارك الناجحة وضربت المثل الأعلى فى الشجاعة والتضحية ،وستظل معارك بيت لحم ،ورأس جالات ، وعراق المنشية، شاهدة على ما قامت به هذه الحفنة من الأبطال .

وعندما تأزمت الأمور فى فلسطين وازداد الشعور الوطنى فى البلاد العربية وبدأ يفور غيظا من تغاضى وتلكؤ الحكومات فى معالجة قضية فلسطين قررت الدول العربية اعلان الحرب ، ودخل الجيش المصرى فلسطين فى ١٩٤٨/٥/١٥ ليواجه التفكك والخيانة ، وحارب بأسلحة فاسدة تحت قيادات متضاربة جاهلة ، فلم يكد الجيش المصرى يصل الى أرض المعركة حتى امتنع الانجليز عن مده

بالأسلحة وقد وجد الملك وحاشيته وقتئذ أن الفرصة سانحة للاثراء فتاجروا فى الأسلحة والذخيرة والخوذات الحربية ومدوا جنودنا وضباطنا بأسلحة فاسدة وذخيرة تالفة وخوذات لا تصلح وعرفنا كيف كانت تنفجر القنابل فى أيدى الجنود والضباط قبل القائها ، وحتى التى كانت تستعمل فى المعركة لم تكن لها أية تأثير حتى ان اليهود كانوا يهتفون مهللين : (ارم كان يا مصرى) .

ومع ذلك فقد كانت الروح الوطنية تهيمن على الجنود والضباط وحاربوا بشجاعة واقدام وفدائية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كانت المعارك تدار وفقا لمشيئة الانجليز ، فقد عين الملك عبد الله قائدا للقوات العربية الذى أسند القيادة بدوره الى جلوب الانجليزى ، ولم يكن يتصور اخلاص جلوب هذا فى قيادته للعرب لأن التعليمات التى صدرت اليه من شارع داوننج ستريت بلندن كانت صريحة فى مساعدة اليهود واحكام الخطة لاخراج الجيوش العربية وتخبطها حتى تحيق بها الهزيمة وما خيانته فى اللد والرملة الا احدى نماذج الخيانة التى وقعت فى فلسطين ، وشعر الجنود والضباط وهم فى الميدان بأنهم ضحية مؤامرة واسعة محكمة لتشريدهم والقضاء عليهم ، وفى هذه البقعة العزيزة من أرض الوطن العربى وأثناء تلك الأوقات الحرجة الدامية كان يجتمع بعض أعضاء التشكيل العسكرى يستعرضون الموقف العصيب الذى وضعتهم فيه القيادات الخائنة والمؤامرات الدنيئة ويروى جمال عبد الناصر بعض ذكرياته فى هذه الأيام فيقول :

« كنا نحارب فى فلسطين ، ولكن أحلامنا كلها كانت فى مصر ، كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض أمامنا فى خنادقه ، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب ترعاه . وفى فلسطين كانت خلايا الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز . فى فلسطين جاءنى صلاح سالم وزكريا محيى الدين واخترقا الحصار الى الفالوجا وجلسنا فى الحصار لانعرف له نتيجة ولا نهاية وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يتعين علينا أن نحاول انقاذه ، وأنا أذكر أيام كنت أجلس فى الخنادق وأسرح بذهنى الى مشاكلنا — كانت الفالوجة محاصرة

وكان تركيز العدو علينا بالمدافع والطيران تركيزا هائلا مروعا ، وكثيرا ما قلت لنفسى (ها نحن فى هذه الجحور محاصرين . لقد غرر بنا ودفعنا الى معركة لم نعد لها . لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات وتركتنا هنا تحت النيران بغير سلاح) .

ويقول الرئيس جمال فى موضع آخر : (لقد خلوت الى نفسى مرات كثيرة فى خنادق عراق المنشية وفى جحورها ، وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التى كانت تقف فى ذلك القطاع وتدافع عنه أحيانا وتهاجم فى أكثر الاحيان ، وكنت أخرج الى الأطلال المحيطة من حولى بفعل نيران العدو ثم أسبح بعيدا مع الخيال ، وأحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمضى بى بعيدا الى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة كلها ، وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى .. هذا هو المكان الذى نقبع محاصرين فيه هذه مواقع كتيبتنا وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط وهذه قوات العدو تحيط بنا هذه هى جيوش اخواننا جيشا جيشا كلها هى أيضا محاصرة بفعل الظروف التى كانت تحيط بها والتى كانت تحيط بحكوماتها ، لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا ارادة الا بقدر ما تحركها أيدى اللاعبين . وكانت شعوبنا تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفيت عنها عمدا حقيقة ما يجرى وضللتها حتى عن وجودها نفسه وأحيانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم الى سطح الارض فأحس أننى أدفع عن بيتى وعن أولادى ولا يعنينى أحلامى الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ .

وكان ذلك عندما ألتقى فى تجوالى فوق الأطلال المحيطة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون . وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت أراها وقد خرجت الى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة العيش أو خرقة قماش . وكنت دائما أقول لنفسى قد يحدث هذا لابنتى . وكنت

مؤمنا أن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث وما زال احتمال حدوثه قائما لأى بلد فى هذه المنطقة مادام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكم[1] الآن تحت وطأة هذه الظروف القاسية وفى داخل المصيدة الكبيرة التى رسم خيوطها الانجليز واليهود كان بعض أعضاء التشكيل يتجمع ويتكتل أكثر اخاء وصحبة لرسم خيوط الثورة ، وكان الضباط يتوقعون الى العودة الى مصر كى يحققوا هذه الفكرة التى اختمرت فى أذهانهم عن أى وقت مضى ، وبعد أن شاهدوا بأعينهم المؤامرات تدبر والخيانات ترسم وتحاك .

(١) من كتاب فلسفة الثورة للرئيس جمال عبد الناصر .

٤ ــ بداية الانطلاق الثورى

خطوط العمل الثورى :

وما كادت تعقد الهدنة فى ٧ يناير سنة ١٩٤٩ ويعود الجيش الى أرض الوطن حتى بدأ التشكيل العسكرى يضع خطة الثورة موضع التنفيذ ، وكانت ترتكز الى أساسين الأساس الأول ايجاد قاعدة للعمل ظاهرة ويكون مقرها العاصمة تتمثل فى بعض أعضاء التشكيل الذين كان عليهم رسم خيوط الثورة بهدوء واتزان أثناء قيامهم بأعمالهم العادية وعلى رأس هذه القاعدة كان الصاغ جمال عبدالناصر المدرس بمدرسة الشئون الادارية بالجيش ، والأساس الثانى اخراج فكرة الجهاز السرى بما يحويه من خلايا دقيقة التنظيم الى حيز الوجود ، وكانت عبارةعن خلاياخماسية تبدأ كل خلية بأحد ضباط القيادة الذى يكون من نفسه نواة لخلية ثم تتسلسل الخلايا على هذا الوجه كل عضو من أعضاء الخلية الاولى هو نفسه نواة لخلية جديدة لايعرف أعضاؤها غيره ، وكانت القاعدة الاولى ترسم خطوط العمل أثناء قيام الأعضاء بأعمالهم العادية ومن وراء مكاتبهم الحكومية فى هدوء وثقة واطمئنان بينما يقوم الجهاز السرى بالتنفيذ فكان يطبع المنشورات ويوزعها على ضباط الجيش فى وحداتهم المختلفة وكانت تصدر هذه المنشورات أسبوعيا كما كان يحاول الجهاز كذلك أن يضم اليه من يثق فيهم من الضباط من جميع الوحدات مع فرض اشتراكات شهرية يدفعها أعضاء التشكيل وبصفة منتظمة لمواجهة التكاليف التى يواجهونها ، ثم اشترى أعضاء التشكيل ماكينة رونيو لطبع المنشورات من مبالغ التبرعات التى كانوا يجمعونها ، وشكلت لجنة للاشراف على طبعها وتوزيعها بصفة مستمرة وفى سرية تامة .

وقد تكونت هذه اللجنة من الصاغ خالد محيى الدين والبكباشى حمدى عبيد واليوزباشى جمال منصور ، واليوزباشى عبد الحميد كفافى ، واليوزباشى مصطفى نور ، والصاغ عثمان فوزى ، والصاغ ثروت عكاشة وهم من سلاح الفرسان .

وزير الخارجية بالنيابة وقال له أنه يتمنى أن تكون الحكومة قد أعدت نفسها لهذا اليوم دون زيادة أو نقصان .. فما هو السر الذى يكمن وراء كل هذا التراخى والتغاضى والاستهتار . ولم لم يجزع الملك كعادته ويلجأ إلى الجيش ليوقف نذر الشر التى لاحت فى الأفق ؟ وهنا يرد سؤال طالما ألح على الجميع .. ألم يخش الملك على عرشه أو نفسه من حالة الفوضى التى كانت تلوح فى الأفق . ويأتينا الرد سريعاً من ناحية أصدقائه فى القنال . فقد أمر القائد العام للقوات البريطانية الجيش الانجليزى بأن يتقدم نحو القاهرة — ونصب الحرس الملكى المدافع الرشاشة فوق القصر واستعدوا حتى إذا مافشلت مؤامرة الحريق وتعرض الملك إلى أى خطر كان الانجليز على أهبة الاستعداد لدخول القاهرة لاحتلالها ولحماية عرش فاروق والأقليات والمصالح البريطانية التى طالما جعلوها ذريعة لكل تدخل ، هذه هى الحقيقة التى لاتقبل جدلا أو نقاشا .

٤ — وإذا تتبعنا سير حوادث الحريق — التى بدأت بعد الساعة الثانية مساء طريق كازينو أوبرا وانتهت قبل الساعة الخامسة وأتت على (٨٥٠) مكانا وأحرقتها تماما لما تصورنا أن ذلك من فعل الغوغاء وإنما هو تدبير محكم مرسوم له خط سير معلوم يؤيد ذلك ماأثبته التحقيق من أن مرتكبي الحوادث كانوا يستعملون مواد غريبة سريعة الالتهاب (كالكبسولات والكويس والأنابيب) التى كانت تلقى فى أماكنها وسرعان ماتشتعل النيران بطريقة لم ير الناس لها مثيلا .

فهل كان الشعب الثائر أو حتى الغوغاء من ذوى النفوس المريضة كانوا يعلمون أنهم سيحرقون هذه الأماكن من قبل ولذلك أعدوا هذه المواد ليستعملوها فى الحريق ، من السذاجة أن نتصور ذلك ولا يعقل اطلاقا أن يتفق جميع طوائف الشعب على الخروج فى مظاهرة يعبرون فيها عن شعورهم ويحرصون قبل الخروج من منازلهم على أن يضعوا فى جيوبهم هذه المواد الغريبة السريعة الالتهاب . أيجوز لنا أن نتخيل ذلك بمجرد تخيل ؟ ليس هناك إلا صورة واحدة لحدوث الحريق هى أن عملاء الملك والانجليز من أمثال جماعة اخوان الحريةوالبوليس السياسى وأعوانهم اندسوا وسط المظاهرات والاضطرابات ثم ارتكبوا حوادث الحريق بالقاء هذه المواد فى الأماكن التى شبت فيها النيران .

يحكم حكما مستبدا فان الجيش هو الآخر يخضع لنفس الظروف ، فقد سيق الى بجزرة فلسطين دون رأى ودون استعداد وفرضت عليه الخطط الفاسدة والأسلحة الفاسدة ويروى أحد رجال الثورة جانبا من قصة المنشورات فيقول :

« وكنا قد وضعنا قائمة بأسماء جميع ضباط الجيش وعناوين منازلهم حصلنا عليها بعد أن كلفنا كل ضابط من جماعتنا بكتابة عناوين زملائه فى وحدته ، وطبعناها هى الأخرى على آلة الرونيو ، واجتمعنا فى منزل أحدنا حيث قمنا بتطبيق المنشورات بطريقة خاصة ، ووضعنا على كل منها عنوانا مطبوعا وطابع بريد من فئة الاربعة مليمات ، ثم قمنا بتوزيع هذه الكمية التى وصلت الى ألف منشور على جميع صناديق البريد فى القاهرة ووصل المنشور الأول الى أيدى الضباط ، وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٥٠ وبدأنا نعد المنشور الثانى ووجدنا أن سلامة العمل تقتضى عدم وضع آلة الرونيو فى مكان واحد بصفة مستمرة فكنا ننقلها من منزل الى منزل حتى طبع المنشور الثانى ، وقامت لجنة برئاسة البكباشى جمال عبد الناصر بتوزيعه على صناديق البريد . وحدثت مفاجأة ، فقد قام البوليس السياسى بمصادرة جميع نسخ هذا المنشور من صناديق البريد ، وكان لابد لنا بعد ذلك أن ندخل شيئا من التغيير على تفصيلات الخطة فنقلت آلة الرونيو الى منزل البكباشى حمدى عبيد ، وكلفنا أحد أصدقائنا المدنيين بكتابة العناوين بخط اليد على ظروف عادية ووضع عليها طابع بريد من فئة العشرة مليمات .

منشورات الضباط الاحرار :

وقد وضع الضباط نصب أعينهم مبادىء ثلاثة طالما كانوا ينشرونها فيما بينهم وكثيرا ما كانت تتضمنها منشوراتهم ، وهى : القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين ، وتكوين جيش وطنى قوى ، وأخيرا ايجاد حكم نيابى سليم .

وعقب حريق القاهرة عندما اشتدت حركة الوطنيين بالقنال كتب الضباط الأحرار المنشور التالى :

(توالت مؤامرت الاستعمار الانجلو أمريكي فى الفترة الأخيرة فى مصر لمحاولة القضاء على الحركة الوطنية وصرف أنظار الشعب عن الكفاح المسلح ضد الاستعمار فى القنال الى مشا كل داخلية فى القاهرة فبعد أن أعلنت حكومة الوفد قطع المفاوضات والغاء المعاهدة ورفض حلف الشرق الأوسط الرباعى الاستعمارى وتكوين الكتائب الوطنية واشتدت جذوة الوطنية فى البلاد حتى اذا كادت أن تصل مصر الى حقوقها الكاملة دبر الاستعمار وأذنابه انقلاب ٢٦ يناير الماضى وجاءت حكومة على ماهر وبدأت المفاوضات من جديد وكان الاستعمار والخونة المصريون يأملون كثيرا من على ماهر التسليم تسليما كاملا بمطالبهم بقبول الحلف الرباعى وحل البرلمان واعتقال الآلاف من الوطنيين واستعمال الأحكام العرفية للتنكيل تنكيلا واسعا بالشعب ولكن خاب رجاءهم ولم يجبهم على ماهر الى مطالبهم فكان لا بد من انقلاب جديد لتحقيق الأهداف الاستعمارية السابقة وتحويل الحركة الى الداخل والقيام بحركة تطهير واسعة بالبلاد بحجة تقوية الصفوف قبل مجابهة الاستعمار وهكذا وصل الهلالى الى الحكم بعد تدبير سابق وقد جاء الهلالى وأعلن برنامج الوزارة بصراحة وأن مهمتها الرئيسية هى التطهير وقد تناسى أن الفساد الأكبر مصدره الاستعمار وانه لا يمكن القضاء على الفساد الداخلى الا اذا أقضى على أسبابه ومصدره . ان من أهداف الضباط الأحرار الكفاح ضد الفساد وضد الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ ولكن لا يجب أن نتجه إلى ذلك الا بعد القضاء على الاستعمار).

وبعد تكوين الجهاز السرى قوى التشكيل وتحددت أهداف الضباط الأحرار وا كتمل الهيكل العام للتنظيم ولم يعد أمامهم غير تحديد ميعاد التنفيذ .

قبل الثورة :

كان الضباط الأحرار قد حددوا ميعاد قيام الثورة فى سنة ١٩٥٥ حتى يتم استعدادهم ، ولئلا يتركوا أية ثغرة قد يكون من الجائز أن يتسلل منها مغرض أو جاسوس أو خائن ، وكان قادة الضباط الأحرار أو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار كما سميت وقتئذ وعلى وجه التقريب فى سنة ١٩٥٠ يعملون فى مقار

وجداتهم بالقاهرة ، ولكن هذا الاستقرار لم يدم طويلا فما كادت تقبل سنة ١٩٥١ حتى صدر الأمر بنقل بعض رجال الثورة الى سيناء ، ورأت اللجنة التأسيسية وكان عدد أعضائها ١٤ ضابطا أن هذا النقل فيه تشتيت للجهود قد يكون مدعاة لتثبيط همم البعض الأمر الذى يقلل من سرعة اندفاع الثورة نحو هدفها ولذلك رأوا أن ينتخبوا فيما بينهم رئيسا عليهم يكون مسئولا عن تنفيذ قرارات اللجنة التأسيسية كما يكون له الحق فى البت والتصرف فيما يعن من مشاكل وأمور تهمهم .

وفى يناير سنة ١٩٥١ اجتمعت اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار وانتخبوا ولأول مرة جمال عبد الناصر رئيسا لهم ، ثم أعيد انتخابه مرة ثانية فى أوائل شهر يناير سنة ١٩٥٢ . ثم عادت اللجنة واجتمعت مرة أخرى بمنزل بمصر الجديدة ولم يكن قد مضى على الاجتماع الأول أيام قليلة . وأثار أحدهم فى هذا الاجتماع فكرة وجوب البدء فورا فى اتخاذ موقف الاستعداد الكامل للعمل فى أى وقت وعلى أن تعطى مهلة شهر على الأقل قبل تنفيذ خطة العمل ، وكلفت اللجنة أحد الأعضاء لبحث الموقف من كافة نواحيه العسكرية والشعبية والسياسية والتأكد من مدى قوة الضباط الأحرار . وقد جاء تقريره بعد ذلك مطمئنا . وعندئذ حاول التشكيل أن يتعرف رأى الوفد بصفته صاحب الأغلبية الشعبية وصاحب السلطة الحاكمة فى ذلك الوقت . وماهو موقفه فى حالة قيام الجيش بالثورة . وأرسل التشكيل أحمد أنور للوفد وتقابل مع وزير الداخلية وأفهمه بأنه موفد من قبل الضباط الأحرار وأنه يتحدث معه على هذا الأساس ويعرض عليه صداقة الجيش والرغبة فى تحالف التشكيل العسكرى مع حزب الأغلبية الشعبية والتعاون معه ضد العوامل والظروف الخارجية ، ولكن الوزير دار حول الموضوع ولم يعط أحمد أنور[1] أى رد حازم فى هذا الشأن ، وكان همه الأول والأخير معرفة أسماء الضباط وعددهم ولكن مندوب التشكيل لم يمكنه من ذلك .

---

(١) سفيرنا فى الدانمرك .

ولما علمت اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار بما دار بين مندوب الثورة والوزير كفروا بالوفد ونفضوا أيديهم منه كما سبق لهم أن نفضوا أيديهم من مداورات الاخوان وسلبيتهم ، وقرروا أن يعملوا دون الاستعانة بأية هيئة أو حزب أو جماعة ، وقد تتابعت الحوادث بعد ذلك فى سرعة مذهلة فقد تآمر الاستعمار والملك على حرق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ فى الوقت الذى وقعت فيه معركة نادى ضباط الجيش وهى معركة تحد خاض غمارها الضباط الأحرار وأعلنوها حربا سافرة ضد الملك الذى كان يعتقد خطأ هو ومن معه من رجال القصر والحكومة أن محمد نجيب على رأس الضباط الاحرار فأبعدوه عن رئاسة سلاح الحدود وعينوا مكانه أحد أعوانهم وهو حسين سرى عامر ، ولم يقتصر الملك على ذلك بل أبدى رغبته فى أن يكون هذا الأخير رئيسا لنادى الضباط ، وعندئذ قرر الضباط الاحرار ترشيح محمد نجيب لرياسة النادى ضاربين برغبة الملك عرض الحائط ، وعندما شعر الملك بأن مرشحه سيفشل فى الانتخابات لتكتل الضباط وبعد أن لاح فى الأفق فوز محمد نجيب مرشح التشكيل أمر وزير الحربية بالغاء الانتخابات وتأجيلها الى أجل غير مسمى وكان هذا القرار فى شهر ديسمبر سنة ١٩٥١ .

فى هذا الوقت بالذات وكان الضباط الأحرار بدأو يتحسسون مواقع الأرض التى يقفون عليها وشعروا بأنهم من القوة بحيث يستطيعون القيام بعمل ايجابى ، اجتمعوا وقرروا الاقدام على حركتهم فى مارس سنة ١٩٥٢ بدلا من سنة ١٩٥٥ ، ورأوا بادىء ذى بدء ألا ينفذوا قرار تأجيل الانتخابات ، ودعوا الضباط لاجتماع غير عادى ليقرروا رأيهم فى هذه المشكلة وفى اجتماع وافق الضباط على تحديد موعد للانتخاب وتحدد الميعاد بالفعل وفى أثناء الانتخاب رفض الضباط أن يمثل سلاح الحدود فى المجلس ونجحت خطة التشكيل وفاز ممثلوا الضباط بأغلبية ساحقة وأبعد حسين سرى عامر وانتصر التشكيل العسكرى وانهزمت جبهة الملك ، ولكن اللطمة التى أصابته كانت قاسية فاستدعى اليه وزير الحربية وقال له اما أن يمثل حسين سرى عامر بالمجلس أو يحل فورا وبدأ الوزير يساوم الضباط ويعرض عليهم الحلول دون

جندى وأخيرا أمر الوزير بحل نادى الضباط . وكان ذلك فى عهد حسين سرى الذى تولى الوزارة فى أول يوليو ، ولم يكد يمضى على توليه الوزارة أيام قليلة حتى جاءه حافظ عفيفى وطلب منه باسم السراى نقل ١٢ ضابطا من الضباط الأحرار الى أماكن متفرقة وكان حسين سرى يشعر أن الجيش على وشك الانفجار ، وان الثورة العسكرية وشيكة الوقوع ، فاستقال ولم يمكث فى الوزارة سوى عشرين يوما ، ثم خلفه الهلالى ولم يمكث بالحكم سوى ٢٤ ساعة اذ فاجأته الثورة وأطاحت بوزارته كما أطاحت بالملك وبكل النظم الفاسدة التى كانت سائدة وقتئذ .

الباب الثامن

الكفاح الأعظم : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

١ ــ مشرق النور فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

٢ ــ خاتمة ملك ونهاية اسرة.

٣ ــ بناء مصر العظمى .

٤ ــ تأميم القناة .

٥ ــ كفاح الشعب يهزم ثلاث دول .

١ — مشرق النور فى يوليو ١٩٥٢

خيوط الفجر الجديد :

تولى فاروق عرش مصر سنة ١٩٢٦ ، وكان حدثا ضئيل الخبرة والتجربة ، وحكم فترة قصيرة بواسطة مجلس الوصاية ، وما لبث أن أنهى الوصاية فى سنة ١٩٣٧ ، وأقسم اليمين أمام البرلمان على احترام الدستور والقوانين ولكنه طالما حنث فى هذا اليمين . وتصارعت الأحزاب السياسية حول الحكم ، وتقربت الى الملك لتفوز بأسلاب السلطة ، وأغمضت عيونها عن انحرافات الملك وأخطائه . وترك الملك وحكوماته القوات البريطانية تمرح فى الأراضى المصرية . وعملوا جميعا على تقييد الحريات ، ومصادرة الصحف وتكميم أفواه الوطنيين . وامتلأت السجون بالأحرار .

وأصبح الحكم فى مصر اقطاعيا فى جميع جوانبه ، فالملك وزعماء الأحزاب من الاقطاعيين والرأسماليين المستغلين ، وشغل الاقطاعيون أيضا مقاعد البرلمان ، وأصبح الفلاح المصرى يشكو الفقر والجهل والمرض ، وعاش الفلاحون فى مصر كما كان الفلاحون فى أوربا فى القرون الوسطى . وزيفت الحكومات الانتخابات ، حتى لايصل الوطنيون الى البرلمان . وأصبحت وظائف الحكومة سلعا تباع وتشترى بالمال ، وانتشرت المحسوبية والرشوة واشتغل بعض الوزراء نفوذهم واشتغلوا بالتجارة وحازوا ثروات كبيرة . وأقبل الملك على حل البرلمان والعبث بالديموقراطية ، وكثر تغيير الوزارات ، وزالت ثقة الشعب تماما فى الملك والحكومة والأحزاب والبرلمان ، وأصبحت مصر على فوهة بركان .

واضطرب توزيع المصدر الرئيسى للثروة وهى الأراضى الزراعية ، وسيطر الاقطاعيون على الأراضى الزراعية ، وأصبح الفلاحون المصريون أجراء يعملون بما يشبه السخرة فى مزارع هؤلاء الاقطاعيين ، وأصبح ٧٠ ٪ من ملاك الأرض

يملكون أقل من فدان ، ولا يتجاوز ما يملكون من الأراضى ١٢ ٪ من مساحة الأراضى الزراعية ، بينما كان ٣٧ ٪ من هذه الأراضى يملكها ٤ ٪ من الملاك الذين كان يملك الواحد منهم أكثر من ٥٠ فدانا ، ومنهم من ملك اقطاعيات واسعة تتألف من ألوف الأفدنة . وتدهور الانتاج الصناعى تدهورا واضحا ، وأصبحت مصر تعيش على المصنوعات الأجنبية ، كما أضحت سوقا رائجة للسلع البريطانية المختلفة ، وكان العمال المصريين محرومين من الرعاية الاجتماعية والصحية ، حتى أصبحوا شموعا تحترق من أجل الرأسماليين من الأجانب أو من المصريين والاقطاعيين المستغلين ، ولذا انعدمت كل صور العدالة الاجتماعية .

ولكن روح الكفاح لم تخمد فكثيرا ما أعلن الفلاحون ثورتهم على الاقطاعيين، فيقول الميثاق : « ان ثورات الفلاحين ضد استبداد الاقطاع وصلت الى الاشتباك المسلح بين الذين ثاروا على عبودية الأرض وبين سادة الأرض المتحكمين فيها ، وفى أقدار الذين ارتبطت حياتهم بها منذ أقدم العصور ،وان كانوا منذ أقدم العصور قد حرموا منها » .

وأين كانت الفئة الحاكمة .. ويجيب الميثاق على هذا التساؤل : « ان الفئة المتحكمة فى العاصمة لم تكن تشعر باحتياجات الشعب ، وكانت غارقة فى حياتها المترفة ، لا تشعر بعذاب الجوع أو آلامها » .

الجيش والشعب فى الليلة الخالدة :

خرجت قوات الجيش ، جيش الشعب ، فى ليلة عظيمة خالدة ، لتعبر عن رغبات الشعب وآماله ، ولتؤيد النضال الشعبى ، وكانت القوى الحاكمة تريد دائما عزل جيش الشعب عن هذا النضال ، وفتح الجيش الطريق أمام تصحيح الأوضاع، وأمام ارادة التغيير .

وصف الميثاق هذه الليلة الخالدة ، ومغزاها ومدلولها ، وصفا رائعا فقال : « ان أعظم ما فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أن القوات التى خرجت من الجيش

لتنفيذها ، لم تكن هى صانعة الثورة ، وانما كانت أداة شعبية لها .

لقد كانت المهمة الكبرى للطلائع الثورية التى تحركت فى الجيش تلك الليلة الخالدة ، هى أنها استولت على الأمور فيه ، واختارت لها المكان الذى لا مكان له غيره ، وهو جانب النضال الشعبى .

انها قامت بعملية تصحيح أوضاع بالغة الأهمية والخطر فى تلك الظروف متحدية بذلك ارادة كل القوى الحاكمة التى أرادت عزل الجيش عن النضال الشعبى .

ان الثورة تفجرت تلك الليلة العظيمة من انضمام الجيش الى مكانه الطبيعى تحت قيادة الشعب وفى خدمة أمانيه .ان الجيش فى تلك الليلة أعلن ولاءه للنضال الشعبى ، ومن ثم فتح الطريق أمام ارادة التغيير .

ان انضمام الجيش الى النضال الشعبى صنع أثرين هائلين فى نفس الليلة ، ولقد سلب قوى الاستغلال الداخلى أداتها التى كانت تهدد بها ثورة الشعب ، كذلك فانه سلح النضال الشعبى فى مواجهة قوى السيطرة الأجنبية المحتلة بدرع من الصلب قادر أن يصد عنه ضربات الخيانة والغدر

ان الثورة لم تحدث ليلة ٢٣ يوليو ، ولكن الطريق اليها قد فتح على مصراعيه تلك الليلة العظيمة » .

قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتحقيق احتياجات الوطن ، ورسم الميثاق الخالد صورة لهذه الاحتياجات وطريقة تحقيقها فقال : « ان احتياجات الوطن لم تكن تكتفى بترميم البناء القديم المتداعى وصلبه بقوائم تسنده وتميد طلاءه . وانما كانت احتياجات الوطن تتطلب بناء جديداً ثابت الأساس صلبا شامخا. ان سقوط النظام الذى كان سائدا قبل الثورة ، هذا السقوط الكامل السريع ، كان يقطع بعدم جدوى محاولات الترميم . لكن سقوط النظام القديم لم يكن هدف التطلع الثورى . ان التطلع الثورى بكل آماله ومثله العليا يهتم بالبناء الجديد أكثر من اهتمامه بالانقاض التى تداعت » .

عندما اشتدت أزمة نادى الضباط بعزل مجلس ادارة النادى ، اجتمع الضباط الأحرار وقرروا التحرك فورا ، وكانت أمامهم خطتان مدروستان : الأولى أن يقوم الجهاز الخاص باغتيال جميع الخونة المصريين ، والخطة الثانية هى أن يقوم الضباط الأحرار بالعمل لتغيير النظام بأجمعه .

وفى يوم ١٨ من يونيو كانت الخطة الأولى هى الراجحة وحدد لتنفيذها يوم ٢٠ يوليو .

احداث الليلة العظيمة :

اجتمعت اللجنة التأسيسية مرة أخرى يوم ١٩ يوليو لدراسة عملية يوم ٢٠ ووجدوا أن عملية الاغتيالات لن تغير من النظام السائد شيئا ، فضلا عما يصيب البلاد من وراء تنفيذها من أضرار . وقرر الضباط فى هذا الاجتماع الغاء الخطة الأولى وتنفيذ الخطة الثانية [١] وقام جمال عبد الناصر بوضع الخطة التنفيذية . بعد أن اطمأن على قوات الجيش بالاسكندرية عقب عودته منها فى ١٢ يوليو . وبعد أن قدم أحد رجال الثورة تقريراً وافيا عن حالة الجيش وموقف الضباط من الحركة. وعلى أثر ذلك حددوا يوم ٢٤ يوليو موعدا للقيام بالحركة ، ولكنهم عادوا وجعلوا الميعاد يوم ٢٣ يوليو على أثر ما أشيع من تسرب بعض أنباء الحركة للمسئولين . واجتمع الضباط الأحرار مرة أخرى بمصر الجديدة فى الساعة السادسة من مساء يوم ٢٢ يوليو لوضع الخطة النهائية للحركة ، وكان بعض الضباط من أعضاء اللجنة لايعلم بتقديم هذا الميعاد ، وكانت التعليمات تقضى بوجود جميع الضباط يوم الخميس ٢٤ يوليو بالقاهرة وطبقا للخطة التى وضعت باحكام خرج أعضاء اللجنة التأسيسية الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٢ يوليو ومعهم ما يزيد على تسعين ضابطا من الضباط الأحرار الى وحداتهم وأماكن تجمعهم انتظارا لساعة الصفر ، ولزم جمال منزله ومعه عبد الحكيم يراقبان سير الحوادث ، وجاءهما

---

(١) من حديث للرئيس جمال عبد الناصر .

أحد الضباط الأحرار وأخبرهما بأن القصر قد تسرب اليه نبأ الحركة ، وان رئيس هيئة أركان حرب الجيش قد دعا الى عقد اجتماع عاجل فى الساعة الحادية عشرة مساء بمقر رياسة الجيش بمنشية البكرى مع بعض اللواءات لاتخاذ الاجراءات المشددة ضد الضباط الأحرار ولم يجد جمال بدا من محاولة اخطار باقى الزملاء بهذا الخطر الجديد الذى يهدد الحركة . وتوجهوا ثلاثتهم الى مركز تجمع الضباط بثكنات العباسية ولكنهم وجدوا أن الوحدات بدأت فى التحرك قبل ميعادها ، وأن البوليس الحربى قد أغلق ثكنات العباسية والفرسان (وبدا للحظات أن الخطة كلها فى خطر ولم يبق على ساعة الصفر الا تسعون دقيقة ولاح أن خطة الثورة كلها تدخل فى مرحلة من تلك المراحل الخطيرة فى التاريخ عندما تتدخل قوى أكبر منها لتوجه الحوادث . ولقد تأكد لى من تطور الأمور أن عناية الله كانت تلك الليلة معنا (١)) وعندئذ لم يجد جمال وزميليه سوى التوجه الى ثكنات الماظه لعله يتمكن من الاتصال بوحدات الجيش التى به ، وفى أثناء سيرهم اعترضت طريقهم فرقة من الجنود تابعة للكتيبة الأولى وأنزلتهم من العربة الأوستن الخاصة بجمال بالقوة وألقت القبض عليهم ، وكانت التعليمات تقضى بالقاء القبض على كل ضابط لاينتمى الى الضباط الأحرار مالم يثبت شخصيته ، ولم تجد جميع المحاولات التى بذلت مع هذه الكتيبة أو القائمين عليها للافراج عن جمال وزميليه وتجاهلوا جميع الأدلة التى ساقوها على أنهم من كبار الضباط الأحرار ، وذهبت مساعيهم أدراج الرياح .

وكانت كل دقيقة تمر بمثابة ثقب كبير فى بناء الثورة يوشك أن يودى بها ، وبعد عشرين دقيقة جاء قائد الكتيبة البكباشى يوسف منصور صديق على صوت الضجة التى أثارها جمال وزميلاه وتعرف عليهم فقد كان جمال رئيس الضباط الأحرار والمنظم الأول للثورة وعرف منهم الخطر الذى يحيق بهم جميعا وقرروا أن يتجهوا فورا الى مكان اجتماع رئيس هيئة أركان حرب وباقى اللواءات بالقيادة ، وفى

---

(١) من حديث لجمال عبد الناصر لمندوب صانداى تايمس فى يوليو سنة ١٩٦٢ .

الطريق قبضوا على بعض قادة الجيش ، ثم اقتحمت الكتيبة الأولى مبنى القيادة وحدثت مقاومة أثناء ذلك قتل خلالها جنديان أحدهما من حرس القيادة وآخر من الكتيبة الأولى ، وهذان الجنديان هما (١) الشهيدان الوحيدان فى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ البيضاء ، وفوجىء المجتمعون بمبنى رياسة الجيش بجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ويوسف صديق ومعهم باقى القوة يحيطون بهم بعد أن اقتحموا عليهم حجرة الاجتماعات وكان على رأس المجتمعين حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش يرسم مع أركان حربه خطة اعتقال رجال الثورة فقبضوا عليهم وأودعوهم مبنى الكلية الحربية ، وعلى أثر ذلك انتقل مجلس قيادة الثورة إلى مبنى رياسة الجيش واتخذوه مقرا لقيادتهم ، وكان حيدر يصطاف مع الوزارة والملك فى الاسكندرية وعلم بوجود حالة التذمر ، فاتصل بحسين فريد الذى كان يعتقد أنه يجتمع مع بعض لواءات الجيش بالقيادة ، وكان قد تم القبض عليهم فرد عليه جمال عبد الناصر وتحدث معه على أنه حسين فريد وأخبره بأن الحالة هادئة ، ومطمئنة ، وأن الموقف مستتب بالجيش ولكن حيدر عاد بعد نصف ساعة وطلب مكالمة اللواء حافظ بكرى مدير سلاح المدفعية ، وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة ، فرد عليه أركان حرب جمال وطمأنه مرة أخرى وقال له . ان كل ما بلغه من قيام الضباط بالتمرد انما هو مجرد اشاعة ولا أساس لها .

وفى حوالى الساعة الثالثة ، وكان الضباط قد هيمنوا على الموقف ، عاد حيدر واتصل مرة أخرى بقيادة الجيش فطمأنه رجال التشكيل كما فعلوا فى المرتين السابقتين . مما جعله يقول للملك عندما أراد أن يستفسر عن الحالة فى ثقة ويقين: « يامولاى انها مجرد عاصفة فى فنجان » . وكان مجلس قيادة الثورة قد قسم القاهرة الى أربعة مناطق يتولى أمر كل منطقة بعض الضباط الأحرار على أن يبادر الضباط الى احتلال المراكز الهامة فى الجيش وبعض الهيئات والمصالح الحكومية

---

(١) الجنديان الشهيدان هما عطية سيد أحمد من حرس حسين فريد وعبد الحكيم محمد المشرقى من الكتيبة الاولى .

كالاذاعة والتليفونات والتلغرافات والسكك الحديدية والكبارى وغيرها وكان يقع على عاتق سلاح الفرسان عبء كبير ، وقد وضعت القيادة على رأسه أربعة من الضباط وفى تمام العاشرة من مساء يوم ٢٢ يوليو توجهوا الى مقر سلاح الفرسان. ودخلوا القشلاقات من الأبواب الخلفية غير المطروقة ، وحدث فى ذلك الوقت بالذات أن أطفئت جميع أنوار المعسكر فظن الضباط أن هذا الحادث قد يكون متعمدا توطئة للقبض عليهم ، ولكن هذا الخاطر زال بعد فترة وجيزة مرت وكأنها ساعات وعلى ضوء البطاريات والشموع بدأوا فى تنفيذ العمليات وتجهيز الدبابات الكبيرة من نوع السنوتوريون والمصفحات الضخمة ، بينما كان أحدهم يفتح أبواب مخازن الأسلحة والذخيرة لتموين الفرق الميكانيكية . وعندما كانوا يستعدون للخروج نمى اليهم أن قائد قسم القاهرة ، وكذلك قائد اللواء المدرع ، حضرا بالقشلاق فقبضوا عليهما وأودعوهما مبنى الكلية الحربية وتوجه الآلاى الثانى وحاصر شارع الخليفة المأمون من جهة مصر الجديدة وكوبرى القبة والعباسية ، وعزل منطقة الثكنات عن باقى مناطق أحياء القاهرة . وفرض الآلاى الثانى ستارا حديديا على المنطقة ، ومنع دخول أو خروج أى شخص سواء أكان مدنيا أم عسكريا الا بعد التحقق من شخصيته .

أما الآلاى الأول ، فقد قام بالقبض على بعض لواءات الجيش وأودعهم الكلية الحربية ، وكان يدخر آلايه لعملية أخرى لم يحن وقتها بعد ، وان كانت قد حددت ضمن خطة العمليات التى وضعها من قبل جمال عبد الناصر ، وهى العمليات الخاصة بمدينة الاسكندرية .

كما توجه بعض الضباط على رأس القوات الميكانيكية والمدرعة فاحتلوا الاذاعة والتليفونات والسكك الحديدية والمرافق العامة جميعها وقاموا على حراسة البنوك والمصالح الأخرى الهامة وعندما اقتربت الساعة من الرابعة كان سلاح الفرسان قد انتهى من مهمته التى رسمت له

وقد بين احدهم (١) خطة الحركة كاملة فيقول : « أن أمامى خطة الحركة كاملة،

---

(١) السيد ثروت عكاشة .

والذى يراها اليوم قابعة فى ست صفحات من الفولسكاب وبخط ليس جيداً جداً وفيها شطب وتعديل وهى كذلك مشحونة بالمصطلحات الفنية والرموز . من يراها اليوم وهى ملقاة على مكتب لايمكن أن يظن أنها كانت الحد الفاصل بين عهدين وكانت الفيصل فى مصير البلاد . وأنى أنقل منها بالحرف : « ١٢٠٠ يصل جميع الافراد الى الوحدات ويمنع استخدام التليفون وتفسير ذلك أنه على جميع الأفراد الأحرار بطبيعة الحال أن يجتمعوا فى منتصف الليل ثم تمضى الخطة العامة تشمل فى وسط السطر المرحلة الأولى . ثم تفصيل الخطة فى المرحلة الأولى وهى خاصة بالتليفونات وتقول مايأتى بالحرف . تروب سيارات لضابط + ضابط من الخارج وبين قوسين (أنور) جماعة مشاة من السوارى معها جهاز لاسلكى على موجة رياسة الجيش ستب ١٣٠٠ التجميع فى سلاح الفرسان . تعود التليفونات للعمل بأوامر رياسة الجيش وتمشى الخطة الى رقم ٢ فتتحدث عن عمليات القبض وكيف تبدأ ساعة ١٢٠٠ أى. الواحدة والنصف ثم رقم ٣ وهو الطريق الموصل من الحدائق الى ادارة التجنيد ثم رقم ٤ وهو الخاص بكوبرى المترو وأمام المستشفى العسكرى بقيادة اليوزباشى وجيه رشدى ثم رقم ٦ الخاص بتقاطع شارع الخليفه المأمون بشارع نادى أوسبورتنج بقيادة خالد محى الدين وتمضى الخطة حتى تصل إلى عنوان الراديو وتحت العنوان مايلى : يلقى بيان على الشعب بمجرد فتح الراديو وبيان آخر على الجيش ويأتى بعد هذا العنوان سلاح الطيران .وتحت هذا العنوان مظاهرة على القاهرة والاسكندرية سمت ١٠٠٠ وتمضى الخطة فتنص على ضرورة عمل ترتيب المواصلات الداخلية داخل الوحدات وان يقدم تقرير موقف كل ١٥ دقيقة ابتداء من سمت س الى رياسة الجيش حتى سمت ١٠٠٠ يوم ى . وتتحدث الخطة عن تنظيم الرياسة العامة فتذكر الأسماء التى ستقوم بها ،وفى مقدمة الأسماء اسم الرئيس البطل جمال عبد الناصر .

وتتعرض الخطة لشبكة المخابرات العسكرية والمدنية فتقول بالنص :

١ — بواسطة ادارة المخابرات .

٢ — بواسطة الصحف .

المطلوب معرفة جميع التطورات السياسية وخلافه فى المملكة عموما وفى الجيش بوجه خاص معلومات وافيه عن التطورات فى الاسكندرية وتنتهى الخطة العامه بالحديث عن عملية فلسطين وتحت هذا تسجيل ما يلى: تبدأ بعد اذاعة الحديث بالراديو. أى بعد اذاعة بيان الرئيس نجيب الإتصال باللاسلكى مع فلسطين — طلب كتيبة مدافع يوم ى + ١ ويسترسل ثروت عكاشة فيقول: «أعود فأقول بعد أن درسنا هذه الخطة أخذنا القسم الخاص بسلاحنا وكان جسيما وخطيرا ومضينا نعد لكل شىء عدته. فدونت الخطوات التنفيذية على وريقات صغيرة عددها عشرة مقسمة الى سبع أقسام كل قسم منها عبارة عن عملية من العمليات مضافا الى هذا أربع أوراق متشابكة. ان سبعة الأقسام الخاصة بسبع عمليات الواردة تحت عنوان تعليمات «عمليات حربية رقم ..» تحمل الواجبات التالية:

دار الاذاعة ك. ميكا التليفونات، الاعتقالات بوابة العباسية سلاح الحدود. مطار مصر الجديدة وكل قسم من هذه الأقسام يحوى اسم القائد والقوات الموجودة تحت قيادته والشئون الادارية من طعام وذخيرة ووقود. والمواصلات الداخلية ومقصود بها طريقة الاتصال باللاسلكى بقى ماذكرته عن القسم الخاص الذى يضم أربع ورقات تحت عنوان: «باقى القوات» ولعل من الأوفق أن أنقل نص ماسجلته هذه الورقات:

١ — تجهيزها واستعدادها قبل ٥٠٠ ساعة.

٢ — تكون هذه القوات على أهبة الاستعداد للقيام بأى عملية تطلب فى ظرف ١٥ دقيقة.

٣ — يقوم الآلاى الأول المدرع بتجهيز أورطة دبابات لعمل طابور سير داخل المدينة سعت ١٠٠٠.

٤ — خط السير. شارع الخليفة المأمون. الملكة نازلى. شارع ابراهيم. الأوبرا.

٥ — يقوم الآلاى المدرع الأول بتجهيز أورطة دبابات على أهبة الاستعداد للسفر الى الاسكندرية فى ظرف ساعتين اذا لزم الأمر .

٦ — باقى القوات تظل بوحداتها تحت الأوامر وفى حالة استعداد فى ظرف ساعة بعد صدور الأمر (راحة) .

٧ — على حضرات الضباط عدم مغادرة جنودهم والتأكد من عدم تسرب أى دعاة للهزيمة بينهم وذلك بالاشراف الشخصى المتواصل والظهور بمظهر الثقة .

٨ — تجهيز الدبابات السنتوريون لاحتمال أى تدخل من جانب القوات البريطانية .

٩ — تعيين عربة جيب لقائد آلاى الخيالة .

١٠ — تعيين الحرس اللازم للقيادة .

١١ — ٢ عربة مدرعة لمعاونة خالد بمصر الجديدة :

١٢ — طلبات لك ميكا من لوارى وذخيرة وتعيين ١٣٠ قوة مشاة للتدريب الحربى ان لم تكن قد عينت .

١٣ — تعزيز قوة لك ميكا ١٥ رسا صابر سعت .. عند بوابةالفرسان لاستلام مندوب التليفونات .

١٤ — تروب سيارات لخالد سعت ١٠٠ + ٣ لورى + ٣ ضباط + ذخيرة

وبهذا تنتهى الخطة التنفيذية التى وضعها مجلس قيادة الثورة وظاهر منها مدى الدقة والحرص الشديدين كما أن واضعيها لم يغفلوا صغيرة ولا كبيرة الا وأثبتوها . وشارك كذلك سلاح الطيران بنصيبه فى المعركة . وقبض الضباط الأحرار على اللواء شعراوى مدير السلاح كما قبضوا كذلك على قائد الفرقة الجوية عبد الحميد سليمانو حقى هارون

وجزارين وعدلى الشافعى وحسن عاكف وصالح محمود صالح الذى ضبط متلبسا بمحادث حيدر ليذبئه بقيام الثورة .

كما كلف أعضاء مجلس قيادة الثورة قائد الجناح محمد شوكت للاشراف على عمليات طيران الطيارين لحماية الحركة من الجو ولارهاب الملك وأعوانه ومراقبة الموقف اذا مافكر الانجليز بالتدخل ، ولم يكد يبزغ صباح يوم ٢٣ يوليو حتى انطلقت فى سماء مصر الطائرات يقودها الضباط الأحرار .

انباء الثورة الاولى:

صحا الشعب يوم ٢٣ يوليو على صوت الطائرات يملأ ضجيجها سماء القاهرة وبدأت تترامى بعض الأخبار عن قيام الجيش بالثورة . والناس بين مصدق ومكذب حتى اذاع الراديو أول نبأ عن أخبارها ، وفى تمام الساعة السابعة والنصف أذاع أحد رجال الثورة من دار الاذاعة البيان التالى :

« اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين . وأما فترة بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم . ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب . أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم فى الوقت المناسب وانى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور مجردا من أية غاية وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لاعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس فى صالح مصر ، وان أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونا مع البوليس وانى أطمئن اخواننا

الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم والله ولى التوفيق » .

وقد قابل الشعب أنباء الثورة بالبشر والسرور والترحيب وتأكد أن يوم الخلاص الذى انتظره طويلا قد جاء . ثم أذاع القائد العام للقوات المسلحة بيانين آخرين أحدهما الساعة ٨ر٣٠ الثامنة والنصف والآخر بعده وكان البيان الأول كما يلى: « تعلمون جميعا الفترة العصيبة التى تجتازها البلاد ورأيتم أصبح الخونة تتلاعب بمصالح البلاد فى كل فرع من فروعها وتجرأت حتى تدخلت فى داخل الجيش وتغلغلت فيه تظن أن الجيش قد خلا من رجاله الوطنيين .

وإننا فى هذا اليوم التاريخى نطهر أنفسنا من الخونة والمستضعفين ونبدأ عهد جديدا فى تاريخ بلدنا . وسيسجل لكم التاريخ هذه النهضة المباركة أبد الدهر ولا أظن أن فى الجيش من يتخلف عن ركب النهضة والرجولة والتضحية التى هى واجب كل ضابط منا والسلام .

وعندما تأكد نجيب الهلالى من قيام الثورة قدم استقالته وطلب مجلس القيادة من على ماهر أن يؤلف وزارته فوافق وتم له تشكيلها فى اليوم الثانى للثورة أى فى يوم الخميس ٢٤ يوليو .

٢ ــ خاتمة ملك ونهاية أسرة

انهيار رأس الفساد :

عندما استتب الأمر للثورة واطمأن الأبطال الذين قاموا بها وشاركوا فيها وتألفت الوزارة التي يرضون عنها اتجهوا بأنظارهم الى الملك رأس الفساد. فزحفت الى الاسكندرية فرق من السوارى وكتائب المدفعية الثقيلة والكتيبة الثالث عشرة وكان ذلك يوم الجمعة ٢٥ يوليو . ولم يكن الملك يعرف على سبيل اليقين ماهو موقف الجيش منه وان كانت البوادر تنبيء بأن شيئاً هاماً لابد أن يحصل بالنسبة له ولأسرة محمد على كلها .

لذلك فقد كان الملك على استعداد لأن يلبي أى مطلب يطلبه الجيش وقادته مقابل انقاذ رقبته ، فبعد أن استجاب لرغبتهم بتنحية وزارة الهلالى واسنادها لعلى ماهر عادوا وطلبوا منه يوم الجمعة ٢٥ يوليو أثناء زحف الجيش الى الاسكندرية حيث كان يقيم بابعاد ستة من حاشيته وهم محمد حسن أمينه وخادمه وانطون بوللى سكرتيره الخاص والياس أندراوس مستشاره الاقتصادى ويوسف رشاد كبير أطباء اليخوت الملكية وحسن عاكف قائد طائرته الخاصة والأميرالاى محمد حلمى حسين مدير ادارة السيارات بالقصر ، وعندما وصله هذا المطلب وافق عليه كذلك. اعتقادا منه أن هذه هى آخر طلبات مجلس قيادة الثورة ولكنه مع ذلك كان يتوجس خيفة فانتقل من قصر المنتزه إلى قصر رأس التين فى ساعة متأخرة من يوم ٢٥ يوليو هو وزوجته وابنه وبناته وكان معهم حسن عاكف لتدبير خطة الهرب سواء بطريق الجو أو عن طريق البحر بأن يستقل اليخت المسمى المحروسة ولكنه لم يتمكن لأن الجيش كان قد حاصر القصر وسد طريق الهرب فى وجهه . بينما كان سلاح الطيران يملأ سماء المدينة وكان الملك فى هذه الساعات يتحسس رقبته لأنه أصبح من المتيقن بعد أن منعوه من الهرب بأن اجراءاً عنيفاً سيتخذ ضده . فلم يغمض له جفن وظل مسهدا ترتعد فرائصه وتصطك أسنانه حتى جاء يوم السبت ٢٦ يوليو ولا أحد يدرى مايخبئه هذا اليوم .

وكان مجلس قيادة الثورة قد اجتمع وبحث موقف الجيش من الملك ومايلزم اتخاذه من اجراءات ضده . هل يحاكم على مااقترف من جرائم فى حق الوطن وعقوبة هذه التهمة بطبيعة الحال هو الاعدام . أم يكتفى بطرده من البلاد . وقد رجح المجلس الرأى الثانى لأنه يتفق مع المبادىء التى التزموها بعدم اراقة دماء وبقاء صفحة الثورة بيضاء لايشوبها شائبة ومن أجل ذلك كتبوا انذاراً وجهوه إلى الملك وحمله أحدهم وتوجه به الى على ماهر فى مقر رياسة الوزارة ببولكلى بالاسكندرية وقابله الساعة التاسعة صباح يوم ٢٦ وسلمه الانذار الذى يحوى تنازل فاروق عن العرش وطلب منه أن يسلمه الى الملك ويبلغه بضرورة التنازل عن العرش ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم ونص الانذار كما يلى :

« انه نظراً لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لارادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لايطمئن على حياته أو ماله أو كرامته . ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير . ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة وماترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة فى العدالة . وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى وفجر من فجر وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

لذلك فقد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم السبت الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه والجيش يحمل جلالتكم كل مايترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج » .

نزولا على ارادة الشعب ·

حمل علي ماهر انذار الجيش وذهب الى سراى قصر التين فوصله حوالى الساعة العاشرة وقابل الملك وأبلغه فحوى الانذار شفاها فتنفس الملك الصعداء وهدأت نفسه بعض الشيء ورضخ على الفور . وفى حوالى الساعة الواحدة ذهب وكيل مجلس الدولة إلى الملك ومعه وثيقة التنازل عن العرش ، وهى صورة أمر ملكي ونصها :

« نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان ـــ لما كنا نطلب الخير لأمتنا ونبتغى سعادتها ورقيها . ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنب البلاد المصاعب التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة ونزولا على ارادة الشعب . قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمرنا بهذا الى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه . »

صدر بقصر رأس التين فى ٤ ذى القعدة سنة ١٢٧١ ـــ ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ .

وعندما أراد فاروق التوقيع ارتعدت يده . فعاد ووقع عليها مرة ثانية فى أعلى الوثيقة ، وهذه الواقعة ثابتة فى وثيقة التنازل الأصلية .

وخرج وكيل مجلس الدولة يحمل الوثيقة التاريخية وبدأ الملك يستعد للسفر خارج البلاد . قبل الموعد الذى حدده مجلس قيادة الثورة .

وفى تمام الساعة السادسة سافرت المحروسة الى نابولى بايطاليا تحمل معها عهدا أسود من عهود مصر ، ولم يكن حاضرا وداعه سوى على ماهر وسفير أمريكا جفرسون كافرى ، وتطهرت البلاد من حكم فاروق المدموغ بالرشوة والاستهتار والمجون .

وبخروج فاروق انتهت مرحلة هامة من مراحل الثورة وأسدل الستار على أسرة محمد على الى الأبد . وانتصرت ارادة الشعب وبدأ يحكم نفسه بنفسه بعد عهود طويلة من الظلم والطغيان .

٣ ـــ بناء مصر العظمى

اسس وطيدة :

نجحت ثورة الجيش ، وطردت الملك ، وبدأ قادة الثورة فى التنظيم الداخلى المتخلف من العهود البائدة.

وبادر مجلس قيادة الثورة فألغى مصيف الوزارة بالاسكندرية ، كما ألغى الألقاب ، ودعا إلى التقشف ، ثم أصدر قانون الاصلاح الزراعى فى ٩/٩/١٩٥٢ : بعدم جواز ملكية أى شخص لأكثر من ٢٠٠ فدان على أن يتصرف لأولاده بمائة أخرى . وهذا القانون من أهم القوانين التى أصدرتها الثورة ، وهو وسيلة متواضعة لعلاج سوء التوزيع وتقارب الطوائف نوعا ما . نظراً لما كان يمتلكه بعض الاقطاعيين من آلاف الأفدنة يبعثرون ايرادها فيما لا يفيد ، بينما الأغلبية من الشعب تتضور جوعا والكثير منهم لا يجد أحيانا قوت يومه . وأصدر المجلس كذلك قانونا بالعفو الشامل عن المحكوم عليهم فى الجرائم السياسية التى وقعت فى عهود ماقبل الثورة وكانت قد ارتكبت بدوافع وطنية وكان الوطنيون يتطلعون إلى هذا العفو من حكومة الثورة ، ثم حلت الاحزاب جميعها التى كانت موجودة لأنه لم يعد لها أى عمل بعد أن استنفدت أغراضها .

وفى يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ أعلنت الثورة قيام النظام الجمهورى فى البلاد والغاء النظام الملكى وسقوط حكم أسرة محمد على وبذلك أنقذت البلاد من طغيانهم وخياناتهم مدى مائة وخمسين عاما .

كما صادرت أموالهم بما فى ذلك أموال فاروق واعتبارها من أموال الشعب وردتها اليه ، أما فى المحافل الدولية فقد اختطت الثورة لنفسها خطة الحياد التام وعدم الانحياز وساهمت مصر مساهمه فعالة فى نجاح مؤتمر باندونج الذى عقد بها فى ١٨/٤/١٩٥٥ وأسمع جمال عبد الناصر صوت مصر فى هذا المؤتمر وهجم على الاستعمار فى كل مكان . وعندما رفضت الدول الغربية مد الجيش المصرى

بالأسلحة اتجهت مصر الى الدول الشرقية وعقدت مع تشيكوسلوفاكيا صفقة الأسلحة المشهورة فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ وكانت العقلية الاستعمارية لا تزال تسيطر على سياسة بريطانيا وحلفائها . من أن مصر لا يمكنها أن تتعامل مع غيرها واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يسيطرون على السوق العالمية ، وقد ظهرت نياتهم سافرة عندما قام سلوين لويد فى فبراير سنة ١٩٥٥ وأعلن أمام مجلس العموم البريطانى بأن انجلترا أوقفت بيع الأسلحة لمصر . ورد جمال عبد الناصر على محاولات الغرب فى خطبة ألقاها فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ فقال : « أحب أن أقول لكم فى هذه المناسبة : قصة تسليح الجيش ، فحينما قامت الثورة التجأنا الى كل الدول من أجل تسليح هذا الجيش . التجأنا الى انجلترا والتجأنا الى فرنسا والتجأنا إلى أمريكا والتجأنا إلى باقى الدول من أجل تسليح هذا الجيش . ومن أجل السلام ومن أجل الدفاع ، فماذا حدث . اننا لم نأخذ الا مماطلات . لقد أرادوا أن يسلح الجيش بعد أن نوقع على مواثيق . وقد أعلنا أننا اذا أردنا أن نسلح جيشنا فلن نوقع وثيقة واحدة . الى أن قال : الى أن وصلنا رد على هذا الخطاب من حكومة تشيكوسلوفاكيا يقول فيه : (انها مستعدة أن تموننا بالسلاح حسب حاجتنا على أساس تجارى بحت) .

جيش وطنى عظيم :

ونجحت الثورة فى تسليح الجيش بالأسلحة الثقيلة والخفيفة وتخطت جميع العراقيل التى وضعها الغرب فى طريقها ومضت فى طريق المكاسب الوطنية ووصلت إلى ذروة انتصاراتها عندما قرر الانجليز فى ١٣ يونيو سنة ١٩٥٦ الجلاء عن أرض الوطن بعد احتلال بغيض دام أربعة وسبعين عاما ، ولم يكن جلاء الانجليز عن مصر بمحض رغبتهم ولكنه جاء قسرا . فبعد أن قامت الثورة استمرت المقاومة الشعبية التى بدأت سنة ١٩٥١ بعد الغاء المعاهدة ضد القوات البريطانية فى القنال ولكنها نظمت وأشرف على فرق المقاومة بعض الضباط الأحرار وكان الجيش فى حاجة ماسة إلى رصاص المدافع الخاص بالطائرات فأمدته

فرق المقاومة بالكثير منها . كما استولى الوطنيون على العديد من العربات الحربية والأسلحة ، ثم وقعت بعض المعارك المنظمة التى ذهب ضحيتها العديد من الضباط الانجليز كما اختطفوا بعض الضباط البريطانيين منهم الضابط الطيار ريجدن وثارت الحكومة الانجليزية وهددت مصر بأنها ستنفذ اجراء عنيفا إذا لم يعد الضابط المخطوف ولكن حكومة الثورة لم تهتم بهذا التهديد واستمرت فى خطتها فى عدم التعرض للوطنيين من أفراد الشعب وتركتهم يناوئون الانجليز ويكدرون صفو حياتهم ، وقد اعترف وكيل وزارة الخارجية البريطانية بهذه المقاومة فى سنة ١٩٥٤ إذ قال أمام مجلس العموم : « بأنه وقع ٥٢ اعتداء على القوات والرعايا البريطانيين فى منطقة القنال فى فترة لاتزيد على الستة الأسابيع الماضية فقط » كما طالب سلوين لويد بضرورة الكشف عن المسئولين عن حوادث القنال إذا كانت مصر ترغب فى التفاهم مع بريطانيا ولما لم يجد الانجليز أن هناك أية بارقة من أمل فى وقف الأعمال العدوانية ضد قواتها بالقنال ورأت أن حكومة الثورة ليست كباقى الحكومات بل أنها كانت على أتم الاستعداد لأن تذهب الى القنال لتساعد فى أعمال المقاومة جنبا إلى جنب مع أفراد الشعب اذا لزم الأمر وافقوا على جلاء قواتهم التى كانت تبلغ ٨٠ ألف جندى وضابط وتركوا لمصر الكثير من المعدات والأسلحة الضخمة التى كانت لديهم .. وبهذا تحقق أمل الشعب كما حققت الثورة أهم هدف من أهدافها وقد زف جمال عبد الناصر هذه البشرى للشعب فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ قائلا (اننا نقف الآن على عتبة مرحلة حاسمة من مراحل كفاح شعبنا لقد وضع الهدف الأكبر من أهداف الثورة منذ هذه اللحظة موضع التنفيذ الفعلى فقد وقعنا الآن بالأحرف الأولى اتفاقا ينهى الاحتلال وينظم عملية جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر الخالدة) .

وقد بر الانجليز بوعدهم ولأول مرة مرغمين ونفذوا بنود المعاهدة دون لف أو دوران فخرجت آخر قوة بريطانية فى مصر يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٥٦ وبذلك تحررت مصر وأصبحت مستقلة استقلالا حقيقيا لازيف فيه ولا غموض .

ثم استمرت حكومة الثورة فى دعم السلام والدعوة الى الحياد والتعايش السلمى بين الدول فكما ساهمت فى مؤتمر باندونج فى ١٨/٤/١٩٥٥ عملت على عقد ونجاح مؤتمر بريونى فى يوجوسلافيا الذى عقد فى ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ ومن هذه الجزيرة الصغيرة خرجت نداءات نهرو وتيتو وعبد الناصر الى العالم أجمع تدعو الى السلام والحياد .

السد العالى :

وفى طريق البناء ودعم الحياة الاقتصادية فكرت حكومة الثورة فى بناء السد العالى بأسوان الذى سيزيد الرقعة الزراعية بما لايقل عن مليونى فدان فضلا عن عشرة مليون كيلوات سنويا من الكهرباء اللازمة لادارة المصانع والمدن والقرى وبذلك يرتفع الانتاج وتنخفض تكاليف المعيشة . ورأت أن تلجأ لتحقيق هذا المشروع العملاق وتمويله الى البنك الدولى الذى وافق أول الأمر على اقراض الحكومة مبلغ ٢٠٠ مليون دولار كما وافقت أمريكا وانجلترا على المساهمة كذلك بمبلغ ٧٠ مليون دولار للقيام ببناء السد العظيم ولكن الدولتين عادتا وسحبتا عرضهما السابق كما سحب البنك الدولى عرضه كذلك ، وقد بنت أمريكا رفضها على أساسين الأول أن مصر لن تتمكن من سداد القسط السنوى من القرض ويقدر بحوالى ٢٧ مليون جنيه والثانى انه يلزم موافقة الدول التى يهمها مياه النيل وهى السودان وأثيوبيا وأوغندا .

وهاتان الحجتان واهيتان لأن مبلغ القرض السنوى الذى تدعى أمريكا بأن مصر لايمكنها من سداده زهيد بالنسبة لدولة زاد دخلها السنوى على ١٢٠٠ مليون جنيه .

وأما بخصوص ماأثارته من ضرورة أخذ رأى السودان وأثيوبيا وأوغندا بشأن بناء السد فانه قول مردود لأن السد سيحتجز المياه الزائدة التى تذهب كل عام الى البحر ولايستفيد منها أية دولة من هذه الدول شيئا ، وعلى المعزوم

فان البيان الأمريكي صدر ودلائل الكره والحقد تنطق فى كل سطر من سطوره كما وان البيان غير صادق بما حواه على اطلاقه أما الحقيقة التى دعت الدولتين الاستعماريتين الى سحب اتفاقهما فيرجع الى عدة أسباب أهمها التجاء مصر الى شراء الأسلحة من روسيا ويقول ونستون تشرشل الابن فى كتابه سقوط ايدن :
« ان الأمريكان اعتبروا ابتياع مصر السلاح من روسيا بمثابة ايحاء بوجود نقطة ارتكاز لها فى الشرق الأوسط ، وماذا كانت تريد منا انجلترا وأمريكا أن نفعله بعد أن حبسوا عنا السلاح ورفضوا أن يزودوا جيشنا به . هل كانتا تريدان من مصر أن تستجديهما المرة تلو المرة بعد أن أفصح وزير خارجية انجلترا أنها لن تمد مصر بالسلاح لمدة طويلة . هل يجوز لعاقل أن يتصور أن حكومة الثورة كان فى امكانها انتظار عدول الدول الاستعمارية عن قرارها بحبس السلاح عن مصر واسرائيل تتحرش بنا كل يوم بأسلحة مستوردة من أمريكا وانجلترا وفرنسا . فقد كانت مصانعها ومخازنها تحت أمر اليهود يغترفون منها كيفما يشاءون ودون أى قيد ولا شرط .

ثم هناك سبب آخر لسحب قرار التمويل هو غضب أمريكا من خطة الحياد التى اتخذتها مصر أساسا لسياستها الخارجية لأنها تبغى ربط الدول الصغيرة الى عجلتها . ولكن مصر سلكت طريق الحياد وآثرت فكرة عدم الانحياز وأيدتها باقى الدول العربية . وغيرها من الدول الآسيوية والأفريقية .

كما أن النفوذ الصيهونى دخلا كبيرا فى سحب قرار التمويل خاصة ، وأن الانتخابات الأمريكية كانت على الأبواب ، وفى سحب القرار مايضمن أصوات اليهود وكسب لنفوذهم الكبير .

ومما أوغر صدروهم أيضا اعتراف مصر بالصين الشعبية وما اختطته من بعث القومية العربية بين الدول ومساعدة شعب الجزائر ضد الفرنسيين ومؤازرة جميع الشعوب الحرة ضد الاستعمار والاستغلال ويشير ونستون تشرشل الابن سببا آخر لسحب القرار فيقول : «وتعرض وزير الخارجية الأمريكية لضغط كبير فى

داخل أمريكا لسحب القرض المزمع تقديمه لمصر . كما أن لجنة القطن فى الكونجرس الأمريكى طلبت عدم تقديم القرض الى مصر لأنها ترى أن بناء السد العالى سيزيد من مساحة الأرض المصرية المزروعة قطنا بمقدار مليونى فدان مما سيؤدى الى انخفاض أسعار القطن العالمية .

ولم يكن أمام مصر للخروج من الضغط الاقتصادى الذى فرضته الدول الاستعمارية عليها الا أن تلجأ الى ماهو حق لها ، وهو تأميم قناة السويس . ولو أن أمريكا وانجلترا وافقتا على التمويل لما سكتت مصر على ترك مشكلة قناة السويس بدون حل ، وكان الحل السليم هو انهاء الوضع الشاذ الذى عاشت فيه قناة السويس منذ عهد اسماعيل حتى سنة ١٩٥٦ بتمصير القناة وتأميمها واسترداد هذه القطعة العزيزة من أرض الوطن واعادتها اليه .

كان تأميم القناة ضرورة وطنية حتمية ، فقد قام بحفرها المصريون وحدهم ، وكان يعمل بها ستون ألف عامل مصرى يستبدلون شهريا ، وقضى أكثر من مائة ألف عامل نحبهم أثناء قيامهم بهذا العمل الشاق فى ظروف قاسية ، وساهمت مصر بجميع الأعمال الأخرى التى طلبت منها وسخرت جميع مواردها لانجاح هذا المشروع ، واذا كانت الشركة قد ساهمت بمبلغ زهيد لايزيد على نصف مليون جنيه ، فان مصر تكلفت عدا أجور أبنائها مايربو على ١٦ مليونا من الجنيهات :

وربح المساهمون الأجانب من شركة قناة السويس الملايين من الجنيهات التى كانت ترسل لهم فى الخارج ، وهذه الشركة وان كانت مصرية ولكنها تتمتع بامتيازات تتناقض مع استقلال البلاد . كما كانت شركة قناة السويس هى مفتاح الاحتلال ، واحتمت هذه الشركة دائما بالاستعمار ، وتنكرت لمصر .

والواقع أن وضع شركة قناة السويس لانظير له فى جميع أنحاء العالم ، لا من الجهة الاقتصادية أو السياسية ، فمصر لم تتنازل عن قناة السويس الى الشركة

كما كان يبدو من تصرفاتها ، فحق سيادة مصر على القناة ثابت فى مواد الفرمانين المؤرخين فى ٢٠/١١/١٨٥٤ و ٥/١/١٨٥٦ ، كما أكد له كذلك اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤ . والثابت من هذين الفرمانين أن مصر لم تتنازل عن حق سيادتها على القناة ، كما أنها هى التى رسمت نظام الملاحة الدولية وحددت رسوم المرور . كما أن هذه القناة حفرت فى أرض مصرية وبسواعد المصريين وأموالهم ، أما عنصر الاستغلال والاغتصاب فواضح من أرباح قناة السويس ، ويكفى أن نبين أن أرباح القناة سنة ١٩٥٥ كان حوالى ٣٥ مليونا من الجنيهات ، بلغ نصيب مصر منها حوالى مليون جنيه ، والباقى تسرب الى المساهمين الأجانب فى انجلترا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من الدول الغربية .

٤ ــ تأميم القنـــاة

حتمية التأميم :

فى يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ أعلن جمال عبد الناصر تأميم قنـــاة السويس وانتقال جميع مالها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات إلى الدولة وقالها جمال صريحة مدوية (لقد كانت قناة السويس صرحا من صروح الاستبداد وصرحا من صروح الاغتصاب ــ واليوم أموالنا ردت إلينا ــ هذه حقوقنا عادت إلينا اليوم أممت قناة السويس) .

وما من شك فى أن قرار التأميم يعادل فى أهميته قرار جلاء الانجليز عن مصر. وقد استقبله الشعب بالارتياح والبشر ــ ووضع فى المرتبة ــ الثانية من مكاسب الثورة بعد الجلاء . على أن قرار التأميم لم يصدر إلا بعد دراسة فلم يكن خافيـــا مدى الأثر الذى ينجم من قرار التأميم . وما كان أولى الشأن بغافلين عما قد يصيب الغرب من ذعر وهوس عندما تأتيهم أنباء التأميم بل أن قادة مصر كانوا على يقين بأن الغرب سوف يقوم بأى عمل طائش يعيد إليه كرامته السلبية .

وقد وضع فى الاعتبار أن التدخل العسكرى قد يكون أحد هذه الأعمـــال الطائشة ولذا كان من المتعين أن نتريث مرة وأن نقلب الأمر مرتين وبدأ جمـــال عبد الناصر يدرس الموقف الداخلى والخـــارجى ــ وانتهى إلى تحرير وثيقتين أحدهما :

(تقدير الموقف من وجهة النظر المصرية فى حالة تأميم قنـــاة السويس) والأخرى (تقدير الموقف من وجهة النظر الغربية فى حالة تأميم قناة السويس) ــ والوثيقة الثانية تضمنت دراسة مستفيضة حول موقف الغرب وكافة الاحتمالات التى قد ينتهجها فى حالة التأميم بل أنها اشتملت على بيان دقيق القوات البريطانية التى يحتمل أن تستغلها انجلترا فى الاعتداء على مصر . سواء فى ذلك القوات المرابطة

بالدول العربية كليبيا والأردن أو ـ المرابطة فى قبرص ومالطة وعدن ـ وقد استبعدت مصر كما ورد بالوثيقة استخدام قواتها بليبيا والأردن لسببين أنه من الصعب أن تستخدم بريطانيا قاعدة عربية فى غزو ضد مصر ـ وثانيهما أن بريطانيا سوف تكون فى حاجة إلى هذه القوات حيث هى فى الأردن وفى ليبيا لحماية الوجود البريطانى فيهما أمام الغضبة الشعبية التى سوف تحدثها عملياتها العسكرية ضد مصر .

وأما القوات البريطانية المرابطة بقبرص ومالطة وعدن ـ فقد كانت مصر تعلم كل شىء عنها ـ عددها ومدى تسليحها وأماكن تجمعاتها حتى أسماء قادة وحداتها ـ وبحصول مصر على هذه الأسرار الحربية تأكد لها استحالة استخدام انجلترا لها فى عملياتها ضد مصر ـ لأنه فضلا عن كونها قوات غير مخصصة لعمليات الغزو فإن انجلترا تحتاج إليها للمحافظة على قواعدها العسكرية فى تلك البلاد . فكان لانجلترا على وجه اليقين حاملة طائرات واحدة فى مالطة ولواءان من المشاة وثلاث كتائب من فدائى المظلات لمقاومة جماعة (أيوكا) السرية بقبرص ولواء مشاه واحد وطرادان يقومان بأعمال ـ المراقبة فى عدن . وكلها قوات لها عملها المرسوم بتلك القواعد ومن العسير استخدامها فى عمليات ضد مصر و إلا كانت هزيمتها ساحقة ـ وخسائرها فادحة .

ولم يبق أمام انجلترا من قوات سوى قواتها التى تحتفظ بها داخل الجزيرة البريطانية ـ وأقربها الفرقة الثالثة التى تعسكر فى مدينة سوثهامبتون فى الجنوب وهى فى حاجة إلى تعزيز ووقت ليس بالقصير لتصبح على أهبة الاستعداد لتقوم بغزو بلد أضحى قوى الشكيمة شديد المراس .

فدائيون وطنيون :

ويهمنى أن أسجل بكل فخار دور الفدائيين والوطنيين العرب ضباطا ومدنيين وما قاموا به فى سبيل الحصول على المعلومات والبيانات الدقيقة التى حصلوا عليها بشأن القوات البريطانية .

فقد سافر بعض الضباط المصريين متخفين . إلى قبرص واتصلوا برجال حركة التحرير الوطنى وظلوا يستقصون أنباء تحركات القوات البريطانية بالجزيرة — كما كان هناك من يعمل فى مالطة وعدن والأردن وليبيا فى همة لا تعرف الكلل وفى ظروف يكتنفها الغيوم والأخطار من كل جانب وعندما تجمعت هذه الأنباء ووردت تلك المعلومات ولاح أن كفة مصر هى الراجحة قرر جمال عبد الناصر تأميم القناة — على أن تظل مفتوحة لمرور كل السفن وتحت إشراف الإدارة المصرية وأن يبقى باب المفاوضات مفتوحا كذلك حتى لا تتهم مصر بأنها تعوق الملاحة فى القناة أو أنها تركب رأسها بدون حق فيما قررته — وبذلك تكسب إلى جانبها الرأى العام العالمى وتضمن مؤازرته ، ولتحقيق ذلك طلب جمال عبد الناصر من رئيس [1] إدارة قناة السويس دراسة وضع قناة السويس دراسة شاملة من كل الوجوه وعما إذا كان فى الامكان إدارتها تحت إشراف الموظفين والمهندسين المصريين إدارة سليمة فى حالة انسحاب المرشدين الأجانب — وقد أجابه بعد أيام قليلة بأنه قام بما كلف به وتم وضع كافة التدابير التى تكفل حرية الملاحة فى القناة بسواعد المصريين وحدهم .

اعلان التاميم :

وعقب هذه الدراسة وذلك التنظيم — أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس فى يوم الخميس الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ . وفى ذات اللحظة التى بدأ الرئيس يلقى كلمته تسلمت الإدارة المصرية بموظفيها ومهندسيها هيئة قناة السويس .

وانسحب المرشدون الاجانب وقام بعملهم ربابنة مصريون بل كانوا خيراً منهم — ولم تقف الملاحة فى القناة ساعة واحدة كما اعتقد الغرب بل ظلت مفتوحة فى وجه جميع السفن دون استثناء وبذلك بطلت حجة من أقوى حجج الغرب — كما تحقق لمصر أحد اهدافها .

---

(١) المهندس محمود يونس

وأما فى المجال الدولى فإن مصر لم توصد بابها فى وجه الدول كسبا للوقت وللرأى العالمى فى آن . ويقول محمد حسنين هيكل .

(ومضت الأيام وهدف ايدن أن يكسب وقتا لاتمام استمداده العسكرى وهدف مصر هو نفس الهدف أن تكسب وقتا يصبح بعده استعمال القوة بعد استكمال الاستعداد بها أمراً صعباً ومستحيلامن وجهة نظر الموقف الدولى والرأى العام العالمى وقبل ايدن مؤتمر لندن الأول ليكسب وقتا . ولم يعترض اعتراضاً كبيراً على ذلك المؤتمر وكانت مصر هى الأخرى تكسب وقتاً وأصدقاء — وجاءت بعثة منزيس إلى مصر ولم يكن هدف البعثة أن — تتفاوض وإنما كان هدفها هو إنذار عبد الناصر وتخويفه — وحاول منزيس منطق الانذار والتخويف مع عبد الناصر لكن عبد الناصر رفض منطق التخويف والانذار — وتراجع منزيس .

وظل باب المفاوضات مفتوحا على مصراعيه — حتى وصل النزاع إلى الأمم المتحدة — الذى قرر إجراء مفاوضات ثلاثية بين محمود فوزى وزير خارجية مصر وسلوين لويد وزيرخارجية بريطانيا وكريستيان بينو وزيرخارجية فرنسا وتحدد لإجراء المفاوضات يوم ١٩٥٦/١٠/٢٩ بمدينة جنيف أى بعد أكثر من ثلاثة أشهر من إعلان قرار التأميم — وهو ما هدفت إليه مصر وقد لخص داج همرشولد حقيقة الموقف وقتئذ عندما قال لمحمود فوزى (لقد استكمل الانجليز استمدادهم العسكرى ضدكم لكن الوقت فات الآن فإن البخار الذى كان محبوساً كله تسرب وتم التنفيس عنه) .

والواقع أن انجلترا قد أتمت استمداداتها العسكرية ولكنها كانت تفتقد المبرر للتدخل العسكرى ضد مصر .

لأن الوقت قد فات — فالقناة مفتوحة — ومصر لم تفعل سوى ما هو حق لها .

فما هى الوسيلة التى يمكن أن يتذرع بها الغرب لتبرير تدخلهم العسكرى ؟

قبيل العدوان :

على أثر اعلان قرار التأميم ثارت انجلترا وفرنسا وأمريكا واحتجت الأولتان احتجاجا يحمل معنى التهديد ــ وألحتا باتخاذ أعنف الاجراءات ــ وجمد الغرب أموال مصر وأرصدتها الاسترلينية المودعة ببنوكها وتقدر بحوالى ١١٢ مليون جنيه ثم شرعت انجلترا وفرنسا بعد ذلك فى الضغط على مصر . وكثرت التحركات العسكرية التهديدية من إيدن ومولية ، كما نادت صحافتهما بضرورة استعمال القوة وقالت جريدة الصنداى تايمز فى ٢٩ يونيو سنة ١٩٥٩ (أنه قد تم وضع الخطط العسكرية التى ستتبع لحماية مصالح الدول الغربية) ونهجت باقى الصحف سواء فى انجلترا أو فرنسا أو فى أمريكا هــذا النهج ــ وخطب إيدن فى مجلس العموم البريطانى فهدد بأن (بريطانيا متفقة تماما مع بقية الدول حول الاجراءات الواجب اتخاذها فى حالة قيام مصر بعرقلة أعمال الجمعية سواء عن طريق الأمم المتحدة أو عن أى طريق آخر) .

وقد هلل الأعضاء المؤيدون منهم والمعارضون لهذا التصريح . وقال النائب روبرت موثى فرحا ، شكراً لله سوف لا تتحقق أحلام جمال عبد الناصر التى طالما رددها فى خطاباته ، وكانت انجلترا تحاول القيام بعمل جماعى وافق عليه كل من أمريكا وفرنسا للاعتداء على مصر بحجة حرية قناة السويس تمــاما كما فعلت سنة ١٨٨٢ عندما جرت فرنســا معها وعندما وصل الأسطولان الفرنسى والانجليزى إلى الاسكندرية عملت انجلترا وحدها ولـكن أمريكا لم توافقها على حل مسألة قناة السويس بالقوة . وقد ظهر ذلك واضحا من تصريح مستر دالاس وزير خارجية أمريكا عندما سأله أحد الصحفيين عن الاجراءات التى ستتخذها أمريكا إذا منعت مصر مرور سفن الدول المنضمة إلى جمعية المنتفعين بالقناة فأجابه (قائلا) : فى هذه الحالة ستحول السفن الأمريكية طريقها عن قناة السويس إلى جنوب رأس الرجاء الصالح وستساعد الولايات المتحدة الدول الأخرى التى تنوى القيام بنفس العمل بتقديم قروض وناقلات بترول ضخمة كما صرح كذلك بأن السياسة الأمريكية تجاه مشكلة قناة السويس تخالف السياسة الانجليزية والفرنسية

وأن الولايات المتحدة لاتوافق مطلقاً على استخدام القوة . وعلى أثر هذين التصريحين اللذين كانا لهما وقع سيء للغاية فى فرنسا وانجلترا كان يبدو إيدن حزينا مكتئبا ، ويصف ونستون تشرشل الابن حالته فيقول (وهنا فقد إيدن سيطرته على أعصابه ولم يعد يستطيع تحمل مسئولية القيادة مطلقا وصار يبدو دائما فى حالة من الاضطرابات والعصبية [1] الظاهرة) .

وعلى الرغم من ذلك فإن حزب المحافظين ظل يقتله الغيظ والحنق طوال الفترة التى تلت قرار التأميم حتى بدء العدوان . وكان بعض أعضاء الوزارة قد جرفهم حماس ايدن الأحمق ، فقام لاندسبورى يعلن ، بأن الأمة لم تجبن أمام الاختبار القاسى ، كما طالب بتلر (بألا يخشوا أمام القومية التى تقادم عهدها وأن يتبعوا إيدن فى تضحيته الشجاعة من أجل الحرية والتقدم وسيادة القانون) . على أنه كان هناك من عارض فكرة التدخل المسلح وجاهر به منهم مستر فيكتون وزير الدفاع ، لأنه يعتقد أن استخدام القوة غلطة كبيرة ، كما استقال مستر ناتنج وزير الدولة البريطانى احتجاجا على تدخل انجلترا العسكرى وحرر أكثر من أربعين عضوا من أعضاء حزب المحافظين مذكرة أعلنوا فيها سحب ثقتهم بالوزارة .

قد يكون هذا بعض ما كانت تضطرم به أروقة الوزارة البريطانية فى دوننج ستريت وفى المحافل السياسية بانجلترا قبل العدوان . أما فى فرنسا — فقد كان الموقف أكثر ثباتاً — ويكاد يكون من المقطوع به أن جميع أعضاء الوزارة — الفرنسية قد أجمعوا على استعمال القوة ضد مصر — حتى أن اجتماعات — الجمعية الوطنية الفرنسية أسفرت عن تأييد الوزارة فى قرار استعمال القوة — حتى أن أحد النواب صاح فى وجه رئيس الوزراء متسائلا ، هل ستنتظر الحكومة حتى تشرب خيول القوازق من نافورات قصر التويلرى قبل أن تتخذ قرارها ، ولكن بينو طمأنه وصرح أمام الجمعية الوطنية بأن الحكومة قررت التدخل وأن لديها ورقة جديدة رابحة ، وقد كانت هذه الورقة هى إسرائيل — إذ أن التقارب العاطفى بين فرنسا وإسرائيل

---

(١) من كتاب سقوط ايدن .

كان قد تم ـ قبل لقاء هذه الأخيرة مع انجلترا وتوصلت فرنسا معها على تحديد معالم المؤامرة وحوك خيوطها ورسمت معها الترتيبات التي يمكن بموجبها تنسيق الهجوم الاسرائيلى مع عمليه (١) « موسكتير » وكل ماكان مطلوبا بعد ذلك هو موافقة بريطانيا بالرغم من أنه كان هناك اقتراحا بأن تحاول فرنسا أن تمضى بهذه الخطة وحدها ولكن رجحت كفة من نادى بضرورة اشتراك انجلترا ـ لتنسيق العمل معها ـ خاصة وأنها كانت ماضية فى استعداداتها العسكرية .

وعلى أثر ذلك تقابل مسئولان (٢) فرنسيان مع ايدن وعرضا عليه خطة العدوان كما اتفقت عليها فرنسا مع اسرائيل .

ويفضح الكاتب الانجليزى ونستون تشرشل الابن خيوط هذه المؤامرة فيقول: (فقبل شهر من انعقاد الاجتماع الرباعى فى باريس (يقصد اجتماع) ايدن ولويد وموليه وبينو فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٦) ذهب ممثلان عن وزارة الدفاع الفرنسية إلى اسرائيل واقترحا على الحكومة الاسرائيلية والعسكريين اليهود تقديم المساعدة إلى اسرائيل فى حالة قيام الأخيرة بهجوم على مصر ولن تقتصر هذه المساعدة على تقديم الأسلحة والتأييد الدبلوماسى وعاد المبعوثان الفرنسيان إلى بلادهما يحملان خطة واسعة النطاق وكانت هذه الخطة تقضى بأن يقوم سلاح الجو الفرنسى بدعم الهجوم الاسرائيلى كما يقوم الأسطول الفرنسى بحماية الشواطىء الاسرائيلية من الهجمات المصرية على أن تدعم العملية الفرنسية اليهودية بتدخل أنجلو فرنسى مباشر يشكل هجوم جوى وانزال الجنود فى الأراضى المصرية .

وقد حدد موعداً لهذه العملية فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٥٦ وبعد بضعة أيام أبلغت فرنسا بن غوريون أن على اسرائيل أن تشرع فى عملياتها العسكرية فى أواخر أكتوبر فى وقت تكون الحكومة الأمريكية فيه منشغلة جداً بانتخابات الرئاسة بحيث لاتتمكن من القيام بأى عمل ، ولما أبدى بن غوريون

---

(١) من كتاب خبايا السويس لهيوتوماس .
(٢) جادية وشاول

شيئا من التحفظ حول موعد بدء العمليات قال المبعوث الفرنسى « أما أن يكون هذا التاريخ أو لا يكون هجوم أبدا » — ولما قال بن غوريون هل أعتبر هذا انذارا كان الجواب اذا . شئت فاعتبره كذلك » .

المؤامرة :

وبعد عدة اجتماعات من ممثلى الدول المتآمرة اتفقوا على خطة العدوان كتابة وهو ماعرف باتفاق (١) سيفر السرى ويكشف الكاتب هيو توماس النقاب عما تم بشأن اتفاق سيفر فيقول (وفى يوم ٢٢ أكتوبر وصل بن جوريون وديان وبيرتر فى طائرة الى مطار فيلا كوبلى — واستقل الجميع سيارة قطعت بهم ميلا أو ميلين الى فيلا سيفر احدى ضواحى باريس وانضم اليهم فيما بعد بينو وموليه ـ ثم اشترك فى المباحثات سلوين لويد وباتريك دين المستشار القانونى لوزارة الخارجية البريطانية وعند نهاية الاجتماعات التى عقدت فى سيفر أقسم الحاضرون جميعا على ألا يتحدث أحد بما وقع مادام الآخرون على قيد الحياة ،وأخذ بن غوريون صورة من الاتفاقية وقفل راجعا إلى بلده لتنفيذ ماجاء بها فماذا كانت تحوى الاتفاقية المسمومة الدنيئة من بنود ؟

تم اتفاق الدول المعتدية الثلاث على أن تقوم اسرائيل بهجوم شامل على مصر على أن تقوم فرنسا بالقاء كتيبة من رجال المظلات الاسرائيلية فى ممر متلا وتباشر حمايتها وتموينها — كما يتولى الطيران الفرنسى حماية المدن الاسرائيلية حتى لا تتعرض لغارات القاذفات المصرية — كما يقوم الأسطول الفرنسى بفرض ستار بحرى حول شواطىء اسرائيل حتى لا تتعرض الموانى الاسرائيلية لهجمات الأسطول المصرى وبعد ٢٤ ساعة من بدء تحرك جيش اسرائيل وجهت فرنسا وانجلترا انذاراً لمصر واسرائيل بسحب قواتها لمسافة ١٠ أميال على جانبى القناة وأن يمكنا انجلترا وفرنسا من احتلالها — بحجة أن الاشتباك العسكرى بين مصر واسرائيل سيعرقل

---

(١) احدى ضواحى مدينة باريس .

الملاحة فى القناه وأن التدخل لايقصد من ورائه سوى وقف القتال وحماية القناة وتمضى الاتفاقيه الحمقاء فى تصورها الساذج — فتقرر بأن على اسرائيل ان ترضخ للانذار الانجليزى الفرنسى وتقبله — أما مصر فهى لابد وان ترفضه لأنه يعنى احتلال جزء من أرضها — وعندئذ وفى مدى لايتجاوز اثنى عشر ساعة من توجيه الانذار يقوم الطيران البريطانى بتدمير جميع الطائرات والمطارات المصرية تدميرا كاملا ثم يعقب ذلك انزال جنود من رجال المظلات الانجليز والفرنسيين من الجو على مدينة بور سعيد .

على أن تتعاون انجلترا وفرنسا فى القضاء على الجيش المصرى الذى سيهب لمواجهة الاعتداء الاسرائيلى فى سيناء . وبذلك يسهل الاستيلاء على مصر ويوضح محمد حسنين هيكل كيف نفذت الخطة كما بينها هيوتوماس فيقول « ولقد نفذت لبن غوريون مطالبه كلها — فى الساعة الخامسة من مساء الأربعاء ٣١/١٠سنة١٩٥٦ بعد٤٨ ساعة من بدء تحرك اسرائيل انطلقت من قبرص ومن حاملات الطائرات البريطانية أول موجة من قاذفات القنابل فى طريقها الى مصر — وكانت الموجة الأولى مكونة من مائتين وعشرين طائرة . وقبل ذلك كان كل شىء قد تم لبن غوريون كما أراد . أرسلت فرنسا أسطولا جويا مكونا من ٦٠ طائرة من طراز ميستير المقاتلة وثلاثة أسراب من طراز ف ١٨٤ القاذفة بطياريهـــا الفرنسيين الرابطة فى المطارات الاسرائيلية وحمايتها كذلك قامت أربعون طائرة نقل من طراز نور أطلس أقلعت من مطار تيمبو فى قبرص فألقت كتيبة من المظلات الاسرائيلية فى عمرمتلا وتولت طول الوقت عملية تموينها وقامت البوارج الثلاث الفرنسية جورج ليجيه وسيركون وكيرسان بالوقوف أمام الشواطىء الاسرائيلية وقبيل ضرب الطائرات الانجليزية المطارات المصرية لم يكن يعتقد أحد من المسئولين بخطة التآمر الانجليزى الفرنسى حتى أن متحدثا بريطانيا رسميا أذاع بيان عقب تحرك اسرائيل قال فيه « أن بريطانيا لاتنوى أن تستغل الموقف الناشىء على الحدود بين مصر واسرائيل » [1] ويرجع لدى المسئولين لعدة اعتبارات جوهرية ان الاعتداء

(١) من تعليق محمد حسنين هيكل .

الاسرائيلي لايعتمد على أية مساعدة خارجية لأن التحرك الاسرائيلي يبدو أمرا لاعلاقة له بالنزاع من حول قناة السويس بين مصر من جانب وبريطانيا وفرنسا من جانب آخر — ذلك أن هذا النزاع وصل الى نهاية سلمية بقرارات مجلس الأمن الستة لضمان الملاحة فى قناة السويس وهى قرارات قبلتها مصر ولم تعترض بريطانيا وفرنسا عليها فى مجلس الأمن — ومن أن التحرك الاسرائيلي يبدو عملية كبيرة فان القوات المشتركة كما تشير تقارير الاستطلاع الأولى تبدو أكبر مما كان يتكرر على مراكز الحدود — هذا فضلا عن اسقاط كتيبة مظلات فى ممرمتلا — وإذا فهى عملية عسكرية واسعة النطاق اسرائيلية بحتة تستهدف تصفية حساب مصر واسرائيل تصفية نهائية وهى على الأرجح تعكس يأس اسرائيل من أن تؤدى أزمة قناة السويس بعد قرارات مجلس الأمن الستة الى غزو بريطانى فرنسى لمصر يسوى بين مايسوى حساب اسرائيل قبل مصر من غير أن تطلق هى رصاصة واحدة أو تريق قطرة دم ، لكل هذه الاعتبارات تحرك الجيش المصرى متجها الى سيناء للالتحام بجيش اسرائيل . وكان الاعتداء الاسرائيلي هو الوسيلة التى لجأ اليها الغرب ليبرروا تدخلهم المسلح فاذا يبقى ياترى بعد ذلك لم يتم تنفيذه من اتفاقيه سيفر ؟ .

هجوم اسرائيل :

وقبل الاعتداء بيوم قام بن غورين وأعلن فى الكنيست . بأن مصر ماضية فى تهديد اسرائيل وأن مصر هى عدو اسرائيل الحقيق وأن اسرائيل ستخوض المعركة هذه المرة فى داخل الأراضى المصرية وفى الساعة الرابعة من مساء اليوم الثانى الموافق ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ هاجم اليهود مصر واشتبكوا مع القوات المصرية الموجودة فى الكونتله ورأس النقب . ثم أنزل اليهود قوة أخرى من جنود المظلات بالقرب من « ممر متلا » ، وعندئذ وضح لمصر أن الهجوم اليهودى يهدف إلى الاستيلاء على قناة السويس وتطويق القوات — المصرية فى سيناء وفصلها عن القوات الرئيسية بمصر وعلى أثر ذلك اشتبكت قواتنا مع قوات العدو

فى كل القطاعات وخاضت القوات المصرية معارك كثيرة حامية الوطيس فى أبو عجيلة ورفح فى الشمال وشرم الشيخ فى الجنوب واستطاعت أن تكبد العدو خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد وقد اعترف موسى ديان بعنف مقاومة القوات المصرية على الرغم من قلتها ويقول فى كتابه يوميات فى معركة سيناء بأنه اضطر أثناء القتال الى تغيير قائد اللواء المدرع السابع لأنه عجز لمدة ٤٨ ساعة كامله عن اقتحام أبو عجيله كما قام سلاح الطيران بعمليات رائعة فى هذه الحرب وأفسد توقف هجوم اليهود وخطة انجلترا وفرنسا اللتان كانتا تتوقعان وصول اسرائيل الى القناة فى مدى يومين على الأكثر وعندئذ يأتى دورها ويبدآن فى الاعتداء كما بيناه ولكن مقاومة القوات المصرية كان شديدا مما عرقل خطط الدول المعتدية وقد اعترفت اذاعة تل أبيب فى ١٩٥٦/١١/١١ بهذه المقاومة وأذاعت هذا البيان (استطاع الطيران - المصرى أن يعرقل مواصلاتنا فى اليومين الأولين قبل تدخل طيران الحلفاء وانا لو لم نتفاهم مع بعض الدول التى لها مصلحة فى تدمير قوة مصر لما استطعنا أن ننجو من مخالب قوة الطيران المصرية الهائلة (١) وفضلا عن الأسلحة الثقيلة والدبابات والطائرات التى مدت بها انجلترا وفرنسا اسرائيل فان القوات المصرية قاومتها وكبدتها خسائر جسيمة على الرغم من أن قواتنا التى كانت موجودة وقتئذ فى سيناء كانت قليلة العدة والعدد لأنها تعتبر نقط ارتكاز والحراسة فحسب أما قواتنا الرئيسية فقد عبرت القناة ليلة ٣٠ أكتوبر لسحق اسرائيل ولم يكن يتصور ان هناك مؤامرة دنيئة قد دبرتها دولتان كبيرتان كانجلترا وفرنسا للقضاء على قوة الجيش المصرى وكمحاولة جديدة لاحتلال مصر . وفى اليوم الثانى وحسب اتفاقية سيفر وجهت هاتان الدولتان انذاراً ساذجا الى كل من مصر واسرائيل من مساء يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ تطلبان فيه وقف جميع الأعمال الشبيهة بالحربية فى البر والجو والبحر وسحب جميع القوات العسكرية إلى مسافة عشرة أميال من قناة السويس وأخيراً أن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية للمواقع

---

(١) من كتاب العدوان الثلاثى والضمير العالمى .

الرئيسية فى بورسعيد والاسماعيلية والسويس وهذا الشرط الأخير هو الهدف الذى قامت على أساسه مؤامرة العدوان الثلاثى .

والواقع أن هذا الإنذار لم يكن يعلم به سوى خمسة من الوزراء الانجليز هم لويد وبتلر وماكيلان واللورد سلزبورى وهيد وعندما أبدى أحد الوزراء تذمره من إيدن لاخفائه عنهم عزم انجلترا على الحرب أجابه إيدن بغطرسة « كثير من أعضاء وزارتى الحالية لم يسبق لهم أن اشتركوا فى وزارة حربية ، مما حدا بوزير آخر (١) ليقول لإيدن :

« حسنا يادولة الرئيس فنحن لم نكن نعلم أننا فى حالة حرب » ومعنى ذلك أن إيدن كان يتصرف دون أخذ رأى باقى وزرائه نتيجة للحقد الذى ملأ قلبه وبطبيعة الحال رفضت مصر هذا الإنذار بينما قبلته على الفور إسرائيل . وقال جمال عبد الناصر لسفيرى انجلترا وفرنسا أن مصر ستدافع عن نفسها ضد الاعتداء فى كل شبر من أرض الوطن وأصدر التعبئة العامة — فى جميع أنحاء البلاد وشرع جيش التحرير فى تكوين كتائب الشباب والمتطوعين تأهباً للدفاع ووزع السلاح على الوطنيين وباتت البلاد وهى تترقب الأحداث المقبلة واجتمع بعد ذلك جمال عبد الناصر مع قيادة الجيش وصدر الأمر بسحب القوات المصرية من سيناء إلى مصر للدفاع عنها ولانقاذ الجيش من المكيدة المدبرة بعد أن وضحت نيات الاستعمار وظهرت طائرات انجلترا وفرنسا وأسطولهما فى الميدان وخلال يومى ٣١ أكتوبر وأول نوفمبر عاد الجيش المصرى سليما بعد أن نجح فى الانسحاب وخرج من الكمين المعد له .

ويقول محمد حسنين هيكل « بعد ساعتين من الغارة البريطانية كانت القيادة المصرية قد اتخذت قرارها التاريخى بالانسحاب فوراً من سيناء وبأن تتجمع كل القوات المصرية شرق قناة السويس لمواجهة المعركة الأصلية أمام انجلترا وفرنسا .

---

(١) ماكلويد .

٥ ـ كفاح الشعب يهزم ثلاث دول

الاعتداء الآثم

بدأت الطائرات البريطانية يوم ٣١ أكتوبر تغير على القاهرة وأصابت الكثير من المبانى ، منها مبنى الكلية الحربية ومطار القاهرة الدولى ومستشفى ألماظة وجميع المطارات العسكرية كما أغارت على مدن القنال وظلت الطائرات البريطانية بعد أن انضم اليها سلاح الطيران الفرنسى تضرب القاهرة ومدن القنال والاسكندرية ضربا شديدا لمدة خمسة أيام أسقطت القوات المصرية خلالها مايقرب من ثمانين طائرة .

وفى ٥ نوفمبر وصلت أسراب كبيرة من الطائرات الانجليزية والفرنسية إلى بور سعيد وركزت الضرب على منطقة الجميل ومطار الجميل ومنطقة الرسوة وفى حوالى الساعة الخامسة وخمس عشرة دقيقة بدأت فى انزال جنود المظلات فى منطقة الجميل وفى المطار اشتبكت القوات المصرية مع القوات الهابطة وكان من أثر ذلك ان اكتشف العدو مواقع المدافعين المصريين فركز الضرب عليها وعزلت هذه المنطقة عن مدينة بور سعيد واستطاع العدو الأسف أن يبيد جميع القوات المصرية التى كانت تدافع عن المطار أما كتيبة المظلات الانجليزية الثالثة التى هبطت فقد تحصنت بالمطار وكان عددهم حوالى ١٢٠٠ جندى وضابط أما جنود كتيبة الفرنسيين فقد نزلوا قرب منشئات المياه جنوب المدينة وكان عددهم حوالى ٥٠٠ جندى وسيطروا على المصدر الوحيد الذى يمد المدينة بالمياه ويروى قائد منطقة بور سعيد اللواء سعدى نجيب سير هذه المعارك فيقول : « ومن منطقة الجبانات خط الدفاع الرئيسى كان لابد ان تتحرك قوات لاستعادة المطار رغم أن الطريق الى المطار ضيق ومكشوف ولكننا كانت عملية يمليها الموقف وتحركت سريتان قوامها ١٥٠ جنديا لاستعادة المطار وتم ضرب المطار بأكبر كمية من النيران وقوات العدو تحاول أن تتقدم لتشتبك فى قتال متلاحم معنا رغم الخسائر الشديدة التى نزلت بها وتقدمت القوات بالقرب من المطار وبدأت الضرب بالأسلحة

الصغيرة والرشاشات وخسر العدو نصف قواته ومن المكان الذى تحصنت فيه القوات ظلت محصورة فيه ولم تستطع التقدم واستشهد قائدها وفى الساعة الثانية ظهراً أسقط العدو كتيبتى مظلات فى نفس المنطقة وحاول التقدم الى المدينة ولكنه فشل تماما ولم يستطع السيطرة على الطريق المؤدى اليها ، وكان العدو قد أسقط فى نفس اليوم الساعة الثامنة صباحا بعض الدمى والمهمات فى منطقة الرسوة ، بقصد الكشف عن مواقع القوات المصرية ليمهد لاسقاط قوات من جنود المظلات وكان العدو يهدف الى السيطرة على الطريق الى الاسماعيلية وعلى مداخل المدينة من الجنوب بجانب تشتيت قواتنا فتحارب من الامام فى الجبل ومن الخلف فى الرسوة ولكن فوتنا هذا الغرض على العدو فقد كانت الخطة الدفاعية للمدينة تضع فى اعتبارها أن العدو سيحاول تنفيذه رغم ان القوات التى وضعت فى الرسوة كانت أقل من القوات الموجودة بمنطقة الجبل لأن هذه الأخيرة معرضة للهجوم البحرى والجوى واما منطقة الرسوة فهى معرضة للهجوم الجوى فقط — وأخيرا نجح العدو فى السيطرة على منطقة الرسوة وبدأت القوات العربية فى الاستعداد للقيام بهجوم مضاد لاسترداد كوبرى الرسوة وصدرت الأوامر من بور فؤاد بالتجمع ولكنها لم تستطع عبور قناة السويس بعد أن اكتشفتها طائرات العدو الذى قام بعملية اسقاط أخرى فى بور فؤاد وتمكنوا من النزول بعد خسائر جسيمة لحقت بهم ولكن المدينة قاتلت ببسالة حتى اضطر القائد الفرنسى إلى التهديد بتدمير المدينة تدميراً كاملا إذا لم تتوقف النيران ورغم الخسائر الكبيرة من الجانبين فقد استمر الضرب .

وفى الساعة الخامسة مساء اتصلت القيادة الانجليزية بالقائد المصرى تطلب منه التسليم ورفضت القيادة فى بور سعيد ثم تحول طلب التسليم الى طلب وقف القتال ليتمكنوا من جمع قتلاهم وجرحاهم ورفضت القيادة المصرية هذا الطلب أيضا . وكان الموقف فى نهاية يوم ٥ نوفمبر كالآتى : قوات العدو فى الجبل عاجزة عن التقدم ، وقواته فى الرسوة عاجزة عن التقدم أيضا ، والقتال مازال عنيفا فى بور فؤاد ، والضرب الجوى بصفة مستمرة على المدينة والخسائر فى ازدياد .

عربات الاسعاف دمرت بأجمعها ، المستشفيات ملأى بالقتلى والجرحى ، المرافق الحيوية كالمياه والكهرباء دمرت تماما .

وفى فجر يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٦ بدأ سلاح طيران العدو فى ضرب المدينة كالعادة ، ثم أعقب ذلك قصفها من البحر تمهيدا لعمليات الانزال البحرى وتسببت نيران الأسطول فى تدمير حى المناخ بأكمله وحرقت منطقة الكباين عن آخرها ، ودمرت المنازل بعمق ثلاث شوارع من البر ، وكانت الطائرات تضرب المدينة بما فيها من مستشفيات انتقاما من المدينة الباسلة التى عاقت خطط قادة العدوان ، وكانوا يقدرون لاحتلالها أربعا وعشرين ساعة فقط ، ثم أنزل العدو بعض الجنود والدبابات فى القوارب البمابع [1] حوالى الساعة الحادية عشر صباحا واستطاعت القوات المصرية أن تصيب عشرة قوارب برمائية ولكن العدو تمكن من الوصول إلى منطقة الكباين وعندما حاولوا الدخول إلى المدينة من ناحية حى العرب فشلوا نظرا للمقاومة الشديدة التى قابلهم بها الأهالى والفدائيين وأصابوا سبع دبابات منها .

وعندما فشل العدو فى دخول بور سعيد عن طريق حى العرب اتجه إلى حى الافرنج وتمكن فريق من عبور المدينة والاتصال بباقى القوات فى الرسوة وكانت الساعة حوالى الرابعة مساء ولم يستطع احتلال المدينة ومما يؤسف له انه منذ بدأ الاسطول فى ضرب المدينة والجاليات الأجنبية الانجليزية والفرنسية تساعده من الداخل وتطلق النار على الوطنيين والأهالى والجنود وكان لضرب الجاليات الأجنبية أكبر الأثر فى تسهيل مهمة القوات المعادية — وكانت القوات المسلحة المصرية تقاتل جنبا إلى جنب مع قوات المقاومة الشعبية التى سهرت للدفاع عن المدينة فى الشوارع والمنازل ومضى يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٦ والعدو لم ينجح بعد فى احتلال المدينة . وباتت هذه الليلة وليس بها أى جندى من جنود العدو وجاء يوم

---

(١) قوارب لحمل الدبابات .

٧ نوفبر وعلى الرغم من صدور أمر وقف اطلاق النار اعتبارا من الساعة الثامنة صباحا فان العدو استمر فى ضرب المدينة للسيطرة عليها ولكن فرق المقاومة صمدت له وقاومته .

وفى يوم ٨ نوفبر سنة ١٩٥٦ أصدر قائد القوات المصرية أمر بالانسحاب بناء على تقديره للموقف واستطاعت القوات ان تخرج من المدينة دون أى عقبات فالعدو لم يسيطر على المدينة بعد ، وتركت مهمة الدفاع عنها لقوات المقاومة الشعبية ورجال المقاومة المسلحين من الجيش الذين صدرت اليهم الأوامر بالانضمام لقوات الشعب . ورغم انسحاب القوات المصرية فقد حققت نصرا ذاقت مرارة طعمه القوات المعادية لأول مرة بعد أن عوقت الخطط التى وضعت للعدوان وان كان تقدير العدو للموقف وضخامة القوات التى يهاجمون بها ومعلوماتهم عن المدينة والمنطقة التى لم يمض على مغادرتهم لها أكثر من أربعة أشهر جعلهم يعتقدون أن العملية لن تستغرق أكثر من ٢٤ ساعة ولكن استمرت القوات المصرية أكثر من ثلاثة أيام تقاوم ببسالة وشجاعة .

وكانت قواتنا تواجه طبقا لمعلومات الكتاب الأبيض الذى أصدرته الحكومة الانجليزية قوات تتكون من قوات انجليزية برية تضم اللواء ١٦ مظلات واللواء الثالث من الندائيين البحريين وكتيبتى دبابات سينتوريون وقوات برية فرنسية تضم مجموعة لواء مظلات ولواء فدائيين بحريين وكتيبتى دبابات وبعض قوات الفرقة السابعة السريعة الميكانيكية وأطقم قتال خاصة (عربات مدرعة مركب عليها هاونات ثقيلة) علاوة على خمسمائة طائرة انجليزية من الطائرات المقاتلة ومن ناقلات الجنود ومائتى طائرة فرنسية وأما الأسطول البريطانى فكان يتكون من ٥ حاملات طائرات وخمس طرادات واثنى عشر مدمرة وعشرة سفن حاملات جنود ودبابات وسبع غواصات عدا ثلاث مدمرات وبارجة وحاملة الطائرات وبعض السفن المساعدة التى اشتركت فى الهجوم على السويس من البحر الأحمر .

وأما الأسطول الفرنسى فكان يتكون من بارجة واحدة وطرادين وأربع

مدمرات وثمان فرقاطات و٣ غواصات ، هذه هى أخبار معارك بور سعيد الحربية الأولى التى وقعت على حدود المدينة رواهــا اللواء سعدى نجيب كما شاهدها باختصار وكانت هناك أعمال بطولية أخرى فى الجو والبحر والبر ومن وراء ذلك كله ما قام به أهالى بور سعيد من كفاح ونضال ومن مقاومة مستميته استمرت أربعين يوما دون توقف .

مؤازرة الضمير العالمى لمصر :

قبل أن نتحدث عن الأعمال البطولية التى قام بها المصريون فى البر والبحر والجو يتعين علينا أن نلمح فى عجالة إلى موقف دول العالم عامة — والدول العربية على وجه الخصوص من العدوان الآثم .

فمنذ عزمت انجلترا على الاعتداء وهى تعمل جادة على عزل مصر عن الدول العربية وباقى الشعوب المؤيدة لها ، وكانت تلجأ الى أسلوب معين مع كل دولة فبالنسبة إلى العراق ضاعفت نشاط مكاتب الدعاية لحلف بغداد فى العواصم العربية ، وبالنسبة لسوريا بدأ الانجليز يهددونها باحتلال فرنسى جديد اذا استمرت فى تأييدها لسياسة مصر . وأنزلوا بالفعل قوارب فرنسية فى قبرص كنوع من الضغط . وبالنسبة الأردن افتعلوا حوادث على حدودها مع اسرائيل وحشدوا قوات عراقية على حدودها المتاخمة للعراق . وبالنسبة لبنان أوعزوا إلى القوميين السوريين بأن يندسوا فى المظاهرات التى قامت فى بيروت تأييدا لحق مصر فى قناة السويس ، وذلك لتشويه مظاهر هذا التأييد ، ثم قاموا باحراق عربة أزهار كانت تحمل اسم مصر تتقدم المظاهرات . وبالنسبة للكويت عمدوا إلى اخماد جميع الحركات التى قامت تأييدا لمصر واستعملوا الشدة فى ذلك . ثم أجرى الانجليز بعد ذلك اتصالات مع الملوك العرب لاقناعهم بأن استمرارهم فى تأييد مصر تعنى تهديد مصالحهم . وخاصة البترولية منها ، كما أشيع عن وجود اتفاق سرى بين بريطانيا وروسيا تتعهد فيه بريطانيا بالموافقة على حل مشكلة ألمانيا بشكل يتلاءم ووجهة النظر الروسية مقابل

أن توافق روسيا على أن تطلق بريطانيا يدها فى الشرق الأوسط [1] .

هذه هى جهود بريطانيا لعزل مصر عن العالم الخارجى ، فماذا كان الموقف بعد ذلك ؟ وما أثر هذه الجهود فى تلك الدول ؟ مما لاشك فيه أن مصر قد كسبت عطف جميع الدول بلاستثناء عدا الدول المعتدية بطبيعة الحال — وتجلى ذلك عندما قدم داج همرشلد السكرتير العام للأمم المتحدة استقالته استنكارا منه للعدوان ، وهذه الاستقالة وإن كان المجلس قد قرر عدم قبولها الا أنها دفعت بعض الدول المحبة للسلام وعلى رأسها يوغوسلافيا بأن تطلب عقد اجتماع عاجل لهيئة الأمم المتحدة التى اجتمعت وأصدرت فى ١٩٥٦/١١/٢ بأغلبية ٦٤ دولة قرارا بوقف اطلاق النار فورا وانسحاب القوات الأجنبية من مصر وعودة قوات اسرائيل إلى ماوراء خطوط الهدنة

وفى اليوم التالى لصدور هذا القرار تصدعت الوزارة البريطانية ، وكان أول مظهر لها استقالة وزير الدولة البريطانى انطونى [2] ناتنج .

أما الدول العربية فلم تلتفت إلى محاولات بريطانيا أو تخشى من تهديداتها وانما أظهرت شعورها القوى ، وهب الوطنيون فى كل مكان يعبرون عما يختلط فى قلوبهم من غيرة وحمية تعدت إلى العمل الايجابى — فدمر الوطنيون فى سوريا أنابيب البترول الممتدة من كركوك إلى طرابلس وبانياس ، ومنعت تدفق البترول إلى شاطىء البحر حيث كان يشحن إلى الدول الغربية ، وامتنع العمال السوريون من شحن ناقلات البترول البريطانية .

ومن لبنان خرجت المظاهرات الصاخبة تعلن تأييدها لمصر وألقى الوطنيون القنابل على الأندية البريطانية ، ومنها نادى سان جورج ونادوا بمقاطعة المعتدين والتطوع لمساعدة المكافحين فى مصر — وفى العراق أتلف الوطنيون أنابيب

---

(١) كمال رفعت فى ١٩٥٩/١١/٢ .

(٢) وقد كشف النقاب عن أسرار المؤامرة فى مذكرات نشرت أخيرا .

البترول فى كركوك وغيرها وقامت المظاهرات ونادت بسقوط نورى السعيد وطلب الوطنيون اعلان الحرب فورا على اسرائيل والدولتين الغربيتين المعتديتين :

وأما فى الأردن فقد قام الشعب كذلك بنسف أنابيب البترول المارة بها ومنعت وصولها إلى حيفا ، وامتنع العمال من تزويد الطائرات البريطانية بالوقود وطالب الشعب بالتطوع فى جيش مصر لمحاربة المعتدين ونادوا بقطع العلاقات مع دولتى فرنسا وانجلترا .

وفى باقى الدول العربية تجلى نفس الشعور — فى السعودية والكويت وفى اليمن وفى البحرين وقطر والمغرب وتونس وليبيا وعدن والسودان وظهرت قوة القومية العربية بأجلى مظاهرها وتجلت وحدة العرب مما كان له أكبر الأثر فى المجال الدولى ، ورأى الاستعمار أنه يحارب تسعين مليونا من العرب ، وأن مصالحه أصبحت مهددة والموارد التى كان يستمد عليها من الدول العربية قد قطعت ، وخاصة البترول الذى يعتبر الشريان الحيوى بالنسبة للدول الغربية قاطبة . الأمر الذى هدد الصناعة فى أوروبا بأكلها بالتوقف وشعر الغربيون بفداحة الخسارة التى حاقت بهم من جراء السياسة الخرقاء التى جرهما اليها المعتوهان ايدن وموليه .

ولم تكن الشعوب العربية وحدها التى آزرت مصر ، وانما آزرها كذلك جميع الشعوب الحرة فى جميع أنحاء العالم ، فى الصين . واليابان . والهند ، وباكستان ، وأفغانستان ، وأندونسيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا ، وغيرها .

وأما روسيا فقد وجهت انذارها المشهور فى ١٩٥٦/١١/٥ إلى كل من فرنسا وانجلترا ، وهددت بأنها ستضربها بالصواريخ الموجهة أن لم يوقفا عدوانها على مصر . وقال بولجانين رئيس وزارة روسيا فى الانذار : (ان بريطانيا وفرنسا تعرضان أنفسها لاعتداء دولة أقوى منها بكثير) . ولم يقتصر هذا الشعور على الدول الحرة والمحبة للسلام فحسب بل ان شعبي الدولتين المعتديتين فرنسا وانجلترا استنكروا هذا العدوان ونظرا اليه بامتعاض وازدراء شديدين .. مما كان له أكبر الأثر فى الاطاحة بوزارة ايدن وموليه بعد ذلك .

المعارك البحرية

زوارق الطوربيد :

فى الرابع من نوفمبر ، بينما كانت زوراق الطوربيد المصرية تقوم بجولة تفتيشية على حدود ساحل البحر الأبيض لاح لها الطراد الفرنسي الكبير (جان بارت) وكان يحاول انزال دفعة من الجنود الفرنسيين فى اتجاه بحيرة البرلس ، وعلى بعد ١٠ (عشرة كيلومترات) منها فتصدت لها ثلاثة زوارق طوربيد من قوة البحرية المصرية ، وكانت الساعة حوالى العاشرة صباحا وأطلق الزورق الأول — وكان تحت قيادة الصاغ البحرى جلال دسوقى — طوربيدين عليها ، ثم أعقبه الزورقان الآخران فأصيب الطراد اصابة مباشرة أحدثت به عدة ثغرات وبدأ ينشطر نصفين وأرسل استغاثات لاسلكية الى قيادته يستنجد بها . وعندما بدأ الطراد يغوص بمن فيه وكانوا يقدرون بحوالى ألف ضابط وجندى قفلت الزوارق الثلاثة عائدة إلى قاعدتها فخورة منتصرة ، وما لبث أن لاح فى الجو سرب من طائرات العدو جاء على أثر الاغاثه اللاسلكية التى تلقتها ، ونشبت بينها وبين الزوارق معركة رهيبة وتمكنت الطائرات من اغراق زورق واحد ، واستشهد فى هذه المعركة الخالدة الأبطال جلال دسوقى ، وجول جمال . واسماعيل عبد الرحمن وصبحى نصر ،وعلى صالح صالح ، وعادل مصطفى ، ومحمد ياقوت عطية ، وجمال رزق الله ، ومحمد البيومى زكى ، ومصطفى طبالة .

ومن مفارقات القدر أن الزوارق الثلاثة عندما خرجت للاستكشاف فى مساء يوم : ١١/٣ لم يكن مقدراً للصاغ جلال دسوقى أن يذهب مع من ذهب لأداء هذا العمل الكبير ، ولكنه عندما رأى الزوارق تتحرك قفز فى أحدهما ليشارك زملاءه شرف قتال العدو ، وكأنه كان يتعجل حكم القدر ، وقاد جلال دسوقى اخوانه فى معركة البرلس واستشهد مع من استشهد من الأبطال بعد أن انتصروا فى أروع معركة من معارك البطولة والفداء .

وقد اشترك فى هذه المعركة ضابطان من سوريا الشقيقة هما : جول جمال ، ونخله اسكاف ، أما جول فقد لقى وجه ربه ، وأما نخله فقد تلقفه البحر المائج بعد غرق زورقه وظل احدى عشرة ساعة يصارع الأمواج "عاتية"ويقاوم قسوةالرياح وبرودة المياه حتى وصل الى شاطىء البرلس ليروى للملأ قصة رائعة من قصص البطولة .

وعلى أثر غرق الطراد الفرنسى جان بارت بمن عليه ـــ هاجمت طائرات العدو قطع الأسطول المصرى بميناء الاسكندرية هجوما عنيفا لتدميرها، ولكن مدفعيتنا المضادة للطائرات لم تمكنها من تحقيق غرضها وأسقطت بعضها .

فدائية مدمرة مصرية :

وعندما وضح للمصريين بأن اسرائيل أعلنت الحرب فعلا على مصر بتوغل جيوشها فى سيناء وبفتح عدة معارك على طول الجبهة ـــ رأت قيادة الجيش أن فى الامكان دحر اسرائيل وتدمير قواتها والاستيلاء عليها فى مدى مالا يزيد على أربعة أيام ـــ ومن ثم فقد ألقت بقوات كبيرة لمواجهة جيوش اسرائيل وضربت حصارا بحريا عليها ، وبدأت الطائرات تقصف استحكاماتها والمناطق العسكرية فى تل أبيب وحيفا وغيرها ، وخلال هذه المعارك التى وقعت فى اليومين الأولين من الاعتداء كانت هناك مدمرة مصرية تتجه الى ميناء حيفا ، وفى حوالى الساعة الثالثة من صباح يوم ٣١ أكتوبر وقفت المدمرة ابراهيم فى اتجاه المينا وضربتها بالمدافع فأصابت جميع المنشآت العسكرية وأحالت الميناء الى شعلة من النيران ، وبعد أن قامت بالمهمة الجريئة التى كلفت بها قفلت راجعة وأثناء عودتها اعترضتها بعض قطع الأسطول الفرنسى الذى أخذ على عاتقه حماية شواطىء اسرائيل طبقا للاتفاقية الدنيئة التى وافقت عليها الدول الثلاث المعتدية ، ولم تكن مصر قد علمت بهذه الخيانة بعد ، والا لكانت غيرت خطتها من أساسها ، وسرعان ما حاصرت قطع الأسطول الفرنسى المدمرة المصرية وطلبت منها التسليم فرفض قائد المدمرة

ودارت معركة غير متكافئة بين مدمرة مصرية وثلاث مدمرات وبارجة فرنسية عدا الطائرات التي استدعتها القيادة الفرنسية للمساهمة في المعركة ، ثم عادت القيادة الفرنسية تطالب المدمرة بالتسليم فرفضت للمرة الأخيرة واستؤنف القتال وأحدق العدو بها من كل ناحية ولم يتمكن من الاستيلاء عليها لأنها آثرت أن تنتحر من أن تستسلم .

بطولة سفينة :

كانت بشرم الشيخ — وهي قرية تقع عند ملتقى خليج العقبة بخليج السويس — قوة مصرية قليلة العدد والعدة عندما وقع الاعتداء الصهيوني ، ونظرا لأهمية هذه القرية وموقعها الاستراتيجي رأت القيادة تعزيزها ببعض القوات وكذلك بالسلاح والعتاد ، وكان من بين السفن التي رتبت للقيام بهذا العمل سفينة التدريب دمياط ، وفي يوم أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ أثناء توجهها إلى شرم الشيخ قابلتها بعض قطع الأسطول الانجليزي بالبحر الأحمر وطلبت من السفينة التسليم ، لرفض قائدها ولما كان هذا الرفض معناه غرق الباخرة وموت من عليها للبون الشاسع بين قوة الأسطول الانجليزي وسفينة تدريب بسيطة . فقد عاد الأسطول الانجليزي وأنذر قائد الباخرة بأنه سيأمر بضربها فورا ان لم يستسلم . وللمرة الثانية رفض القائد المصري أمر التسليم ، ودارت المعركة العجيبة ، ومع ذلك فقد تمكنت السفينة دمياط من إصابة سفينة للأعداء وظلت تقاوم مقاومة المستميت حتى غرقت وغرق معها قائدها البطل الصاغ محمد شاكر حسن [1] الذي ظل طيلة المعركة فوق ظهرها يصدر الأوامر ويدير المعركة ببسالة وبطولة تفوق الخيال .

الزوارق المصرية تهزم الأسطول الانجليزي

حدث أثناء العدوان أن توجهت بعض قطع الأسطول الانجليزي نحو السويس في يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ لانزال بعض الجنود البريطانيين تمهيدا للزحف شمالا

---

(١) استشهد كذلك في هذه المعركة اليوزباشي مدحت الزيات .

لتلاقى مع القوات الأخرى التى تحاول النزول فى بورسعيد وبورفؤاد ، وبذلك تحاصر القوات المصرية فى القناة كما تكون بذلك قد قطعت خط الرجعة على الجيش المصرى فى سيناء . ولما لاحت قطع الأسطول الانجليزى بالقرب من ميناء السويس أطلقت عليها مدفعية الساحل النيران وتصدت لها بعض زوارق الطوربيد ودارت معركة رهيبة لم يتوقعها الأسطول الانجليزى الذى لم يكن يتصور أن مصر أصبح لها قوة بحرية مرهوبة ، وظلت الزوارق المصرية الصغيرة تحوم وتناور حول البوارج والمدمرات الانجليزية العملاقة تطلق عليها « الطوربيدات » الجبارة حتى تمكنت من اغراق ثلاث قطع بريطانية منها حاملة للجنود ، وولت باقى قطع الأسطول الانجليزى الفرار — تجرجر أذيال الهزيمة وانتصرت البحرية المصرية الناشئة فى هذه المعركة على أكبر أسطول فى العالم وفشلت محاولة احتلال مدينة السويس وانهار ركن كبير من أركان خطة العدوان .

هذه هى الأعمال المجيدة التى قامت بها البحرية المصرية أثناء العدوان الثلاثى أما السلاح الجوى فانه ساهم مساهمة فعالة فى المعركة وعرقل تقدم قوات العدو وأنزل بهم خسائر جسيمة اعترفوا بها فى تصريحاتهم واذاعاتهم ، وقدم السلاح الجوى خدمات جليلة أثناء المعركة ستظل ذكراها حية فى قلوبنا .

مخالب القوة المصرية :

منذ الأنباء الأولى للمعركة والسلاح الجوى كان أول قوة مصرية هبت لتقابل العدوان وتصارعه ، وأصلت قوات اسرائيل المهاجمة فى سيناء بسيل من القنابل المدمرة لم ينقطع طوال النهار والليل مما عاق تقدمهم وحطم الكثير من معداتهم ونجداتهم وكانت خسائرهم من غارات الطائرات المصرية أضعاف خسائرهم فى المعارك المفتوحة فى سيناء.

ولم يقتصر السلاح الجوى على ضرب جيوش العدو وخطوط مواصلاته فى سيناء فحسب بل ألقى على اسرائيل ذاتها الآلاف من القنابل المدمرة الهادمة والحارقة ، ولم تسلم مدينة أو قرية فى اسرائيل منها. وخاصة الأهداف والمطارات

العسكرية حتى أن السلاح الجوى حطم مايقرب من ثلث سلاح الطيران الاسرائيلى فى مدى يومين ، أى فى يومى ٣٠ و٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ وكانت الغلبة لسلاح الجوى فى كل معركة اشترك فيها مع قوات اسرائيل ، ولم يذق نسور مصر الابطال هذين اليومين . أى طعم للنوم أو الراحة . وكان الطيار المصرى ينزل من طائرته ليركب طائرة أخرى مجهزة للقتال دون أية راحة [1] ولم ينسحب سلاح الطيران من المعركة الا بعد أن انكشفت خطة العدوان وبدأت فرنسا وانجلترا هجومها الغادر على مصر » .

وعندما وضحت الرغبة المبيتة للقضاء على الجيش المصرى قامت القيادة المصرية بسحب جيوشها من سيناء سالمة . وأنشأت على وجه السرعة مطارا جديدا بجوار قليوب فى الطريق الزراعى بين مصر والاسكندرية وجعلته قاعدة لسلاحها الجوى عوضا عن المطارات العسكرية الأخرى التى كان يعرفها الانجليزى جيدا وكان المصريون يتوقعون مهاجمة الأعداء لها .

ونقلت جميع الطائرات الى المطار السرى الجديد . وقامت القيادة بعد ذلك بصنع الكثير من هياكل الطائرات الخشبية وتركتها معروضة فى المطارات القديمة المعروفة وعندما أغارت طائرات الأعداء على مدن القنال والقاهرة كانت المطارات الحربية ضمن الأهداف الهامة التى وضعوها نصب أعينهم فضربوها ضربا محكما وخاصة عندما رأوا الهياكل الخشبية بأرض المطار .

ولما تم لهم تدميرها اعتقدوا خطأ بأنهم قضوا على قوة السلاح الجوى المصرى الرهيب الذى شكت من قوته اسرائيل لحليفتيها ، وكان من أثر هذه الشكوى أن مدتها فرنسا بقوة من السلاح الجوى الفرنسى قوامها سبع وتسعون طائرة من طراز مستير ، ويكفى أن نستشهد على قوة السلاح الجوى المصرى بأقوال كبار المسئولين فى اسرائيل فيقول شمعون يونس مدير عام وزارة الدفاع الصيهونى فى

(١) من حديث لقائد الجيش .

١٩٥٦/١١/١٧ بأن معركة سيناء برهنت على ان اسرائيل ينقصها سلاح جوى وينقصها قواعد جوية وشبكات رادار وبدون ذلك لايستطيع أن يتوازن مع السلاح الجوى المصرى » .

كما قرر مصدر آخر بأن غارات الطائرات المصرية على مطار رافات دافيد قد أحدثت أضرارا بالغة بالمطار وشبت حرائق كبيرة ودمرت عددا كبيرا من الطائرات ، وقد نقل عدد من الطائرات المحطمة إلى ميناء حيفا على ظهر احدى القطارات وكانت عربات القطار مغطاه بالمشمعات .

كما أذيع فى تل أبيب فى ١٩٥٦/١١/١١ البيان الرسمى التالى ..

(استطاع الطيران المصرى أن يعرقل مواصلاتنا فى اليومين الأولين قبل تدخل طيران الحلفاء وانا لو لم نتفاهم مع بعض الدول التى لها مصلحة فى تدمير قوة مصر لما استطعنا ان ننجو من مخالب القوة المصرية) .

هذه هى تصريحات كبار المسئولين فى اسرائيل عن قوة السلاح الجوى المصرى وهى أكبر دليل على ماقام به هذا السلاح من أعمال مجيدة .

الكفاح الشعبى فى بور سعيد :

بعد أن قامت القيادة العامة للجيش المصرى بسحب جنودها من سيناء ونجحت فى اعادة قواتها إلى مصر سالمة ـــ سدت قناة السويس فى يوم ١٩٥٦/١١/٣ وقفلتها بأن أغرقت خمس سفن عند مدخل القناة ببور سعيد وبذلك استحال على البوارج والمدمرات المعتدية من استعمالها للوصول الى الاسماعيلية واحتلال منطقة القناة طبقا للخطة التى وضعوها ولم تقع القيادة المصرية فى الخطأ الذى وقع فيه عرابى سنة ١٨٨٢ اعتمادا على وعد دليسبس الذى أعطاه لعرابى بعدم السماح لانجلترا باستعمال القناة وقد أحجم عرابى عن قفل القناة لئلا يغضب الدول الغربية .

وكان من جراء هذا الخطأ هزيمة مصر . ولكن قيادة الجيش المصرى

فى سنة ١٩٥٦ لم تتردد فى اغلاق القناة — ولم تقع فيا وقع فيه عرابى من قبل .

ثم تفرغت مصر بعد ذلك للكفاح الشعبي ووزعت على الشباب ما يزيد على خمسمائة ألف بندقية وبدأ ضباط الجيش فى تدريبهم على حرب العصابات واستعمال القنابل اليدوية استعدادا لحرب طويلة الأمد يخوض غمارها كل فرد من أفراد الشعب فى المدن والقرى ، وفى الشوارع ، والأزقة وليصبح كل بيت قلعة صغيرة : تحمل بين جدرانها الموت ، والهلاك للمعتدين وأصدر جمال عبد الناصر بيانه المشهور للشعب فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ وقال فيه : (سنقاتل أيها المواطنون قوى الظلم التى تريد انتهاك حريتنا ، وسنقاتل أيها الاخوة فى سبيل حرية مصر ، وفى سبيل حرية الشعب المصرى . لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح وعندنا منه الكثير سنتقاتل فى معركة مريرة ، سنقاتل فى المعركة من قرية إلى قرية ، ومن مكان الى مكان) .

ومن أجل تحقيق فكرة اشراك الشعب فى الكفاح وتنظيمه يقول كمال رفعت وكان قد عين رئيسا لفرق المقاومة فى منطقة القنال : « وبدأنا نفكر هل نلقى العبء على القوات المسلحة فقط — مما لاشك فيه أن القوات المسلحة يجب أن تلعب الدور الرئيسى فى المعركة المقبلة ولكن يجب أيضا أن نشرك الشعب معها فى المقاومة وبدأنا ننظم المقاومة بمنطقة القناة أولا ثم اتجهنا إلى تنظيم المقاومة فى البلاد المحيطة بها وفى فترة قصيرة جدا كانت كل قرية وكل شارع فى مصر يعرف دوره فى المعركة المقبلة وأعددنا فرقا خاصة مهمتها تخريب كل شيء أمام قوات العدو وأعددنا فرقا لنسف الطرق وأخرى لنسف السكك الحديدية وفرقا لنسف المعسكرات وهكذا وعندما بدأ العدوان لم نضيع وقتنا وكانت القوات المسلحة تعرف دورها ومكانها وكانت فرق المقاومة تعرف مكانها ودورها كذلك » .

الفدائيون يعملون عملية داخل اسرائيل

وروعى فى تكوين الفدائيين أن يكون شاملا لبعض فرق الصاعقة من القوات

المسلحة بعد أن يخلعوا عنهم زيهم العسكرى . ومن بعض الوطنيين من أفراد الشعب المدربين وتكونت منهم خمس تشكيلات سرية وبدأوا فى العمل وقد افتتحوه بعملية على جانب كبير من الخطورة واتسمت بالجرأة الخارقة ، ذلك أنه فى يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ تسلل بعض الفدائيين إلى داخل اسرائيل وكان هدفهم نسف مطار اللد بما فيه من طائرات بعد ورود الكثير منها من فرنسا وكانت المعلومات التى لدى القيادة العامة للجيش المصرى تفيد بأن طائرات المستير الفرنسية التى زود بها جيش اسرائيل بلغت حوالى مائه طائرة وصل منها النصف على الأقل قبل نهاية شهر أكتوبر . وعندما وصل الفدائيون الى المطار تحققت معلومات القيادة ، ورأوا الكثير من الطائرات الفرنسية على ارضه ، ووفقا للخطة المدروسة التى رسمت فى القاهرة ، وضع الفدائيون المواد المتفجرة فى جهات متفرقة من المطار ونسفوه بما كان عليه من طائرات ، وظلت الانفجارات تدوى وتسمع من بعد حتى عاد الأبطال إلى داخل الحدود بعد أن قاموا بعمل من أجل الأعمال الوطنية وأكثر شجاعة وجرأة .

عمليات الفدائيين ببور سعيد :

أما المقاومة بمنطقة القنال فعلى الرغم من صعوبة الاتصال ببور سعيد نظرا للحصار الشديد الذى فرضته القوات المعادية على منطقة القنال بأسرها حتى أصبح الاتصال بمدينة بور سعيد بالذات غير ميسر على الاطلاق ، الا أن رياسة قوات المقاومة تمكنت من الوصول ببور سعيد ونجحت فى مد الوطنيين بالأسلحة والذخيرة والقنابل وبعض الأجهزة اللاسلكية اللازمة لضمان بقاء الاتصال بين فرق المقاومة والقيادة العامة بالقاهرة . وتسلم أفراد التشكيلات الخمس السرية التى تكونت ببور سعيد هذه المهمات وباشرت عملها وظلت تقاوم مع الشعب قوات العدوان ثمانية وأربعين يوما بحماسة بالغة دون راحة أو هوادة .

وعلينا أن نعود بالذاكرة الى أيام العدوان لنتبع سيره ساعة بساعة . وكيف قاومه الشعب فى الطرقات والأزقة والبيوت ولم يمكنه من التقدم خطوة واحدة .

ففى فجر يوم ٥ نوفمبر سنة ٥٦ قامت القوات المعتدية بضرب بورسعيد ضربا شديدا واستعملت صواريخ النابالم الحارقة وركزت طائرات العدو الضرب على ثلاث مناطق وهى حى الجميل والرسوة وبور فؤاد وظلت تقصفها بالقنابل مدة ساعتين وعندئذ تأكدت قوات المقاومة أن العدو فى سبيل انزال جنوده فى هذه المناطق الثلاث فذهبت اليها ومعها جموع غفيرة من الشعب حملت ماتستطيع حمله من البنادق والقنابل حتى الخناجر والعصى والهراوات ، وأما جماعات النساء والأطفال والشيوخ فقد توجهت الى بحيرة المنزلة حيث استقلت القوارب متجهة إلى الجنوب، ومع ذلك فقد تتبعتها الطائرات الانجليزية والفرنسية وضربتها بالقنابل وبرصاص مدافعها الرشاشة فأغرقت الكثير من القوارب وقتلت العديد من الشيوخ والاطفال والنساء بصورة وحشية لم يسبق لها مثيل .

أما أفراد الشعب وقوات المقاومة فقد كمنت فى الأماكن الثلاثة السابقة وتمكنت من ابادة الجنود الهابطين من الجو عندما نزلوا بمنطقة الجبانة بين مطار الجميل وبور سعيد ابادة كاملة وكان عددهم ٣٥٠ ضابطا وجنديا وأذهلت هذه المقاومة قوات العدوان فلجأوا الى خدعة طالما مارسوها فى الحروب بأن أسقطوا بعض الدمى والمبا كل فى منطقة كوبرى الرسوة فاتجه نحوها الأهالى وفرق المقاومة بكامل معداتهم واطلقوا عليها الرصاص ولكن رجال المقاومة اشتبكوا معهم وكادت قوات المقاومة تقضى على هذا الفوج لولا أن العدو تمكن من اسقاط فوج آخر بمنطقة الجميل كما أنزل الفرنسيون مجموعة ثالثة قرب منشئات المياه جنوب بور سعيد ثم انزلوا دفعة أخرى بمنطقة بور فؤاد والتحمت قوات العدو مع قوات الشعب التى كانت تحارب فى أكثر من موقع وتتعرض لرصاص الطائرات التى كانت تهبط حتى تصبح فى مستوى الأرض تقريبا ثم تفتح على الوطنيين فوهات مدافعها الرشاشة فتحصد منهم المئات ، ومع ذلك فقد ظلت قوات الشعب تقاوم المعتدين منذ الساعة السادسة صباحا حتى ساعة متأخرة من ليلة ١١/٥ وتمكنت هذه الجموع على الرغم مما تكبدته من خسائر فى الأرواح من محاصرة القوات المعتدية فى الأماكن

التى نزلت بها بالرسوة والجميل وبور فؤاد ومنعتها من الاتصال ببعضها أو التقدم خطوة واحدة نحو المدينة فى الوقت الذى اذاعت فيه الوزارة البريطانية أن المدينة قد استسلمت ، وأن ايدن أمر بوقف اطلاق النار حتى يتم الاتفاق على التسليم وأذاع ايدن فى مجلس العموم فى مساء يوم ٥ نوفمبر هذه الأنباء الكاذبة فقال : (ان حاكم بور سعيد وقائدها العسكرى يجرى الآن محادثات شروط التسليم مع الزعيم بتلر وقد صدرت الأوامر بوقف اطلاق النار) .

ويقول ونستون تشرشل الابن : (وقد تراءى لهم — أى القوات المعتدية — فى تلك اللحظة من الحماسة العارمة أن جمال عبد الناصر ، وليس حاكم بور سعيد ، هو الذى استسلم ولكن الصحيح هو أن أوامر وقف اطلاق النار كانت محلية ، وحتى هذه لم يطل أمدها ، اذ بينما كان الحاكم المصرى يتقدم لاجراء مفاوضات للتسليم مع القادة البريطانيين ، والفرنسيين صدرت أوامر جديدة للقوات المصرية ، بمتابعة القتال حتى لو دمرت بورسعيد بأسرها إذا كان لابد من ذلك ، واستؤنف القتال فى الساعة الثامنة والنصف من مساء ذلك اليوم ، ولأول مرة كان قاسيا مريرا ، فقد أخذت السيارات التى تحمل مكبرات الصوت تطوف شوارع بورسعيد وتصيح بأعلى صوتها ، طائرات الميج الروسية ستصل حالا ، الصواريخ الذرية الروسية دمرت لندن وباريس ، اشتعلت الحرب العالمية الثالثة ، ووزعت الأسلحة فى بور سعيد على المدنيين ، واتضح للحليفتين انجلترا وفرنسا أن القتال فى شوارع بورسعيد الضيقة سيستغرق وقتا طويلا وان الخطط المعدة لانزال الجنود من البحر فى اليوم التالى ستتعطل كما أن المدافع الروسية الجديدة المضادة للدبابات كانت تشكل خطرا كبيرا على القوات الانجليزية والفرنسية وقد أدى استبسال مدينة بور سعيد وعدم استسلامها الى احراج الحكومة البريطانية أمام المعارضة مما دفعها الى الادلاء ببيانات كاذبة ، وقد بلغ السخط بنواب المعارضة أن وقف انورين بيفان يصيح فى المجلس : « ألا تنوى الحكومة أن تكف عن كذبها أمام المجلس ؟! » .

المدينة الباسلة :

وظلت جموع الشعب تحاصر القوات المعادية طوال الليل ، وفى الساعة الرابعة

والنصف من صباح يوم ٦ نوفبر عاودت الطائرات المعادية ضرب المدينة والمناطق الساحلية بصورة أشد ، بينما كانت البوارج والمدمرات تقصف المدينة الباسلة بقنابل مدافعها ، وقدر العسكريون عدد الغارات الجوية على المدينة بما يقرب من ثمانمائة غارة جوية ، كما قدروا القطع البحرية ، التى اشتركت فى الغزو بضعف القطع التى اشتركت فى انسحاب الانجليز من دنكرك أثناء هزيمتهم أمام قوات هتلر .

ومن أثر هذا الضرب المتواصل كثرت الحرائق فى أنحاء المدينة وانهارت العمارات والمساكن على من فيها ، وأصبح حى العرب بأكمله أطلالا يتصاعد منه سحب الدخان والأتربة مصحوبة بأنين الأطفال وولولة النساء الذين سالت دماؤهم فى الشوارع والأزقة ، واختلطت أشلاء القتلى بأنقاض المبانى المتهدمة بصورة تقشعر لها الأبدان .

وبينما كانت المدينة الباسلة تجاهد هذا الجحيم كان الأسطول البريطانى والفرنسى يقتربان منها وعلى الرصيف الذى أقيم عليه تمثال دليسبس نزلت « البعابع » والصنادل تحمل الجنود والمدافع والمصفحات والدبابات واشتركت على الفور مع باقى القوات المعادية فى مقاتلة جموع الشعب وقوات المقاومة التى تصدت لها ولم تتقهقر أو تجبن أمام هذه القوات المعادية العاتية والتحمت معها فى قتال دموى رهيب استمر طيلة اليوم دون هوادة واستشهد المئات من الوطنيين فى هذه المعركة الخالدة ومع ذلك فلم يتمكن المعتدون من احتلال المدينة لأن الوطنيين كانوا واقفين لهم بالمرصاد يردون الحديد بالحديد ويقابلون النار بالنار ، وعندئذ لجأوا الى الخديعة وسيلتهم الخالدة التى يلجأون اليها كلما حاقت بهم الهزيمة أو عندما تتأزم الأمور .

الخديعة :

كانت القوات المعادية الهابطة من الجو محاصرة فى بورفؤاد وفى مطار الجميل والجبانة والرسوة ، وتمكنت فرقة جنود المظلات الفرنسية أن تستولى على وابور المياه جنوب بورسعيد ، وبذلك سيطرت على المورد الوحيد بالمدينة للشرب ،

وهددت بقطع المياه عن الأهالى ان لم يستسلموا ولكن الأهالى رفضوا الاستسلام وظلت قوات المقاومة تحيط بهم وتحاصرهم ولكن الأهالى وقفوا بالمرصاد للقوات التى نزلت من الأسطولين الفرنسى والبريطانى وقابلوا الجنود والدبابات والطائرات المعتدية بالمدافع والرصاص بما كبدهم خسائر فادحة وأوقعهم فى حيرة بعد أن أذهلتهم هذه المقاومة الرائعة من شعب أعزل ، وتخبطت قيادتهم وتفتقت قريحتهم العسكرية عن وسيلة يخرجون بها من هذا المأزق المخزى المتخاذل ، وكانت خديعة دنيئة فبينما كان الموقف كما ذكرت اذ بالأهالى يشاهدون بعض الدبابات تتجه نحو المدينة وقد رفعت عليها أعلام مصرية وأخرى روسية ، فترك الوطنيون مواقعهم واتجهوا اليها مهللين فرحين بعد أن ظنوا وتيقنوا أنها دبابات دولة حليفة أتت لنجدتهم ، وأن الروس الذين هددوا بضرب الدولتين المعتديتين قد نفذوا وعيدهم بالفعل ، وما ظهور هذه الدبابات الا بوادر لهذه المساعدة التى وعدوا بها شعب مصر . وما كادت الجموع الشعبية تقترب من هذه الدبابات التى كانت تسد شارع محمد على وتلتف حولها مرحبة ومهللة حتى فتحت عليهم أفواه مدافعها فحصدتهم حصدا .. ! وسارت فوق أجسادهم فرقتها تمزيقا ، وأنزلوا جام غضبهم على من قابلوه من الأهالى حتى الأطفال والنساء والشيوخ لم يسلموا من انتقامهم ! ودخلت دبابات العدو حى العرب ومن خلفها جنود المشاة من الجيش ولكنهم لم يجدوا بيتا واحدا سليما فى الحى يحتمون به فقدتهدم عن آخره واستحال الى أنقاض وأشلاء وغبار ودخان، تعذر على رجال الاسعاف القيام بواجبهم من كثرة الضحايا وتكدسهم فى الطرقات وتعرضت المدينة لخطر انتشار الأوبئة . وواجه الانجليز فوق ذلك الحرائق التى شبت فى كل مكان ، ووجدوا آثار أعمالهم الوحشية ماثلة أمامهم فى كل خطوة يخطونها ولكنهم لم يجدوا الشىء الوحيد الذى يبحثون عنه وهم رجال المقاومة الشعبية وكانوا يعلمون عن يقين أنهم جد قريبين وقد كانوا صادقين لأنهم ما كادوا يجاوزون حى العرب (حيث كانت المنازل أقل دمارا) حتى واجهتهم النيران من كل جانب ، من المنازل والمقاهى والشوارع ومن خلف الجدران ، وبدأت الاشتباكات الدامية من جديد وشعر المعتدون أن الشعب عازم

على الاستمرار فى أعمال المقاومة ، من شارع الى شارع ، ومن زقاق الى زقاق ، وأن تقدمهم سيكلفهم ثمنا غاليا ففى كل خطوة كان يسقط جنود وضباط ، حتى الأرض التى كانوا يكسبونها بتقدمهم البطىء لا يتسلمونها الا وقد استحالت الى أنقاض ،وبعد أن يشيع فيها الخراب والدمار وتصبح مباءة للميكروبات ومصدرا للأمراض ولم يجد المعتدون من بد سوى البقاء فى الأماكن التى نزلوا فيها أول الأمر فى بورفؤاد ومنطقة الجبل والرسوة . فانسحبوا اليها والى بعض المناطق الساحلية ليستريحوا من أثر هذه المعارك الدامية وليتمكنوا من جمع ضحاياهم وتضميد جراح من جرح منهم .

العدوان يستمر :

قضت مدينة بور سعيد ليلة ٦ نوفمبر وهى جريحة حزينة بعد أن استشهد العدد الكثير من أبنائها المجاهدين وتهدمت المئات من المبانى الجميلة ، ولكن رجال المقاومة الشعبية ظلوا ساهرين لا يغمض لهم جفن ، وانضم اليهم رجال الجيش بالمدينة وبعض رجال البوليس بعد أن خلعوا عنهم زيهم الرسمى وانخرطوا ضمن الفرق الخمسة التى تكونت وتظمت لمقاومة العدوان وتحصنوا فى أماكن متفرقة من المدينة ، وانتظروا الخطوة التالية لجنود بريطانيا وفرنسا وعلى الرغم من قرار وقف اطلاق النار الذى أصدرته الأمم المتحدة فى يوم ٢ نوفمبر وموافقة انجلترا وفرنسا عليه يوم ٦ نوفمبر فان الدولتين المعتديتين لم تنفذا هذا القرار ، وكانت أعمالهما تدل على تصميمهم على المضى فى العدوان ، فقد ظلت المعدات الحربية والجنود تتدفق على الساحل . وفى صباح يوم ٧ نوفمبر حاصرت الدبابات المناطق الآهلة بالمواطنين وبدأت فى ضربها ، واعتدى العدو على رجال البوليس وجمع منهم السلاح ، وقطع الفرنسيون المياه عن المدينة ، وحرمت بور سعيد من النور كذلك بعد أن فصلت القوات المعتدية التيار الكهربى عنها وجمع الانجليز أجهزة الراديو التى كانوا يحسونها وحطموها لئلا يسمع شعب بور سعيد الأنباء والبيانات الحماسية ، التى كان يوجهها المسئولون اليهم ويحرمونه من أن يحيط علما بما كان يدور فى جميع أرجاء العالم

من عطف ومؤازرة وليخفوا عنه كذلك ماحاق بقوات العدوان من هزيمة وقتل، ولم يكتف الانجليز بكل ذلك بل (القوا القبض) على بعض المواطنين واستعملوا معهم أشد وسائل التعذيب وأقسى ضروب الوحشية!

مثالان:

وأسوق مثالين من وسائل التعذيب التي اتبعها المعتدون مع الوطنيين لنرى مدى ماوصلت اليه المدنية الغربية من وحشية وهمجية لم تبلغهما أية دولة من دول العالم حتى فى أحلك العصور:

حدث عندما وقع العدوان وتطوع الشباب للكفاح أن كان من بينهم جواد حسنى الطالب بكلية الحقوق الذى هب من فوره وقاد كتيبة الحرس الوطنى بكليته واتجه بها إلى سيناء لمقابلة اليهود، وعندما صدر أمر الانسحاب عادت الكتيبة لتحارب الفرنسيين فى بور فؤاد وفى خلال هذه المعارك أصيب جواد برصاصة فى كتفه، وعندما أحدق الفرنسيون بكتيبة كلية الحقوق ورأى جواد أن زملاءه سيقعون فى الأسر لا محالة طلب منهم الانسحاب وظل يقاوم الدورية الفرنسية بمفرده حتى نجح اخوانه فى الانسحاب، وعندئذ قبض الفرنسيون على جواد حسنى، وكانت الدماء تنزف منه بغزارة واستعملوا معه وسائل قاسية لكى يمدهم بالمعلومات التى تفيدهم عن عدد القوات ومواقعهم، ولكنه رفض فى اباء وشمم، فعادوا إلى تعذيبه من جديد ولم يرحموا جرحه البالغ، ولا الدماء التى كانت تسيل منه فتسلبه الحياة رويدا رويدا، وسجنوه فى حجرة جرداء لا أثاث بها خالية من غطاء يتدثر به دون ماء يروى غليله أو طعام يقيم أوده ولم يجد جواد أمامه سوى الدماء التى كانت تسيل غزيرة على أرض الحجرة، فاستعملها كمداد فسطر به على جدرانها ماقامت به كتيبته من أعمال وطنية وعبر عن بعض ما كان يعتمل فى صدره وهو يلاقى الموت من شعور وطنى كان يضطرم به قلبه من حب كبير لبلاده ودخل عليه الفرنسيون بعد ذلك يستجوبونه للمرة الأخيرة ولكنه كان يصارع

سكرات الموت فأطلقوا عليه الرصاص وسقط جواد فى وسط الحجرة حيث كانت هناك بحيرة صغيرة من الدماء دماء الشهيد البطل جواد حسنى .

هذه كانت احدى جرائم الفرنسيين ، أما الانجليز فقد بزوا حلفاءهم فى الوحشية والاجرام ، فالنمط الثانى من جرائم المعتدين حدث عندما كان الوطنيون يقاومون قوات العدوان بمنطقة الجبيل وفى خلال المعارك التى دارت فى ذلك الوقت تمكن الانجليز من أسر الوطنى محمد مهران عثمان وظلوا يعذبونه طوال الليل بعد أن أوثقوه بجوار تبة مسلحة بمنطقة الجبيل وفى الصباح .شرعوا يحققون معه بوسائلهم الوحشية المعتادة ، وحاولوا بشتى الطرق أن يحصلوا على البيانات التى يطلبونها منه ولكنه رفض فاستعملوا معه القسوة مرة ثانية ومنعوا عنه الطعام والشراب وعذبوه تعذيبا شديدا حتى انهارت قواه وتهالك على نفسه ولم تعد قدماه تتحملان جسمه الواهن وعندئذ حملته طائرة حربية سافرت به إلى قبرص ، وهناك أقدم الانجليز على أبشع جريمة يمكن أن تقترف فى حياة البشرية . فقد رأى الانجليز أن أحسن وسيلة للانتقام من محمد مهران هو فقء عينيه[1] .فتوجهوا به إلى احدى المستشفيات وفى حجرة العمليات أجرى الأطباء الانجليز العملية الاجرامية ، فنزعوا عنه عينيه الاثنين ! وحرموه من نعمة النظر ! وحكموا عليه بالعمى مدى الحياة ! ولم يكن محمد مهران يعلم بما ارتكبه الانجليز ،وعندما أفاق وجد أن عينيه معصوبتين فاعتقد أنهما مكدودتان ولم يعلم بالكارثة الا عقب عودته إلى مصر ، فقد أرجعه الانجليز اليها ليكون عبرة للوطنيين . حسب اعتقادهم !!

هذان مثلان أوردتهما على سبيل المثال استخلصتهما من سجل الدولتين المعتديتين كدليلين حيين على ما كان يقوم به المعتدون من وحشية ضد الوطنيين فى بورسعيد أحدهما من فرنسا والآخر من انجلترا . ولكنهما فى الوقت نفسه مثالان من الكفاح المجيد الذى قام به أبناء شعب بورسعيد أثناء العدوان الغادر ..

---

(١) وقد انعم عليه السيد الرئيس برتبة الملازم فى الجيش بعد ذلك تقديرا له .

تنظيم المقاومة :

ولم تكن لهذه الأعمال الوحشية أى أثر على روح الوطنيين الذين استمروا فى الكفاح وقد بدأت المقاومة الشعبية تأخذ شكلا آخر منذ يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٦ فقد ترك الجنود والضباط المصريون وحداتهم بالجيش وانخرطوا مع الوطنيين ووزع العمل عليهم وحملت التشكيلات الخمسة السرية عبء الدفاع عن المدينة ومقاومة المعتدين بما فى ذلك اقتناص جنود العدوان والقاء القنابل على سياراتهم ودباباتهم كلما حاولوا اقتحام المدينة أو السير فى شوارعها ويروى كمال رفعت بايجاز بعض الأعمال التى قام بها الوطنيون فى بور سعيد فيقول : « فى داخل بور سعيد كنا نعتمد الى جانب قوات المقاومة على خمسة تشكيلات سرية — كانت أعمالها تفقد القوات المعادية صوابها وهذا هو تقرير أعمال هذه التشكيلات ، فى يوم ١٦ نوفمبر أطلق التشكيل رقم ٢ النار على القوات البريطانية فى شارعى صفية زغلول ومحمد على ، وفى يوم ١١/٧ كان عمل التشكيل رقم ٢ منصبا على القوات الموجودة فى شارع السلطان حسين وفى يوم ١١/٧ قضى التشكيل رقم ١ على دورية بريطانية بأكملها فى شارع رقم ١٠٠ وفى يوم ١٢/٧ قام التشكيل رقم ٣ بنسف سيارتين بريطانيتين وقتل عدة جنود فى شارعى كسرى ودمنهور ، وفى نفس اليوم قام التشكيل رقم ٤ بتخليص كمية من الذخيرة المرسلة إلى قوات المقاومة وقعت فى يد العدو وفى يوم ١٢/١٠ نسف التشكيل رقم ١ سيارتى جيب ومدرعة وفى نفس اليوم ألقى التشكيل رقم ٤ زجاجات مولوتوف على ثلاث طائرات كانت ترابط بمطار الجميل وأفسدتها تماما . وفى ١٢/١١ قام التشكيل رقم ٤ بمهاجمة دورية بريطانية فى شارع المناخ وفى نفس اليوم خطف التشكيل الضابط انطونى مورهاوس وفى يوم ١٢ — ١٢ قام التشكيل رقم ٥ بنسف سيارتين بريطانيتين وبعد ذلك قام بمهاجمة دورية بريطانية وقام التشكيل رقم ٢ وفى نفس اليوم بنسف سيارة مصفحة ومهاجمة دورية بريطانية فى شارع نبيه ، وفى نفس اليوم قام التشكيل رقم ٤ بالقاء القنابل على معسكر العدو فى المدرسة اليونانية — وفى يوم ١٣ — ١٢ قتل التشكيل

رقم ٢ جنديا بريطانيا فى تفتيش الجرك — وفى يوم ١٤ — ١٢ قام التشكيل رقم ٢ بالقاء القنابل على سيارة ميجور ويليامز ضابط المخابرات البريطانى ودمرت السيارة وفقد ويليامز احدى ساقيه وفى نفس اليوم قام التشكيل رقم ١ بمهاجمة مركز تجمع الدبابات وفى نفس اليوم قام التشكيل رقم ٥ بمهاجمة دورية بريطانية، كانت تحاول انقاذ مركز تجمع الدبابات وفى نفس اليوم قام التشكيل رقم ٢ بمهاجمة دورية بريطانية مشاة خلف جامع توفيق ونسف سيارتين فى شارع العرفانية ثم هاجم دورية بريطانية أخرى بجوار مخازن البوليس ثم هاجم دورية بريطانية قادمة من شارع كسرى وفى يوم ١٥ — ١٢ نسف التشكيل رقم ١ سيارة فرنسية وفى نفس اليوم منع التشكيل رقم ٥ وصول أية نجدات إلى القوات البريطانية المحصورة فى المدرسة الواصفية واشتبك مع دورية بريطانية . وفى اليوم نفسه قام التشكيل رقم ١ بالقاء قنابل على جميع الدوريات البريطانية التى دمرت فى الشوارع من ١ — ١٠٠ وشارعى محمد على وسعد زغلول . ثم قام بنسف سيارة فرنسية حاولت اقتحام أحد المنازل وفى نفس اليوم قام التشكيل رقم ٢ بنسف سيارة فرنسية فى شارع محمد على وأخرى بريطانية وفى يوم ١٦ — ١٢ هاجم التشكيل رقم ٢ دورية بريطانية ونسف سيارة مدرعة فى شارع محمد على واشتبك مع دورية بريطانية أخرى فى شارع الثلاثين ، وفى يوم ١٧ — ١٢ انسحبت القوات البريطانية من مواقعها داخل الحى العربى وصدرت لنا الأوامر بايقاف جميع العمليات وفى يوم ٢٤ — ١٢ قامت رئاسة التشكيلات السرية بنسف تمثال فردينانددليسبس ، وكانت هذه هى آخر عملية تقوم بها » .

على ان العمليات التى قام بها الوطنيون تحتاج إلى شيء من التفصيل . هى فى واقع الأمر صفحة بيضاء من كفاحنا المجيد .

حجرة العمليات :

عند بدء الكفاح رأى الوطنيون أن يبحثوا عن مكان يجتمعون فيه لدراسة شئونهم وتدبير عملياتهم على أن يكون بمنأى عن أى شبهة أو مظنة عن عيون العدو

التى كانت تراقب تحركات الوطنيين فى كل مكان وقد استقر الرأى على أن يتخذوا من حجرة ضابط المباحث الكائنة بالدور العلوى لمبنى البوليس مكانا لادارة عمليات المقاومة ، وفى هذه الحجرة كان الوطنيون يجتمعون برجال الصاعقة وضباط البوليس ، ويصدرون الأوامر والتعليمات ويديرون معارك المقاومة التى استمرت ٤٨ يوما ذاق العدو خلالها طعم الهزيمة مرارا واستحالت حياته إلى مايشبه الجحيم .

وكان يخرج من هذه الحجرة كذلك المنشورات التى وجهها رجال المقاومة إلى جنود العدو باللغتين الفرنسية والانجليزية وإلى أهالى بور سعيد لتشجيعهم وحثهم على النضال ، وكان الوطنيون يكتبون صور المنشورات والرسوم الهزلية ثم يرسلونها إلى مطبعتى مخلوف والمغربى ومن هناك يتسلمها من يقوم بتوزيعها من الوطنيين فى شتى الأنحاء .

ومن الرسوم « الكاريكاتورية » التى نشرت فى تلك الأيام صورة تجمع ايدن وموليه وبين غوريون وقد رسم موليه الرئيس الفرنسى فى صورة معزة وبن غوريون فى شكل كلب وايدن فى هيئة حاو يداعبها . وصورة أخرى لايدن فى هيئة حمار وجمال عبد الناصر يمتطيه وقد ذاع هذين الرسمين ذيوعا كبيرا مما كان يضايق جنود العدو ويثير حفيظتهم ، بل ان الوطنيين لم يتركوا كلبا بالمدينة الا ورسموا عليه وجه ايدن أو حمارا إلا وقد طبعوا عليه صورة موليه ولم تجد قوات العدوان وسيلة سوى ضرب هذه الحيوانات البريئة بالنار كلما وقع نظرهم عليها .

ومن المنشورات الطريفة هذا الزجل :

قـــولوا لايدن فين أعصابك	يااللى جنيت ع الدولة الدايخة
قولوا لايدن ايه كان صابك	تعمل فيها العملة البايخة
جيت تتحـــدى وتتعـــدى	وبالعاهرة الفاجرة فرنسا
جاتكم خيبـه ، جاتكم نايبـــه ،	جاتكم حوسة ، جاتكم وا كسة

وأما أول منشور وجهه الوطنيون الى الأهالى فكان عقب ضرب المدينة بالقنابل ونصه كما يلى :

ايها المواطنون ... ان الخراب والتحطيم والحرائق التى حلت ببور سعيد هى ثمن الحرية والكرامة والشرف ، لاتلقوا السلاح وحافظوا عليه ، ومن الآن فلنقاوم العدو مقاومة سرية ، ولينضم كل منكم الى حركة المقاومة السرية ولا تتركوا مدينتكم نهبا الأعداء .

« حافظوا على القسم الذى أقسمتموه وإلى المعركة فلا تزال أسلحتنا قوية وحيويتنا وقوانا متماسكة احذروا الشائعات والنصر لنا : هـ ـ ت .

وهذا التوقيع هو مختصر هاتا شاما - أحد المجموعات السرية ببور سعيد .

والمنشور الثانى يقول : « أيها المواطنون .

« أن العدو لن يستطيع التقدم خطوة واحدة خارج بورسعيد فلنقاتله ولنؤرق مضجعه لن نتعاون معه ولنحافظ على شرفنا واستقلالنا » .

وجاء بالمنشور الثالث :

« أيها المواطن اياك أن تلقى سلاحك ، اياك أن تخشى تهديدهم ، أو دورياتهم ، انهم أجبن من الجبن ، ارفع رأسك وسدد رصاصك واقتلهم حيث وجدتهم ، ابحث عمن يتعاون معهم إلى أن يحين الوقت للانتقام » .

« والنصر لنا »

وكان الشعب يوزع المنشورات على المواطنين لتبصيرهم بالموقف الذى كانوا يجهلونه تماما نتيجة لعزل بور سعيد عن باقى المدن كما قام بطبع العديد من المنشورات باللغتين الانجليزية والفرنسية لتوزيعها داخل معسكرات العدو .

وأول منشور وجهته فرق المقاومة إلى العدو كان به (الى قوات بريطانيا

وفرنسا المعتدية فى مصر اعلموا يقينا اننا هنا مستعدون لقائكم صامدون لعدوانكم وأنكم ستلاقون الموت فى كل خطوة تخطونها ، وفى كل دقيقة تمر عليكم هنا ببور سعيد .

والعجب أن قوات العدو كانت ترد على منشورات الوطنيين بمنشورات أخرى ساذجة منها على سبيل المثال المنشور التالى : (ياأهالى بور سعيد أنتم لستم بالاطفال الذين يضللكم الكذب ، وقد مضى عليكم زمن كنتم تعيشون فيه مع الانجليز والفرنسيين جنبا إلى جنب فى سعادة ، ومهما يكن رأيكم فينا فأنتم تعلمون على اليقين بأننا لانكذب) .

وهكذا بدأت حركة المقاومة بالمنشورات ، ثم سرعان ماتطورت إلى حرب عصابات منتظمة شملت جميع طوائف الشعب ، وساهم فيها كل فرد من أهالى بور سعيد حتى النساء والأطفال وخرجت من حجرة ضابط المباحث مشروعات المعارك المدروسة التى قام بها الوطنيون ضد قوات العدوان ونفذت بعزم وشجاعة فأوقفتها عند حدود المدينة ولم تمكنها من التقدم خطوة واحدة وكبدتها من الخسائر مالم يكن يتصوره أحد من قادة العدوان .

وقد ذكر السيد كمال رفعت ذلك فيقول : « انه فى أثناء وجود قوات العدوان فى بور سعيد لجأنا إلى حرب الأعصاب ، مثلا كنا نوزع منشورات بصفة مستمرة باللغة الانجليزية والفرنسية على قوات العدوان ، تتضمن تهديدات دائمة لأفرادها، وكنا نشيع اشاعات باستمرار عن عمليات هجوم على مناطق معينة ، وكنا نحدد عمليات النسف والتدمير وننفذ ذلك فعلا وكنا نرسل صور للعمليات البطولية التى قامت بها فرق المقاومة إلى عائلات الجنود البريطانيين والفرنسيين فى فرنسا وانجلترا ليدركوا مدى الحالة السيئة التى يعيشها ابناؤها ، وكنا نستولى على الخطابات التى كانت ترسل لأفراد القوات ومنهم إلى أهاليهم حتى تنقطع الصلة تماما بينهم وكنا نلجأ الى (الدوبل ايجبت) أو العملاء المشتركين وذلك بتشغيل بعض أفراد فى نقل معلومات خاطئة إلى قوات العدوان ، وإذا سألتنى اليوم عن الأيام

الحلوة التى عشناها منذ قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ سأجيبك على الفور بأنها أيامنا فى فترة العدوان » .

هذه هى ذكريات كمال رفعت عن المقاومة الشعبية الرائعة ضد العدوان الثلاثى رواها لنا فى صدق ومنها يتضح أن المقاومة ، لم تقف يوما واحدا ولم يهدأ أوارها لحظة منذ أن وطىء المعتدون بأقدامهم أرض بور سعيد حتى قرروا أخيرا الانسحاب منها ومن حجرة ضابط المباحث أو من حجرة العمليات كما كانت تسمى ، قام الوطنيون بجلائل الأعمال التى ستظل خالدة على طول الزمن .

ملاحم وطنية .

أن واجب الوفاء والتقدير يقتضيان منا أن نقف قليلا عن بعض المواقع على الأقل ، لنذكر ونستذكر ونحيى أولئك الذين سقطوا فى المعركة وضحوا بأرواحهم فداء لوطنهم والآخرين . وفيما يلى بعض هذه الحوادث الخالدات .

اختطاف مورهاوس :

كان من بين أفراد القوات المعتدية ضابط انجليزى يدعى مورهاوس يمت بصلة قرابة الأسرة المالكة فى بريطانيا ــ ويجرى فى ذماته كراهية شديدة للمصريين عامة وجمال عبد الناصر بصفة خاصة ، وكانت مهمته هى رفع وازالة صور جمال من فوق جدران المنازل والعمارات ، ولكن الوطنيين سرعان ما كانوا يعيدون وضعها والصاقها من جديد .. وتكررت هذه العملية مرارا وتكرارا حتى قرر رجال المقاومة اختطافه وحددوا لذلك يوم ١٩٥٦/١٢/١١ ونظموا أنفسهم بأن كن ستة منهم فى طريق مروره اليومى ــ اثنان للمراقبة وأربعة قبعوا فى سيارة سوداء يملكها أحدهم وعندما لاح لهم مورهاوس قادما فى سيارته الجيب اعترضوا طريقه وكانت السيارة السوداء تقف فى وسط الطريق . فتعجب من سوء النظام ولكن عجبه لم يدم طويلا ، إذ سرعان ماهبط الوطنيون منها وانتزعوه من سيارته بالقوة ، وألقوه فى سيارتهم ، وكموه ، وقيدوا يديه وقدميه ، وتوجهوا

٥ — ثم أن هناك مسألة جوهرية هامة وهى أن البوليس لم يضع يده على اعتراف صريح أو حتى ضمنى على من ألقى القبض عليهم وهم كثيرون بأنهم اقترفوا جرائم الحريق وإن كان البعض قد اعترف بأنه شارك فى أعمال النهب والسلب وهذا يعنى أن مقترفى الحادث قد اندسوا وسط الجموع الغاضبة وبعد أن أشعلوا النار تواروا عن الأنظار ليبدو الأمر وكأنه شىء طبيعى قامت به طوائف الشعب الثائرة.

وأما أعمال النهب والسلب التى تمت بعد الحريق فلا تدل بحال على أن مرتكبيها هم الذين أشعلوا النار، وإنما يحدث ذلك عادة فى الثورات وفى جميع الدول على اختلاف ألوانها. حدث ذلك وأكثر منه بكثير فى الثورة الفرنسية وفى الثورة البلشفية وفى كل الثورات دون استثناء، ولقد وضع رجال البوليس أيديهم على بعض من اقترفوا جرائم السلب والنهب ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى شخص بعينه أشعل النار فى مكان بعينه ولم يكن أمام البوليس إلا أن يقبض على بعض رجال مصر الفتاة لكى يلصق بهم تهمة احراق القاهرة ظلما وزوراً وبعد أن أعيته الحيل وضاقت به السبل.

ولو أن حريق القاهرة كان حقيقة من فعل طوائف الشعب الثائرة لما عجز رجال البوليس من إثبات ذلك ولوضح الأمر بما لايدع مجالا لأى شك ولكن الحقيقة على خلاف ذلك تماما.

٦ — ولطالما سعى الوفد إلى تأزم الأمور فى القنال وتمنى أن تشتد عنفا وكان يتعمد إظهار موقف رجاله من النضال بأنهم هم وحدهم الذين وراء الحركة يشجعونها ويوجهونها بالمال والسلاح. ويصرحون بذلك فى صحفهم ومجالسهم. وكان الوفد يهدف من وراء ذلك إلى الضغط على الأنجليز لحل القضية المصرية وفى سبيل ذلك أيضا سحبت مصر سفيرها فى لندن وصممت بأن تقطع العلاقات مع انجلترا.. وكانت السراى تنظر إلى هذه الاجراءات بخوف شديد وشعر الملك بالخطر المحدق بعرشه وتلاقت أهدافه مع أهداف الانجليز ورأوا ضرورة ضرب

ضابط المخابرات :

كان من بين جنديهم بريطانيا للتنكيل بالوطنيين ضابطا متحجر القلب هو جون ويليامز . وقد مضى جون وليامز هذا ٢٥ سنة بمصر أثناء وجود القوات البريطانية بها حتى تعلم اللغة العربية وأصبح يتحدث بها كأحد أبنائها ، وعندما فكر الانجليز فى العدوان استعانوا به لاجادته لغة البلاد ولمعرفته لمصر التى عاش بين ظهرانيها طوال حياته وكان يعمل كضابط فى المخابرات البريطانية وهى وظيفة مرموقة وكانت مهمته تعقب الوطنيين والقبض عليهم وتقصى أخبارهم ، ووجد رجال المقاومة فى جون صيدا ثمينا ووضعت القيادة خطة لاغتياله واختاروا لتنفيذها الوطنى السيد عمران . وعند التقاء شارع رمسيس بالنهضة كمن له السيد عمران وفى يده رغيف من الخبز بداخله قنبلة مايلز ٣٦ ملفوفة بعريضة تظلم مكتوبة باللغة الانجليزية . وعندما لاحت عربة جون وليامز أشار عمران لها بالوقوف ولكن السائق تخطاه ولكن ويليامز أمر السائق بالرجوع إلى حيث يقف عمران الذى شرح له تظلمه المزعوم وفى غمرة الحديث ترك عمران القنبلة على وسادة العربة بعد أن جذب الفتيل منها فسقطت داخل العربة وشعر ويليامز بحركة السقوط المريبة وتأكد بأن هناك مؤامرة لاشك لاغتياله . فأسرع بطلب النجاة ، وما كاد يفتح باب السيارة حتى انفجرت القنبله التى أطاحت بقدمه اليسرى وأصابت السائق وآخر باصابات قاتلة لم يتأكد عمران من نتيجتها لأنه كان فى ذلك الوقت فى بيته وبين أهله .

معركة خالدة :

كان مركز تجمع الدبابات البريطانية فى مكان الحرس الوطنى بشارع ٢٣ يوليو أمام مبرة محمد على ولطالما خرجت من هناك الدبابات لتهاجم الوطنيين وتعتدى على الأهالى وتصيب المبانى أثناء سيرها وتجوالها فى شوارع المدينة وعزم الوطنيون على مهاجمة هذا المركز الحصين مهما كلفهم الأمر وكانت هذه المهمة تحتاج إلى تضافر جميع الجهود وتآزر كل القوى ببور سعيد لأن قوات العدون كانت قد منعت التجول بعد الساعة الخامسة واستثنت من ذلك عربات الاسعاف والمطافىء والبوليس،

ورأت قوات المقاومة الاستعانة بهذه العربات فى نقل الأسلحة والصواريخ من مخابئها إلى مكان المعركة ، وفى الوقت نفسه كان يتعين رصد فرقة أو أكثر لتقوم بمهاجمة الدوريات التى كان يطلقها العدو من وقت لآخر لستر واخفاء العملية الكبرى وهى ضرب مركز تجمع الدبابات .

ونفذت الخطة بحذافيرها فنقل رجال المقاومة الأسلحة اللازمة من مخابئها فى عربات البوليس بينما كان الوطنيون يشاغلون الدوريات الانجليزية فى شوارع بور سعيد ، وقد وضع فى الاعتبار أن رجال الصاعقة فى الجيش هم الذين سيتولون ضرب الدبابات ، لأن هذه العملية تحتاج إلى خبرات خاصة ، ولذلك وزيادة فى الحرص وخشية اثارة الشبهات قيد بقسم المناخ ببور سعيد ٢٣ ضابطا وصف ضابط باعتبارهم مساجين وخرجو من القسم بهذه الصفة ،وكان على رأسهم المرحوم الضابط نبيل الوقاد الذى استشهد فى اليمن ، وطاهر الأسمر ، ومدحت الدريني ، وحسين مختار . وكان معهم كأدلة السيد/عبد النبى رشاد ، والسيد/البوص ، ومحسن عبد الخالق ، وشعبان عبده ، وعلى الاشكرابيلى ، وكمال فتيح — وهم من المجموعة الاولى من رجال المقاومة السرية .

وكانت خطة رجال الصاعقة تتركز فى أن يبدأوا فى ضرب الدبابات فى تماما الساعة الأولى من صباح يوم ١٢/١٥ ، على أن تكون هناك جماعة أخرى تقوم بمهاجمة الدوريات الانجليزية فى نفس الوقت الذى يبدأ فيه الهجوم على الدبابات وتنفيذا لنجاح هذه الخطة أعد الوطنيون كمينا لدورية بريطانية كانت قد اعتادت السير فى هذا الوقت وتتكون من عربتين مصفحتين بأن علقوا شيكارة أسمنت فى حبل بعرض الشارع الذى اعتادت أن تمر به الدورية وبدت الشيكارة والحبل فى صورة حبل الغام ووزع الوطنيون أنفسهم على أن يتولى ثلاث منهم القاء القنابل اليدوية على أن تكون مهمة الآخرين اطلاق المدافع الرشاشة على رجال الدورية وجاءت الدورية البريطانية فى الميعاد المحدد إلى قضائها ، وعندما دخلت المنحنى فى أول الشارع خففت من سرعتها ونظر سائق العربة الاولى إلى الحبل المعلق فى وسط

الطريق وأشار محذرا فاعتقد الانجليز أنه حبل ألغام فوقفت القافلة ونزل سائق السيارة الأولى ليفحصه ، وفى نفس اللحظة انطلقت القنابل والنيران من كل ناحية ولم ينج أحد من الانجليز سوى السائق الذى هرب بجلده . وكان المكان المعد للقاء بعد تنفيذ هذه العملية أمام سينما مصر ولم يكد يلتئم جمع رجال المقاومة حتى ظهرت أمامهم دورية بريطانية أخرى مكونة من سيارتين بها عشرة جنود وعلى حين غفلة ودون تفكير أو تدبير سابق اندفع من بين الوطنيين الجاويش رمضان عبد الرازق وهو من رجال الصاعقة وعندما وصل إلى مكان الدورية ألقى عليها قنبلتين ميلز ٣٦ احداهما على السيارة التى كانت على يمينه والأخرى على تلك التى كانت على يساره ، فقتل الانجليز العشرة الذين كانوا بها (١) وسقط البطل شهيدا وسطهم — تمت هذه العملية فى ثوان وأمام نظر باقى أفراد رجال المقاومة الذين عقدت الدهشة ألسنتهم من هول المفاجأة وللتضحية المثالية التى قام بها الجندى الشهيد .

وأما عملية الدبابات فقد تمت على الوجه التالى قام الملازم حسين مختار ومعه باقى رجال الصاعقة ومن أمامهم الأدلة الذين ذكرنا أسماؤهم وتوجهوا جميعا إلى مكان العملية . وكانت المسافة بين قسم المناخ وهو مكان خروجهم إلى مكان الدبابات ليست بالمسافة القصيرة كما أن الطريق منطى بأنقاض المبانى المهتدمة ولذلك لم تكن مهمة الوطنيين سهلة ميسرة — ولكنهم كانوا قد عقدوا العزم على تنفيذ هذه العملية مهما كانت العقبات وعندما اقتربوا من هدفهم وهو مركز تجمع الدبابات بدأوا فى تنظيم أنفسهم ، وكانوا ستة للضرب حملوا ثلاثة مدافع صاروخية من نوع بلانديست الخاصة بضرب الدبابات واقتربوا منها ووقفوا فى مواجهتها وعلى رأسهم الضابط حسين مختار بينما وقف باقى رجال المقاومة على قرب من الجماعه الأولى يحملون البنادق السريعه الطلقات والرشاشات لتغطيه زملائهم إذا دعت الحالة أو تحرج الموقف ، كما انتشر حوالى اثنى عشر وطنيا فى الشوارع والطرقات

---

(١) صدر قرار بترقيته الى رتبة ضابط بالجيش

المحيطة بهذه المنطقة للدفاع عنهم اذا لزم الأمر ، وانتظر رجال الصاعقة أمر ، حسين مختار لهم بالضرب لأن السماء كانت ملبدة بالغيوم والمطر يتساقط مدرارا وما هى الا لحظة حتى انقشع الجو ولاح القمر من بين السحب ووضحت الدبابات للوطنيين ولاح لهم سائقيها ورجال الحراسة ، وعندئذ صدر الأمر بالضرب فانطلقت المدافع تهز المدينة وتصيب الدبابات وما يحيط بها من ضباط وجنود وقد ثبت أن الوطنيين فجروا أربع دبابات استوريون وسيارتين مصفحتين كانتا بالقرب منها وان لم يتأكدوا من عدد خسائر الانجليز فى الأرواح ، وعلى أثر ذلك راح رصاص الانجليز يدوى فى كل مكان ولكن رجال المقاومة انسحبوا وعادوا جميعا سالمين الى قسم المناخ حيث كانوا ليسجنوا من جديد كما هو ثابت من دفاتر القسم ، ولم يكن يعتقد الانجليز أو يتصوروا أن هؤلاء المساجين هم الذين قاموا بهذه المعركة الخالدة من معارك بورسعيد العديدة .

عيد القنابل :

أثناء معركة الدبابات كانت جميع فرق المقاومة فى بورسعيد تعمل ضد قوات العدوان . وكان التعاون وثيقا بين الجيش ممثلا فى رجال الصاعقة ورجال البوليس والاسعاف وبين أفراد الشعب ممثلا فى المجموعات التى كانت تعمل برئاسة كمال رفعت وقد ظلت عمليات المقاومة تعمل بصفة مستمرة قبل وبعد ضرب مركز تجمع الدبابات وكان دوى الرصاص والقنابل يسمع فى كل مكان حتى أن الأهالى ظنوا أن الجيش المصرى قد وصل الى بورسعيد لتحريرها ولمحاربة جنود العدوان. فضلا عما قام به الوطنيون يوم ١١/١٥ وبيناه فى الفصل السابق فقد التحموا مع الانجليز والفرنسيين فى عدة معارك أخرى فى هذا اليوم ، من تلك المعارك أنه لاحت للوطنيين عقب ضرب موقع الدبابات دورية انجليزية تقف خلف الجامع التوفيقى فى شارع صفية زغلول فألقوا عليها بعض القنابل اليدوية وفتحوا عليها رصاص رشاشاتهم بعد أن كمنوا تحت البواكى المطلة على الجامع التوفيقى وقتلوا جميع أفراد هذه الدورية ولم ينج منهم أحد وقد قام بهذا العمل بعض أفراد التشكيل رقم ٢

ومن أعضائه السيد بكر ، وحسين الطوبى ، وطلعت سالم ، وأحمد شوقى الحسينى وشاهين عبد العال ، والسيد محمد الدرجانى ، ومحمد محمد العسال .

وفى شارع عرفات كمن بعض أفراد التشكيل رقم ٣ وهم محمد عليوه وسعد الاسكندرانى ومحمد الاسكندرانى وصبحى عليوه وعندما مرت بهم سيارتان علوءتان بالجنود البريطانية ألقوا عليها ثمان قنابل يدوية فقتلت الكثير منهم ثم توجه التشكيل السابق بعد ذلك الى مخازن البوليس وأثناء سيره قابلته دورية بريطانية أخرى فالتحم معها وهاجمها بالمدافع الرشاشة وأحرق العربتين اللتين كانتا تنقلان جنود العدوان وبهذه المقاومة الرائعة العنيدة تحولت بورسعيد فى تلك الليلة الى جحيم كما تحولت الشوارع الى مقابر للدوريات البريطانية وتلوثت الأرض وجدران البيوت بدمائهم وأشلائهم . ولم ينم مواطن واحد فى المدينة هذه الليلة ، اذ لم تهدأ الانفجارات لحظة واحدة ولم يكف صوت الرصاص طوال هذه الليلة من ليالى الشتاء الطويل وسيطر الأبطال على شوارع المدينة تماما وكانوا يتنقلون تحت البواكى كما يشاءون وكأنهم خيالات وكانت عندما تتقابل مجموعة من الوطنيين مع أخرى ترتفع الأصوات بكلمة السر بصوت مدوى ويتردد الصدى فى كل مكان بكلمة « جمال » واعتقد الناس بعد أن سمعوا الانفجارات وكلمة جمال تتردد صداها فى أرجاء المدينة أن الجيش المصرى قد دخل المعركة هنا فى بورسعيد .. ففتحوا الأبواب والنوافذ والشرفات فرحين مهللين ، بينما كان النساء يزغردن والهتافات تدوى بجلجلة ، فى كل مكان ، وسمى الوطنيون هذا اليوم بعيد القنابل .

دور المرأة فى المعركة :

لم تقتصر أعمال المقاومة على الرجال والشباب فحسب ، بل كان للمرأة دور بطولى فى كفاح قوات العدوان فى بورسعيد ، ومنذ اللحظة الأولى للاعتداء ، والنساء يقمن بدورهن ويساهمن بنصيبهن فى المعركة بهمة وشجاعة وكانت تتكون المجموعة النسائية من السيدات والآنسات زينب الكفراوى ، وزينب أبو زيد ، وأفكار العوادلى ، ونجدة عبد الغفار ، وليلى الفخار ، وسلوى الحسينى ، واعتماد

ومن أعضائه السيد بكر ، وحسين الطوبى ، وطلعت سالم ، وأحمد شوقى الحسينى وشاهين عبد العال ، والسيد محمد السرجانى ، ومحمد محمد العسال .

وفى شارع عرفات كمن بعض أفراد التشكيل رقم ٣ وهم محمد عليوه وسعد الاسكندرانى ومحمد الاسكندرانى وصبحى عليوه وعندما مرت بهم سيارتان علوءتان بالجنود البريطانية ألقوا عليها ثمان قنابل يدوية فقتلت الكثير منهم ثم توجه التشكيل السابق بعد ذلك الى مخازن البوليس وأثناء سيره قابلته دورية بريطانية أخرى فالتحم معها وهاجمها بالمدافع الرشاشة وأحرق العربتين اللتين كانتا تنقلان جنود العدوان وبهذه المقاومة الرائعة العنيدة تحولت بورسعيد فى تلك الليلة الى جحيم كما تحولت الشوارع الى مقابر للدوريات البريطانية وتلوثت الأرض وجدران البيوت بدمائهم وأشلائهم . ولم ينم مواطن واحد فى المدينة هذه الليلة ، اذ لم تهدأ الانفجارات لحظة واحدة ولم يكف صوت الرصاص طوال هذه الليلة من ليالى الشتاء الطويل وسيطر الأبطال على شوارع المدينة تماما وكانوا يتنقلون تحت البواكى كما يشاءون وكأنهم خيالات وكانت عندما تتقابل مجموعة من الوطنيين مع أخرى ترتفع الأصوات بكلمة السر بصوت مدوى ويتردد الصدى فى كل مكان بكلمة « جمال » واعتقد الناس بعد أن سمعوا الانفجارات وكلمة جمال تتردد صداها فى أرجاء المدينة أن الجيش المصرى قد دخل المعركة هنا فى بورسعيد .. ففتحوا الأبواب والنوافذ والشرفات فرحين مهللين ، بينما كان النساء يزغردن والهتافات تدوى بجلجلة ، فى كل مكان ، وسمى الوطنيون هذا اليوم بعيد القنابل .

دور المرأة فى المعركة :

لم تقتصر أعمال المقاومة على الرجال والشباب فحسب ، بل كان للمرأة دور بطولى فى كفاح قوات العدوان فى بورسعيد ، ومنذ اللحظة الأولى للاعتداء ، والنساء يقمن بدورهن ويساهمن بنصيبهن فى المعركة بهمة وشجاعة وكانت تتكون المجموعة النسائية من السيدات والآنسات زينب الكفراوى ، وزينب أبو زيد ، وأفكار العوادلى ، ونجدة عبد الغفار ، وليلى الفخار ، وسلوى الحسينى ، واعتماد

مثال الثبات والجرأة مع ما كانت تتعرض له بين لحظة وأخرى الى أشد المخاطر التى قد تودى بحياتها وحياة الطفل الذى تحمله وكأنه زهرة يانعة فوق فوهة بركان.

وهناك مثل آخر لما قامت به المجموعة النسائية من أعمال جليلة خلال المعركة ، وهو تلك التضحية الكبيرة التى قامت بها السيدة — أمينة محمد الغريب — فقد قبلت بأن تحوى بمنزلها بشارع سعد زغلول جهاز اللاسلكى الذى أدخله كمال رفعت بورسعيد لتيسير الاتصال بالقوات الرئيسية خارج المدينة . وكان من اليسير على القوات المعادية بوسائلها الخاصة تحديد مكانه . كما قبلت أن تأوى بمنزلها بعض ضباط الجيش الذين تحملوا عبء ادارة المعركة كالضابط الذى عهد اليه بتشغيل جهاز اللاسلكى سيد عشرة (سفيرنا الحالى فى بولندا) وغيرهما — ولم يبد عليها أى تردد أو خوف فى أى لحظة من لحظات الكفاح — بل قبلت أن تتحمل هذه المسئولية الضخمة بما تحويه من أخطار جسام تهددها هى وأولادها بصدر رحب ونفس راضية ، ولم يكن هذا العمل وحده الذى تحملته هذه السيدة الفاضلة وانما دفعت بأولادها الثلاثة الى جحيم المعركة وهم عبد المنعم ويحيى وهادى وقد قام عبد المنعم بنسف تمثال دليسبس ، كما اشترك يحيى فى دفن جثة مور هاوس بعد أن ظلت فى المنزل الذى وضعت به ثلاثة أيام .

ولا ننسى فى هذا المقام موقف السيدة المجاهدة انصاف د دع التى دفعت بولديها الى المعركة وكانت تحثها على الجهاد والنضال حتى استشهدا ، وتحملت فجيعتها فيهما بصبر الكرماء ، ولهذين الشهيدين قصة نبيلة وحزينة فى آن ذلك أنه فى يوم ٦ نوفمبر عندما اشتدت غارات الطائرات المعادية وبدأ الاسطول الانجليزى والفرنسى فى قصف المدينة بالقنابل، كان ولداها يسرى وجدى بخيت المدرسان ببورسعيد ضمن من انخرطوا للدفاع عن المدينة ، وخرج كل واحد منها وتحت ابطه مدفعه الرشاش ، وتركا أمها الوحيدة بالمنزل — وأثناء تربصها تحت البواكى شاهدا الطائرات تلقى البودرة الحارقة على المنطقة التى يقيمان بها — ورأيا النيران تلتهم المنازل الكائنة فى شوارع عبادى وعرفات وعباس ، وخشى يسرى على والدته من

أن يصيبها مكروه فهب لانقاذها واقتحم منزله وحملها فوق ذراعه اليسرى بينماكان سلاحه لايزال بيده اليمنى . وعند باب البيت كانت هناك رصاصه غادرة تنتظره لتصيب منه مقتلا . فسقط يسرى أمام والدته وتحت بصرها فنظرت اليه زائغة العينين ، وقد عقدت الدهشة لسانها وأذهلتها الفاجعه ، ولكنها تمالكت ثم ركعت تحاول وقف النزيف الذى كان يسيل بغزارة من جراحه ، ولكن يد القدر كانت أسرع فلفظ أنفاسه بين أحضانها - وعندما شاهد شقيقه بخيت هذاالمشهد أسرع نحو والدته لينقذها من الرصاص الغادر الذى كان يدوى فى كل ناحية وحاول جذبها بعيدا عن منطقة الخطر ، ولكن رصاص العدو أصابه هو الآخر فى رأسه فسقط بجوار شقيقه مضرجا بدمائه والأم الثكلى تنقل الطرف بين ولديها الراقدين تحت قدميها فى ذهول وجزع .

عشرات من السيدات ساهمن فى المعركة وقدمن لبلدهن أجل الخدمات ولو أننى استقصيت كل ماقمن به من أعمال لاحتجت إلى مجلد كبير، وأذكر فيما يلى من سقط منهن فى المعركة أثناء قيامهن بأعمالهن الوطنية .وان كن سيبقين خالدات أبدالدهر ، وستظل ذكراهن باقية دائما فى قلوبنا ؛ وهن : فاطمه حسن قريش - نبوية ابراهيم عبد الله - عزيزه حسن الرجال - انصاف عبدالرحمن - فهيمه عبدالرحمن الشاذلى - شفيقة أحمد زقزوق - فاطمه عبد الموجود محمد - وجنات على الصياد - صفيه المرجانى - فاطمه حسن سعد - وليفه محمد حسن - فاطمه أحمد زغلول - انصاف أحمد آدم - بهية محمد حسن - قدرية عبد اللطيف محمد - نفسية محمود تويله - عزيزه محمد عطا الله - هانم داود نويصر - حياة عبده بسام - فاطمة عباس ترك - عواطف داود - عواطف محمود موسى - وحيده ابراهيم الفرارجى - بديعه عيوض عبد الامام - معزوزة السيد موسى - صبحه السيد الكشيش - زكيه عبد العزيز محمد - زينب على الدياسطى - أمينة حسين - شوق محمد بكرى - ياسمين متولى حنفى - زينب حسن محمد - لطيفه مرسى - فريده محمد عبد الغنى - أمينة أحمد حسن - عائشة أحمد هلال - اعتماد عباس الطنطاوى - أنيسه عبدربه - حنيفه حسب الله - أجهان أحمد محمد - زنوبة عبده -

عائشة العيسوى ــ زاهيه عبد الرازق جمعه ــ زينب حافظ مصطفى ــ صابحه البيومى ابراهيم ــ نفسيه أحمد سليمان ــ فوزيه فراج عبد الحافظ ــ نظيمه ابراهيم الحداد ــ وغيرهن كثيرات من النساء المجاهدات اللاتى استشهدن خلال المعركة وقدمن لبلدهن أجل الخدمات .

المجموعة اليونانية .

لم تقتصر أعمال المقاومة على المصريين وحدهم ، وانما رأى اليونانيون أن من حقهم على مصر التى أكرمت ضيافتهم وعاملتهم كما تعامل المصريين سواء بسواء ـ أن يساهموا فى الكفاح جنبا إلى جنب مع أهل البلاد الاصليين ، وقد سبق أن بينا أن الكفاح ضد الانجليز استمر بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ولم يتوقف لحظة واحدة وتكونت فى تلك الأثناء مجموعة تضم بعض اليونانيين الذين تطوعوا بدافع من شعورهم وبوحى من وجدانهم سميت بالمجموعة اليونانية وكان من أفرادها جورج قسطنطين والباملاكوس وبنايوتى مافروماتين وقاموا بالكثير من الأعمال المجيدة التى سيذكرها لهم الوطن على مدى الايام . وقد التأم شمل هذه المجموعة عقب العدوان وساهموا فى الكفاح مع الوطنيين وأبلوا بلاء حسنا وقاموا بأمجد الأعمال .

ومن هذه الأعمال أن قوات العدو عندما اقتحمت المدينة يوم ٦ نوفمبر ، وخرج الوطنيون ورجال المقاومة لملاقاتها ، كانت المجموعة اليونانية فى مقدمة المناضلين ، وحدث أن دفع الحماس بأحد الوطنيين ــ وهو الشهيد السيد/عبد الله ابراهيم ـ أن يخرج من تحت البواكى ، وهو المكان الذى كان يكمن فيه مع بعض أفراد رجال المقاومة ويندفع فجأة نحو الدبابة المتجهة فى شارع محمد على ، ودون أن ينتبه أحد ، ألقى على الدبابة الأولى ـ وكان يطل من فتحتها العلوية أحد الضباط البريطانيين ـ قنبلتين يدويتين من طراز ميلز ٣٦ فانفجرتا فى الدبابة وعطلتها ، وقضت على من كان فيها ، وعندما شاهدت الدبابة الثانية تلك المحاولة الجريئة التى لم تكن فى الحسبان أطلقت الرصاص على البطل الفدائى فسقط على الأرض مضرجا

فى دمائه ، ثم تقدمت من الجثمان المسجى ومرت عليه فرقته تمزيقا واختلطت أشلاؤه بقطع الحجارة وكادت لثقلها أن تدفن ما بقى من جثمانه تكت الثرى . وقع ذلك أمام نظر رجال المقاومة المختبئين تحت البواكى فأطلقوا النار على هذه الدبابة التى ما لبثت أن جاوبتهم بالمثل وتنبه الوطنيون إلى أن البعض يطلق عليهم الرصاص من فوق المنازل الخلفية . وكان العدو قد أسقط عددا من جنود المظلات على أسطح بعض المنازل من الناحيتين الشرقية والغربية وبذلك حوصرت قوات المقاومة بين الدبابات الزاحفة من الأمام وبين جنود المظلات الهابطين من الجو من الخلف وبدأ للحظة أن الوطنيين أصبحوا محاصرين ، وأنه سيقضى عليهم لامحالة ، وهنا تقدم بنايوتى مافروماتيس ومعه مدفعه الرشاش وقال لزملائه انه سيواجه جنود المظلات (القناصة) بمفرده ليتيح الفرصة لهم بالإنسحاب ، ولم ينتظر بنايوتى قرار لوطنيين ، وخرج على الفور من تحت البواكى واتجه ناحية منزل فاقوسه ومحمد عباس حيث كان يربض القناصة الانجليز وفتح عليهم نيران مدفعه الرشاش فجندل بعضهم ، وعندئذ اتجهت اليه أنظار الآخرين وركزوا الضرب عليه فانهمر الرصاص من كل جانب على الفدائى الوحيد الذى ظهر لهم بغتة فى وسط الطريق كالعملاق وظل يحاربهم وحده وكأنه فرقة كاملة . وأخيرا سقط البطل شهيدا بعد أن ضحى بنفسه لينقذ الآخرين من زملائه الذين انسحبوا سالمين إلى منزل عبد المنعم مختار بشارع رشيد ، وبذلك قدم الفدائى بنايوتى مافروماتيس من أعضاء المجموعة اليونانيه مثلا حيا آخر من أعمال البطولة التى كان يقوم بها الوطنيون فى بورسعيد.

ابطال يافعة .

ولم تقتصر أعمال المقاومة على ماذكرت آنفا انما كان لطلبة المدارس الصغار دور كذلك فى الكفاح ولم يمنعهم حداثة سنهم ، كما لم يرهبهم رصاص العدو من المشاركة فى المعركة ولطالما شاهد رجال المقاومة هؤلاء الطلبة الصغار يجرون هنا وهناك ـــ يمدون يد المساعدة لجريح أو يسرعون فى تلبية ماتطلبه المعركة من مساعدات كجلب الطعام أو احضار المياه أو شراء الأدوية.

ولم تجد محاولات رجال المقاومة لابعاد هؤلاء الطلبة أو ايقاف نشاطهم — فقد كانوا يشعرون بأن عليهم رسالة لاتقل عن رسالة اخوانهم الكبار أو آبائهم. ومن أجل ذلك سقط منهم شهداء أيضا ورويت بدمائهم الطاهرة أرض مدينة بور سعيد وضواحيها ، وأسوق القصتين التاليتين كمثلين حيين لما قام به هؤلاء الأبطال الصغار .

لم ينجب المهندس السيد عليمى سوى ولدين ... أحدهما بالمدارس الثانوية . والآخر بالمدارس الاعدادية — وعندما وقع العدوان حملا السلاح وخرجا يقاومانه معا جنبا إلى جنب ، وفى احدى المعارك حاصرتهما دورية بريطانية ، ولكنهما ظلا يقاومانها وحدهما حتى أصابت رصاصة قاتلة الشقيق الأكبر فخر شهيدا ، وعندما انحنى شقيقه عليه وجده قد فارق الحياة فحمل جثمانه على كتفه وعاد به إلى بيته حيث كان والداه ، وتركه معهما ومع الأحزان والدموع ليقفل راجعا إلى المعركة أكثر عزما وأقوى تصميما على القتال وحده لعله ينتقم لشقيقه الوحيد الذى سقط أمام عينيه — أما الأب الحزين فلم يجد أحدا يساعده على دفن ابنه سوى زوجته وسار الزوج مع زوجته وأمامها جثمان البطل بعد أن وضعاه على عربة صغيرة إلى منطقة المقابر ، وهناك حفر الأب بيديه قبر ابنه وأهال التراب عليه .

والقصة الأخرى ـ قصة حسن سليمان محمود الطالب بمدرسة القناة الاعدادية بالصف الثالث ذى الخمسه عشر ربيعا ، وكان الوطنيون يعرفونه جيدا ـ لكثرة تنقله بينهم ولما كان يقدمه لهم من مساعدات ـ وحدث عندما وصلت القوات الدولية فى يوم ١٩٥٦/١١/٢١ وخرج الأهالى فرحين يعبرون عن شعورهم بالنصر كان الطالب حسن سليمان على رأس المظاهرات التى قامت فى هذا اليوم ، ولفت حماسه البالغ أنظار الجميع اليه ، وكان يحمل صورة الرئيس جمال عبد الناصر فرفعه بعض رجال المقاومة على أكتافهم وساروا به أمام المتظاهرين ، وعند تقاطع شارع محمد على وسعد زغلول أمام مكتبة بدره على وجه التحديد ، وفى تمام الساعة

الثالثة من بعد الظهر تصدت للمتظاهرين دورية فرنسية وحاولت تشتيتهم فلم يتمكنوا ، وهدد الفرنسيون باستعمال السلاح أن لم ينزل المتظاهرون الطالب حسن سليمان أو يخفوا الصورة ، فما كان منه الا أن تحداهم ، ورفع صورة جمال بيديه الاثنتين من فوق رأسه وعلا هتافه بسقوط الاستعمار ، ولم يخش البنادق المشهرة نحوه . وظل صوته يدوى بحياة بلده وزعيمها ، ولم يجد الفرنسيون وسيلة لاخماد هذا الصوت سوى الرصاص .وسقط الجثمان اليافع وهو يهتف بحياة بلاده وصورة جمال بين أحضانه .

هاتان صورتان من عشرات الصور البطولية التى قام بها الشباب البرىء لتبدمها للنشأ ذكرى وعبرة .

الفضيحة :

كان للمقاومة الرائعة التى قام بها شعب بور سعيد الأثر المباشر فى هزيمة الانجليز والفرنسيين ، هذه المقاومة التى تجلى فيها التعاون الوثيق بين جميع طوائف الشعب فاشترك فيها الجيش والبوليس والرجال والنساء والأطفال من أفراد الشعب كل بنصيبه فى المعركة ، ولم تكن بور سعيد وحدها التى تحملت عبء الكفاح — بل ان الخطة وضعت على أن وتقاوم جميع مدن مصر وقراها وبشدة أى قوات أجنبية تحاول الوصول اليها أو احتلالها وقد وطد الشعب عزمه على حرب طويلة ، ونظم نفسه على أن يحارب العدو حرب عصابات لاهوادة فيها — ووزعت الأسلحة لهذا الغرض على الشباب والوطنيين وترك الجنود والضباط من رجال الصلحقة أعمالهم بالجيش وتفرغوا لقيادة وتنظيم عمليات المقاومة الشعبية وكان العدو قد بدأ يتحقق من خطة المصريين وماعزموا عليه ، وتجمعت لديه الأخبار بأن الوطنيين فى مصر يعدون لجنود العدوان مقبرة كبيرة ، وأن خسائره ستتضاعف فى كل خطوة يخطوها ، وتيقن بأن الموت يتربص به من كل جانب وقد شعر بذلك من المقاومة المذهلة التى قوبل بها فى بور سعيد والتى استمرت من يوم ٥ نوفمبر حتى رحل عنها جنود العدوان فى ٢٣ ديسمبر ولم تستسلم المدينة كما توقعوا فى أربع وعشرين

ساعة ، وكما أذاعوا فى تصريحاتهم وبياناتهم ، حتى ان موليه رئيس وزراء فرنسا قرر يوم ٧ نوفمبر بأن مدينة الاسماعيلية قد استسلمت وسقطت فى يد القوات الفرنسية فى الوقت الذى كانت فيه القوات المعادية تلقى الأمرين فى بور سعيد وتحاول تثبيت أقدامها فى الأماكن التى نزلت بها . بل انه حدث بعد ذلك أن حاولت بعض قوات المقاومة الزحف جنوبا للاستطلاع فاشتبكت معها المجموعات السرية التى نظمت بالقنطرة والكاب وأصلتها نارا حامية ، وشتت شملها ، وأسرت جنديين بريطانيين مما حدا بهذه القوات إلى التقهقر من حيث أتت قانعة من الغنيمة بالاياب (١) .

وقد اعترف الجميع بوطأة المقاومة الشعبية وكان الأعداء أول من شهدوا بذلك فيقول ونستون تشرشل الابن فى كتابه سقوط ايدن : « واتضح للحليفتين بريطانيا وفرنسا أن القتال فى شوارع بور سعيد الضيقة سيستغرق وقتا طويلا » . كما يقول كذلك فى مكان آخر « انه فى ساعات بعد الظهر دخلت القوات الانجليزية والفرنسية ضواحى المدينة خلال مقاومة مصرية عنيفة جدا » ..

ويقول ارسكين تشيلدرز فى كتاب الطريق إلى السويس : « وأعدت العدة فى بور سعيد لحرب من أعنف حروب الفدائيين وأكثرها دماء ليخوض الشعب المصرى غمارها ضد الغزاة — ولم يكن ثمة هلع أو ذعر وأثبتت فرق المكافحة كفايتها وحسن تدريبها وهرع الشبان والشيوخ الذين يمثلون مختلف نواحى الحياة المصرية الى مراكز التطوع والتدريب فى الميادين العامة ليتسلموا بنادقهم ويتدربوا عليها » .

ووصف كاتب فرنسى شدة المقاومة فى بور سعيد قال : انه حين نزل مع القوات الفرنسية فى بور سعيد وجد الشباب المصرى يقاتل فى اصرار وعناد ورأى شبابا فى سن ١١ ، ١٢ ، ١٣ سنة يحملون السلاح ويقاتلون ببراعة ورباطة الجأش واستبسال .

---

(١) كان من بين هذه المجموعة الملازم محمد عبد المجيد الهلاجى والملازم سلامة عثمان وانضم اليهما مأمور قسم القنطرة المقدم عمرو هيبة .

كما أذاع صحفي سويدي نزل مع القوات المعتدية رسالة من بور سعيد يصف فيها وحشية الانجليز والفرنسيين يوم ٥ نوفمبر والمآسي التي اقترفوها ضد الأهالي ويمجد المقاومة الباسلة التي قام بها الشعب ويصفها وصفا هز العالم .

وقد اعترف الجنرال كيتلي بعنف المقاومة فقال : « لقد قاتلنا ضد شعب جهزت قواته المسلحة بأحدث الأسلحة والطائرات واستماتت أفراده في الدفاع عن بور سعيد بإصرار وعناد وحنكة » .

كما أثبت في تقريره الذي قدمه للوزارة البريطانية بعد ذلك شدة كفاح الوطنيين فقرر « بأن السلطات المصرية وزعت الأسلحة على المدنيين في بور سعيد فراحوا يستخدمونها بطريقة واسعة النطاق وكانوا يلقون القنابل على السيارات العسكرية ويجتهدون لايقاع الدوريات في كمائن أثناء الليل ، وأن القتال الذي دار في شوارع بور سعيد كان معقدا ، لأن الجنود المصريين نزعوا ملابسهم العسكرية واختلطوا مع المدنيين الذين كان كثير منهم مسلحين » .

هذه هي اعترافاتهم الصريحة عن بعض مالاقوه في بور سعيد من مقاومة عنيفة وكانت من أسباب هزيمتهم فقرروا الانسحاب وخرجوا مدحورين إلى بلادهم في يوم ١٩٥٦/١٢/٢٣ .

ومن مفارقات القدر أن الجنرال كيتلي القائد العام البريطاني أحيل بعد العدوان إلى التقاعد ، كما نقل الجنرال استكويل قائد معركة بور سعيد الفاشلة إلى وظيفة كتابية. أما ايدن فقد انهارت أعصابه وترك وزارته في ١٩٥٦/١١/١٠ لبتلر حامل أختام المملكة وهرب إلى جزيرة جامايكا — للاستشفاء. وظل بها حتى استقال من الوزارة في ٩ يناير سنة ١٩٥٧ .

هذا ما كان من أمر ايدن — أما زميله موليه رئيس وزراء فرنسا فقد استقالت وزارته بعد ذلك بقليل في مايو سنة ١٩٥٧ نتيجة لسياسته الخرقاء نحو مصر ..

وهكذا أدت مقاومة الشعب العنيدة في بورسعيد إلى اخفاق وهزيمة حكومتي انجلترا وفرنسا وفضيحتها أمام العالم . وأصبح يوم ٢٣ ديسمبر وصمة عار في جبين الغرب ، كما أضحى في الوقت نفسه عيدا للانتصار في مصر .

الباب التاسع

من ثمار الكفاح

١ – استقلال تام وديموقراطية سليمة :

٢ – اشتراكية عربية :

٣ – تحرير الوطن العربى وتحقيق الوحدة العربية :

٤ – تحقيق الوحدة الافريقية والسلام العالمى :

٥ – دفعة الاسلام والعالم الاسلامى :

١ ـــ استقلال تام وديموقراطية سلمية

اتفاقية الجلاء :

أعلن الرئيس جمال عبد الناصر : « أننا نعلنها عالية مدوية : يجب أن يحمل الاحتلال عصاه على كاهله ويرحل ، أو يقاتل حتى الموت دفاعا عن وجوده » .

ولذا لم يكن أمام الانجليز إلا أن يتخيروا أمرا من اثنين ، الجلاء التام ، أو القتال حتى الموت . وقد لمس الانجليز أن الموقف قد تغير تماما ، فلم تعد هناك حكومات حزبية تمالئهم وتصانعهم وترضخ لأوامرهم وتتغاضى عن مساوئهم ، وشاهدوا قيام حكومة مصرية وطنية من أبناء الشعب المصرى ، بل هى أول حكومة مصرية فى أشخاصها وسياستها تولت حكم مصر منذ العصر الفرعونى . وأدرك الانجليز أن الشعب المصرى ، على اختلاف عناصره يقف كله وراء حكومته الوطنية الحرة . وتأكد الانجليز أن العصر قد تغير ولم يعد فى صالحهم ، وأنه من المحتم عليهم الجلاء التام عن الأراضى المصرية .

وتتضح الروح الجديدة ، التى لم يعهدها الانجليز من قبل ، فى المفاوضات التى دارت بين المتفاوضين المصريين والانجليز ، فقد صرح المفاوض المصرى فى ٢٧ أبريل ١٩٥٣ : « أن مصر ، مصر الحرة لسوف تتطور بسرعة وقوة حتى تستطيع أن تملأ أكثر من الفجوة التى تتخلف من انسحاب القوات البريطانية ، فلسوف تملأ هذه الفجوه لا بالقوات والمعدات وحدها ، بل بحماسة أهلها المنبثقة من كلمة الحرية السحرية . وهذه الحماسة لا تقل أهمية عن القوات والمعدات . وأن مصر لتؤمن إيماناً قوياً باعتمادها على نفسها ، وهى عازمة على أن تكرس قواتها بسواعد أبنائها ومواردها فى أرضها لانشاء قلعة سلام وأمن تصد أى عدوان » .

وبعد عدة اجتماعات تعرضت المحادثات للقطع بين آن وآخر ، وبعد جذب وشد ، توصل المتفاوضان إلى اتفاقية الجلاء التى وقعت بالأحرف الأولى فى ٢٧

يوليو سنة ١٩٥٤ أى بعد مولد الثورة بعامين . وكان توقيع الاتفاقية النهائى فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ .

وضعت هذه الاتفاقية نهاية للاحتلال البريطانى البغيض الذى استمر أكثر من ٧٢ عاماً ، وغادر الانجليز معسكراتهم فى منتصف أبريل سنة ١٩٥٦ أى قبل الموعد المحدد للجلاء بشهرين ، وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر هذا النبأ السار الذى كان له رنة فرح وسرور فى نفس كل مصرى .

كان جلاء الانجليز يخلص مصر تماما ونهائيا من كل تأثير أجنبي ، ويجعل مصر تنتهج سياسة جديدة تمكنها من العمل فى حرية تامة ، فان مصر لا تزال فى حالة حرب مع اسرائيل ، ووجود قوات أجنبية فى الأراضى المصرية قد يهدد مصر بأخطار جسيمة حينما تفكر اسرائيل فى هجوم غادر على الحدود المصرية ، ونحن نعرف احتضان انجلترا ودول الغرب لاسرائيل .

وأصبح جلاء الانجليز نهاية مرحلة ، وبداية مرحلة جديدة ، هى مرحلة البناء ، ولذا قال الرئيس جمال عبد الناصر فى خطابه الذى ألقاه بمناسبة توقيع اتفاق الجلاء : « أيها المواطنون : إن مرحلة من كفاحنا قد انتهت ، ومرحلة جديدة توشك أن تبدأ . هاتوا أيديكم وخذوا أيدينا ، وتعالوا نبنى وطننا من جديد ، بالحب والتسامح والفهم المتبادل » .

استقلال اجتماعى واقتصادى :

ان اتفاقية الجلاء تحرر المجتمع المصرى من كل قيود الماضى وأدران الاحتلال البريطانى . وأصبح الشعب المصرى يعرف مكانه من الحياة المعاصرة ومسئوليته فى توجيهها ، فهو من ناحية يحافظ على مقوماته الأصيلة ، ويلائم بين مقتضيات التطور من ناحية أخرى . وبالتخلص من الاحتلال والاقطاع ، تخلص المجتمع من تلك الاستجابة الآلية لنزوات الأسرة المالكة والحكومات الحزبية ، وبرىء

المجتمع من آفة الارتجال والخيانة ، وأصبحت الحياة تسير فى طريقها عن هدى وبصيرة . وتدفقت دماء جديدة فى تلك الشرايين التى ضمرت وأهملت منذ أمد بعيد ، وتمت الوحدة الاجتماعية على أساس صحيح ، وعلى صورة إيجابية فعالة تؤدى إلى نفع جميع المواطنين على حد السواء .

وكانت كل الخطوات التى سارت فيها الثورة المؤيدة بالكتلة الشعبية المتماسكة تؤدى إلى الهدف الذى رسمه زعيم الثورة وقائدها ، ونجحت كل الخطوات لسببين، أولها تماسك الكتلة الشعبية وإيمانها بالهدف الذى رسمه قائدها .. وثانيهما إيمان القائد الزعيم وإصراره على الوصول إلى الهدف .

نجحت الثورة فى تحقيق الاستقلال الكامل ، وأقامت سياسة استقلالية على أسس الحياد الايجابى وعدم الانحياز . وإرساء قواعدالبناء الاجتماعى الذى يقوم على أسس العدالة الاجتماعية ، والديموقراطية ، وتكافؤالفرص ، واشتراكية عربية تحقق الكفاية والعدل .

تحدث السيد الرئيس فى الميثاق عن نتائج العمل الديموقراطى فقال : « إن العمل الديموقراطى فى هذه المجالات سوف يتيح الفرصة لتنمية ثقافة نابضة بالقيم الجديدة عميقة فى احساسها بالإنسان صادقة فى تعبيرها عنه ، قادرة بعد ذلك كله على إضاءة جوانب فكره وحسه وتحريك طاقات كامنة فى أعماقه خلاقة ومبدعة ينعكس أثرها بدوره على ممارسته للديموقراطية وفهمه لأصولها وكشفه لجوهرها الصافى النقى .

٢ - اشتراكية عربية :

ظلت مصر عصوراً طويلة محرومة من كل اصلاح فى أى ميدان من الميادين ، وهذا الحرمان طال عليه الزمن حتى تعقد وأصبح من العسير القضاء عليه إلا بقوى جبارة لاتتوفر إلا فى مثل النظام الاشتراكى . وقد جربت مصر أنواعا مختلفة من الحكم الحزبى الفاسد الذى أدعى نوعا من الديموقراطية الزائفة ، وأخفقت هذه

الحكومات الحزبية فى اصلاح أحوال المجتمع المصرى . وأصبحت مصر فى أشد ماتكون إلى التماسك والتآزر والوحدة حتى تستطيع أن تقوى ماديا وروحيا ، حتى تواجه مشكلاتها الداخلية والمؤامرات الخارجية وأصبحت مصر قبل الثورة فى حاجة إلى إيجاد نوع من التوازن بين الطبقات فيها ، فلا تطغى طبقة، ولا تتحكم جماعة فى جماعة . أو قلة فى أغلبية .

أصبحت مصر فى حاجة إلى (الحرية الاجتماعية) وليس هناك طريق لتحقيق هذه الحرية الاجتماعية غير الاشتراكية ، التى تحقق الكفاية والعدل ، وتخلص مصر من التخلف الاقتصادى والاجتماعى ، ولذا أصبح الحل الاشتراكى حتمية تاريخية . قال الرئيس فى الميثاق : « أن الحرية الاجتماعية لايمكن أن تتحقق إلا بفرصة متكافئة أمام كل مواطن فى نصيب عادل من الثروة الوطنية ، وقد كافح الشعب سنين طويلة من أجل هذه الحرية وكان يكافح الاستعمار فى الخارج والداخل بينما كان يحطم القيود التى فرضت عليه ليبنى مجتمعه الحر على أسس واقعية تسنده ديمقراطية حقيقية سليمة — ولم يكن أمام شعبنا من وسيلة إلا الاشتراكية » إن الاشتراكية العملية هى الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم » وكان يتعين وصولا إلى اشتراكية سليمة صحيحة أن لاتترك رأس المال حراً دون قيد . ويقول الميثاق :

« أن رأس المال فى تطوره الطبيعى فى البلاد التى أرغمت على التخلف لم يعد قادراً على أن يقود الانطلاق الاقتصادى ، وهذا راجع إلى نمو الاحتكارات الرأسمالية الكبرى فى البلاد المتقدمة اعتماداً على استغلال موارد المستعمرات . وهذا النمو المتزايد للاحتكارات العالمية لم يترك أمام الرأسمالية المحلية فى البلاد التى تمضى فى طريق التقدم والتحرر ، إلا سبيلين ذكرهما الميثاق :

« أولهما : أنها لم تعد تقدر على المنافسة إلا من وراء أسوار الحسابات الجركية العالية التى تدفعها الجماهير .

ثانيهما : أن الأمل الوحيد لها فى النمو هو أن تربط نفسها بحركة الاحتكارات العالمية وتقتفى أثرها وتتحول إلى ذيل لهـا وتجر أوطانها وراءها إلى هـذه الهاوية الخطيرة » .

كما أن اتساع الهوة بين الذين سبقوا إلى التقدم ، والذين مازالوا فى دور التخلف ، لم تعد تسمح بأن يصبح منهاج التقدم متروكا للجهود الفردية العفوية التى لا يحركها غير واقع الربح الأنانى . وقد حدد الميثاق ثلاثة شروط لمواجهة التحدى هى : تجميع المدخرات الوطنية ، ووضع كل خبرات العلم الحديث فى خدمة استثمار هذه المدخرات ، ووضع تخطيط شامل لعملية الانتاج . ويقابل زيادة الانتاج أيضا عدالة التوزيع ، مما يحتم ضرورة وضع برامج شاملة للعمل الاجتماعى تعود بخيرات العمل الاقتصادى ونتائجه على الشعب العامل ، مما يحقق له الرفاهية . وبطبيعة الحال ، لا يمكن ترك العمل من أجل زيادة قاعدة الثروة الوطنية لعفوية رأس المال الخاص المستغل ، ونزعاته الجامحة . ويصبح من المحتم سيطرة الشعب على كل أدوات الانتاج ، وعلى توجيه فائضها طبقاً لخطة محددة .

ولـكن سيطرة الشعب على أدوات الانتاج لا تؤدى إلى تأميم كل وسـائل الانتاج ، ولا تلغى الملكية الخاصة ، ولا تمس حق الإرث الشرعى . ولـكن هذه السيطرة تتم بطريقين : أولهما ، خلق قطاع عام وقادر يقود التقدم فى جميـع المجالات ويتحمل المسئولية الرئيسية فى خطة التنمية . وثانيهما ، وجود قطاع خاص يشارك فى التنمية فى إطار الخطة الشاملة لها من غير استغلال . ويخضع القطاعات لرقابة الشعب .

ومن أسس المجتمع الاشتراكى ، الاهتمام بالصناعة والتصنيع مما يحقق زيادة الانتاج ، يخرج بالمجتمع من مرحلة الزراعة إلى مرحلة الصناعة ولا تبقى الأقطار العربية حقول بترول ومزارع قطن وأسواقا لمنتجات المصانع الغربية .

قال الرئيس فى إحدى خطبه القيمة : « كلنا نعرف أن المصانع الأجنبية الاستعمارية

كانت تعمل على الحد من نشاطنا الصناعى . كانت تعمل على وقف التوسع الصناعى. ولكن حينما كانت الثورة السياسية تأخذ طريقها للقضاء على الاستعمار البريطانى ، والقضاء على الاستبداد السياسى كانت الثورة الاجتماعية تأخذ طريقها فى نفس الوقت لبناء أساس اقتصادى سليم ،واجتماعى سليم » .

ومن أسس المجتمع الاشتراكى الجديد فى مصر تقديم الخدمات العامة للمواطنين جميعاً فى مساواة تامة وهذه النظرية تعتبر حجر الزاوية فى بناء مجتمع حر كريم ، وقد كافح الشعب المصرى طويلا للوصول إلى المساواة الكاملة فى الحقوق والواجبات . وقد خلف المجتمع الاقطاعى البائد رواسب كثيرة فى المجتمع المصرى ، وخلق فى أجزائه أنواعا من التنافر وألواناً من الظلم الاجتماعى ليوجد نوعا من الصراع الداخلى يستطيع أن ينفذ خلاله الى حقيقة الكفاح الشعبى ليحطمه واصبح الحل الاشتراكى هو السبيل الأول والوحيد لتوفير الخدمات العامة للمواطنين جميعاً مما يحقق الرفاهية وهو رخاء للجميع على قدم المساواة .

جاء فى الميثاق : « أن ذلك الحل الاشتراكى هو الطريق الوحيد الذى يمكن أن تلاقى عليه جميع العناصر فى عملية الانتاج على قواعد علمية وانسانية تقدر على مد المجتمع بجميع الطاقات التى تمكنه من أن يضع حياته من جديد وفق خطة مرسومة مدروسة وشاملة » .

« أن التخطيط الاشتراكى الكفء هو الطريقة الوحيدة التى تضمن استخدام جميع الموارد الوطنية — المادية والطبيعية والبشرية بطريقة عملية وعلمية وانسانية لكى تحقق الخير لجموع الشعب وتوفر لهم حياة الرفاهية .

وان ذلك لايقتصر على مجرد إعادة توزيع الثروة الوطنية بين المواطنين ، وإنما هو يتطلب أولا ، وقبل كل شىء ، توسيع قاعدة هذه الثروة الوطنية ، بحيث تستطيع الوفاء بالحقوق المشروعة لجماهير الشعب العاملة . إن ذلك معناه أن الاشتراكية بدعامتيها من الكفاية والعدل هى طريق الحرية الاجتماعية .

« إن الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي في مصر وصولا ثوريا إلى التقدم لم يكن افتراضا على الانتقاء الاختياري،وإنما كان الحل الاشتراكي حتمية تاريخية فرضها الواقع ، وفرضتها الآمال العريضة للجماهير ، كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم في النصف الثاني من القرن العشرين » .

أصبحت مصر بعد الثورة في حاجة إلى مجتمع جديد،ولكن هذا المجتمع لا يقوم على أسس هدم الفساد فحسب ، بل يقوم على أساس بناء قيم جديدة ، لأن الثورة تعرف أن هدم الفساد ليس هو العمل الأول ، ولكن العمل الأول هو بناء الأسس الجديدة بعد التخلص من فساد الماضي .

وإذا كانت عمليات الهدم تتم بسرعة ، فإن عمليات البناء تحتاج إلى زمن أطول كثيرا ، كما أن تخطيط البناء يحتاج إلى دراسة عميقة ، وتقدير للظروف ، وإعداد كل الامكانيات اللازمة لنجاح البناء ، والوصول إلى الهدف .

ومن أسس المجتمع الاشتراكي تحرير الاقتصاد المصري ، وهناك نوعان من الضغط تعرض لهمـــا المجتمع المصري في أول عهد الثورة ، أولهما ضغط خارجي تمثل في الحصار الاقتصادي والضغط الاقتصادي ، وثانيهما ضغط داخلي تمثل في الاستغلال والانتهازية والظلم الاجتماعي .

تحدث الرئيس في خطاب له عن الضغط الأول فقال : « بدأ الاستعمار بالحصار الاقتصادي والضغط الاقتصادي ، وطبعا كان يعتقد أنه بهذا يستطيع أن يخلق ثغرة بين الشعب وبين الحكومة . جمد أموالنا ومنع عنا طلباتنا ، وعمع بكل الوسائل حتى لا نبيع القطن . ولكنا كانت لنا سياسة معينة محددة . أن نبيع لمن يشتري منا بأكبر ثمن ، ونشتري ممن يبيع لنا بأقل ثمن ، مصلحتنا محددة ، وفتحنا أســواقا واستطعنا أن نقضي على مؤامرات الاستعمار التي وجهها ضد ثورتنا الاجتماعية .

« استطعنا أن ننتصر على الحصار الاقتصادي ، واستطعنا أن ننتصر على تجميد

الأموال، واستطعنا أن ننتصر على الضغط الاقتصادى . طبعا بتضحيات ، وتضحيات ليست كبيرة ، ولكن انتصرنا فى هذه المرحلة من مراحل الثورة الاجتماعية . ان الاستعمار يهدف من هذا إلى إثارة الشــك والبلبلة وخلق حرب بين الطبقات وتذمر بين الناس » .

أما الضغط الثانى، فهو ضغط الاستغلال والظلم الاجتماعى والانتهازية والرجعية، وقد تخلفت هذه العناصر عن العهود الغابرة ، وهذه العناصر تقف فى طريق رفاهية الشعب ، فقال السيد الرئيس فى خطاب له : « الدستور حدد أن الغرض خلق مجتمع ترفرف عليه الرفاهية . هل إذا كانت أقلية تستعبد الأكثرية يكون هذا المجتمع ترفرف عليه الرفاهية ؟ قطعا لا . لأننا كنا فى الماضى نعــانى من سيطرة الأقلية المتنفعة على الأغلبية . هل إذا كان الاستغلال هو العامل الأساسى فى التعامل يكون هناك مجتمع ترفرف عليه الرفاهية . لايمكن أن يكون هناك مجتمع ترفرف عليه الرفاهية إذا كان هناك استغلال بأى وسيلة من الوسائل . استغلال للانســان أو استغلال للفرصة . أو استغلال اجتماعى أو استغلال سياسى أو استغلال اقتصادى .

« هل يمكن إذا استمر الظلم الاجتماعى أن يتحقق المجتمع الذى ترفرف عليه الرفاهية . أو إذا سيطرت الانتهازية أو إذا سيطرت الرجعية أو إذا سيطرت الرغبة فى الانتفاع . كلنا نعرف أن الوطنية كانت باستمرار لاتسير أو تتمشى مع الانتهازية . ولا مع الاستغلال أو الرجعية ، لأن الرجعية تعتبر الوطنيــة أول أعدائها » .

٣ ـ تحرير الوطن العربى
وتحقيق الوحدة العربية

الوحدة العربية فى الميثاق :

نالت الوحدة العربية نصيبا كبيرا من الميثاق ، فالجمهورية العربية المتحدة جزء من الوطن العربى الكبير ، وهى مسئولة عن توفير وسائل التقدم داخل الجمهورية وفى كل مكان فى هذا الوطن العربى . وقد أصبح الوجود العربى حقيقة واقعة ، وأصبحت مقومات الوحدة العربية غنية عن التعريف،فهى تقوم على أساس وحدة اللغة العربية التى تطبع الثقافة والعقلية والنفسية والشخصية بالطابع العربى ، وعلى أساس وحدة التاريخ ، والتاريخ هو ذاكرة كل أمة وسجل حياتها المشتركة ، وعلى أساس وحدة الآلام والآمال ، ووحدة الأهداف والصف والمصير .

فقال الميثاق : « إن مسئولية الجمهورية العربية المتحدة فى صنع التقدم وفى تدعيمه وحمايته تمتد لتشمل الأمة العربية . أن الأمة العربية لم تعد فى حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها . لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربى ذاته . يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل . ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التى تصنع وحدة المستقبل والمصير » .

حقاً تقوم بعض خلافات بين بعض دول عربية من وقت لآخر ، وهى خلافات بين حكومات ، وليس خلافاً بين أبناء الشعب العربى الكبير ، فهناك ـ للأسف ـ بعض حكومات لاتزال تتصف بالرجعية ومهادنة الاستعمار ولكن هذه الخلافات أضعف من أن تضعف أسس الوحدة العربية ، وأن لقاء القوى التقدمية الشعبية فى الدول العربية لقادر على تحطيم هذه الخلافات وتلك النزعات الرجعية الانتهازية .

وفى هذا يقول الميثاق : « إن الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أساسها مستدلين بقيام خلافات بين الحكومات العربية ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية . إن مجرد وجود خلافات هو فى حد ذاته دليل على قيام الوحدة . إن هذه الخلافات تنبع من الصراع الاجتماعى فى الواقع العربى . واللقاء بين القوى التقدمية الشعبية فى كل مكان من العالم العربى والتجمع الذى تقوم به العناصر الرجعية والانتهازية فى العالم العربى هو الدليل على وحدة التيارات الاجتماعية التى تهب على الأمة العربية وتحرك خطواتها وتنسيقها عبر الحدود المصطنعة .

« إن التقاء القوى التقدمية الشعبية على الأمل الواحد فى كل مكان من الأرض العربية ، وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة فى كل مكان من الأرض العربية هو فى حد ذاته دليل على الوحدة أكثر مما هو دليل على التفرقة . ان مفهوم الوحدة العربية تجاوز النطاق الذى كان يفرض التقاء حكام الأمة العربية ليكون من لقائهم صورة للتضامن بين الحكومات » .

وإذا اختلفت بعض الحكومات العربية فى الأهداف ، فإن الشعوب العربية متفقة تماما فى أهدافها . أهداف الحرية والتحرر والاستقلال والرفاهية . لقد قطع الوطن العربى شوطاً كبيراً ، فاجتاز مرحلة الثورة السياسية ضد الاستعمار ، وانتقل إلى مرحلة كبرى أخرى ، هى مرحلة الثورة الاجتماعية . وأن اعتماد المستعمرين على الجماعة الرجعية الانتهازية فى بعض الدول العربية ، جعل الشعب العربى يدرك أهمية وحتمية الثورة الاجتماعية وهذه الثورة الاجتماعية ستدفع بالأمة العربية إلى وحدة الهدف .

يقول الميثاق : « إن مرحلة الثورة الاجتماعية تقدمت بهذا المفهوم السطحى للوحدة العربية ، ودفعت به خطوة إلى مرحلة أصبحت فيها وحدة الهدف هى صورة الوحدة . إن وحدة الهدف حقيقة قائمة عند القواعد الشعبية فى الأمة العربية كلها . واختلاف الأهداف عند الفئات الحاكمة هو صورة من صور التطور الحتمى الثورى واختلاف مراحله بين الشعوب العربية . لكن وحدة الهدف عند

القواعد هى التى ستتكفل بسد الفجوات الناشئة من اختلاف مراحل التطور .
إن وحدة الأمة العربية قد وصلت فى صلابتها إلى حد أنها أصبحت تتحمل مرحلة الثورة الاجتماعية » .

« إن وحدة الهدف لابد أن تكون شعار الوحدة العربية فى تقدمها من مرحلة الثورة السياسية إلى الثورة الاجتماعية . ولا بد أن ينبذ الشعار الذى جرت تحته مرحلة سابقة من النضال الوطنى هى مرحلة الثورة السياسية ضد الاستعمار . إن الاستعمار الآن غير مكانه ولم يعد قادراً على مواجهة الشعوب مباشرة ، وكان مخبؤه الطبيعى بحكم الظروف داخل قصور الرجعية . ان الاستعمار نفسه ، دون أن يدرى ، ساهم فى تقريب يوم الثورة الاجتماعية ، وذلك حين توارى بمطامعه وراء العناصر المستغلة يوجهها ويحركها » .

ويبين الميثاق أن العمل العربى لابد أن يعتمد على خبرات وتجارب الأمة العربية التى استمدتها على طوال العصور التاريخية ، كما يعتمد على روحها الثورية ، وإرادتها القوية ، ويجب أن تكون وسائل الوحدة العربية متكافئة مع شرف الهدف . وطريق الوحدة طريق طويل ، ولكنه يوصل الأمة العربية إلى هدفها الأسمى ، وهو الوحدة . وقد يقنع الشعب العربى الكبير بقيام وحدة جزئية ، بين شعبين عربيين أو أكثر ، كتمهيد للوحدة العربية الكبرى الشاملة .

ويقول الميثاق : « والعمل العربى فى هذه المرحلة يحتاج إلى كل خبرة الأمة العربية مع تاريخها الطويل المجيد ، ويحتاج إلى حكمتها العميقة ، بقدر حاجته إلى ثوريتها وإرادتها على التغيير الحاسم . إن الوحدة لايمكن ، بل ولا ينبغى ، أن تكون فرضا ، فإن الأهداف العظيمة للأمم يجب أن تتكافأ أساليبها شرفا مع غاياتها . ومن ثم فإن القسر بأى وسيلة من الوسائل عمل مضاد للوحدة . انه ليس عملا غير أخلاقى فحسب ، وإنما هو خطر على الوحدة الوطنية داخل كل شعب

من الشعوب العربية ، ومن ثم بالتالى فهو خطر على وحدة الأمة العربيـــة فى تطورها الشامل .

« وليست الوحدة العربية صورة دستورية واحدة لامنـــاص من تطبيقها ، لـكن الوحدة العربية طريق طويل ، قد تتعدد عليه الأشكال والمراحل وصولا إلى الهدف الأخير . أن أى حكومة وطنية فى العـــالم العربى ، تمثل إرادة شعبها ونضاله فى إطار من الاستقلال الوطنى ، هى خطوة نحو الوحدة من حيث أنها ترفع كل سبب للتناقض بينها وبين الآمال النهائية فى الوحدة .

« أن أى وحدة جزئية فى العالم العربى ، تمثل إرادة شعبين أو أكثر من شعوب الأمة العربية هى خطوة وحدوية متقدمة ، تقرب من يوم الوحدة الشاملة ، وتمهد لها ، وتمد جذورها فى أعماق الأرض العربية . إن مثل هذه الظروف تمهد الطريق للدعوة إلى الوحدة الشاملة » .

واجبات الجمهورية العربية المتحدة نحو الوحدة العربية :

أصبحت الجمهورية العربية المتحدة مركز اشعاع ، تخرج منه اشعاعات الحرية والتقدمية إلى ارجاء العالم العربى . كما أصبحت الجمهورية قدوة تحتذيها سائر الدول العربية ، وطليعة للتحرر والوحدة والتقدم الاجتماعى .

ومن ثم فقد أدت الجمهورية العربية المتحدة واجباتها نحو الشعوب العربية ، فأيدت جميع الثورات التقدمية ، وألقت بكل طاقاتها فى معارك التحرير العربية فى كل مكان سعيا وراء تحرير المواطن العربى من الاستعمار والرجعية والانتهازية .

وضح الميثاق واجبات الجمهورية العربية المتحدة نحو الأمة العربية ووحدتها الشاملة ، فقال : « والجمهورية العربية المتحدة ، وهى تؤمن بأنها جزء من الأمة العربية ، لابد أن تنقل دعوتها والمبادىء التى تتضمنها لتكون تحت تصرف كل مواطن عربى ، ولا ينبغى الوقوف لحظة أمام الحجة البالية القديمة التى قد تعتبر ذلك تدخلا منها فى شئون غيرها .

« وفى هذا المجال ، فإن الجمهورية العربية المتحدة لابد لها أن تحرص على أن لاتصبح طرفا فى المنازعات الحزبية المحلية فى أى بلد عربى ، أن ذلك أمر يضع دعوة الوحدة ومبادئها فى أقل من مكانها الصحيح .

« وإذا كانت الجمهورية العربية المتحدة تشعر أن واجبها المؤكد يحتم عليها مساندة كل حركة شعبية وطنية ، فإن هذه المساندة يجب أن تظل فى إطار المبادىء السياسية ، تاركة مناورات الصراع ذاته للعناصر المحلية تجمع له الطاقات الوطنية وتدفعه إلى أهدافه وفق التطور المحلى وإمكانياته .

« كذلك فإن الجمهورية العربية المتحدة مطالبة بأن تفتح مجال التعاون بين جميع الحركات الوطنية التقدمية فى العالم العربى . أنها مطالبة بأن تتفاعل معها فكريا من أجل التجربة المشتركة . لكنها فى نفس الوقت لاتستطيع أن تفرض عليها صيغة محددة لصنع التقدم » .

ثورة رائدة :

كانت ثورة ٢٣ يوليو هى نقطة الانطلاق نحو تحقيق الوحدة العربية . فقد خاضت هذه الثورة معركة النضال العربى على هدى وبصيرة ، وتصدرت للدعوة القومية العربية ، ورفعت شعار وحدتها ، ونادت بأن لا أمل فى تحقيق القومية العربية إلا إذا توحدت الدول العربية التى شاء الاستعمار أن يصطنع لها حدوداً واهية وأن يفرق ما أراد الله أن يوحد مستهدفاً من وراء ذلك اضعاف الروح القومية وأن يظل الوطن العربى عاجزاً عن أن ينهض بمسئولياته أو يحقق مطامعه أو يسير فى طريق التقدم .

ومما لاشك فيه أن ثورة ٢٣ يوليو كان لها أثر كبير فى جميع الشعوب فى البلدان العربية — خاصة الدول التى لم تنل حريتها بعد — وكما يسرى التيار الكهربى فى المادة الطيعة سرى مفعول ثورة ٢٣ يوليو بين الشعوب العربية . فتطلعت إلى الاستقلال وسعت إلى الحرية وقام شعب الجزائر بالثورة فى ديسمبر سنة ١٩٥٤

وانتصر على الاستعمار الفرنسى الذى استمر مائه وثلاثين عاما وقام العراق بثورته الأولى فى نوفمبر سنه ١٩٥٢ ، ثم أعقبها بثورة ١٤ يوليو سنه ١٩٥٨ — ثم تحرك السودان الشقيق فى ١٩٥٨/١١/١٧ — وسعت سوريا إلى طلب الوحدة مع مصر فتمت فى ١٩٥٨/٢/٢١ .

حدث كل ذلك فى أعقاب ثورة ٢٣ يوليو العظيمة — ولم تقف الجمهورية العربية المتحدة من هذه الثورات موقفا سلبياً جامداً ، بل عاونتهما جميعا وألقت بكل طاقاتها فى معارك التحرير العربية فى كل مكان سعياً وراء تحرير المواطن العربى من ربقة العبودية — ولم تدخر وسعا فى سبيل تحقيق هذه الغاية النبيلة — بل ساهمت مساهمة فعالة فى جميع هذه المعارك بالمال والعتاد والجيوش فى بعض الأحيان إيماناً منها بأن الإنسان العربى أياً كان موطنه — ماهو إلا مواطن فى الوطن الواحد — فى ارتقائه إرتقاء للكل وفى رخائه وسعادته رخاء وسعادة للمجموع .

فاذا كان يحدث لو أن الجمهورية العربية أغلقت على نفسها أبوابها وبدأت تنظم شئونها وهى كانت فى أمس الحاجة إلى ذلك التنظيم بعد الثورة — دون أن تعير أدنى اهتمام لما يجرى وراء حدودها وبالذات فى داخل حدود الدول العربية ؟

ماهو مصير تلك الدول لو أن الجمهورية العربية المتحدة أصمت أذنيهما عن نداءات التحرر التى كانت تنبعث من هذه الدول عقب ثورة ٢٣ يوليو ؟ مما لا مراء فيه أن التاريخ كان سيطالعنا بوجه آخر مخالف لما نراه الآن تمام الاختلاف — وجه كريه لانرضاه .

ولكن الجمهورية لم تغلق أبوابها فى وجه هذه البلدان التى رزئت بالاستعمار — وتقدمت تساعدها بيد بينما كانت تنفض باليد الأخرى غبار السنين المتراكم على البلاد ، ولم ينكر أحد كائنا من كان بجهود الجمهورية فى هذا المجال — وقد نوه زعماء الجزائر فى الخطاب الذى ألقوه فى ٥ مايو سنة ١٩٦٣ عندما زار الرئيس جمال عبد الناصر الجزائر فقالوا :

(وقف معنا عبد الناصر فى الوقت الذى لم نجد فيه من يؤازرنا فى الشرق أو الغرب) وقالوا عند بدء الثورة الجزائرية فى أواخر سنة ١٩٥٤ (جاءت أول باخرة مصرية محملة بالأسلحة الى ليبيا الشقيقة واتفق جمال عبد الناصر مع المسئولين فى ليبيا أن يسلموها لنا ثم جاءت بعد ذلك سفينة ثانية وثالثة ورابعة) .

ولم تكتف الجمهورية بمساعدتها المادية ، بل انها تبنت قضية الجزائر أمام المحافل الدولية كمؤتمر باندونج وغيره مما كان له أكبر الأثر فى نجاح ثورة الجزائر — مما أوغر صدر فرنسا . فاشتركت فى العدوان على مصر فى سنة ١٩٥٦ (١) .

ومهما كان الأمر فقد نجحت ثورة الجزائر وانهزمت فرنسا فى مصر وفى الجزائر معا .

وكما تحررت الجزائر من طغيان فرنسا تحرر العراق من سيطرة انجلترا فقامت فيه الثورة فى نوفمبر سنة ١٩٥٢ فى أعقاب ثورة ٢٣ يوليو ثم جاءت ثورة ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ التى أطاح فيها شعب العراق بحكم نورى السعيد المظلم — وقد درجت هذه الثورة على هدى ثورة ٢٣ يوليو — ويؤكد ذلك الأستاذ فؤاد الركابى فى كتابه « على طريق الثورة » فيقول : « ومن اللحظة التى قامت فيها الجمهورية العربية المتحدة وكنتيجة مباشرة لقيامها تطور هدف التحرر وهدف الوحدة الى مستوى جديد نوعى بحيث أصبح نضال الجماهير فى العراق هدفه طرد الاستعمار والقضاء على عملائه وأصبح هدف الوحدة يعنى فعلا الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة التى أصبحت نواة للوحدة العربية الشاملة وبسبب هذا التطور الاستراتيجى اتجاه هدف الوحدة والتحرر — وأثر هذا التطور فى عقلية ونفسية الجماهير أمكن قيام ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ » .

ثم سعى العراق بعد انقلاب ١٢ فبراير سنة ١٩٦٣ الى الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة وتم لها ذلك — كخطوة فى سبيل الوحدة الشاملة .

---

(١) قررت الجمعية الوطنية الفرنسية فى يوم ١٩/١٢/١٩٥٦ بأن سبب عدوان فرنسا على مصر سنة ١٩٥٦ هو رغبتها فى القضاء على ثورة الجزائر — التى اعتمدت على مصر .

واذا كان ذلك تأثير ثورة ٢٣ يوليو فى ثورتى الجزائر والعراق فان مصر كانت لها اليد الطولى فى استقلال السودان وفى الانقلاب الذى حدث بعد ذلك .

فعقب ثورة ٢٣ يوليو ، وبالتحديد فى الثانى من نوفمبر عام ١٩٥٢ ، طلب مصر من انجلترا بصفتها شريكة معها فى حكم السودان تحقيق رغبة القطر الشقيق فى تقرير مصيره — ولكن بريطانيا ماطلت وسوفت ووضعت العراقيل أمام طلب مصر العادل . ولم يذعن الجانب المصرى لألاعيب بريطانيا ووقف بجانب الحق الذى قامت الثورة من أجل اقراره ودافع عن الحرية التى كانت أحد أهدافها .

أيحق للثورة أن تنكر على غيرها ما تطلبه لنفسها ؟؟.

وهل يجوز لها أن تطالب بالحرية فى الوقت الذى تأباه وتمنعه عن جيرانها ؟ وأخيرا وتحت ضغط مصر رضخت بريطانيا ووقع الجانبان فى ١٩٥٣/٢/١٢ اتفاقية سمحا فيها للسودانيين بالحكم الذاتى وحق تقرير مصيرهم — وبعد فترة الانتقال التى قررتها الاتفاقية تسلم السودانيين مقاليد الحكم لأول مرة وباشروا فى أول يناير سنة ١٩٥٦ حكم البلاد — وهكذا استقل السودان بفضل مساعى مصر المتواصلة — وقد حاول الانجليز بعد ذلك التدخل فى شئون السودان مختفين خلف بعض الوزراء من عملائهم ولكن السودانيين قاموا يدافعون عن استقلالهم بالقوة — فقامت ثورة الجيش فى ١٩٥٨/١١/١٧ واستولى على الحكم وطهر البلاد من عملاء الانجليز — وأخذ يصلح ما افسده الانجليز طوال حكمهم البغيض .

قد جاء انقلاب السودان صورة مصغرة من ثورة ٢٣ يوليو — مقتفيا أثرها سائرا على نمطها متأثرا بها .

وكما سعى العراق فى طلب الوحدة مع مصر سعت سوريا قبل ذلك واجتمع لتحقيق ذلك الرئيس شكرى القوتلى وجمال عبد الناصر وأعلنا فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٨ بأن « اتفاقهم التام وايمانهم الكامل وثقتهم العميقة بوجوب توحيد سوريا ومصر فى دولة واحدة تسمى الجمهورية العربية المتحدة ، وبتاريخ ١٩٥٨/٢/٢١ أسفر الاستفتاء فى مصر وسوريا على اقرار الوحدة الشاملة .

وانتخب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) وظفرت سوريا فى ظل الوحدة وفى مدى قصير طفرة لم تبلغها طوال مئات السنين التى سبقت الوحدة — فعملت مصر على تحرير المواطن السورى سياسيا واقتصاديا ويسرت له حياة رغدة كريمة - بعد أن دعمت الاقتصاد السورى وضاعفت الدخل القومى - واستولت لصالح الشعب على جميع شركات الاحتكار ثم صدر قانون الاصلاح الزراعى ووزعت الدولة على الفلاحين مايزيد على ٥٦١١٢٣ هكتارا كانت فى يد قلة من الرأسماليين المستغلين وقررت الجمهورية كذلك أن يكون للعمال ربع أرباح الشركات السورية ، وبذلك أصبح العامل شريكا فى المصنع الذى يعمل به بعد أن كان عبدا فيه تطبيقا لمبدأ الاشتراكية السمح . ولكن الاستعمار كان يتربص بالجمهورية الفتية فدبر انقلابا فى ١٩٦١/٩/٢٨ ضد الوحدة وضد رغبة الشعب السورى لصالح طائفة الرأسماليين والرجعيين ، ولما كانت مصر لاتبغى من وراء الوحدة غير رفاهية المواطن السورى وخشية اهدار الدم العربى آثرت مصر أن يترك أمر الوحدة للشعب السورى ليقول فيها كلمته بعد أن ترفع عن كاهله القيود وتنكسر من حول يديه الأغلال .

ثم قامت بعد ذلك ثورة الجيش فى اليمن ضد حكامه المستبدين الذين عاثوا فى الأرض فسادا أجيالا طويلة - ذاق الشعب خلالها الوانا من العسف وضروبا من الظلم قلما سمعنا بمثلها فى أحلك العصور وأشدها ضراوة وظلمه فكان الملك - أو الامام كما كانوا يلقبونه - يمارس عمليات القتل فى الناس جملة وقطاعى - دون محاكمة فى أى وقت يشاء ولأى سبب يراه - ولم يكن للشعب من عمل غير جمع الأموال وتسليمها له لكى يكدسها فى صناديق من ذهب طبقات بعضها فوق بعض فى أقبية قصره ولم يكن غريبا والحالة كذلك أن تنتشر الأمراض ويتفشى الجهل بين الناس وينشب الفقر مخالبه فيهم - فساءت الحالة وتفاقمت حتى لم يعد بد من التغيير فقامت الثورة فى ١٩٦٢/٩/٢٦ وحمل لواءها الجيش برياسة الزعيم عبدالله السلال - وتخلص من آخر أسرة حميد الدين وعلى وهو سيف الاسلام البدر - أو الامام

محمد ـ الذى هرب هو وأعوانه إلى الجبال . وعلى أثر ذلك أعلن السلال مولد الجمهورية العربية اليمنية متأسيا فى ذلك خطى ثورة ٢٣ يوليو .

وقد أرسل الزعيم اليمنى إلى الرئيس جمال عبد الناصر عقب الثورة مباشرة يقول له : « لقد كانمنا ممثلو الشعب الحقيقيون بتنفيذ رغبته فى تغيير أوضاع حكم الرجعية البالية والاطاحة بالطغيان الذى طالما تمنى شعبنا العربى النبيل زواله » . وقد كان الزعيم اليمنى شديد التأثر بثورة ٢٣ يوليو ينظر اليها باعجاب وا كبار . لذلك سعى بعد أخذ رضاء الشعب اليمنى للاتفاق مع مصر ـ وتنفيذا لذلك تم توقيع اتفاقية للدفاع المشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية اليمنية فى ١٩٦٢/١١/١١ للرد على مؤامرات الاستعمار التى كانت تتحين الفرص بعد أن حشدت حشودها لاعادة أسرة حميد الدين ـ وقد نصت الاتفاقية على أنه « تعتبر الدولتان كل اعتداء مسلح على أية دولة منهما أو قواتها اعتداء عليها » . وعلى الفور أرسلت الجمهورية العربية المتحدة بعض قواتها إلى اليمن لمؤازرة ثورته ولرد مؤامرت الانجليز فى الجنوب وتأديب فلول البدر الهاربة على الحدود فى الشمال وبذلك ساهمت الجمهورية فى انجاح ثورة اليمن والحفاظ عليها وعملت على تحرير المواطن اليمنى من ربقة الظلم التى تردى فيها سنين طويلة .

وإذا كانت اليمن هى أحدث دولة عربية تحررت متأثرة فى ذلك بثورة ٢٣ يوليو ، فان هناك دولا أخرى على الطريق تنتظر دورها لكى تتحرر وتتطلع شعوبها الى يوم الخلاص . ويشق الأحرار من أبنائها طريقهم الوعر فى عزم واصرار نحو النور والحرية ـ وما كفاح العرب فى عدن وفى المحميات والامارات الشرقية والغربية وغيرها الا أثرا من آثار ثورة ٢٣ يوليو سرى فى جسم الأمة العربية شرقا وغربا ..

جامعة الدول العربية :

وإذا كنا قد تحدثنا عن الوحدة العربية ودور الحركات الشعبية الوطنية التقدمية

فى تحقيقها ، فما هو دور جامعة الدول العربية ؟ لقد ساهمت مصر مساهمة كبيرة فى قيام هذه الجامعة سنة ١٩٤٥ ، ومازال تدعم كيانها وتوطد أسسها لتحقيق الأهداف التى قامت من أجلها ، وتعمل الجمهورية العربية المتحدة الآن على أحباط كل محاولة رجعية لهدمها .

تحدث الميثاق عن دور جامعة الدول العربية فى تحقيق الوحدة العربية فقال : « ان قيام اتحاد للحركات الشعبية الوطنية التقدمية فى العالم العربى أمر سوف يعرض نفسه على المراحل القادمة من النضال . إن ذلك لايؤثر — ولاينبغى له أن يؤثر — على قيام جامعة الدول العربية ، وإذا كانت الجامعة العربية غير قادرة على أن تحمل الشوط العربى غايته العظيمة البعيدة ، فانها تقدر على السير به خطوات .

«أن الشعوب تريد أملها كاملا . والجامعة العربية ، بحكم كونها جامعة للحكومات ، لاتقدر أن تصل إلى أبعد من الممكن . أن الممكن خطوة فى طريق المطلوب الشامل . ان تحقيق الجزء مساهمة فى تقريب يوم الكل لهذا فان الجامعة العربية تستحق كل التأييد ، على أن لايكون هناك تحت أى ظرف من الظروف تحميلها أكثر من طاقتها العملية التى تحدها ظروف قيامها وطبيعته» .

« أن الجامعة العربية قادرة على تنسيق ألوان ضرورية من النشاط العربى فى المرحلة الحاضرة ، لكنها فى نفس الوقت تحت أى ستار وفى مواجهة اى ادعاء لايجب أن تتخذ وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به » .

أصبحت ثورة ٢٣ يوليو رائدة ، وأصبح جمال عبد الناصر رائد العروبة الأول . وأصبحت سياسة الوحدة العربية ترتبط باسمه وأصبحت الدعوة إلى السلام فى الوطن العربى تعود إلى جهوده ، وأصبحت السياسة المستقلة بين المعسكرات ترتبط بأفكاره . وباختصار ، أصبحت معالم الطريق العربى الجديد ترتبط بجهود رائد العروبة جمال عبد الناصر .

٤ ـــ تحقيق الوحدة الافريقية والسلام العالمى

سياسة الحياد الايجابى :

من خلال تصارع القوى العالمية فى الشرق والغرب ، برزت سياسة الحياد الإيجابى التى اصبحت الجمهورية العربية المتحدة فى مقدمة روادها . وقد أصبحت هذه السياسة حتمية لاقامة الدعائم الجديدة لحياة البشرية فى المستقبل . وقدأصبحت هذه السياسة أيضا من السياسات المميزة لقارتى أفريقا وآسيا ،وأصبح تجمع الملايين من أبناء القارتين حول هذه السياسة من سمات التحرر والنضال ضد الاستعمار . وسياسة الحياد الايجابى لاتنحاز الى شرق أو غرب ،ومعتنقوها ليسوا الادعاة السلام والمحبة والتعاون بين الشعوب . وقد أصبحت هذه السياسةالايجابية المتفاعلة مع الأحداث الممثلة للكفاح الشعبى من العوامل الفعالة فى اقرار السلام وتأكيد المحبة بين شعوب العالم .

والرئيس جمال عبد الناصر هو الزعيم العربى الذى أرسى دعائم سياسة عدم الانحياز ، وجعلها فلسفة راسخة للشعب العربى كله وإذا كان الرئيس عبد الناصر هو رائد القومية العربية وبطلها . فان هذه القومية ما كان لها أن تصبح حقيقة واقعة الا فى ظل سياسة الحياد الايجابى وعدم الانحياز . ذلك أن القومية العربية لايمكن أن تدور فى فلك سياسة من السياسات ولايمكن أن تكون تابعة لمعسكر من المعسكرات ، بل أن حياتها مرهونة بالسياسة المستقلة .

أعلن الرئيس جمال عبدالناصر سياسة عدم الانحياز فى وضوح وبصوت دوى فى مؤتمر باندونج يوم ١٩ ابريل ١٩٥٥ فقال : «ان فرض الدول الكبيرة سياسة معينة لتحقيق مصالحها الخاصة له أثره الضار على الدول الصغيرة ، فهو يفرق فيما بينها ، كما يضعف الروابط والتعاون الذى قد يكون قائما بينها ، وبذا تقع تحت السيطرة الأجنبية . فان على الدول الصغيرة أن تقوم بدورها الانشائى فى سبيل تحسين العلاقات الدولية ، وتخفيف حدة التوتر الدولى .

« وثمة شيء آخر ، ذلك هو موضوع تصفية الاستعمار الذى طالما كان سببا فى الاحتكاك بين الدول ومايستتبعه من قلق ، فانه منذ أن اتسعت رقعة الاستعمار ، اتسعت معه مشكلة نظام الحكم الاستعمارى الأجنبي الذى كان دائما مثار الحروب».

« ولقد شاهدنا منذ سنين ، ومازلنا نشاهد ارتفاع موجة القومية ، لا فى بلادنا والمناطق المجاورة لها فحسب ، بل فى عدة أقطار أسيوية وأفريقية ، ولقد علمتنا تجارب الحياة أن القومية إذا أحبطت ترتبت عليها عواقب وخيمة ونشأت عنها مشا كل عويصة ، وأن الدول إذا تناولتها فى حكمة وهوادة وواقعية ،أثمرت ثمرا طيبا من الصداقة والتفاهم والمحبة » .

وضع الرئيس عبد الناصر للمؤتمر مبدأين هامين هما : (١) يجب على كل دولة أن تحترم الاستقلال السياسى لأية دولة أخرى ، وأن ترعى العدالة الاقليمية فيها ، وألا تتدخل فى شئونها . (٢) لكل دولة الحق فى أن تختار ما تراه صالحا لها من النظم السياسية والاقتصادية .

وعند عودة السيد الرئيس من باندونج أعلن للشعب سياسة المستقبل، سياسة الاستقلال والحرية والتحرر ، فقال : « ان بلادنا اليوم لها كيان مستقل وشخصية مستقلة ، وأنها حينما تتصرف من وحى هذا الاستقلال انما تتصرف فى الداخل وهى كاملة الاستقلال ، وفى الخارج وهى تشعر أنها كاملة الاستقلال » .

وفى ١٠ مارس سنة ١٩٥٧ تحدث السيد الرئيس إلى الصحفى الهندى (كرانجيا)، ورسم سياسة الجمهورية العربية المتحدة فقال له : « اننا نعمل دائما بما توصى به القومية العربية ، واستقلال العرب ، وتمسكهم بالحياد الايجابى،ومناهضة اسرائيل والصهيونية » .

ووضح السيد الرئيس سياستنا فى الحياد الايجابى فى حديث له مع وفد الصحفيين الأمريكيين فى ٢٧ يناير ١٩٥٨ فقال سيادته : « اننا نعتبر ان فكرة عدم الانحياز وعدم الاشتراك فى حلف دفاعى مع دولة كبرى مقاومة لسيطرة

الدول الكبرى ، ولاتقوم فلسفة السيد الرئيس على أساس معارضة الاحلاف العسكرية التي تضم بعض الدول العربية فحسب ، ولكن هذه الفلسفة تقوم على معارضة الأحلاف العسكرية من أى نوع كان بين القوى غير المتكافئة .

ألقى السيد الرئيس خطاب في مؤتمر التعاون في ديسمبر ١٩٥٧ شرح فيه سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز فقال : « ظهر في المنطقة الحياد الايجابي وعدم الانحياز . كلام سيؤمن به كل مواطن . كل مواطن في المنطقة العربية كان ينادى بعدم الانحياز ، الحياد الايجابي ، الدفاع عن المنطقة يجب أن ينبعث من المنطقة نفسها بدون الاشتراك مع أية دولة كبرى . لأن الاشتراك مع أية دولة كبرى معناه وضعنا ضمن مناطق النفوذ . القضاء على الاستعمار مبادىء جديدة ظهرت . القضاء على أعوان الاستعمار . القضاء على الاقطاع . والقضاء على الاحتكار . القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم . اقامة جيش وطنى قوى . اقامة عدالة اجتماعية اقامة حياة ديموقراطية سليمة القومية العربية بدأت تعتنق هذه المبادىء . العرب في كل مكان بدأوا يشعرون أن هذه المبادىء ، وهذه الأهداف تعبر عما يختلج في نفوسهم تعبر عن الكلام الذى يريد كل واحد منهم أن يقوله ، تعبر عن الشعارات الحقيقية التي تمثل القومية العربية والعزة العربية والحرية العربية .

جمهوريتنا والسلام العالمى

السلام العالمى أمنية غالية تبدو للمتفائلين عزيزة المنال، إلا أنها ممكنة التحقيق، لذلك تجدهم لا يألون جهدا ، ولا يدخرون وسعا فى السعى وراء تحقيقها والعمل على توطيد السلام . وأى وقت أنسب للعمل على تحقيق السلام العالمى من وقتنا هذا ، الذى لا تقتصر فيه مضار الحرب على المتحاربين بل تتعداها إلى المدنيين الآمنين، ويتأثر بنتائجها العالم كله كما أصبح بين الدول من مصالح مشتركة وارتباطات دولية تضطر الصغير منها والكبير إلى خوض غمار الحرب ، فيخرج الجميع منها منهوكى القوى خاسرين ، إلا فئات محدودة تذكى نار الحرب لا تكتوى بأوارها ، لأنها تستغلها فى تنفيذ مآربها وغاياتها .

أن السلام كلمة عامة كثر استخدامها حتى أنها كادت ان تفقد مدلولها والدول الآن تعنى بالسلام (انعدام الحرب) ، ولكن من المؤكد أن هذا ليس هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن تعطيه للسلام ، ولكنه أفضل تعريف يخدم الأهداف العالمية، لأن الدول عندما تحلم بالسلام لا تفكر فى وسائل زيادة التفاهم الدولى ،أو فى توطيد مشاعر الأخوة بين البشر ، فان كل ماتريده تجنب قيام حرب عالمية أخرى .

والجمهورية العربية المتحدة تعمل دائما على ازالة التوتر فى العالم ، فقد أصبحت البشرية فى أمس الحاجة إلى السلام وانتهاء الحرب الباردة . وقد أوضح السيد الرئيس جمال عبد الناصر هذه السياسة فى قوة ووضوح فقال سيادته : « أما فى سياستنا العالمية ، فنحن نعمل من أجل ازالة التوتر بعد أن أصبحت البشرية الآن فى مرحلة يتعين عليها أن تنهى الحرب الباردة وأن تضع أسس السلام ، نحن نؤيد تحرير المصير . نحن نؤيد مساعدة الدول التى تكافح فى سبيل استقلالها ، نحن نعمل من أجل تصفية مناطق النفوذ ، على أن يكون الاستقلال استقلالا حقيقيا ،ولا تكون الدول الصغرى ألعوبة فى يد الدول الكبرى ، نحن نعمل ونكافح من أجل تحريم التجارب الذرية ، ومن أجل تحريم استخدام الأسلحة الذرية »

« نحن نعمل من أجل السلام ونزع السلاح حتى تتجه جهود العالم من أجل التنمية . العالم الذى يتكون من ٢ مليار ، منهم مليار يقاسى الجوع . نصف العالم يقاسى من الجوع . لايقدر على أن يأكل فى اليوم أكله كاملة . نصف العالم يسعى للتنمية ويكافح فى سبيل التنمية . ثم يصرف على السلاح أكثر من ١٠٠ مليار دولار .

« أمريكا وحدها تصرف على السلاح ٤٤ مليار على انتاج الأسلحة ، يعنى ٤٤ ألف مليون دولار . قطعا روسيا تنتج مثل هذا الشيء إلى جانب الدول الأخرى ، يكون المجموع على الأقل ١٠٠ ألف مليون أى مائة مليار دولار لو قسمنا المائة مليار التى نصرفها على السلاح الموت والهلاك على سكان العالم وتعدادهم ٢ مليار ، ينال كل واحد فى العالم ٥٠ دولارا . يعنى الدوله التى تتكون من مليون تأخذ فى السنة ٥٠ مليون دولار . والدولة التى تتكون من ١٠ مليون يصيبها ٥٠٠ مليون دولار . والدولة التى تتكون من ٢٠ مليونا يصيبها كل سنة ١٠٠٠ مليون دولار ، يمكن انفاقها فى التنمية ، وفى خلق صناعة وأكل ، وننقذ نصف البشر الذين يقاسون الآن من الجوع ».

« ونحن نهدف إلى العمل على نزع السلاح ، وتحديد التسليح فى سياستنا ، ولهذا نسير فى طريقنا وبهذا نصمم أيضا على هذه السياسة ، سياسة الحياد وعدم الانحياز ، والعمل من أجل السلام ومنع الحرب ونزع السلاح ، من أجل صالح البشرية كلها » .

أصبح السلام فى القرن العشرين هدفا قوميا هاما أكثر مما كان من قبل . فقد كان الدمار الشامل الذى نجم عن الحربين العالميتين عاملا على ظهور رأى ينادى بأن قيام حرب عالمية ثالثة كفيل بالقضاء على البشرية . ان اختراع الأسلحة الحديثة الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة ، جعل قيام حرب عالمية أمرا خطيرا لايجرؤ على الخوض فيه الا رجل مجنون ، إذ أن طبيعة الحرب قد تغيرت تغيرا كبيرا ، وازدادت بذلك أهمية السلام بوضعه هدفا قوميا . . . . .

أن الهدف الذى يستهدفه المجتمع البشرى العالمى الآن يتلخص فى تدعيم السلام العالمى الدائم ، وتحقيق الرخاء الشامل ، أى رفع مستوى المجتمع المادى والروحى إلى أعلى الدرجات التى يمكن أن تصل إليها الانسانية كافة وهذا الهدف على بساطته ينطوى على معان كثيرة ، ويتطلب أعمالا جبارة وحركات نشيطة فى ميادين الحياة. إذ أن السلام لا يتحقق ولن يدوم الا بنشر وانماء المحبة ، ولا يمكن أن يكون شاملا إلا بتوجيه أفراد المجتمع جميعا الى أعمال منتجة مفيدة لأنفسهم وللآخرين ، وذلك لكى تكثر وتتضاعف الخدمات والانتاج لسد حاجات الجميع . ورفع مستوى المجتمعات المادى والروحى وانعاش الحضارة والمدنية وتعميم الثقافة والتعليم بين سائر الطبقات ولجميع أفراد المجتمع ، ليحيا الجميع فى أمن وسلام وليجنوا ثمار هذه الحضارة العظيمة ، وهذه المدنية الشاملة .

وقد وضح السيد الرئيس جمال عبد الناصر سياسة الجمهورية العربية المتحدة نحو تحقيق السلام العالمى فقال أن وسائل تحقيق السلام فى يد جميع الشعوب ، لأن هذا السلام يقرر مصير هذه الشعوب ، وهذه الشعوب أيضا هى التى تصنع الحضارة وتدفع العالم إلى التطور والتقدم . فقال السيد الرئيس : « وانى لأقول أمامكم هنا باسم الجمهورية العربية المتحدة ، وتعبيرا عن فكرها وضميرها ، أننا نؤمن أن مشكلة السلام والحرب ملك جميع الشعوب باعتبارها قدر شعوب الأرض جميعا ومصيرها .

« أن الدول الكبرى لا تملك وحدها كلمة السلام أو الحرب ، وانما الجنس البشرى كله ، مستمدا الحق من تضحيات شعوبه على اختلافها من أجل صنع الحضارة ودفع التطور . ومن تطلع شعوبه كله إلى الأمن . هكذا فاننا فيما يتعلق بالسلام ننحاز إلى جانب السلام وضد الحرب . وإذا كان لنا من تحفظ واحد على هذا الموقف القاطع الذى لا حياد فيه ، فهو أن السلام الذى نريده هو السلام القائم على العدل دون تفرقة ودون تمييز . بهذا الايمان فى أعماق ضمائرنا . وبهذا الهدف أمام عيوننا . جئنا إلى هذه الدورة مؤمنين انه فى مجالها ، فى مجال الأمم المتحدة ، يكون

العمل الفعال من أجل السلام ومع أننا نؤمن بكل جهد يبذل من أجل السلام مهما كان مجاله . فاننا نؤمن فى نفس الوقت أن احتمالات النجاح أقوى فى نطاق الأمم المتحدة منها فى أى مجال آخر خارجها » .

أن الرسالة الانسانية للعالم العربى تنمو مع نضال وكفاح الأمة العربية ، وتتبلور من خلال تجاربها ، وهى فى جوهرها تعبير عن حيوية هذه الأمة ، التى تستهدف ارساء جميع العلاقات الدولية على أسس الحق والعدل والمساواة والمنفعة المتبادلة . وهذه هى رسالة العالم العربى فى بعثه الجديد . فالعرب يضعون أيديهم فى يد المؤمنين بالحرية مثلها حتى يسير الجميع على قدم المساواة فى الموكب البشرى الكبير .

تحقيق الوحدة الافريقية :

تحدث الميثاق عن إيمان العرب بضرورة قيام جامعة افريقية ، وتضامن أسيوى أفريقى ، من أجل تحقيق السلام العالمى ، والجمهورية العربية المتحدة جزء من الوطن العربى الكبير ، وجزء من قارة أفريقية ، وجزء من العالم الاسلامى . ولا تستطيع أن تعيش بعيدة عن هذه الشعوب ، فهم جميعا أعضاء فى الأسرة البشرية الكبرى .

فقال الميثاق : « وإذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية فهو يؤمن بجامعة افريقية ، ويؤمن بتضامن أسيوى أفريقى ، يؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ، ويؤمن برباط روحى وثيق يشده إلى العالم الاسلامى ، ويؤمن بانتمائه إلى الأمم المتحدة ، وبولائه لميثاقها الذى استخلصته آلام الشعوب فى محنة حربين عالميتين تخللتها فترة من الهدنة المسلحة .

أن الايمان بهذا كله لا يتعارض مع بعضه ولا يتصادم ، وانما هى حلقات سلسلة واحدة .

أن شعبنا شعب عربى ومصيره يرتبط بوحدة الأمة العربية . أن شعبنا يعيش

على الباب الشمالى الشرقى لأفريقيا المناضلة . وهو لايستطيع أن يعيش فى عزلة عن تطورها السياسى والاجتماعى والاقتصادى .

« ان شعبنا ينتمى إلى القارتين اللتين تدور فيها الآن أعظم معارك التحرير الوطنى ، وهو أبرز سمات القرن العشرين . أن شعبنا يعتقد فى السلام كمبدأ . ويعتقد فيه كضرورة حيوية ، ومن ثم لايتوانى عن العمل من أجله مع جميع الذين يشاركونه نفس الاعتقاد . أن شعبنا يعتقد فى رسالة الأديان وهو يعيش فى المنطقة التى هبطت عليها رسالات السماء . ان شعبنا يعيش ويناضل من أجل المبادىء الانسانية السامية التى كونتها الشعوب بدمائها فى ميثاق الأمم المتحدة . ان فقرات كثيرة فى هذا الميثاق قد كتبت بدماء شعبنا ودماء غيره من الشعوب » .

ووضع الصحفى العالمى (جون جنثر) كتابا بعنوان (فى داخل افريقية) ، فكتب فيه تحت عنوان (مسلك مصر نحو افريقية) فقال : لهذا المسلك ناحيتان : الأولى أن مصر قوة عظيمة تكمن وراء انتشار الاسلام فى العالم ، وهى بطبيعة الحال ترجو أن ترى أكبر شطر ممكن من أفريقية السوداء يتحول إلى الاسلام أما الناحية الثانية . فهى أن مصر تعتبر نفسها أما أو أبا للحركات الوطنية فى أى مكان من أفريقية وقد كتب جمال عبد الناصر فى كتابه (فلسفة الثورة) يقول : ليس بوسعنا أن نقف جامدين مهما تكن الظروف ، إزاء الصراع الدموى الرهيب الذى يدور فى افريقية اليوم بين خمسة ملايين من البيض و ٢٠٠ مليون من الافريقيين ولسوف تظل شعوب افريقية تتطلع الينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، ونمثل همزة الوصل بينهم وبين العالم الخارجى) .

ووصف هذا الصحفى العالمى مصر باعتبارها فى مقدمة دول أفريقية المتحضرة فقال . ومصر ليست ذات ماضى مجيد فحسب ، بل أن لها حاضرا ، فهى بلاد مشبوبة بالحيوية ، والتفوق تؤمن بالواقعية المعاصرة ، ففيها شبكة حديثة للسكك الحديدية ، والطرق الجيدة ، ولها تجارة مزدهرة . مطردة الاتساع ، وقد بلغ

دخلها القومى مستوى عاليا بالنسبة لافريقية ، كما أن لها صحافة واذاعة صوتها مسموع والقاهرة أكبر المدن جميعا فى افريقية . ولعلها أرقاها وأغناها ، وقد ارتفع عدد سكانها من نحو مليون نسمه ، منذ عشرين سنة إلى أكثر من مليونين ونصف مليون فى الوقت الحالى . والقاهرة أكبر مدينة فى العالم الاسلامى ، تبلغ مساحتها ضعف مساحة باريس . وليس فى قارة افريقيا سوى مدينتين يربو عدد سكان كل منها على مليونى نسمة ، وهما مصريتان : القاهرة والاسكندرية التى أنشأها الاسكندر الأكبر سنة ٣٣١ ق م. وفى القاهرة أكبر معهد اسلامى فى العالم هو الجامعة الأزهرية) .

أصبحت الجمهورية العربية المتحدة رائدة الاستقلال والحرية فى العالم كله ، وخاصة فى قارة أفريقية . فقد وقفت إلى جانب جميع الدول الافريقية فى كفاحها الشعبي من أجل التحرر والحرية . وضربت الجمهورية العربية المتحدة أمثلة كثيرة لمناصرة الحق والعدل والتحرير ، وموقفها المعروف المشهور من قضية الكونغو لايزال حديث الألسن فى كل مكان فى العالم . وهى تدافع عن جميع القضايا الافريقية فى الهيئات العالمية ، وخاصة فى مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة، وتحارب الاستعمار والاستغلال والاحتكار فى افريقية ، وتناهض سياسة التفرقة العنصرية التى تتبعها حكومتى روديسيا وجنوب افريقية . وقد شهد السيد الرئيس جمال عبد الناصر جميع المؤتمرات الأفريقية ، وساهم فى قيام منظمة الوحدة الأفريقية مساهمة فعالة. وقد أدت جهود الجمهورية العربية المتحدة إلى تدعيم التعاون بين الدول الافريقية ، وحل المشاكل التى قد تؤثر فى هذا التعاون ، مثلا الخلاف بين الصومال وكل من أثيوبيا وكينيا . ومشكلات اللاجئين الافريقيين ، ومثل الخلاف على الحدود بين الجزائر والمغرب ، وبين السودان وتشاد .

ويحاول الاستعمار القضاء على جهود منظمه الوحدة الافريقية ، وقد حاول فعلا تعطيل أعمالها فى الدورة الأخيرة فى أكتوبر ١٩٦٦ ، وبدأ هذا ولضبحا فى خطف وفد غينيا ، كما حاول المستعمرون الخلاص من لجنة تحرير افريقية

المتفرعة عن المنظمة ، فأوعزت إلى بعض الدول العملية بطلب تصفية هذه اللجنة . وتعاونت الدول المتحررة فى المنظمة الافريقية على القضاء على مناورات الدول الاستعمارية وعقد رؤساء الوفود فى اللجان السياسية فى يوم الخميس الثالث من نوفمبر ١٩٦٦ اجتماعا مغلقا لبحث مناورات الاستعماريين وحدث مناقشات حامية، وكان أول المتحدثين رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة الذى قال :

« اننا لسنا على استعداد لنناقش مبدأ هل تبقى أو لا تبقى لجنة التحرير ، لقد تعهد رؤساء الدول الافريقية بالعمل على تحرير افريقية تحريرا تاما . والمسألة هى هل نحن نؤيد حركات التحرر أولا نؤيدها ؟ اننا لا نستطيع أن نتحمل أن نرى نصف افريقية قد تحرر ، بينما لا يزال نصفها الآخر يرزح تحت وطأة الاستعمار ».

وهكذا أعلنت الجمهورية العربية المتحدة رأيها الحر ، وتبعه مندوب تانزانيا الذى قال « ان تصفية هذه اللجنة معناه أن منظمة الوحدة الافريقية تصبح عاطلة بلا هدف ، وقد تنهار » . وأيدت معظم الدول رأى الجمهورية العربية المتحدة ، وانتهى الأمر باخفاق محاولات الاستعمار وأذنابهم ، وانتصار الجمهورية العربية المتحدة والدول الافريقية التقدمية المتحررة .

٥ ـــ دفعة الاسلام والعالم الاسلامى

القيم الروحية فى الميثاق :

فى الميثاق جوانب روحية كبيرة تبرز اهتمامه بالقيم الروحية ، حتى أصبح الميثاق يمثل روح الحضارة الاسلامية . وتضمنت عبارة اعلان الميثاق اشادة بالايمان بالله وشريعته ، وأكدت معانى القيم الدينية والخلقية والروحية ، وأشارت الى التراث الاسلامى والحضارة الاسلامية التى تنير الطريق أمام العالم الاسلامى ليحقق أمجاد عظيمة .

جاء فى اعلان الميثاق : « ايمانا بالله ، وبما أنزل من شريعة الحق والخير والسلام ، وتقديسا لحق الانسان فى العزة والكرامة ، وفى الكفاية والعدل . واستمساكا بحق أمتنا فى الحياة والتحرر والانطلاق . وتثبيتا لخطانا على طريق ثورتنا الانسانية والاجتماعية والسياسية ، وسعيا الى تحقيق التكافل وتذويب الفوارق بين الطبقات وتوكيدا لمعانى الفضيلة والايثار فى سلوك الفرد وصلات الجماعة ، وتجليله لطابعنا الشعبى وحياتنا الأصلية فى اطار قيمنا الروحية والدينية والخلقية . واعتزازا بتراثنا فى الماضى وجهادنا فى الحاضر ، وعملنا من أجل المستقبل ويقيننا بأننا جزء لا يتجزء من الشعب العربى ، وأن أمتنا العربية أمة واحدة ، وأداء لواجبنا التاريخى ورسالتنا الخالدة فى بناء الاسلام القائم على العدل ، بذلك كله ، ومن أجل ذلك كله ، نقر هذا الميثاق ، ونعلنه اطارا لحياتنا ، وطريقا لثورتنا ودليلا لعملنا من أجل المستقبل نعلن ميثاقنا ، ونعاهد الله على أن نستمسك بكل ما فيه من معانى الحق والخير والعدل فى الحياة ، وأن نبذل كل ما أودعنا الله من طاقة لنضع هذه المعانى جميعا موضع التنفيذ » .

نظر الميثاق الى الأديان السماوية على أنها ثورات انسانية ، تسمو بالحياة البشرية ، وترفع من كرامة الانسان ، وتحقيق له الرخاء والرفاهية . كما أبرز الميثاق حقيقة ملاءمة الأديان لحقائق الحياة . والأديان لا تتعارض مع النظريات

العملية الحديثة ، وليس هناك تناقض بين الدين والعلم ، فالدين يحقق حضارة البشرية ويدعو الى تعاون البشر من أجل السلام والرخاء والتقدم .

فقال الميثاق . « ان رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات انسانية استهدفت شرف الانسان وسعادته ، وأن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته . ان جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة ، وانما ينتج التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين — ضد طبيعته وروحه — لعرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الالهية السامية » .

وتحدث الميثاق عن أثر الاسلام فى وحدة الشعب المصرى مما حقق له أسباب الدفاع عن الحضارة والانسانية ، فجاء فى الميثاق : « وان شعب مصر العربى ، فى اطار التاريخ الاسلامى ، وعلى هدى من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد قام بدوره الحاسم دفاعا عن الحضارة والانسانية ، وتحمل نصيبا كبيرا من المسئولية المادية والعسكرية فى صد أولى موجات الاستعمار الأوروبى فى العهد الصليبى ، وفى رد غزوات التتار ، كما شارك مشاركة خالدة الأثر فى المسئولية الفكرية والثقافية من أجل حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة » .

الاخوة الاسلامية فى الميثاق وفلسفة الثورة :

أبرز الميثاق أثر تنمية الروابط بين الشعب العربى والشعوب الاسلامية ، الذين تجمعهم جميعا روابط الحضارة الاسلامية ، من أجل تحقيق السلام العالمى ، فقال الميثاق : « وان شعبنا المؤمن ليشعر بقوة الروابط الروحية والثقافية التى تربط الشعب العربى بسائر الشعوب الاسلامية ويتطلع الى المزيد من التعاون معها فى سبيل الحرية والسلام العالمى » .

كما تحدث الميثاق عن الوحدة العربية فقال انها تسير جنبا الى جنب مع الأخوة الاسلامية ، فقال : « العالم العربى هو قلب هذا العالم الاسلامى ، والعالم الاسلامى

بشعوبه المتجاورة مع الأمة العربية والمتداخلة معها فى أكثر اعدادها يعد درءا للعالم العربى ، وباحكام الخطة وصدق النية ومواصلة الجهد فى هذا الصدد نستطيع أن نكسب الكثير لأهدافنا ومبادئنا ، فنخدم قوميتنا وعروبتنا ، وفى الوقت نفسه نؤدى ما استحق فى أعناقنا نحو أخوة لنا ـ فى العالم الإسلامى نحس برباط روحى وثيق يشدنا إليهم ، وما أوثق الوشائج بين العروبة والإسلام ، والإسلام روح العروبة » .

وتمر الأمة الإسلامية اليوم فى فترة انتقال هامة ، فهى تتخلص من بقايا الحكم الاستعمارى الذى كان يسىء إلى معالم الحضارة الاسلامية ، وهى تتطلع إلى مستقبل مشرق باسم ، أكثر حضارة ورخاء ، مما يتيح الأمة الاسلامية أن تعبر عن معنى وجودها فى رسالة إيجابية إنسانية .

وهذه الرسالة لن تتحقق إلا بتنمية مشاعر الأخوة الاسلامية ، وبأحكام الخطة ، وصدق النية ، ومواصلة الجهد . ولذا فالمسلمون ليسوا فى حاجة إلى أحلاف أو تكتلات دولية . فيكفى أن يكون الاسلام هو محور أخوتهم والرباط الروحى الذى يربطهم ، وأن انصراف المسلمين إلى الخوض فى الصراع الدولى يشتت شملهم ، ويفرق صفوفهم ، ويبعثر جهودهم .

وصور كتاب (فلسفة الثورة) الحجيج على أنه (برلمان إسلامى عالمى) يحقق الأخوة الاسلامية ، وينمى الروابط الروحية ، ويبرز دورهم فى العالم . فقال السيد الرئيس فى (فلسفة الثورة) : « . . ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام ، ثم وجدتنى أقول لنفسى : يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج ، لا يجب أن يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

« يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة . ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى

متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه قادة الدول الاسلامية ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة وكتابها وملوك الصناعة فيها وتجارها وشبابها ، ليضعوا فى هذا البرلمان الاسلامى العالمى خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

ويجتمعون خاشعين ولكن أقوياء ، متجردين من المطامع لكن عاملين ، مستضعفين لله ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم حالمين بحياة أخرى ، ولكن مؤمنين أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة » .

والإسلام لايعترف بالحدود الصناعية التى وضعها المستعمرون ليفرقوا بين صفوف المسلمين ، ولا بالحدود العنصرية التى وضعها أصحاب المصالح فى إيجاد تفرقة عنصرية فى العالم . وقد خلق الله البشر أخوة متحابين ، متعاونين ، مهما كانت أوطانهم ، ويكفل الاسلام للجميع الحرية والقوة والاخاء والمساواة والسلام العام .

جاء فى كتاب فلسفة الثورة : « وحين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليونا من المسلمين فى أندونيسيا ، وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفييتى وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة . حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج باحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً ، تعاون لايخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة » .

لقد امتزجت العروبة بالدين ، وأصبح الدين خير مايدعم القومية الحقة

الصادقة ، والتاريخ يربط بين الإسلام والعروبة ، ويجعلها فى وعاء واحد. فيقول السيد الرئيس فى كتاب فلسفة الثورة : « وامتزجت هذه الدائرة — العربية — معنا أيضا بالدين ، فتنقلت مراكز الاشعاع الدينى ، فى حدود عواصمها ، من مكة إلى الكوفة ثم إلى القاهرة . ثم جمعها فى إطار ربطته بكل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية » .

الأزهر الشريف فى عهد الثورة

حوى الميثاق كثيراً من الجوانب الروحية ، وأشاد بالإيمان فى كثير من صفحاته . وكان للأزهر الشريف نصيب وافر فى صفحات الميثاق ، باعتباره من أكبر المراكز الاسلامية فى مصر وفى العالم الاسلامى أجمع . فأبرز الميثاق دور الأزهر الشريف فى بلورة الروح القومية الوطنية فى العصر العثمانى فقال الميثاق : « ثم كان — أى الشعب — قد تحمل المسئولية الأدبية فى حفظ التراث العربى الحضارى وذخائره الحافلة ، وجعل من أزهره الشريف حصناً للمقاومة ضد عوامل الضعف والتمزق التى فرضتها الخلافة العثمانية استعماراً ورجعية باسم الدين ، والدين منهم براء » .

ووضح الميثاق أن الأزهر هو صانع اليقظة المصرية ، وليست الحملة الفرنسية على مصر كما يذكر بعض المؤرخين ، فقد أصبحت جدران الأزهر تضم تيارات وطنية ، فأصبح الأزهر مركز إشعاع قومى ،امتدت أشعته إلى أرجاء مصر والعالم العربى ، تثير حماستهم للخلاص من الاستعمار العثمانى . فقال الميثاق : « ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية فى ذلك الوقت — كما يقول بعض المؤرخين — فإن الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى إلى الحياة فى مصر كلها ، كما وجدت الشعب المصرى يرفض الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخلافة ، والذى كان يفرض عليه دون ما مبرر حقيقى تصادما بين الايمان الدينى الأصيل فى هذا الشعب ، وبين إرادة الحياة التى ترفض الاستبداد » .

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو المباركة ، عملت حكومة الثورة على النهضة بالأزهر الشريف ، ليعود كما كان منبعاً للعلوم الدينية وعملت على تطويره بحيث يرتبط الدين بالحياة والعلوم الحديثة ، حتى يؤدى رسالته المجيدة ودوره الكبير لرفعة الإسلام والثقافة الاسلامية ، وتدعيم الصلات بين الشعوب الاسلامية جميعاً .
فجاء فى الميثاق « وفى يقيننا أن الأزهر الشريف بما له من تاريخ حافل مجيد، وفى

ظل قانونه الثورى الجديد ، قادراً أبداً على النهوض بهذا الاصلاح الدينى ، وعلى تطوير الثقافة الدينية مرتبطة بالحياة والعلم الحديث ، حتى تكون العلوم الدينية مستوحاة من منابعها الأصيلة فى عصور الازدهار والقوة ، وبذلك تكون أجهزة الدعوة للدين فى كل مجالات التعليم والوعظ والاعلام على وعى بروح الدين الحق ووظيفته فى الحياة .

« إننا بذلك نتمكن من تثقيف الشعب ثقافة دينية صحيحة ، ومن تثبيت القيم الخالدة النابعة من جوهر الدين ، ونتمكن كذلك من مواصلة رسالتنا المجيدة فى تعريف العالم بالدين الإسلامى على حقيقته ، وفى تقوية الروابط الدينية والروحية التى تربطنا بالشعوب الإسلامية » .

أشار الميثاق إلى قانون الأزهر الثورى الجديد . فقد أصدر الرئيس جمال عبد الناصر القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بتاريخ ٥ يوليو ١٩٦١ ، وقد جعل هذا القانون الأزهر مركزا لثورة ثقافية تتعاون مع سائر الجوانب الثورية الأخرى فى مصر من أجل رفعة الاسلام والقومية العربية والمجتمع المصرى .

وكان الأزهر الشريف فى ظل القانون القديم (رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦) معهد علمى اسلامى ، كل واجباته ومهمته أن يحافظ على الشريعة الغراء واللغة العربية وأن يعمل على نشرهما ، وأن يخرج علماء يوكل اليهم تعليم علوم الدين واللغة فى مختلف المعاهد والمدارس والوظائف الشرعية فى الدولة .

ولكن الأزهر الشريف فى ظل القانون الثورى الجديد أصبح أكبر وأقدم جامعة اسلامية فى العالم أجمع ، وأصبح حصنا للاسلام والعروبة ، يربط بين الدين والعلم الحديث ، ويعيش فى القرن العشرين ، ويخرج علماء قد جمعوا بين الدراسة الدينية وبين العلوم والخبرات ، يساهمون فى الانتاج القومى ، ويشاركون فى

موكب البشرية الكبير . ويحطم هذا القانون الحواجز بين جامعة الأزهر وسائر الجامعات ، وأصبح خريجى الأزهر يتساوون مع سائر خريجى الجامعات فى الحقوق والواجبات ، وتتاح لهم نفس فرص العمل والانتاج .

استهل قانون الأزهر الجديد بأن عرف الجامع الأزهر بأنه « هو الهيئة العلمية الاسلامية الكبرى ، التى تقوم على حفظ التراث الاسلامى ودراسته وتجليته ونشره وتحمل أمانة الرسالة الاسلامية الى كل الشعوب ، وتعمل على اظهار حقيقة الاسلام وأثره فى تقدم البشر ورقى الحضارة وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس فى الدنيا وفى الآخرة .

« كما تهتم ببعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى للأمة العربية ، واظهار أثر العرب فى تطور الانسانية وتقدمها ، وتعمل على رقى الآداب وتقدم العلوم والفنون وخدمة المجتمع والأهداف القومية والانسانية والقيم الروحية ، وتزويد العالم الاسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الاسلامية والثقافة الدينية والعربية ولغة القرآن .

« وتخريج علماء عاملين متفقهين فى الدين ، يجمعون إلى الايمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح ، كفاية علمية ومهنية ، ، لتأكيد الصلة بين الدين والحياة ، والربط بين العقيدة والسلوك ، وتأهيل عالم الدين للمشاركة فى كل أسباب النشاط والانتاج والزيادة والقدوة الطيبة ، وعالم الدنيا للمشاركة فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما تهتم بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الاسلامية والعربية والأجنبية » .

وتطبيقا لهذا القانون . قامت (جامعة الأزهر) لتتولى التعليم العالى فى الأزهر ، وتعمل على احياء التراث العلمى والفكرى والروحى للشعوب الاسلامية والعربية ، واعداد العلماء الذين يجمعون بين الدراسات الدينية وبين الخبرة العلمية والعملية حتى يشاركوا فى الانتاج والنهضة الحديثة . وأصبحت جامعة الأزهر تضم كليات

جديدة إلى جانب الكليات التي تهتم بالدراسات الاسلامية والعربية ، مثل كلية المعاملات والادارة ، وكلية الهندسة والصناعات ، وكلية الزراعة ، وكلية الطب كما عملت حكومة الثورة أن تنال الفتاة نصيبها من الدراسات الاسلامية والعربية، فأنشأت كلية البنات الاسلامية لتخريج الفتاة المسلمة الحديثة ، والمرأة هي نصف المجتمع .

واعتمت حكومة الثورة بالمعاهد الأزهرية ، ونصت المادة ٨٥ من قانون تطوير الأزهر على مهمة هذه المعاهد ، فنصت على أن الغرض منها هي : « تزويد تلاميذها بالقدر الكافي من الثقافة الاسلامية وإلى جانبها المعارف والخبرات التي يتزود بها نظراؤها في المدارس الأخرى المماثلة ، ليخرجوا إلى الحياة مزودين بوسائلها واعدادهم الاعداد الكامل للدخول في كليات جامعات الأزهر ولتهيء للمواطنين جميعا فرص متكافئة في مجال العمل والانتاج ، كما تهيأ لهم فرص متكافئة للدخول في كليات الجامعات الأخرى في الجمهورية العربية المتحدة وسائر الكليات ومعاهد التعليم العالي » .

واختفى نظام الأروقة القديم ، حين كان طلبة الأزهر يسكنون الأروقة المحيطة بصحن الجامع ، ولكل فئة منهم رواق خاص بهم له شيخه وجرايته . وأقامت حكومة الثورة مدينة ناصر للبعوث الاسلامية (في ١٥ سبتمبر ١٩٥٩) يسكنها طلبة الأزهر من قارتي افريقيا وآسيا وتتسع لأكثر من خمسة آلاف طالب ، ووفرت لهم الحكومة فيها كل وسائل الراحة والدعاية الصحية والاجتماعية حتى يتفرغوا لطلب العلم في كليات ومعاهد الأزهر المختلفة .

قطاف الكفاح

هذه هى مراحل كفاح شعب مصر فى الحقيقة الأخيرة من تاريخها سردناه بإيجاز شديد وعنينا باظهار ملاحم البطولة وصور الكفاح — ذكرى لشهدائنا الذين سقطوا خلال المعارك التى خاضوها ، فهل ذهبت أرواحهم سدى ؟ ؟ لا لم تذهب أرواح الشهداء الذين سقطوا أثناء كفاحهم الطويل سدى فقد رووا بدمائهم الزكية الطاهرة شجرة الحرية منذ كانت نبتا كامنا تحت الثرى .

وظلوا يتعهدونها حتى نمت وترعرعت وآتت أكلها ودنت قطافها فاذا هى خير قد عم الوادى من أدناه إلى أقصاه حتى فاض على ماجاوره من بلدان . فارتوى بعد أن طال عليه الظمأ واخضرت أوراقه بعد يبوس وأينعت ثماره وفاح أريج وروده . وأسدل ستار كثيف على السنين العجاف الطويلة الماضية بأوزارها وسيئاتها ، واستقبل الجيل الجديد عهد آخر كله نور وعدل وخير ، لم تعرفه الأجيال الماضية ، ولم يكن لها به عهد لأنها لم تحي فيه أو تتذوقه . فاستقام ظهر الفلاح بعد أن تحطمت الأغلال والأصفاد التى كانت تكبله ، وتنسم الحرية لأول مرة فى حياته الطويلة المليئة بالذل والاضطهاد والعبودية .

وتفيأ العامل الظلال الوارفة التى هيأتها له معارك النضال وجنت ثمرة سواعده التى شرعت تساهم فى البناء والعمران . واستثمرت الطوائف الأخرى من الطبقات الكادحة بالمساعى المتواصلة التى تبذل من أجلها فى سبيل الوصول بها إلى حياة أفضل ، وأينما تلفتنا نرى من حولنا وفى كل مكان معانى الخدمة العامة وقد شيدت لتخدم وتعالج وتعلم ، ودخلت مناحى وقرى لم تدخلها من قبل .

وسارت عجلة التقدم فى سرعة مذهلة وشاركت الصناعة والزراعة وسارا جنبا إلى جنب وأصبح الآنة المقام المرموق والقدح المعلى .

وخرج المستعمر الغاصب من بلادنا مدحورا مهزوما بعد سنوات سود من

الذل والعبودية . وعادت إلى الوطن قطعة عزيزة عليه — فاستردنا القناه بعد أن ظلت مايقرب من قرن من الزمان تدار وتحكم وتستغل بأيد أجنبية وأمام أعيننا

وأقام الانسان المصرى أعظم بناء فى العصر الحديث فشيد السد العملاق حاملا لنا الرخاء من جنباته والنور والعمران من آلاته ، وخرجت من مصر مبادىء جديدة سامية تدعو إلى المساواة والاخاء والحياد ، وتقاوم الاستغلال والاستعمار والحروب . وأصبحت القومية العربية حقيقة واقعة لامراء فيها ، وانطوى تحت لوائها تسعون مليونا من العرب وأصبحت قوة مرهوبة الجانب لها كيانها واعتبارها فى العالم أجمع بما فيه من تيارات متضاربة وأهواء متعارضة وأثمر الكفاح الشعبى ، الذى حمل لواءه أخيرا وطنى قل أن تجود به بلد من البلاد وسار به فى الطريق السليم القويم بثبات وعزم وايمان . متخطيا كل العقبات متجاوزا العوائق والسدود حتى أوصلنا إلى بر الأمان والسلام .

ذلكم هو البطل

جمال عبد الناصر

قمة الكفاح الشعبى وذروته ومنشىء الجمهورية العربية الحديثة .

الفهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة	٥

الباب الأول

كفاح الشعب المصرى الأطماع الفرنسية والانجليزية فى مطالع القرن ١٩	٧
الكفاح الشعبي الحملة الفرنسية	٩
الشعب المصرى يكافح استبداد محمد على	٢١
الكفاح الشعبي للانجليز فى رشيد	٢٧

الباب الثانى

الشعب والجيش فى الثورة العرابية	٣٧
أسس الثورة	٣٩
الجيش أمل الشعب	٤٦
الشعب والجيش يواجهان الاحتلال	٥٧

الباب الثالث

الشعب المصرى يكافح الاحتلال البريطانى	٦٣
الاحتلال لم يطفىء شعلة الثورة	٦٥
صور من الكفاح الشعبي للاحتلال	٧٢
ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩	٧٩

الباب الرابع

الشعب يكافح الانجليز وأسرة محمد على	٩٩
استقلال زائف	١٠١

هذه السلسلة

تعد الثورة المصرية التى تفجرت فى ٢٥ يناير ٢٠١١ موجة جديدة ورائعة من موجات ثوراتنا الوطنية من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الإجتماعية، ولما كان تاريخنا الوطنى الحديث والمعاصر قد مر بثورات وطنية ضد النفوذ الأجنبى والاستعمار والاستغلال والاستبداد، فقد أرادت دار الكتب والوثائق القومية أن تقدم هذه الإصدارات - غير الدورية - التى تعالج قضايا النهضة والثورة والحرية والعدالة، سواء عن مصر أو غيرها من تجارب الأمم الأخرى، خاصة ونحن على أعتاب مرحلة جديدة من تاريخنا الوطنى، لتخاطب بها عقول الشباب وعامة المثقفين، ولتصلهم بتراث الفكر المصرى الحديث والمعاصر، والتراث العالمى على حد سواء.

ودار الكتب إذ تحيى ثورة الشباب
تقدم بهذه الإصدارات - بسعر رمزى
ومعرفيا يذكى معارك النهضة والتحر
لنبنى معا مصر جديدة وطنا للحرية وا
كما كانت عبر تاريخها المجيد



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة